تشارلز ديكنز

مكتبة ٩٦٨

ديفيد كوبرفيلد



الجزء الثالث

رواية





ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ديفيد كوبرفيلد

تشارلز ديكنز



- المؤلف: تشارلز ديكنز
- العنوان: ديفيد كوبرفيلد- الجزء الثالث
- ترجمة: زينب محمد عبد الحميد
- طبعة آفاق الأولى 2022
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ





رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٢٦٩

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 332 - 9

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO - EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

رواية

ترجمة

زينب محمد عبد الحميد

الجزء الثالث

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : ديفيد كوبرفيلد - الجزء الثالث

ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 29269 / 2021

الترقيم الدولي 9 - 332 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ديكنز، تشارلز



الفصل الواحد والأربعون

عمتا دورا

جاء الرد أخيرًا، بإجابة السيدتين العجوزتين. لقد وجهتا تحياتهما إلى السيد كوبرفيلد، وأبلغتاه أنهما أولتا رسالته أجل التقدير والاحترام، وقالتا إنهما فعلتا ذلك «من أجل سعادة الطرفين كليهما» - وقد حسبت هذا التعبير مثيرًا للقلق، ليس بسبب استخدامهما له للإشارة إلى الاختلاف الأسري سالف الذكر، بل لأنني لاحظت -على مدار حياتي- أن العبارات التقليدية ليست سوى ألعاب نارية، يمكنها أن تتشكل عبر مجموعة متنوعة لا تحصى من أشكال التعبير وألوانه عبر الصيغ التقليدية ذاتها. استأذنت الآنستان سبنلو في الامتناع عن كتابة رأيهما «في المراسلات» حول أي موضوع يخص السيد كوبرفيلد. أما إذا تسنى للسيد كوبرفيلد أن يقدم إليهما معروفًا بالتواصل في يوم معين -إذا ناسبه الأمر- عن طريق صديق سري، فستكونا سعيدتين لتبادل بعض الأحاديث التي تخص هذا الموضوع.

أجاب السيد كوبرفيلد على الفور بوافر تحياته واحترامه واستجاب لهذا الطلب. بادر بأنه يشرفه انتظار كل من السيدتين سبنلو في الوقت المتفق عليه، ليرافقه، بعد إذنهما الكريم، صديقه السيد تومي ترادلز من حي المحامين. ما إن تبعث رسالة، حتى تنتاب السيد كوبرفيلد حالة من الهياج العصبي الحاد، فتتملكه حتى يومه التالي وهكذا.

كان ما أثقل همي، في خضم هذه الأزمة الحافلة بالأحداث، هو فقدي للخدمات التي لا تقدر بثمن من الآنسة ميلز. أما السيد ميلز، فقد كان دائمًا ما يختلق أمرًا أو آخر لإزعاجي - أو هكذا أحسست من تصرفاته، وأحس هو الأمر ذاته - وقد تمادى في سلوكه إلى ذروته، حتى إنه فكر في السفر إلى الهند. لماذا قد يسافر إلى الهند إلا لمضايقتي؟ سيتأكد من أنه لا فائدة منه في أي جزء آخر من العالم، لكنه سيجيد التعايش في هذه البقعة، حيث التجارة في الهند على اتساعها. ومهما يكن من أمر فإنني كنت أحلم بشلالات الهند المترقرقة وأنياب الأفيال. لقد سافر إلى كلكتا في شبابه، وها هو يعتزم الآن السفر إليها مرة أخرى، كمستثمر مقيم بها. لم يشغلني هذا الأمر مطلقًا. أما هو فقد اعتبر سفره إلى الهند مع جوليا حدثًا جللًا. لقد سافرت جوليا وتركت البلاد وودعت علاقاتها كلها. صار المنزل معروضًا للمقايضة أمام رزمة كاملة من الفواتير، ليعلن عن إمكانية تأجيره أو بيعه، أما الأثاث المهشم وغيره فلم يتيسر التخلص منه. ها هو زلزال آخر يرجرجني قبل أن أتعافى من صدمتي المنصرمة.

تشتت ذهني وانشغلت بالتفكير في ملبسي في هذا اليوم المهم، بل صرت منقسمًا بين رغبتي في الظهور بهيئة مميزة، ورهبتي من ارتداء شيء قد يضعف شخصيتي العملية في أعين السيدتين سبنلو. سعيت للوصول إلى مظهر حيادي مُرضٍ بين هذا وذاك، وقد ارتضت عمتي اختياراتي ونتائجها. ألقى سيد دك بحذائه وراءنا بعد رحيلي أنا وترادلز، متمنيًا لنا حظًّا سعيدًا، ثم شققنا طريقنا نحو الطابق السفلي.

كان ترادلز رفيقًا ممتازًا، كما توقعت، وقد صارت تربطني به مودة اعتدتها، لم يسعني إلا أن أرجو - بعد هذه المناسبة الخاصة - ألا يتراجع أبدًا عن عادة تمشيط شعره بهذه الصورة المرتبة. لقد منحه مظهرًا مدهشًا - لا أقول إنه تجلى مفعمًا بالقداسة - بل أخفيت هواجسي هامسًا أنه قد صار فاتنًا أمامنا.

سمحت لنفسي بإفشاء سريرتي إلى ترادلز، بينما كنا نسير إلى بوتني، فلعل كلامي يخفف من حدة الأمر قليلًا.

قال ترادلز وهو يرفع قبعته ويفرك شعره بمختلف الطرق: «يا عزيزي كوبرفيلد، لن يمتعني شيء أكثر من تصورك هذا. لكنني لن أبقي على شعري بهذه الطريقة».

قلت: «هل يثنيني فعلك عن رأيي؟».

قال ترادلز: «لا، لا يغير شيء من رأيك. وإن كنت سأضاعف من هواجسك مرة ونصف، على طول طريقنا إلى بوتني، فستتخفف من أحمالها الثقال مرة أخرى في اللحظة التي تخفف فيها من أسبابها. إنك

لا تعرف مدى خشونة شعري يا كوبرفيلد. إنه أقرب ما يكون إلى القنفذ حين ينزعج فينتصب شوكه».

أعترف أنني شعرت بنوع من خيبة الأمل، لكنني كنت مفتونًا بروحه الطيبة، فأخبرته أنني أقدرها. أجابني بأن شعره قد أزال عنه كل العناد من شخصيته، إذ لم يعد يراوده هذا الشعور.

عاود ترادلز الضحك قائلًا: «آهٍ، أؤكد لك أنني خضت قصة قديمة بسبب شَعري المُخزي، إذ لم تستطع زوجة عمي تحمله. قالت إنه يثير غضبها، فراحت تعترض سبيلي مرات، بعد أن وقعت في حب صوفي لأول مرة. عارضتني كثيرًا جدًّا».

«هل اعترضت عليك بسبب شعرك؟».

أجاب ترادلز قائلًا: «لا لم تعارضني بنفسها، لكن أختها الكبرى - تلك الجميلة - راحت تسخر من شعري، وراحت كما تعرف تتندر به في كامل حديثها. وبالفعل، كانت الأخوات يضحكن عليه».

قلت: «فهمت».

أكمل ترادلز حديثه ببراءة خالصة فقال: «نعم، إنها مجرد مزحة بالنسبة لنا. يتصورون أن صوفي لديها قفل في مكتبها، وأنها مضطرة إلى حفظه داخل كتاب مغلف لإبقائه مغلقًا[1]. أما نحن فتُضحكنا تلك الأحاديث».

---

(١) اعتقاد شعبي بأن قفلاً مغلقًا قادر على حفظ المحبة بين حبيبين.

قلت في نبرة متوترة: «بالمناسبة يا عزيزي ترادلز، قد تفيدني تجربتك إذ ما ارتبطت بالسيدة الشابة التي ذكرتها للتوِّ. هل تقدمت لخطبتها من عائلتها؟ أم هل مررت بأي شيء مشابه لما نمر به اليوم، على سبيل المثال؟».

أجاب ترادلز بعد أن توارى وجهه في ظل: «حسنًا، لقد كان الاتفاق معي قاسيًا يا كوبرفيلد. فكما تعرف، كانت صوفي ذات نفع كبير لعائلتها، ولم يستطع أي منهم تحمل فكرة زواجها. لقد اتفقوا فيما بينهم بالفعل على أنها لن تتزوج أبدًا، ثم أطلقوا عليها اسم الخادمة العجوز. فما إن بحت بطلب الزواج، بأقصى درجات الحذر، إلى السيدة كرولر حتى...».

سألته: «أتقصد الأم؟».

قال ترادلز: «نعم إنها الأم، وتدعى ريفيريند هوراس كرولر. فما إن بحت بطلب الزواج، بأقصى درجات الحذر الممكنة، إلى السيدة كرولر حتى اهتاجت وصرخت في نوبة من جنون. لم أتمكن بعدها من الحديث عن الأمر مرة أخرى، ولعدة أشهر».

سألته: «هل أقدمت على طلبك في آخر المطاف؟».

قال ترادلز: «حسنًا، لقد أصلح ريفيريند هوراس الأمر. إنه رجل ممتاز، مثالي في كل شيء، فقد أوضح لها أنه يجب عليها -كمسيحية- أن تتصالح مع الذبيحة[1]، خاصة أن الأمر لم يحسم بعد. كما نصحها

---

(١) يقصد التصالح مع القدر، والذبيحة هنا هو المسيح وفقًا للمفاهيم المسيحية.

بألا تكُنّ أي شعور سيئ وغير مبرر تجاهي. أما أنا يا كوبرفيلد، فأعدك بأنني سأقنص الفرصة للتقرب إلى هذه العائلة».

قلت: «هل يصح ظني يا ترادلز بأن تكون الأخوات قد وقفن إلى جانبك؟».

أردف قائلًا: «لماذا قد يقفن بجانبي، لا أستطيع أن أجزم أنهن فعلن ذلك. لقد تصالحنا مع السيدة كرولر، وكان علينا أن نتهادن لمدة من أجل سارة. هل تتذكر ما قلته لك عن سارة، تلك التي تعاني شيئًا في عمودها الفقري؟».

«أتذكرها تمامًا».

تحدث ترادلز بينما ينظر إليَّ في فزع قائلًا: «لقد تصلبت يديها، وأغمضت عينيها، وتحول لونها إلى الرمادي. تصلب جسدها تمامًا ثم لم تتناول شيئًا ليومين سوى الخبز المحمص كما راحت تشرب الماء بملعقة شاي».

قلت له: «يا لها من فتاة بشعة يا ترادلز!».

قال ترادلز: «آهٍ، أستميحك عذرًا يا كوبرفيلد، إنها فتاة فاتنة للغاية، لكنها تتمتع بقدر كبير من المشاعر. حسنًا في الواقع، كلهن يملكن هذا القدر الكبير نفسه. أخبرتني صوفي بعد ذلك، أنها لم تستطع وصف شعورها القاتل بالذنب وتأنيب الذات حين واجهت نفسها بما حدث لسارة. أعلم يا كوبرفيلد أنه كان عليَّ أن أُكبِّل مشاعري، بعد أن تحولت إلى اتهام. لقد استعادت سارة صحتها، إلا أنه كان علينا التريث لثمانية

أيام أخر، بعد أن راودتهم مشاعر متباينة، دفعتهم إلى الشفقة عليها بعد ما حدث لها. أما الصغيران اللذان تشرف صوفي على تعليمهما، فقد انتهيا للتوِّ من اختبارات الملحق».

قلت: «أرجو على أي حال أن يكون الجميع قد تصالح معها الآن، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز متشككًا: «بلى، أقول إنهم رضخوا لها بشكل عام. إننا في حقيقة الأمر نتجنب ذكر الحديث عن هذا الموضوع، كما أن ظنوني وما أظهره من لا مبالاة فتمثل لهم عزاء كبيرًا. سيصير المشهد مؤسفًا إن تزوجنا، إذ سيكون أشبه بجنازة لا حفل زفاف. وسيكرهني الجميع لأنني سأنأى بها بعيدًا».

كانت تعبيرات وجهه صادقة فيما يقول، بينما راح يهز رأسه المضحك في مشهد هزلي. إن ذكرى هذا المشهد تثير إعجابي أكثر مما كانت عليه في الواقع، لأنني كنت في ذاك الوقت في حالة خوف عارم كما كنت شارد الذهن. لم أكن في حالة تسمح بأن أولي انتباهي الكامل لأي شيء حولي. اقتربت من المنزل الذي تعيش فيه السيدة سبنلو، بينما يراودني صراع يتعلق بمظهري واستحضار تركيزي، فما كان من ترادلز إلا أن قدم لي منبهًا لطيفًا متمثلًا في كوب من البيرة. انتهى هذا الفاصل الذي قضيته في استراحة عامة مجاورة، ثم اصطحبني ترادلز في خطوات مترنحة إلى باب السيدة سبنلو.

كان إحساسي بنفسي مشوشًا، هكذا أحسست وقتها على نحو ما، بعدما فتحت الخادمة الباب أمامي. كنت مذبذبًا بطريقة ما. عبرت

قاعة ما أبصرت بها زجاجة الطقس[1]، لأصل إلى غرفة استقبال صغيرة هادئة في الطابق الأرضي، تشرف على حديقة أنيقة. اتخذت مقعدي من الأريكة وقد مكنني موقعي من رؤية شعر ترادلز، وها قد ظهر أمامي بعد أن أزال قبعته في هذه اللحظة، ليبدو مثل ذرات صغيرة مشتتة ومبعثرة، تشبه ما يتطاير من صناديق السعوط بعد نزع الغطاء. تناهت إلى أذني كذلك دقات ساعة من طراز قديم. كانت تدق بعيدًا فوق المدخنة، كما لو أنها تحاول أن تحافظ بدقاتها على نبضات قلبي، على الرغم من أنها لم تستطع متابعتها. حاولت أيضًا أن أبحث في محيط الغرفة عن أي شيء يخص دورا، لكني لم أعثر على أي منها. راودني هاجس في ذلك الوقت من أنني قد سمعت جيب ينبح من بعيد، بينما خنق صوته إنسان ما على الفور. أستفيق لأجد نفسي في النهاية أقف خلف ترادلز في مقابل المدفأة، بينما انحنى في ارتباك كبير أمام سيدتين ضئيلتين كبيرتين في السن، ترتديان ملابس سوداء. ظهرت كل منهما في مظهر عجيب كما لو أنهما هياكل عظمية مكسوة بالجلد أو كأنهما بُعثتا بعد أن رافقتا السيد سبنلو الراحل في مثواه الأخير.

قالت إحدى المرأتين الضئيلتين: «تفضلا، اجلسا».

تعثرت بترادلز، فإذا بي أنهار جالسًا على مقعد في مكان غير مميز على عكس موقعي من مقعدي الأول. وكنت قد استعدت قدرتي على تدقيق النظر في تلك اللحظة، فأدركت ساعتها أنه من الواضح أن السيد

---

(١) زجاجة الطقس: أداة من زجاج شفاف محكم الغلق، تحوي سائلاً خاصًا. تكشف حالة التبلور داخل السائل حالة الطقس.

سبنلو كان أصغر أفراد العائلة، وأن ثمة تفاوتًا بين الأختين يتجاوز ست أو ثماني سنوات. لاحت الصغرى كما لو أنها مديرة الجلسة، حيث حملت رسالتي في يدها -كم بدت لي في صورة مألوفة جدًّا، وغريبة جدًّا في الوقت ذاته!- وظلت تتفحصها بنظارتها تمحيصًا. كانتا ترتديان ملابس متشابهة، إلا أن الأخت الصغرى كانت قد ارتدت ثوبها على نحو يبديها أكثر شبابًا؛ ربما لأن ملبسها كان قد حمل نوعًا من الزركشة البسيطة، أو ثنية في تفصيلاتها، أو سوار، أو شيء صغير من هذا النوع من الزينة، مما جعلها تبدو أكثر حيوية وشبابًا. بدت كلتاهما مستقيمتي الهيئة، رسميتين ودقيقتين، عاقلتين وهادئتين. أما الأخت التي لم تحمل رسالتي، فقد شبكت ذراعيها فوق صدرها، فاستراحت كل منهما على الأخرى، كما لو أنهما عاشقان.

تحدثت الأخت التي تلقت رسالتي، موجهة خطابها إلى ترادلز قائلة:

«يا سيد كوبرفيلد، أتصور أن...».

كان هذا الاستهلال مخيفًا. وكان على ترادلز الإشارة إلى أنني السيد كوبرفيلد، وكان عليَّ التعريف بنفسي، لتتخلصا مما ظنتاه سابقًا من أن ترادلز هو السيد كوبرفيلد، لنصير بعد ذلك في وضع ملائم تمامًا وصحيح. تطور الموقف، بعد أن سمعنا جميعًا بوضوح نباح جيب المتقطع والذي واصله بمقطوعة أخرى من نباح آخر طويل.

قالت الأخت التي تحمل الرسالة: «يا سيد كوبرفيلد».

أقدمت على فعل شيء هذه المرة. أظن أنني انحنيت. كان الجميع بكامل انتباههم، حين تدخلت الأخت الأخرى في الحديث قائلة:

«إن أختي لافينيا على دراية بمثل هذا النوع من الأمور، وستدلي بما نعتبره منصفًا لتحقيق سعادة الطرفين».

اكتشفت بعد ذلك أن السيدة لافينيا كانت المسؤولة عن شؤون القلب، وذلك بسبب وجود السيد بيدجر في حياتها الماضية، والذي لعب دورًا قصيرًا في حياتها. كان من المفترض أنه متيم بها. أما أنا فقد أبقيت على رأيي سرًّا إذ أحسست أن هذه المسألة محض افتراء ولا صحة لهذه القصة تمامًا، وأن بيدجر كان بريئًا كلية من هذه المشاعر، إذ لم يسبق له أن أبدى أي إشارات أو تلميحات أعرفها ليعبر عن إعجابه بها. أما السيدة لافينيا والسيدة كلاريسا فقد احتفظتا بخرافة مفادها أنه كان على وشك إعلان شغفه بها، لولا أن شبابه لم يسعفه - كان بعمر الستين تقريبًا - بعد أن تجرع من الشراب ما فاق احتماله، فتخبط ذات مرة في محاولة لاستعادة وعيه عبثًا، بعد أن شرب ماء المرحاض. ظنتا كل الظن أنه مات ملتاعًا بحبه الخفي، ولذلك فإن عليَّ أن أذكر صورته المعلقة في المنزل ذات الأنف الدمشقي، والتي تظهر أنه لم يحاول إخفاء حدتها.

قالت السيدة لافينيا: «لن نتطرق إلى تاريخ منصرم حول هذه المسألة. لقد ألغى موت أخينا المسكين فرانسيس هذه الفرصة».

تحدثت السيدة كلاريسا فقالت: «لم نعتد التواصل مع أخينا فرانسيس باستمرار، ولكن لم يكن ثمة انقسام أو انفصال محقق بيننا.

شق فرانسيس طريقه المحتوم، وكذلك فعلنا. حسبنا أن الأجدر بجميع الأطراف أن يسير كل منا في دربه. وكان هذا ما فعلناه».

كانت كل واحدة من الأختين تنحني قليلًا إلى الأمام حين تتحدث، وتهز رأسها بعد أن تنهي جملتها، ثم تستقيم مرة أخرى في سكون. أما السيدة كلاريسا فلم تحرك ذراعيها، بل راحت تحرك أناملها في بعض الأوقات كما لو أنها تعزف ألحانًا -في دقائق وأوزان يجب أن أفكر في جدواها- لكنها لم تزحزح يديها قَطُّ.

قالت السيدة لافينيا: «لقد تغير موقف ابنة أخينا، أو نفترض أن موقفها قد تغير بوفاة شقيقنا فرانسيس. وبالتالي فإننا نحسب أن آراء أخينا في موقفها قد تغيرت بدورها أيضًا. ليس لدينا أدنى شك يا سيد كوبرفيلد في أنك رجل نبيل، يتمتع بصفات حميدة وروح شريفة، أو أنك تكُن عاطفة -أو هكذا نظن تمامًا أنك تكُنّ عاطفة- لابنة أخينا».

أجبتها - كما كنت أفعل عادة كلما سنحت لي الفرصة - بأن حبي لدورا لا يضاهي أي حب سواه. فأقبل ترادلز على مساعدتي بتنهيدة تأكيدية مؤمنًا على قولي.

استمرت السيدة لافينيا في طرح بعض التصورات. ثم تحدثت بعدها السيدة كلاريسا مرة أخرى، وقد بدا أنها تقاوم رغبة في الإشارة إلى شقيقها فرانسيس باستمرار، فقالت:

«لو أن والدة دورا صرحت بعد زواجها من شقيقنا فرانسيس على الفور بأن مائدة العشاء لم تعد تتسع لأفراد العائلة جميعهم، لكان ذلك أفضل لإسعاد جميع الأطراف».

قالت السيدة لافينيا: «أختي كلاريسا، لا داعي لأن نلتفت إلى مثل هذه الأحاديث الآن».

أجابتها السيدة كلاريسا: «أختي لافينيا، إنه لأمر يتعلق بالموضوع ذاته، بل هو فرع أصيل من الموضوع، ولستِ وحدكِ المؤهلة للتحدث فيه. ألا ينبغي أن أفكر في التدخل في الأمر؟! إنني أكن رأيًا في هذا الفرع من المسألة تحديدًا. كان من الأفضل لسعادة جميع الأطراف، لو أن والدة دورا صرحت عن نياتها بوضوح بعدما تزوجت من شقيقنا فرانسيس. ألم يكن علينا أن نفكر فيما سيحدث في المستقبل! كان علينا أن نقول: «من فضلكم لا تهجرونا أبدًا»، ومن ثَم نتجنب كل احتمالات سوء الفهم».

هزت السيدة كلاريسا رأسها، فاستأنفت السيدة لافينيا دورها وإذا بها تتفحص رسالتي مرة أخرى عبر نظارتها. كانتا ذات أعين دائرية صغيرة متلألئة، كما كانت أعينهن تشبه أعين الطيور. لم تكونا كالطيور إجمالًا، لكنهما امتلكتا طريقة حادة وسريعة ومفاجئة وخاطفة لاستعادة أنفسهما، مثل الكناري.

استأنفت السيدة لافينيا دورها كما أوضحت سابقًا فقالت:

«أتطلب الإذن مني ومن أختي كلاريسا، يا سيد كوبرفيلد، للزيارة هنا بصفتك الخاطب المقبول لابنة أخينا».

تحدثت السيدة كلاريسا، وهي تستعيد دورها مرة أخرى -إن كان من الممكن أن أصف ما حدث باستعادة الدور- فقالت: «إذا كان شقيقنا فرانسيس قد تملكته رغبة في أن يحيط نفسه بهالة من أعضاء مجلس

العموم والمحامين فقط، فما الهدف المأمول من هذه الرغبة؟ هل كان علينا رفض انفصالنا عن أخينا؟ لا، إنني واثقة من أنه لم يكن ليفعل ذلك. لقد كنا بعيدتين عن التطلع أو التطفل أو فرض أنفسنا على أي إنسان. لكن لماذا لم نقل ذلك؟ فليكن، لأننا ارتأينا أنه من الصواب أن نترك أخينا فرانسيس وزوجته في مجتمعهما الخاص. وفضلنا أنا وأختي لافينيا أن نبحث عن عالمنا الخاص، آملتين أن نجد طريقنا بأنفسنا كذلك».

بدا أن هذه الأقاويل موجهة إليَّ وإلى ترادلز، لذلك قمنا بإبداء نوع من الرد. كان رد ترادلز غير مسموع. أظن أنني لاحظت وحدي إجابته، وإن ظل محلًّا لتقدير جميع المعنيين بالأمر. أما أنا فلا أعرف على الأقل ما قصدته حين أجبت بالموافقة على كلامهما.

قالت السيدة كلاريسا، بعد أن أراحت ذهنها وأفضت بما فيه: «أختي لافينيا، يمكنكِ مواصلة حديثكِ يا عزيزتي».

شرعت السيدة لافينيا تقول:

«يا سيد كوبرفيلد، كنا أنا وأختي كلاريسا حريصتين جدًّا ونحن نفكر في فحوى هذه الرسالة، ولم نفكر في الأمر من دون أن نعرضه على ابنة أخينا في نهاية المطاف، ومناقشة الأمر معها. ليس لدينا أدنى شك في أنك حسن الظن في إعجابك الجم بها».

بدا عليَّ الحماس فرحت أقول: «آه، أظن يا سيدتي...».

لكن السيدة كلاريسا كانت قد رمقتني بنظرة خاطفة، تشبه تمامًا

نظرة الكناري الحادة، تطالبني فيها بعدم مقاطعة هذا الوحي المسترسل، فطلبت العفو منهما.

استأنفت السيدة لافينيا، بينما راحت تلتفت نحو أختها طالبة منها تأييد قولها في إيماءة صغيرة لكل كلمة، قائلة: «إن العاطفة... العاطفة الناضجة، والولاء، والإخلاص، تعد نوعًا من المشاعر التي لا تظهر بسهولة معلنة عن نفسها، بل إنها مثل صوت خفيض متواضع ومتأخر، يكمن في جوهر الأشياء، ينتظر في تأنٍّ وتروٍّ، ويطيل من انتظاره. إنها الثمرة الناضجة، إذ تنساب الحياة وتنزاح بنا بعيدًا أحيانًا، فنجدها لم تزل تنضج في الظل».

لم أفهم حينها بالطبع أن هذا الحديث لم يكن سوى إشارة إلى تجربتها المفترضة المنكوبة مع بيدجر. لكنني لاحظت، من الطريقة الجادة التي أومأت بها السيدة كلاريسا، أن حكمة بالغة تنساب من هذه الكلمات.

تابعت السيدة لافينيا حديثها: «إنها النور - بالنسبة لي هذا ما أطلقه عليها، فأشبه هذه المشاعر بالنور - إنه محرك الشباب، كما أنه ذرات متناثرة كما الغبار، مقارنة بالصخور. يصعب توقع مدى احتمال صاحبه له أو مدى حقيقية هذا الشعور لديه. لم نقرر أنا وأختي كلاريسا كيفية التصرف في ذاك الأمر بعد يا سيد كوبرفيلد ويا سيد...».

قال صديقي وقد وجد الأعين تتجه نحوه: «ترادلز».

سألت السيدة كلاريسا قائلة: «اعذرني. إنك من حي المحامين على ما أظن، أليس كذلك؟»، ثم نظرت إلى رسالتي مرة أخرى.

أجابها ترادلز في حمرة من الخجل قائلًا: «بلى».

لم أكن قد تلقيت حتى هذه اللحظة أي تشجيع صريح، إلا أنني أتصور أن الأختين الضئيلتين، وخاصة السيدة لافينيا، كانتا قد استمتعتا أشد الاستمتاع بهذه المسألة الجديدة والمثمرة لمصلحة العائلة. لقد اتفقتا على تحقيق أقصى استفادة منها، ربما بنوع من التلاعب والتسلية، لكن المهم أنه قد ظهر بصيص من أمل جيد ومشرق. ظننت أن السيدة لافينيا ستشعر بالرضا؛ لأنها لم تألف من قبل الإشراف على عشيقين شابين، مثلي أنا ودورا. وأن السيدة كلاريسا لن تشعر بالقدر نفسه من الرضا لإشرافها علينا. كان تناغم هذا الصدى الذي توقعته سيُكسب المسألة مزيدًا من الاهتمام والقوة. ومن ثَم منحني هذا الموقف قدرًا من الشجاعة لأبرهن أنني أحببت دورا فوق ما أستطيع البوح به، بل أحببتها بما يفوق تخيل أي إنسان. صرحت لهما أن أصدقائي كافة باتوا يعرفون أنني أحببتها، وأن عمتي وأجنيس وترادلز، وكل من عرفني صار يعرف كيف أحببتها، وأي ثمن كلفني حبي لها. ناشدت ترادلز ليساعدني في إتمام حديثي. فإذا ترادلز مشتعلًا كما لو أنه منغمس في نقاش برلماني، وقد لاح لي نبيلًا بحق. أكد ما قلته بعبارات لبقة، وبأسلوب عملي وبحجة واضحة، وكان من الواضح أنه ترك انطباعًا إيجابيًّا عند السيدتين.

قال ترادلز: «إذا افترضنا أن بوسعي التدخل في هذا الأمر، فإنني سأتحدث بصفتي إنسانًا لديه خبرة ولو قليلة في مثل هذه الأمور، لأنني قد خطبت شابة -واحدة من بين عشرات الشابات في ديفونشاير- ولا أرى أي احتمالية في وقتنا الحاضر لإنهاء ارتباطنا».

التفتت إليه السيدة لافينيا في اهتمام فائق وملحوظ قائلة: «ستصير قادرًا على توثيق كلامك وإثباته يا سيد ترادلز، إذ إن العاطفة الناضجة والكامنة تنتظر في تأنٍّ وتروٍّ، وتدعوك للصبر، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز: «بلى، تمامًا يا سيدتي».

نظرت السيدة كلاريسا إلى السيدة لافينيا وأومأت بموافقتها بشدة. ثم التفتت السيدة لافينيا إلى السيدة كلاريسا، وتنهدت لتنبهها إلى شيء. فاستأنفت السيدة كلاريسا كلامها قائلة: «أختي لافينيا، تفضلي زجاجة عطري».

أنعشت السيدة لافينيا نفسها بقطرات من العطر. أخذنا نتفحصها أنا وترادلز باهتمام بالغ في أثناء ذلك، إلى أن شرعت تقول بصوت خفيض:

«انتابتني وأختي ريبة وخشية، يا سيد ترادلز، حول المسار الذي يجب أن نسلكه، إذ هو بالبراهين الواقعية الدالة، أو الميول الخيالية، لمصير شباب مثل صديقك سيد كوبرفيلد وابنة أخينا».

علقت السيدة كلاريسا بقولها: «يا لطفلة شقيقنا فرانسيس المسكينة! لو أن زوجة شقيقنا فرانسيس قد أحست أنه من الصواب أن تقرر في حياتها - على الرغم من أنها محقة بلا أدنى شك في التصرف على النحو الذي تصورته الأفضل - دعوة العائلة لتلتف حول مائدة عشاء واحدة، ربما عرفنا ابنة شقيقنا فرانسيس بصورة أفضل وفهمناها في وقتنا الحالي. هيا أكملي يا أختي لافينيا».

قامت السيدة لافينيا بطي رسالتي، حتى تستطيع أن تسرد تعليقها المدون خلفها. رمقتني عبر نظاراتها، موجِّهة بعض الملاحظات المنظمة التي دونتها على هذا الجزء من الرسالة.

قالت: «يبدو لنا أنه من الحكمة، يا سيد ترادلز، وضع هذه المشاعر في اختبار تحت ملاحظاتنا. إننا لا نعرف شيئًا عنهما في الوقت الحالي، ولسنا في وضع يسمح لنا بالحكم على مدى حقيقة المشاعر بينهما. لذلك نميل حتى هذه اللحظة إلى الموافقة على اقتراح سيد كوبرفيلد، فنقبل زياراته هنا».

صحت، مثلجًا الفؤاد مرتاحًا من ذاك العبء الهائل من الخوف، فقلت: «لن أخذلكما أبدًا يا سيدتي العزيزتين. لا تشغلا بالكما بأي سوء».

تابعت السيدة لافينيا قولها: «لكن... لكننا نفضل اعتبار تلك الزيارات لنا يا سيد ترادلز، كما هي في الوقت الحالي. يجب أن نحمي أنفسنا من الاعتراف المعلن بأي علاقة بين سيد كوبرفيلد وابنة أخينا، حتى تتاح لنا الفرصة...».

قالت السيدة كلاريسا: «حتى تسنح لكِ أنتِ الفرصة يا أختي لافينيا».

وافقت السيدة لافينيا وقالت متحسرة: «وإن يكن من أمر، حتى تسنح لي فرصة ملاحظتهما».

قال ترادلز مشيرًا إليَّ: «يا كوبرفيلد، إنني على يقين من أنك تستشعر بمدى عقلانية الموقف مما يدفعك إلى مراعاته، فلا شيء يضاهي هذا التصرف السليم».

صرخت قائلًا: «لا شيء يضاهيه».

استرسلت السيدة لافينيا في كلامها مشيرة مرة أخرى إلى شروطها قائلة: «إننا سنعتمد على زيارات شبيهة بزيارتنا هذه. ووفقًا لهذا الفهم دون سواه، يجب أن نطلب من السيد كوبرفيلد تأكيدًا واضحًا، عروجًا على شرف كلمته ووعده، بألا يحدث أي تواصل من أي نوع، بينه وابنة أخينا من دون علمنا. كما أننا لن نتغاضى عن أي مشروع مقدم عليه، ما دام يتعلق بابنة أخينا، من دون أن يعرضه علينا أولًا...». قاطعتها السيدة كلاريسا قائلة: «عليكِ يا أختي لافينيا».

رضخت السيدة لافينيا أمام قولها فاستكملت: «أيًّا ما كان من أمر يا كلاريسا! تقدم طلبك لي - حتى يلقى موافقتنا. يجب أن نأخذ هذا الشرط بعين الاعتبار وعلى محمل الجد، ولا يجب تجاوزه مهما يكن من أمر. كما كنا نرجو أن يكون السيد كوبرفيلد برفقة بعض الأصدقاء المقربين اليوم». قالت ذلك وهي تميل برأسها نحو ترادلز، فانحنى بدوره أمامها، ثم أكملت حديثها قائلة: «حتى لا يكون ثمة مجال لشك أو لسوء فهم يتعلق بهذا الأمر. فإذا كان السيد كوبرفيلد، أو إذا كنتَ يا سيد ترادلز، تشعر بقدر ولو ضئيل من القلق حول إبرام هذا الوعد، فإنني أتوسل إليكما أن تأخذا وقتًا في التفكير».

صحت، بينما تغمرني حماسة متقدة، أنه ليس من الضروري انقضاء أي لحظة في التفكير. لقد عاهدت نفسي على الوفاء بالوعد. رحت بأقصى درجات الانفعال قوة، أدعو ترادلز لأن يشهد على قولي، ووصمت نفسي بأقذع السمات إذا ما انحرفت عن وعدي أقل انحراف أو أخلفته.

قالت السيدة لافينيا، وهي لم تزل عاقدة ذراعيها: «تمهل، لقد عقدنا العزم، قبل أن يسعدنا استقبالكما أيها السيدان، أن نترككما لتخلوا نحو ربع الساعة، لأخذ الأمر بعين الاعتبار والتفكير. فلتسمحا لنا بالمغادرة».

كان من العبث أن أصر على أنه لا داعي للتفكير في شيء، بعد أن استأذنتا في الانصراف إلى أجل مسمى. هكذا اتفقت هذه الطيور الخفيفة ذات الهمم الكبيرة على أن تتركاني لأتلقى تهنئة من ترادلز، مما جعلني أشعر أنني أخوض بحارًا من السعادة. عادتا بزهو لا يقل عن زهوهما الأول بعد انقضاء ربع الساعة بالضبط. لقد ذهبتا في خفة كما لو كان ثوباهما الصغيران مصنوعين من أوراق الخريف، ثم عادتا خفيفتين بالطريقة ذاتها.

أقررت بعدها بإلزام نفسي مرة أخرى بالشروط المنصوص عليها.

قالت السيدة لافينيا: «أختي كلاريسا، إنكِ ستتولين ترتيب بقية الأمور».

مدت السيدة كلاريسا ذراعيها لأول مرة، فدونت بعض الملاحظات وتأملتها.

تحدثت السيدة كلاريسا قائلة: «سنكون سعداء باستقبال السيد كوبرفيلد لتناول الغداء كل يوم أحد، إذا ناسب ذلك يوم عطلته. سيكون موعدنا في الساعة الثالثة».

انحنيتُ موافقًا.

قالت السيدة كلاريسا: «أما خلال الأسبوع، فإننا سنسعد باستقبال السيد كوبرفيلد ليحتسي الشاي معنا في السادسة والنصف».

انحنيت مرة أخرى موافقًا.

قالت السيدة كلاريسا: «سنستقبل زيارته مرتين في الأسبوع بصفة دورية وليست متقطعة».

انحنيت موافقًا من جديد.

قالت السيدة كلاريسا: «أما الآنسة تروتوود، التي ذكر اسمها في رسالة السيد كوبرفيلد، فإننا سندعوها لزيارتنا. ستصير الزيارة أفضل وأمتع لإسعاد جميع الأطراف، كما يسرنا استقبالكم وتكرار زياراتكم لنا. فإننا لسنا كغيرنا ممن لا يحبون تبادل الزيارات، (كما كانت الحال عند شقيقنا فرانسيس وعائلته) إننا مختلفتان عنهم تمامًا».

قلت إن عمتي ستسعد بأن تنال شرف معرفتهما، على الرغم من أنني يجب أن أقر بأنني لم أكن متأكدًا تمامًا من تواؤم هذه الأطراف معًا بصورة مرضية. ما إن صار اللقاء على وشك الانتهاء حتى أعربت عن تقديري لهما بنوع من التودد. تناولت يد السيدة كلاريسا أولًا، ثم السيدة لافينيا، ولثمت بشفتي كل منهما على حدة.

قامت السيدة لافينيا بعدها فاستأذنت من السيد ترادلز حتى تغيب دقيقة، ثم طلبت مني أن أتبعها. أطعتها مرتجفًا وتبعتها إلى أن دخلنا إلى غرفة أخرى. التقيت فيها بحبيبتي المباركة، فقد وجدتها تستند بأذنيها

خلف الباب، ووجهها الصغير المحبب يستند إلى الحائط. أما جيب فكان جسده داخل المدفأة ورأسه مقيدًا بمنشفة.

آهٍ، كم كانت جميلة في ثوبها الأسود، وكم أخذت تنتحب وتبكي في بداية الأمر من دون أن تصدر صوتًا من وراء الباب! كيف توطد يقيننا بأنَّا مغرمان. خرجت إليَّ أخيرًا، ويا له من نعيم استشعرته بعدما أخرجنا جيب من المدفأة، وأعدناه إلى النور، بينما راح يعطس مرارًا، وتم لم شمل ثلاثتنا.

قلت «يا عزيزتي دورا، أما الآن، فلم يعد حبنا محض خيال. إنكِ لي إلى الأبد».

ناشدتني دورا قائلة: «آهٍ، لا تفعل، أرجوك».

قلت: «ألستِ ملكي إلى الأبد يا دورا؟».

صرخت دورا: «آه نعم، بالطبع أنا لك، لكنني خائفة جدًّا».

«أخائفة يا مليكتي؟».

أجابت دورا: «نعم بالتأكيد، إنني لا أحبه. لماذا لا يذهب؟».

«مَن يا حياتي؟».

قالت دورا: «أقصد صديقك. إن أمرنا لا يعنيه بالتأكيد، يا له من غبي».

لم تظهر أي شيء مثيرًا للإقناع سوى طريقتها الطفولية. قلت: «يا حبيبتي، إنه أفضل مخلوق».

بدت دورا مصدومة، فقالت: «آهٍ، لكننا لا نريد أي مخلوقات فاضلة».

قلت: «يا عزيزتي، ستعرفينه جيدًا في أقرب وقت، وستحبين مسلكه. كما ستأتي عمتي قريبًا، وستحبينها أيضًا كبقية الأشياء الجميلة التي تحبينها بعدما تعرفينها».

أجابتني دورا، وهي تقبلني قبلة صغيرة مرتاعة، بعد أن حاوطتني يداها فقالت: «لا، من فضلك لا تحضرها، لا تفعل. أعلم أنها شقية وتصطنع الأذى والفساد منذ القدم، لا تدعها تأتي إلى هنا، يا دودي»، كان مناداتها لي بدودي تدليلًا وملاطفة لاسم ديفيد.

صار المنطق هنا بلا فائدة، لذلك ضحكت وأظهرت قبولي لكلامها، فقد كنت في حالة حب وسعادة جمة. عرضت عليَّ بعدها مهارة جيب الجديدة، وقدرته على الوقوف على رجليه الخلفيتين في الزاوية -وهو ما فعله للحظة كوميض البرق، ثم سقط بعدها أرضًا- ولا أعرف كم مضى من وقت هناك، مكثت فيه غافلًا عن ترادلز؛ إذ إن السيدة لافينيا لم تأتِ لترجعني إليهم ثانية. كانت السيدة لافينيا مفتونة بدورا للغاية. أخبرتني أن دورا كانت تشبهها تمامًا عندما كانت في عمرها، ولا بد أنها استحسنت وجودها معها، فعاملتْ دورا كما لو أنها لعبة. حاولت إقناع دورا بالدخول لرؤية ترادلز، ولكنني ما إن اقترحت الأمر عليها، حتى هرولت إلى غرفتها وحبست نفسها بالداخل. عدت إلى ترادلز من دونها، ثم مشيت معه حيث الهواء الطلق.

قال ترادلز: «يا له من شعور بالرضا لا يضاهى. إنهن سيدات

كبيرات في السن لطيفات، إنني متأكد من كرمهن. لن أندهش مطلقًا لو أنك أتممت زواجك قبلي يا كوبرفيلد».

سألته بينما أحس زهوًا يملأ قلبي: «هل تتقن صوفي العزف على آلة موسيقية يا ترادلز؟».

أجاب ترادلز: «إنها تعرف ما يكفي من العزف على البيانو فتعلم إخوتها الصغار».

سألته: «هل تتقن أي نوع من الغناء؟».

قال ترادلز: «حسنًا، إنها تغني بعض الأشعار أحيانًا، لتبث في أرواح الآخرين دربًا من سمو الوجدان، لكنها لم تدرس أيًّا من صنوف الغناء».

سألت: «هل تغني على أنغام الجيتار؟».

أجابني ترادلز: «آهٍ يا عزيزي. إنها لا تفعل ذلك».

«هل تقوم برسم أي شيء؟».

قال ترادلز: «لا على الإطلاق».

لقد وعدت ترادلز بسماع غناء دورا، ورؤية بعض رسوماتها الوردية. قال إنها ستعجبه جدًّا من دون شك، فاتجهنا إلى المنزل متشابكي الأذرع تملأنا روح الدعابة والبهجة. شجعته في الطريق على الحديث عن «صوفي»، وهذا ما فعله بدافع من محب، وقد أعجبت به أشد الإعجاب. قارنتها في ذهني بدورا، فشعرت بنوع من الارتياح بداخلي. لكنني اعترفت في قرارة نفسي أنها بدت فتاة ممتازة كما أنها تناسب ترادلز كذلك.

عرفت عمتي على الفور نتائج هذه الزيارة الناجحة، وعرفت كل ما قيل وكل ما حدث في هذه المقابلة. كانت سعيدة بدورها لرؤيتي في غاية الفرح، ووعدتني بالتواصل مع عمتَي دورا من دون إهدار للوقت. لكنها راحت تذرع غرفتنا ذهابًا وإيابًا في تلك الليلة. كنت ساعتها أكتب إلى أجنيس، وقد بدأت أتصور أنها تنوي مواصلة المشي حتى الصباح.

كانت رسالتي إلى أجنيس شديدة الحماسة والامتنان، حيث سردت كل الأثر الرائع الناتج عن اتباع نصحها. أجابتني بدورها برسالة عبر البريد. كانت رسالتها مفعمة بالأمل، جادة ومبهجة، بل صارت دائمة الابتهاج منذ ذلك الحين.

تملكني يقين منذ هذه اللحظة بعدما توثقت يدي من حبائل الأمور أكثر من أي وقت مضى. كنت أهتم بتفاصيل رحلتي اليومية إلى هايجيت. كان الوصول إلى بوتني حلمًا بعيد المنال، فقد كنت بطبيعة الحال أتمنى أن أذهب إلى هناك. كانت زيارات تناول الشاي المقترحة غير عملية على الإطلاق، فقد تضاعفت زياراتي تلك مع السيدة لافينيا حتى أستطيع طلب الإذن في زيارة أخرى في كل سبت، من دون الإضرار بزيارتي أيام الآحاد. ولذلك باتت نهاية الأسبوع من أمتع أوقاتي، بل رحت أتجاوز الأسبوع بأسره متطلعًا إلى نهايته تلك.

شعرت بارتياح جم عندما وجدت أن عمتي وعمتَي دورا على وئام، تراعين جميع الدقائق، في صورة أكثر سلاسة مما توقعت. قامت عمتي بزيارتها الموعودة في غضون أيام قليلة من لقائي بهما. وما إن انقضت أيام قلائل حتى دعتاها عمتا دورا واستقبلتاها بصورة لائقة. وقعت زيارات

مماثلة ولكن بصورة أكثر ودية بعد ذلك، وكانت تتم عادة على فترات من ثلاثة إلى أربعة أسابيع. أعلم أن وطأة عمتي كانت ثقيلة على عمتَي دورا كثيرًا. إذ كانتا تستأجران عربة بعينها لتقلها إليهما، كما تحتاجان إليها للخروج إلى بوتني في أوقات غير مألوفة، مثل الخروج بعد فترة وجيزة من الإفطار أو قبل احتساء الشاي مباشرة. كما أزعجتهما طريقة عمتي في ارتداء قبعتها بطريقة خاصة بها تراها مريحة لرأسها، من دون أن تذعن لأي مظهر من مظاهر التحضر مطلقًا. اتفقت عمتا دورا سريعًا على اعتبار عمتي سيدة غريبة الأطوار بل وذكورية إلى حد ما، مع تفهم أمرها برمته. أزعجت عمتي عمتَي دورا في كثير من الأحيان وسخرت من تكبرهما، إذ راحت تعبر عن آرائها المهرطقة في نقاط مختلفة عن فكرة الاحتفال بالزواج ومراسمه، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حبها الجم لي يدفعها إلى الحفاظ على بعض اللباقة مراعاة للوئام والألفة العامة.

كان جيب هو العضو الوحيد في مجتمعنا الصغير الذي رفض التكيف مع الظروف بصورة قاطعة. لم يرَ عمتي قَطُّ من دون أن يكشر عن أنيابه على الفور، ثم لم يلبث أن ينكفئ تحت كرسي، حتى يصدر نباحًا لا ينقطع. راح يصدر بين الحين والآخر عواء رقيقًا، كما لو أن عمتي تفوق طاقة احتماله حقًّا. جربنا سائر الطرق معه، من الإقناع، والتوبيخ، والصفع تارة، أو تهدئته بالمشي في شارع باكنجهام تارة أخرى. اندفع حينها مسرعًا على الفور نحو قطتين، مما أثار رعب جميع المارين، لكنه لم يستطع أن يتحامل على نفسه ليقبل الوجود مع عمتي.

كنا نتصور أحيانًا أننا قد تغلبنا على اعتراضه، إذ يبدي وده لبضع دقائق، ثم يعاود رفع أنفه ليعوي بأقصى صوته. لم يجد معه شيئًا سوى إغماض عينيه وتخبئته في المدفأة لأوقات طويلة. كانت دورا تقوم عادة بإحكام فمه بمنشفة ووضعه بالمدفأة، ثم تبلغ عمتي بما فعلته به عند الباب.

تواءمنا ورحنا نتقدم في هذا القطار الهادئ، لكن لم يزعجني سوى أمر واحد. لقد بدا لي أن دورا قد استجابت لكونها لعبة جميلة أو ملهاة. ألفتها عمتي تدريجيًّا، وكانت تناديها دائمًا باسم الزهرة الصغيرة. كما ابتهجت وسعدت السيدة لافينيا لمراقبة تصرفاتها وسلوكها، وتمشيط شعرها، وصنع الحلي لها، ومعاملتها مثل طفلة مدللة، وكان مسلك السيدة لافينيا، هو الدرب عينه الذي سلكته أختها بطبيعة الحال. لاح الأمر غريبا جدًّا أمامي، لكن بدا لي أن الجميع صار يعامل دورا بتدليل فائق، مثلما تعاملت دورا مع جيب بالدلال ذاته.

قررت أن أتحدث إلى دورا حول هذا الأمر. كنا نسير في أحد الأيام خارج البيت. كنا قد حصلنا على موافقة السيدة لافينيا بعد فترة للخروج بمفردنا. قلت لها إنني أرجو لو تطلب إليهم أن يعاملوها بشكل مختلف.

وقد برهنت لها قائلًا: «لأنكِ تعرفين يا حبيبتي أنكِ لستِ طفلة».

قالت دورا: «أما هنا، وفي هذه اللحظة، سيكون فراق بيني وبينك».

«أتقولين فراقًا يا حبيبتي؟»

قالت دورا: «إنني متأكدة من أنهم في غاية اللطف والكرم معي، كما أنني سعيدة للغاية».

قلت: «حسنًا، لكن يا حياتي الغالية، قد تصيرين في غاية السعادة، ومع ذلك تُعامَلين معاملة الراشدين».

رمقتني دورا بنظرة بائسة -إنها أجمل نظرة- ثم بدأت البكاء قائلة بأنني إذا لم أكن أحبها، فلماذا عقدت جل عزمي لخطبتها؟ ولماذا لم أرحل إلى الآن إذا لم أستطع تحملها؟

ماذا عساي أن أفعل سوى أن قبلت مسقط دموعها المنهمرة، لأخبرها كم أنني أهتم لأمرها وأعتني بها طوال ذلك الوقت.

قالت دورا: «إنني بلا شك مرهفة الحس. فلا يصح أن تصير قاسيًا معي يا دودي».

أجبتها: «أتقولين إنني قاسٍ يا حبي الثمين، أيمكنني أن أكون كذلك -أو أستطيع- أن أصير قاسيًا عليك، وإن قسوت على العالم بأسره؟!».

قالت دورا بينما تلوي شفتيها كزهرة: «إذن لا تتبع عيبًا في شخصيتي. فإن فعلت ذلك سأصير على ما يرام».

كنت قد سُحِرت بطلبها في تلك اللحظة، خاصة حين طلبت من تلقاء نفسها أن أعيرها كتابًا عن الطبخ، بعد أن تحدثت عنه ذات مرة، كما طلبت مني أن أعلمها كيفية تدوين الحسابات، وفاء بما وعدتها به سابقًا. أحضرت المجلد معي في زيارتي التالية. كنت قد غلفته بشكل جميل، لأجعله يبدو أقل جفافًا وأكثر جاذبية. رحنا نتجول حول الساقية، ثم أريتها كتابًا قديمًا عن التدبير المنزلي، وكان هذا الكتاب

لعمتي، ثم أعطيتها مجموعة من ألواح الأردواز، وحقيبة أقلام صغيرة وعلبة من الخيوط، للتدرب على بعض مهارات التدبير المنزلي.

أما كتاب الطبخ فقد تسبب لدورا في آلام بالرأس، كما جعلتها الأرقام تنتحب. قالت إنهم لن يضيفوا إليها شيئًا. لذا قامت بتمزيقهم، ولم يلفت انتباهها سوى القليل من النصائح التي تخصني أو تتعلق بجيب، لذلك دونتها على ألواح الأردواز.

حاولت بعدها بطريقة هزلية أن أردد بعض الإرشادات الشفاهية عن التدابير المنزلية، حين كنا نتجول بعد ظهر أحد أيام السبت. وحاولت مرات أخرى ترديدها في مواقف متنوعة، فرحت أقول على سبيل المثال بينما نجتاز محل الجزار:

«افترضي الآن يا وليفتي أننا تزوجنا، وأنكِ ستشترين كتفًا من لحم الضأن لإعداده للعشاء، هل تعرفين كيف تشترينه؟».

كان وجه دورا الصغير الجميل يتوارى، ثم تدير فمها كما الزهرة مرة أخرى، كما لو أنها تفضل وبشدة أن تغلق فمي بقبلة.

أكرر سؤالي عليها، فربما لم أكن مرنًا بما فيه الكفاية في طرحي الأول فأقول: «هل تعرفين كيف تشترينه يا حبيبتي؟».

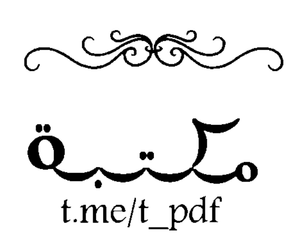
تفكر دورا قليلًا، ثم ترد، ربما بنوع من الانتصار العظيم، فتقول:

«لماذا أفكر في الأمر، إن الجزار يعرف كيف يبيعه، فلماذا عليَّ أن أعرف بنفسي؟ آه، أيها الفتى السخيف».

رحت لهذا السبب أكثر من تذكيرها بكتاب الطبخ، كما سألت ذات مرة عما ستفعله إذا ما تزوجنا، وطلبت الحساء الأيرلندي الشهي الذي أحبه. أجابت أنها ستطلب من الخادمة أن تطهوه، ثم أحكمت يديها الصغيرتين معًا متأبطة ذراعي، وضحكت ضحكتها الساحرة، حتى إنها لاحت لناظري أكثر بهجة من أي وقت مضى.

صار الاستخدام الرئيسي الذي خصص له كتاب الطبخ بعد ذلك، هو وضعه في الزاوية ليقف عليه جيب. شعرت دورا بسعادة بالغة، عندما دربته على الوقوف عليه من دون أن تغير وضعه، وفي الوقت نفسه دربته على حمل حافظة الأقلام في فمه، وقد كانت سعيدة جدًّا بها.

عدنا إلى الحديث عن العزف على الجيتار، ورسوم الورود، والأغاني التي لا تنقطع منها أصداء الرقص أبدًا، تا را لا لي! كان الجميع سعداء طوال الأسبوع. تمنيت أحيانًا لو أجرؤ على التلميح إلى السيدة لافينيا، بأنها قد بالغت في معاملتها لحبيبة قلبي على أنها لعبة. إلا أنني رحت أنتبه أحيانًا، لأجد أنني وقعت بطبيعة الحال في الخطأ العام نفسه، فعاملتها مثل اللعبة أيضًا، وإن لم أفعل ذلك طوال الوقت.



الفصل الثاني والأربعون

أذى متعمد

ينتابني شعور يؤنبني على كتابتي، على الرغم من أن هذه المخطوطة لن تقع عليها عين سواي، كم عملت بجد حتى أتقن فن الاختزال الرائع، وكم احتويت كل خطوة تتحسن بها مهاراتي، وتدعم إحساسي بالمسؤولية تجاه دورا وعمتيها. سأضيف إلى ما كتبته سابقًا شيئًا عن مثابرتي في هذا الوقت من حياتي، ومدى صبري وطاقتي المستعرة التي أخذت تتقد بداخلي بمرور الوقت، والتي أعلم أنها الجزء القوي من شخصيتي - إذ إنني لو تذكرت الماضي السحيق، لأدركت أنها مكمن قوتي على مدار حياتي، بل إنها مصدر نجاحي. لقد كنت محظوظًا جدًّا في الأمور الدنيوية، وقد عمل كثير من الرجال بجهد أكبر، لكنهم لم يحققوا نصف ما حققت من النجاح. ما كنت أستطيع قَطُّ أن أصل إلى نجاحي من دون الالتزام والمثابرة والنظام والاجتهاد، أو من دون العزم على التركيز على تحقيق هدف واحد في كل مرة، بالإضافة إلى الوقت الذي لم أهدره، وقد واصلت هذه الخطى

فيما بعد. يعلم الله أنني لم أكتب هذه الكلمات بنية الإشادة بنفسي. إن الرجل الذي يراجع حياته، كما أفعل هنا باستمرار، من صفحة إلى أخرى، يصير مستحقًّا لأن يوصف بأنه رجل صالح بالفعل، ذلك لأنه لم يتجنب التركيز في كثير من مواهبه الخفية، ولم يتحسر على ضياع فرص شتى، وتجاوز المشاعر السيئة والمنحرفة التي احتدمت مستعرة داخل صدره، والتي قد تؤول به إلى الهزيمة. إنني لا أحمل موهبة فطرية واحدة، حتى أجرؤ على القول بأني قد أسأت استخدامها، بل إن مقصدي ببساطة هو أن كل ما سعيت إلى فعله في هذه الحياة، هو أنني حاولت من كل قلبي أن أقوم بالخير. كان كل ما كرست نفسي له من أهداف كبيرة أو صغيرة، قد وهبت له نفسي بالكامل، فكنت دائم الشغل بكدٍّ وجدية. لم أصدق قَطُّ أنه من الممكن لأي موهبة فطرية أو عطاء أن يدعي تفوقًا على قدراتنا المتساوية الثابتة والواضحة، من دون العمل الجاد، والسعي أملًا في جني الثمار. لا يضاهي هذا النجاح شيء على وجه الأرض. قد تُشكل بعض المواهب السعيدة، وبعض الفرص السارة التي تواتينا، سلمًا يصعد عليه بعض الرجال، إلا أن منحنيات هذا السلم عليها أن تصقل بأشياء تتحمل البلى، وليس ثمة بديل عن الجد والكد والحماس الصادق. لا أقدم على فعل شيء أستطيعه إلا وأهب له نفسي كاملًا؛ وكذلك لم أستهِن قَطُّ بجهدي مهما يكن من أمر. أما الآن فإنني أدرك أن هذه القواعد هي قواعدي الذهبية لخوض معترك الحياة.

أريد أن أشير هنا إلى الفضل الذي أدين به لأجنيس، لدعمها في تنفيذ سعيي وتحقيق آمالي، وإن حكاياتي لتتجه إلى أجنيس بوافر المحبة الصادقة.

جاءت أجنيس في زيارة لأسبوعين لزيارة الدكتور، فقد كان السيد ويكفيلد صديقًا قديمًا له. أحب الدكتور كذلك أن يتحدث إليه، ليطمئنه. وكانت هذه الزيارة مرمى محادثتي السالفة مع أجنيس في آخر زيارة لها في المدينة. أقبلت أجنيس في زيارتها هذه المرة مع والدها. لم أتفاجأ كثيرًا عندما علمت أنها تبحث عن مسكن قريب في الحي من السيدة هيب، التي طالما دفعتها شكواها من الروماتيزم إلى طلب تغيير الهواء، كما أنها ستسعد بوجود هذه الصحبة معها. كما أنني لم أتفاجأ عندما جاء يورايا في اليوم التالي، مثل أي ابن مطيع بار، فاصطحب والدته إلى مسكنها.

كان قد فرض نفسه عليَّ للتنزه في حديقة الدكتور، وراح يقول: «كما تعرف يا سيد كوبرفيلد، إن المرء حين يحب، يشعر بنوع من الغيرة، تدفعه على الأقل إلى مراقبة المحبوب حرصًا عليه».

سألته: «ممن تغار الآن؟».

التفت قائلًا: «لا أغار من إنسان بعينه في الوقت الحاضر، والفضل لك يا أيها السيد كوبرفيلد - لا أغار من ذكر على الأقل حتى هذه اللحظة».

«هل تقصد أنك تغار من امرأة؟».

رمقني بطرف عينيه الخبيثتين ثم ضحك.

قال: «في الواقع يا كوبرفيلد -أقصد يا أيها السيد كوبرفيلد، يجب أن أقول لك إن هذه العادة قد تملكتني في حديثي إليك- كم أنت بارع في التلميح إلى الأمور، فتضع بين يدي مقاليد الحديث، حسنًا، لا أمانع في إخبارك بالأمر». وضع يده الشبيهة بالسمكة على يدي، ليكمل قائلًا: «إنني لست رجلًا ممن يعجبون النساء بشكل عام يا سيدي، فلم تتقبلني السيدة سترونج قَطُّ لهذا السبب».

بدت عيناه حينها في بهاء لونهما الأخضر متوهجتين، بينما راح يرمقني في مكر ودهاء.

سألت: «ماذا تقصد؟».

أجاب بابتسامة جافة: «حسنًا، على الرغم من أنني محامٍ يا سيد كوبرفيلد، فإنني أعني في الوقت الحالي ما أقوله».

بادرت بسؤاله في هدوء: «وماذا تقصد بنظرتك؟».

«أتقول نظرتي؟ آه يا عزيزي كوبرفيلد، إنها ملاحظة حادة، ترى ماذا أعني بنظرتي؟».

قلت: «نعم، أسأل عن نظرتك».

بدا مستمتعًا للغاية، وضحك بحرارة كما هي طبيعته في الضحك. حك بعد ذلك ذقنه، ثم قال وهو يميل نظرات عينيه إلى الأسفل، في حين لم تزل ترتجف في بطء شديد: «كنت مجرد كاتب، وكانت السيدة سترونج تنظر إليَّ بازدراء دائمًا. أما أجنيس فكانت تقرب منها

أناسًا وتبعد عنها آخرين كما النهر، وقد كانت دائمًا صديقة لك يا سيد كوبرفيلد، لكنني كنت بعيدًا عنها وعن ناظريها، بحيث لا يمكنها ملاحظتي».

قلت: «حسنًا، وماذا بعد؟ افترض أنك كنت كذلك!».

تابع يورايا كلماته بنبرة متيقنة مندهشة في آن بينما واصل حك ذقنه، فقال: «بل كنت في عينها وضيعًا».

قلت: «ألم تعرف أن الدكتور لا ينتبه لأحد لا يلبث أمامه طوال الوقت؟».

أدار عينيه نحوي ورمقني بتلك النظرة الجانبية مرة أخرى، وراح يبرز فكه السفلي ويمده، حتى يشعر براحة أكبر في فركه، ثم أجاب قائلًا: «يا عزيزي، إنني لا أقصد الدكتور. آهٍ، لا أيها الرجل المسكين، إنني أقصد السيد مالدون».

اضطرب قلبي بين جوانحي. واستيقظت كل شكوكي ومخاوفي القديمة، واستدعيت كل سعادة أظهرها الدكتور في طمأنينة. تداخلت كل الاحتمالات واختلطت بين التبرئة والتصديق، من دون أن أقدر على كشفها. رأيت في لحظة كل شيء أمامي يتلوى كما يتلوى هذا الرجل.

قال يورايا: «اعتاد أن يأتي إلى المكتب من دون أن يمنع نفسه عن توجيه الأوامر لي وتوبيخي. أعلم أنه أحد السادة المحترمين. كنت حليمًا جدًّا ومتواضعًا -وهذا هو طبعي- لكنني لم أرتَح لهذا النوع من التصرفات، إنني لا أحب ذلك».

توقف عن فرك ذقنه ثم شفط إليه خديه حتى بدا وكأنهما سيلتقيان داخل جوفه، لكنه أبقى نظرته الجانبية نحوي طوال الوقت.

استأنف كلامه بعد أن استعاد هيئته فقال: «إنها واحدة من نسائكم المحبوبات، وإنني عل يقين من أنها لا ترغب في أن تصادق رجلًا مثلي. إلا أنني أضع شخص أجنيس التي يخصني أمرها في مستوى أعلى من هذه اللعبة. إنني الآن لست من الرجال المقربين لنسائكم يا سيد كوبرفيلد، إلا أن عينيَّ تراقبانكم منذ وقت طويل جدًّا، وللجميع أعين، معظمها تتحدث بما أبصرت، فلا داعي لأن نُحولها بعيدًا «عنهم»».

حاولت أن أبدو غير منتبه لمرماه، وغير منزعج من كلماته، لكنني رأيت في وجهه ملامح من انتصار أجوف.

استرسل في حديثه رافعًا جبينه متفاخرًا، معلقًا حاجبيه الحمراوين خفيفَي الشعر، قائلًا في انتصار خبيث: «والآن، لن أسمح لنفسي بالانهزام يا كوبرفيلد. سأفعل ما بوسعي لوضع حد لهذه الصداقة، لأنني لا أوافق عليها. ولا أمانع في أن أعترف لك باضطراب نفسي وألمها، وأريد أن أبعد كل الدخلاء. لن أخاطر -أدرك أنني أبعد عن المخاطرة- ولن أمنح أي فرصة للتآمر ضدي».

قلت: «إنك تتآمر دائمًا، وتخدع نفسك بالاعتقاد بأن من حولك يتآمر ضدك، وهذا ما أوقنه من أمرك».

أجاب: «لعلك محق يا سيد كوبرفيلد. لكني أحوز دوافع، على حد تعبير شريكي، فأنا أتشبث بهدفي بأسناني وأظافري، حين لا يجب أن

أتصرف بنوع من اللين المبالغ فيه، فلا أسمح للناس أن يحولوا دون طريقي. حقًّا يجب أن ينزاحوا عن مسيرتي يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «إنني لا أفهمك».

أردف يقول وهو يهز رأسه: «ألا تفهمني حقًّا؟ إنني مندهش من قولك هذا يا سيد كوبرفيلد، لأنك عادة ما تكون سريع البديهة جدًّا. سأحاول أن أكون أكثر وضوحًا مرة أخرى، فهل فهمت أنني أقصد السيد مالدون؛ ذاك القادم على ظهر خيله يدق الجرس عند البوابة يا سيدي؟».

أجبته بلا مبالاة قدر استطاعتي: «يبدو أنه هو».

بدل يورايا نظراته الفظة، ووضع يديه بين مقابض ركبتيه، وضاعف ضحكته منطويًا على نفسه. كانت ضحكته جوفاء ساكنة تمامًا، فلم يهرب منه صوت. نفرت بشدة من سلوكه البغيض، ولا سيما بعد هذه الحالة الأخيرة، لدرجة أنني ابتعدت عنه من دون سابق استئذان، وتركته يتسكع وسط الحديقة، كما خيال المآتة، في حالة من التزعزع.

أذكر جيدًا أنني اصطحبت أجنيس لرؤية دورا في مساء يوم لاحق غير مساء ذلك الأحد، وكنت قد رتبت لهذه الزيارة سابقًا مع الآنسة لافينيا، حتى تحتسي أجنيس الشاي معنا.

لفتني حالة من الزهو والقلق. كنت مزهوًّا بخطيبتي الصغيرة، وقلقًا من مدى إعجاب أجنيس بها. قبعت أجنيس طوال الطريق إلى بوتني داخل العربة، بينما جلست في الخارج. رحت أتخيل دورا، وأتصور

كل مظهر من الإطلالات الجميلة التي عرفتها جيدًا. تمثلتها في هذه اللحظة من غفلتي وقد اقتنعت أنها ستبدو تمامًا كما أراها في مثل هذه المواقف، ثم أتشكك فيما إذا كنت سأتقبل مظهرها في تلك اللحظة كما كنت أتقبله أم لا، إلى أن زاد اضطرابي بسبب طول إلحاح هذه الأفكار على ذهني مرة أخرى.

لم يراودني شك في أنها ستبدو جميلة جدًّا على أي حال، بل إنني تيقنت ألا مثيل لجمالها بعد أن تجلت أمامي فاتنة. تقدمت أجنيس لتحية عمتيها الضئيلتين، أما دورا فلم تكن في حجرة الاستقبال، بل إنها اختبأت عن طريق أجنيس خجلًا من لقائها. كنت أعرف أين أبحث عنها في تلك اللحظة، وبالتأكيد وجدتها تلصق أذنيها مرة أخرى بالباب القديم الباهت نفسه.

رفضت في البداية الخروج مطلقًا، فرحت أتوسل إليها طوال خمس دقائق كاملة حتى وافقت. تأبطت ذراعي، لأصطحبها إلى حجرة الاستقبال. كان وجهها الصغير الساحر محمرًّا في جمال غير مسبوق قَطُّ. ما إن دخلنا الغرفة، حتى شحب وجهها ففاق جماله المعهود عشرة آلاف مرة.

كانت دورا خائفة من أجنيس. أخبرتني أنها تعرف أن أجنيس «ذكية جدًّا»، ولكن ما إن رأتها للوهلة الأولى في مظهر جاد للغاية وفاتن، حتى ابتهجت، ثم أطلقت صرخة خافتة تعبيرًا عن مفاجأتها السارة. راحت تطوق أجنيس بذراعيها الحنونتين، ثم لصقت خدها البريء على وجهها مرحبة بها.

لم أشعر بسعادة قَطُّ كما شعرت بها في هذه اللحظة. لم أفرح مثلما فرحت برؤيتي هاتين الفتاتين جالستين معًا جنبًا إلى جنب. رأيت بطبيعة الحال حبيبتي الصغيرة تتجلى بتلك الأعين الودودة بطبيعتها. كما رأيت أجنيس وقد أحاطتها بنظرات من الحنان والجمال.

شاركتني الآنسة لافينيا والآنسة كلاريسا فرحتي بطريقتهما. كانت أجمل طاولة شاي في العالم. ترأست الآنسة كلاريسا الطاولة. قطعتُ كعكة البذور الحلوة[١] وقدمتُها. كانت الأختان الصغيرتان مولعتين بالنقر كما الطيور، فالتقطتا البذور ونقرتا السكر، كما راقبتنا الآنسة لافينيا بعين راعية ومحبة، وكأن حبنا السعيد لم يزل شغلها الشاغل. صرنا راضين تمامًا عن أنفسنا وعن بعضنا البعض.

تغلغلت بهجة أجنيس اللطيفة إلى قلوبهن جميعًا. اهتمامها الهادئ بكل ما يهم دورا، طريقتها في التعرف على جيب (الذي استجاب على الفور لها)، طريقتها اللطيفة التي أبعدت خجل دورا، بعدما كانت خجلى من أن تجلس على مقعدها المعتاد، رونقها المتواضع وسهولتها في التعامل. أثار سلوكها حشدًا من سمات الثقة أبعدت بدورها خجل دورا، ولْتبدُ دائرتنا مثالية تمامًا.

قالت دورا بعد احتساء الشاي: «إنني سعيدة للغاية لأنكِ أحببتني. لم أتصور أنكِ ستعجبين بي، وإنني أود -أكثر من أي وقت مضى- أن أصير محبوبة، خاصة الآن بعد أن غادرت جوليا ميلز».

---

(١) كعكة إنجليزية تقليدية قديمة، كانت غالبًا ما تُصنع من دقيق اللوز.

لقد أغفلت ذكر هذا الأمر من قبل، إذ أبحرت الآنسة ميلز إلى الهند، وذهبت أنا ودورا إلى متن سفينة عظيمة من سفن الهند الشرقية في جرافيسند لتوديعها. احتفظنا من رحلتنا بالزنجبيل والجوافة وأطعمة أخرى من هذا النوع للغداء. عدنا بعد أن ودعنا الآنسة ميلز وتركناها جالسة على مقعد من القماش المشدود؛ تبكي على سطح الباخرة، وتتأبط دفتر يوميات جديد وكبير تحت ذراعها حتى لا ينزلق، وكان من المقرر أن تدون به عواطفها بعد أن تتأمل المحيط.

قالت أجنيس إنها خافت من أن أكون قد أوهمتهم بأنها شخصية لا يتوقع منها شيء، إلا أن دورا صححت هذه الفكرة مباشرة. قالت بينما تلتوي ناحيتي: «آهٍ لا، إنه يعير رأيك كل اهتمام، لدرجة أنني كنت خائفة جدًّا منه».

قالت أجنيس بابتسامة: «إن رأيي لا يمكن أن يمس قرناءه الأحباء الذين يعرفهم، وإلا فالأجدر ألا يأخذ به».

قالت دورا بطريقتها المدللة المقنعة: «فلتسمحي لي بمعرفة رأيكِ، إذا استطعتِ».

لقد سخرنا من رغبة دورا في أن تكون محبوبة، بينما أخبرتني دورا أنني بدوت غبيًّا، وأنها لم تحب هذا المسلك بأي حال من الأحوال. حلقت الأمسية القصيرة بنا مثل طائر عابر. اقترب موعد وصول العربة، وكنت أقف وحدي أمام المدفأة فإذا بدورا مقبلة عليَّ تمشي الهوينا، لتهبني تلك القبلة الصغيرة الثمينة المعتادة قبل ذهابي.

قالت دورا، وعيناها اللامعتان تتوقدان وهجًا، بينما تنشغل يدها اليمنى الصغيرة بأحد أزرار معطفي: «ألا تظن أنني لو كنت قد اتخذتها صديقة منذ وقت طويل يا دودي، لصرت أكثر ذكاء؟».

قلت: «حبيبتي، يا لكلامكِ من هراء!».

أجابتني دورا وهي تحملق نحوي: «هل تحسب أن قولي هراء؟ هل أنت متأكد؟».

أكملت دورا حديثها بينما تدير أزراري يمينًا ويسارًا: «بالطبع، لقد نسيت مدى علاقة أجنيس بك، أيها الولد الشرير».

أجبتها: «إنها ليست قرابة على وجه التحديد. لكننا نشأنا معًا، فكنا مثل أخ وأخت».

قالت دورا ماسكة بزر آخر من معطفي: «أتساءل لماذا لم تقع في حبي؟».

«ربما لأنني لم أستطع رؤيتكِ من دون أن أحبكِ يا دورا!».

قالت دورا وهي تنتقل إلى زر آخر: «لنفترض أنك لم ترني على الإطلاق».

أجبت ساخرًا: «لنفترض أننا لم نُولد قَطُّ».

تساءلت عما كانت تفكر فيه، فألقيت نظرة خاطفة على اليد الناعمة الصغيرة التي تتحرك صعودًا في صف الأزرار على معطفي وقد سكنت. أبصرت شعرها الغزير المنثور فوق صدري، ورموش عينيها وأهدابها المطرقة قليلًا. راحت تتحرك بينما أتابع أصابعها الرقيقة. رفعت عينيها

لتقابل عيني، ثم هبت واقفة على أطراف أصابع قدميها، لتهبني، برقة فاقت رقتها المعتادة، تلك القبلة الصغيرة الغالية -لمرة، ثم مرتين، ثم ثلاث مرات- ثم خرجت من الغرفة.

انسجموا جميعًا في غضون خمس دقائق، وانقشعت آثار هواجس دورا غير المألوفة فاختفت تمامًا. راحت تضحك وقد صممت على أن يقدم جيب جميع عروضه التي تدرب عليها قبل أن تذهب إلى العربة. استغرق جيب وقتًا طويلًا (ليس لكثرة الحركات التي يؤديها، ولكن لإحجامه أحيانًا عن تأديتها فورًا)، بل لم يكمل عروضه بعد حتى سمعنا صوت العربة عند الباب. كان الوداع سريعًا، ولكنه ذو وقع حنون على أجنيس، وقد اتفقت مع دورا على أن تراسلها (لم تخَف دورا من أن رسائلها ستكون حمقاء، على حد تعبيرها)، وكان على أجنيس أن تكتب إلى دورا كذلك. ودعت كل منهما الأخرى مرة ثانية عند باب العربة، ثم مرة ثالثة، على الرغم من احتجاج الآنسة لافينيا، حينما نزلت دورا لتذكير أجنيس مرة أخرى عند نافذة العربة بالكتابة إليها، كما أنها أرادت أن تهز جدائلها أمام وجهي بعد أن اتخذت مجلسي من العربة.

كانت العربة ستتجه بنا بالقرب من كوفنت جاردن، حيث نستقل حافلة تصل بنا إلى هايجيت. كنت متلهفًا على النزول والمشي في ذاك الوقت الفاصل، لعل أجنيس تمتدح دورا أمامي. آه، يا له من مدح! كم هي محبة ومشجعة إذ أشادت بهذه المخلوقة الفاتنة التي فزت بها، وأشادت بمفاتنها الفطرية كلها التي لا تصنُّع فيها، كما مدحت ما أظهرته من اهتمام على أفضل وجه، وبأقصى عناية! كيف راحت تذكرني بدقة،

من دون نفاق، بالأمانة التي سأتحمل بها أحلام هذه الطفلة اليتيمة!

ما أحببت دورا قَطُّ بعمق وصدق، كما أحببتها في تلك الليلة. نزلنا مرة أخرى من العربة، وسرنا في ضوء النجوم على طول الطريق الهادئ الذي يؤدي إلى منزل الدكتور، فأخبرت أجنيس ساعتها بما يجول في خاطري.

قلت: «كنتِ جالسة بجوارها يا أجنيس، فبدا لي أنكِ ملاكها الحارس، كما أنكِ ملاكي الحارس أيضًا. يبدو أنني سأكون من الآن ملاككِ أيضًا يا أجنيس».

أجابتني قائلة: «يا له من ملاك مسكين، لكنه وفي».

انغرست نبرة صوتها الصافية مباشرة داخل قلبي، فشعرت أنني أود أن أقول دونما افتعال: «إن الابتهاج يليق بكِ يا أجنيس (دون أي إنسان آخر عرفته)، وإني ألاحظ أنكِ قد استعدتِ هذا الابتهاج اليوم، فبت أتمنى لو ترافقكِ سعادة أكبر في بيتكِ».

قالت: «إنني سعيدة في قرارة نفسي. وإنني لمبتهجة سعيدة الوجدان».

نظرت إلى الوجه الهادئ المطرق نحو السماء، وقد أحسب أن النجوم قد جعلتها تبدو في غاية النبل.

قالت أجنيس بعد لحظات قليلة: «لم يحدث أي تغيير في المنزل».

قلت: «ألا توجد بشائر جديدة؟! أنا لن أزعجكِ يا أجنيس، لكن لا يمكنني أن أمنع نفسي من السؤال عما تحدثنا عنه في آخر لقاء لنا».

أجابت: «لا، لا شيء».

«لقد فكرت كثيرًا في ذلك».

أضافت بعد لحظة قولها: «يجب أن تزيح عنك التفكير في الأمر. تذكر أنني أثق في الحب البسيط والحقيقي بالنهاية. ليس لديَّ أي مخاوف تراودني يا تروتوود. أما الخطوة التي تخشى أن أتخذها، فلن أقوم بها أبدًا».

كنت أتصور أن هذه الفكرة لم تكن لتخيفني مطلقًا، إلا أنه في هذه الفترة من التأمل الرزين، كان من المريح لي سماع هذا التأكيد من شفتيها الصادقتين، لذلك صرحت لها بالأمر في جدية.

قلت: «بعدما تنتهي هذه الزيارة - لأننا قد لا نصبح وحدنا مرة أخرى - فإلى متى تتوقعين مغيبكِ عنا يا عزيزتي أجنيس، قبل أن تأتي إلى لندن مرة أخرى؟».

أجابت: «ربما لوقت طويل. أحسب أنه من الأفضل لأبي أن أبقى في المنزل. أغلب الظن أننا لن نلتقي في الفترة المقبلة، لكنني سأواظب على مراسلة دورا بانتظام، وبهذه الطريقة ستتعرف كل منا على الأخرى».

كنا قد وصلنا في هذه اللحظة إلى الفناء الصغير لمنزل الدكتور، وقد حل ظلام الليل، وانبعث ضوء من نافذة غرفة السيدة سترونج، فأشارت أجنيس إليها، ثم ودعتني متمنية لي ليلة سعيدة.

قالت بينما تبسط يدها ناحيتي قائلة: «لا تشغل بالك بمتاعبنا وهمومنا، فإنني لم أشعر بسعادة لشيء أكثر من سعادتي بك. إذا كان

بإمكانك مساعدتي، فانتبه لسعادتك، فهي ما أطلبه منك. بارك الله فيك دائمًا».

كانت تتحدث بابتسامتها المبهجة، أما هذه النغمات الأخيرة من صوتها المبتهج، فقد بدت لي كما لو أنني أرى وأسمع دورا الصغيرة في صحبتها مرة أخرى. وقفت للحظة، أراقب النجوم من السقيفة، بقلب يغمره الحب والامتنان، ثم غادرت وبدأت أسير ببطء. كنت قد استأجرت سريرًا في نُزل لائق قريب. خرجت عند البوابة وأدرت رأسي متأملًا، فإذا بي أرى ضوءًا ينبعث من مكتب الدكتور. خطر في ذهني هاجس مؤلم من أنه كان يعمل في القاموس من دون مساعدتي. أردت أن أتيقن من الأمر، وأن أحييه متمنيًا له ليلة سعيدة على أي حال، إذ لعله جالس بين كتبه، ولعله غير منشغل بشيء أبدًا. عدت خطوات إلى الوراء، ومشيت بهدوء مجتازًا للردهة، ثم فتحت الباب برفق ناظرًا داخله.

أدهشني أول إنسان رأيته على ضوء المصباح الهادر، إذ أبصرت يورايا واقفًا بجانب المصباح، وقد وضع إحدى يديه التي تشبه الهيكل العظمي على فمه، أما الأخرى فممتدة فوق مكتب الدكتور. أما الدكتور فجالس على كرسي المكتب وقد غطى وجهه بكلتا يديه. كان السيد ويكفيلد منحنيًا إلى الأمام، وملامسًا لذراع الدكتور، وقد بدا مضطربًا ومكتئبًا قليل الحيلة.

ظننت للحظة أن الدكتور مريض، فتقدمت على عجل منفعلًا بهذا المشهد. التقيت ساعتها بعين يورايا، فأبصرت حقيقة الأمر. كنت على وشك أن أنسحب، إلا أن الدكتور أومأ لي حتى لا أغادر، فبقيت.

سمعت يورايا يقول وهو يتلوى بهيئته البشعة: «على أي حال، سندع الباب مغلقًا. لا حاجة لنا إلى أن ننشر الأمر بين جميع أفراد المدينة».

أنهى جملته ثم مشى على أصابع قدميه نحو الباب، الذي كنت قد تركته مفتوحًا قبلًا، فأغلقه بعناية. عاد بعدها إلى مكانه السابق. كان صوته وأسلوبه يحملان نبرة متصنعة للشفقة والرحمة، وهو تصنع لا يحتمل -على الأقل بالنسبة لي- وأقبح من أي سلوك آخر قد يسلكه.

قال يورايا: «لقد شعرت أنه من واجبي يا سيد كوبرفيلد، أن أوضح للدكتور سترونج ما تحدثنا عنه من قبل. ألم تفهمني بالضبط، على الرغم من توضيحي؟».

التفت إليه من دون أن أجد إجابة أخرى غير التفاتي، فأقبلت على أستاذي القديم الطيب، وقلت له بعض الكلمات لمواساته وتشجيعه. وضع يده على كتفي، كما كانت عادته عندما كنت غلامًا صغيرًا، لكنه لم يرفع رأسه الأشيب عاليًا.

استأنف يورايا كلامه بالطريقة الرسمية ذاتها: «نظرًا لأنك لم تفهمني يا سيد كوبرفيلد، فإنني قد أسمح لنفسي بكل اتضاع -لأنني بين الأصدقاء- أن أقول إنني قد نبهت الدكتور سترونج إلى تصرفات السيدة سترونج. أؤكد لك يا كوبرفيلد أنني قلت ما قلته رغمًا عني، كما أنه أمر لا يخصني، ولكن في الحقيقة أننا جميعًا ننخرط مع ما لا ينبغي أن يشغلنا أحيانًا. كان هذا هو مقصدي يا سيدي، لكنك لم تفهمني حين تحدثت إليك».

أتساءل الآن بينما أتذكر نظراته الموحشة عن السبب الذي منعني من أن أقبض عنقه فأخنق أنفاسه.

ثم استطرد قائلًا: «إنني لأجرؤ على القول بأنني لم أوضح كلامي كل الوضوح، كما أنك لم توضح مقصدك أيضًا. كان كلانا يميل بطبيعة الحال إلى طرح هذا الموضوع بشكل عام. ومع ذلك، فقد قررت أخيرًا أن أتحدث بوضوح وقد ذكرت للدكتور سترونج أن... هلا تحدثت يا سيدي؟».

أما الدكتور فقد تنهد. كان أنينه يلامس القلب ويذيبه، لكنه لم يكن ليحرك ساكنًا في فؤاد يورايا، بل استطرد قائلًا: «لقد أوضحت للدكتور سترونج أنه بوسع أي إنسان أن ينتبه إلى ما بين السيد مالدون، والسيدة الفاتنة اللطيفة زوجة الدكتور سترونج، إذ يلاطف كل منهما الآخر. قد نكون قد أقحمنا أنفسنا في الوقت الحالي فيما لا يخصنا، إلا أنه قد آن الأوان حقًّا لنخبر الدكتور سترونج بأن الأمر قد لاح واضحًا أمام الجميع مثل الشمس. لقد قدم السيد مالدون حججًا للعودة إلى هنا قبل أن يسافر إلى الهند، بينما كانت أسباب عودته مغايرة لما ادعى. إنه موجود دائمًا هنا، من أجل أي شيء آخر غير ما يدعيه. وعندما دخلت يا سيدي، كنت لتوِّي أطلب من شريكي...». استدار ناحية السيد ويكفيلد ثم أكمل قوله: «أن يقسم بشرفه للدكتور سترونج بأن هذا ما لاحظه منذ عهد طويل. هيا تعالَ، يا سيد ويكفيلد، تعالَ يا سيدي، هل ستتكرم وتخبرنا بالأمر؟ نعم أم لا يا سيدي؟ هيا يا شريكي».

قال السيد ويكفيلد بينما يعيد يده المرتعشة على ذراع الدكتور مرة أخرى: «بحق الله، يا دكتوري العزيز، لا تضع وزنًا لأي شكوك قد راودتني في يوم من الأيام».

صاح يورايا بينما يهز رأسه قائلًا: «ألم تزل شكوكًا! يا له من تأكيد بائس؛ أليس كذلك؟ إنه التأكيد نفسه. يا لهذا الصديق القديم! بارك الله روحك النقية، لم أكن سوى كاتب في مكتبه يا كوبرفيلد، حين لاحظته عشرين مرة لا مرة واحدة، متألمًا لما حدث. لكن كما تعلم، إنه يندفع لأنه أب، ولا أستطيع لومه بالتأكيد لتصوره بأن آنسة أجنيس كادت أن تورط نفسها بعلاقتها بأناس كان من الأحرى أن تهجرهم».

تكلم السيد ويكفيلد بصوت مرتعش قائلًا: «يا عزيزي سترونج، يا صديقي الطيب، لا حاجة لي أن أخبرك أن سوء حظي قد أوقعني لأبحث عن دافع رئيسي يحث كل إنسان على فعله، وأن أختبر كل الأفعال عبر سبيل واحد ضيق. إنه لاختبار صعب، وربما تلبستني مثل هذه الشكوك بسبب هذا الخلل في تفكيري».

تحدث الدكتور من دون أن يرفع رأسه قائلًا: «انتابتك الشكوك يا ويكفيلد. عندك شكوك».

حثَّ يورايا على استكمال الحديث قائلًا: «تكلم يا شريكي».

قال السيد ويكفيلد: «راودتني الشكوك في وقت ما بالتأكيد. ليغفر الله لي. وقد ظننت أنها راودتك أيضًا».

رد الدكتور بنبرة حزن مثيرة للشفقة قائلًا: «لا، لا، لا».

قال السيد ويكفيلد: «ظننت ذات مرة أنك ترغب في إبعاد مالدون إلى الخارج لتفصل بينهما».

أجاب الدكتور: «لا، لا، لا. فعلت ذلك لأسعد آني بتوفير عمل لرفيق طفولتها، لا لشيء آخر».

قال السيد ويكفيلد: «حسنًا، أرى أنني لم أكن لأشك في الأمر، بعد أن أوضحته لي. إلا أنني ظننت -وإنني أناشدكم بأن تذكر هذا الحيز الضيق من تفكيري، وكيف صار خطيئتي التي تطوقني- أن ما وقع من أحداث كثيرة متفاوتة، مع فارق السن...».

عقب يورايا في تزلف وشفقة مصنعة بعد أن كشر عن أنيابه: «إنه التعبير الأمثل، كما تعرف يا سيد كوبرفيلد».

استأنف السيد ويكفيلد حديثه قائلًا: «... إن وجود شابة مثلها تتمتع بمفاتن جذابة، وأيًا ما كان الاحترام الذي تكنه لك احترامًا حقيقيًا، لكن لعلها قبلت بفكرة الزواج لاعتبارات دنيوية فقط. إنني لا أتغاضى عن المشاعر والظروف التي لا حصر لها وقد تكون كلها أقرب إلى الخير. فبحق رب السماء لا تنسَ هذه الاعتبارات».

قال يورايا وهو يومئ برأسه موافقًا: «ما أجمل هذه الكلمات!».

قال السيد ويكفيلد: «كنت أراقبها دومًا من هذه الناحية، لكني أستحلفك بكل عزيز لك يا صديقي القديم، وأناشدك أن تراعي ما قلته، لأنني مجبر الآن على اعتراف لا مفر منه إذ...».

يضيف يورايا منبهًا: «لا، لا مفر من الأمر يا سيد ويكفيلد، بعدما وصل الأمر إلى هذا الحد يا سيدي».

قال السيد ويكفيلد وهو يلقي نظرة خاطفة على شريكه في عجز وشطط: «إن هذا ما فعلته تمامًا، لقد شككت في أمرها، وظننت أنها تريد أن تتخاذل عن عهدها تجاهك. وإن كان لا بد لي من قول كل شيء، فإنني أود أن أقول إني كنت في بعض الأحيان أشعر بالجزع من اختلاط أجنيس بها، إذ تألفها، فلا ترى ضيرًا ولا تبصر ما أبصرته. لعل نظرتي لم تنطلق إلا من ملاحظة مريضة خيالية، إلا أنني لم أَبُح بهذا الأمر لإنسان، ولم أتعمد قَطُّ أن أشهر هواجسي لأي إنسان كان». استكمل السيد ويكفيلد حديثه في تأثر شديد: «وإن يكن سماع قولي سيكون فظًّا مؤلمًا لك، إلا أنك ستشفق على حالي، إن علمت كم يروعني البوح به».

مد الدكتور يده في صورة تلقائية طيبة. التقطها السيد ويكفيلد بيديه وأمسكها لفترة قصيرة بينما ظل مطأطئ الرأس.

تكلم يورايا بينما يتلوى في مكانه مثل ثعبان بحر، قائلًا: «إنني على يقين من أن هذا الأمر يحاوطه ما لا يُرضي أي إنسان. ونظرًا لأننا قد وصلنا إلى هذا الحد، فإنني سأتحرر من سكوتي لأذكر أن كوبرفيلد قد لاحظ الأمر نفسه أيضًا».

التفت إليه وسألته كيف يتجرأ على التحدث نيابة عني!

عاد يورايا يتلوى بجسده كاملًا، وراح يقول: «ياه! كم أنت كريم يا كوبرفيلد! إننا جميعًا نعلم مدى دماثة طبعك وطيبة روحك، لكنك

فهمت ما قصدته في اللحظة التي تحدثت فيها إليك في الليلة الماضية. إنك تعي وتعرف حقًّا ما قصدته يا كوبرفيلد. لا تنكر الأمر، إنك تنكره لنياتك الطيبة، لكن لا تفعل ذلك يا كوبرفيلد».

أبصرت عين الدكتور العجوز الطيبة وقد تحولت صوبي للحظة. شعرت أن الاعتراف بشكوكي وذكرياتي القديمة، كان قد سُطر على جبيني في جلاء، بحيث لا يمكن التغاضي عنه. صار لا جدوى من احتدام الموقف، ولا أستطيع التراجع عن الآن. سأبوح بما أكنه، فأنا لم أعد أستطيع النكران.

عاد الصمت يطوقنا مرة أخرى، وبقينا على حالنا حتى قام الدكتور وجال في الغرفة مرتين أو ثلاث مرات. عاد لتوِّه إلى مكانه المعتاد من كرسيه، مسندًا إليه ظهره، رافعًا منديله إلى عينيه في عفوية من حين إلى آخر، مما أكسبه في نظري شرفًا ومكانة تفوق أي تصنع أو مواربة مفتعلة لإخفاء مشاعره.

قال الدكتور: «لقد أثقلني اللوم. أتصور أنني الملوم إلى أبعد حد. لقد عرَّضت إنسانًا أحفظه في قلبي للاتهام والتشكيك، بما قد أسميه تشهيرًا، للحد الذي قد تتلبس فيه مخيلة أي إنسان بأوهام لم تقع قَطُّ. ولولاي لما تعرضت إلى كل هذه الافتراءات».

أصدر يورايا هيب نوعًا من النحيب. أتصور أنه افتعله ليعبر عن تعاطفه.

قال الدكتور: «بالطبع، إن آني بريئة من هذه الافتراءات، وليس من الممكن قَطُّ أن تنطبق عليها. إن الأمر بالنسبة لي لم يتجاوز كونه عارضًا. ويا أيها السادة، إني لا أخفي عليكم أنني قد صرت رجلًا هرمًا الآن، فلم أعد أشعر في أيامي هذه أنني أملك شيئًا لأحيا لأجله. أما حياتي... إن حياتي متوقفة على شرف ووجود هذه السيدة العزيزة التي هي محط حديثنا هذا».

لا أتصور أي تجسيد للشهامة والنبل أفضل مما جسده هذا الإنسان، بل إنه أجمل صورة حالمة قد يتخيلها رسام. فلا يمكن أن يظهر ما هو أكثر بيانًا وكرامة ورفعة من حديث ذاك الدكتور العجوز البسيط.

تابع حديثه قائلًا: «إنني لن أنكر أمرًا. لعلي أميل بدرجة ما إلى الاعتراف بأنني ربما أوقعت تلك السيدة -من دون أن أدرك وعن غير قصد- في شباك زواج تعيس. إنني رجل لم أعتد الملاحظة، ولا يسعني إلا أن أصدق أن ملاحظة عدد من الأشخاص من مختلف الأعمار والخبرات، أفضل من ملاحظتي، خاصة أنها تميل بشكل واضح إلى الأمر نفسه».

لقد أعجبت كثيرًا، كما وصفت الأمر في موضع آخر، بأسلوبه اللطيف وعطفه على زوجته الشابة. كانت المودة فائقة الاحترام التي أبداها في كل إشارة إليها في هذه المناسبة، وطريقته في إظهار تقديره لها، قد أبعدت أدنى شك في نزاهتها، ورفعت مكانته في ناظري إلى ما يفوق الوصف.

قال الدكتور: «لقد تزوجت هذه السيدة في سن صغيرة جدًّا. أدنيتها مني بينما لم تزل غضة تتشكل وتنمو. كان نضجها ونموها يزيدان

من سعادتي. كنت أعرف والدها جيدًا، كما كنت أعرفها جيدًا. لقد علمتها ما استطعت، لأنني أحببت فيها كل صفاتها الجميلة والمثالية. إذا أخطأت في توجيهها نحو صون فضائل مودتها وعاطفتها الصادقة، مثلما أخشى الآن أن أكون قد فعلت، فإنني لم أقصد ذلك قَطُّ. وما عليَّ سوى أن أطلب العفو من هذه السيدة، من كل قلبي».

جال في الغرفة ثم عاد إلى المكان نفسه، ممسكًا بالكرسي بقبضة جادة ترتجف مثلما لاح في صوته الجاد المرتعش.

راح يقول: «كنت أعتبر نفسي ملاذًا لها من مخاطر الحياة وتقلباتها. أقنعت نفسي أنها ستحيا معي في سكينة ورضا، على الرغم من التفاوت الجلي بين أعمارنا. لم أبعد عن تفكيري ذاك الوقت الذي يجب أن أتركها فيه حرة. إنها لم تزل شابة جميلة، كما أنها تبدو بأفكارها أكثر نضجًا - لا أيها السادة - أقسم إنني لم أغفل حقيقة أبصرها».

بدا أن شخصيته العطوفة قد توهجت من بين إخلاصه وكرمه. كانت لكل كلمة نطقها قوة لا يمكن أن تضاهيها موهبة أخرى.

قال: «كانت حياتي مع هذه السيدة سعيدة رغدة. لاحت أمامي فرص متواصلة ومتكررة حتى هذه الليلة، بت أحفل فيها باليوم الذي ظلمتها فيه بهذا الظلم الكبير إذ تزوجتها».

كان صوته يزداد ارتعاشًا بينما ينطق هذه الكلمات، توقف بعدها للحظات قليلة، ثم مضى يقول: «ها قد استيقظت من غفوتي. لقد كنت طوال حياتي حالمًا بالقليل، لكنني أدرك أنه من الطبيعي أن تشعر بالندم

والأسف على رفيقها العجوز، حين تقارن زوجها بأزواج مثيلاتها. أخشى أنها تنظر إليه بنوع من الأسف البريء، مع بعض الأفكار التي لا تلام عليها، فتفكر في شكل حياتها لو أنني لم أظهر بها. إن كثيرًا مما لاحظته، وإن لم أذكره، قد راودني من جديد بتفسير مغاير، خاصة في هذه الساعة الأخيرة المضنية. لكنني أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أيها السادة، إذ لا يصح أن يقترن اسم هذه السيدة العزيزة أبدًا بكلمة شك، أو هفوة شك».

توهجت عيناه لفترة وجيزة وساد صوته الثبات. لفه صمت لوهلة خاطفة مرة أخرى. ثم شرع لتوِّه يستعيد كلامه فمضى يقول: «لم يتبقَّ لي سوى أن أتحمل عاقبة التعاسة التي تسببت بها، وأن أخضع لها قدر استطاعتي. أما هي، فالأحرى لها أن تلوم فعلتي لا أنا من يلقي على كاهلها اللوم. لقد أصبح من واجبي إنقاذها من سوء الفهم القاسي والآثم، الذي لم يستطع أصدقائي تجنبه. أتصور أننا سننزوي بحياتنا عن الناس، إذ كلما ابتعدنا صارت حالنا أفضل. وعندما يحين وقتي -وقد يكون قريبًا، نسأل الله الرحمة!- فإن موتي سيحررها من القيود، وسأغمض عيني على صورة وجهها الكريم، في ثقة ومحبة لا حدود لهما. وسأتركها من دون جزع، لتحيا أيامًا أكثر سعادة وإشراقًا».

لم أتمكن من رؤيته لكثرة الدموع التي انهمرت من عيني أمام فطرته النقية وطيبة قلبه، والتي راحت تصوره في مكانة أبهى وأجمل بكل تلك البساطة المتناهية في أسلوبه. اتجه ناحية الباب، بينما أضاف قائلًا:

«أيها السادة، لقد أظهرت لكم مكنون قلبي، وإنني على يقين من أنكم ستحترمونه. ما قلناه الليلة لا يمكن أن يقال فيه أو يعاد. يا ويكفيلد، مد إليَّ ذراع الصديق القديم لأصعد إلى الطابق العلوي».

سارع السيد ويكفيلد إليه من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم خرجا ببطء من الغرفة معًا، بينما تابعهما يورايا باهتمام.

قال يورايا، مستديرًا إليَّ في خنوع: «حسنًا يا سيد كوبرفيلد، لم تأخذ الأمور المنعطف الذي كان متوقعًا، لأن المعلم العجوز -ويا له من رجل ممتاز!- يبدو متخبطًا كأعمى، لكن هذه العائلة في ظني قد تلاشك وتكسرت».

لم أكن بحاجة إلى شيء سوى سماع نبرة صوته، حتى يحتد جنوني إلى درجة لم أكن أتصورها، وبصورة لم أشهدها من قبل ولم أعهدها منذ تلك اللحظة.

قلت: «أيها الحقير، ماذا تقصد من توريطي في مخططاتك؟ كيف تجرؤ على مناشدتي الآن كما لو أننا كنا نتناقش معًا أيها الوغد الكاذب؟».

وقف كل منا في مواجهة مع الآخر. رأيت بوضوح وفي جلاء وجهه الحقيقي الخفي، الذي لم أكن قد عرفته على حقيقته قبلًا؛ أعني أنه راح يفرض عليَّ أسراره حتى أصير قليل الحيلة أمامه، ثم نصب لي فخًّا في هذا الأمر بالذات متعمدًا، حتى لا أستطيع الفكاك. ظهر خده النحيل بالكامل أمامي، فجذبني لصفعه بكفي بقوة حتى تخدرت أصابعي والتهبت كما لو أنني قد أضرمت بها النار فاحترقت.

التقط يدي وتجمدنا في هذا التلاحم ينظر كل منا للآخر. وقفنا على هذه الصورة لوقت طويل، وكانت فترة كافية لأرى علامات أصابعي البيضاء تتلاشى، فتصبغ اللون الأحمر القاني على صفحة خده، وقد اشتد احمرار وجهه.

قال في صوت متقطع لاهث: «يا كوبرفيلد، هل فقدت السيطرة على حواسك؟».

قلت منتزعًا يدي منه: «لقد فقدت أنت السيطرة على نفسك أيها الكلب، لن ألتفت إليك بعد الآن».

تحدث إليَّ بينما أجبره الألم على خده على أن يتحسسه بيده: «هل تجرؤ على تجاهلي؟ لعلك فاعل ما قلت، لكن أليس هذا التصرف منك الآن نكرانًا للجميل؟».

قلت: «لقد أوضحت لك كثيرًا أنني أحتقرك. وها قد أظهرت لك الآن بوضوح أكثر كم أكن لك من احتقار. لماذا أقيم وزنًا أو أخاف من إظهار أسوأ ما فيك من شر مكنون لكل من حولك؟ فأي فعل أنت مقترفه غير هذا الشر؟».

لقد فهم تمامًا بهذه الإشارة الظروف التي قيدتني وجعلتني على تواصل معه حتى هذه اللحظة. أظن أن صفعي له والإشارة التي لمَّحت بها إلى الظروف لم تكن لأتجاهلها، لولا الحوار الذي وقع بيني وأجنيس تلك الليلة، فالتزمت الصمت ولم أعد أعبأ يومها بما وقع.

ساد الصمت مرة أخرى وطال بنا السكون. بدا لي أن عينيه تنظران إليَّ فتتشكل بهما ظلال من ألوان تجعلهما أكثر قبحًا.

أزاح يده عن خده قائلًا: «يا كوبرفيلد، لقد كنت دائمًا تقف ضدي. أعلم أنك كنت دائمًا منحازًا إلى السيد ويكفيلد».

قلت ولم أزل في حالة من الغضب الشديد: «تصور ما تشاء، فإن لم يكن ظنك صحيحًا، فهذا لأنك الأجدر بسوء الظن».

أجاب قائلًا: «ومع ذلك كنت دائمًا معجبًا بك يا كوبرفيلد».

ترفعت عن الرد، فحملت قبعتي، وانصرفت متجهًا إلى فراشي، فإذا به قد أقبل عليَّ وحال بيني والباب.

قال: «يا كوبرفيلد، يظهر طرفان في أي شجار، إلا أنني لن أكون طرفًا فيه».

قلت: «فلتصاحب الشيطان».

فأجاب: «لا تقل ذلك، أعلم أنك ستأسف على ما قلته لي فيما بعد. كيف يمكنك أن تتصور نفسك أدنى مني، بحيث تُظهر هذه الروح السيئة؟ لكني أسامحك».

كررت في ازدراء وسخرية: «أتقول إنك تسامحني!».

أجاب يورايا قائلًا: «نعم، لا يمكنك منعي من أن أسامحك، وإن كان هجومك عليَّ لغريب. لقد كنت دومًا صديقًا لك. لا يمكن أن ينشب شجار من دون طرفين، ولن أكون طرفًا فيه. سأظل صديقًا لك رغمًا عنك. والآن تعرف أن عليك توقع هذا المسلك مني».

كان من الضروري الاستمرار في هذا الحديث بصوت منخفض. كان موقفه هادئًا للغاية، بينما كنت سريع الكلام جدًّا لا أتردد في الرد، لكن علينا ألا نزعج المنزل في هذه الساعة غير المناسبة. راحت حدتي تهدأ من دون أن تتحسن حالتي العامة. صار عليَّ إخباره أنني أتوقع منه ما كنت أرجوه دومًا، وأن أملي به لم يخِب يومًا. فتحت الباب وتجاوزته، فانشق أمامي كما لو كان حبة من جوز كبيرة وضعت هنا أمامي لتنفلق، ثم خرجت من المنزل. لم ينَم هو في المنزل كذلك بل ذهب إلى مسكن والدته، وقبل أن أبتعد عنه مئات الأمتار كان قد لحقني ورافقني.

همس في أذني من دون أن أدير رأسي ناحيته قائلًا: «أتعرف يا كوبرفيلد، إنك في مركز سيئ تمامًا».

شعرت أن كلامه صحيح، فصرت أكثر انزعاجًا، وإذا به يكمل قائلًا: «لا يمكن أن تتصور أن هذا الموقف درب من الشجاعة، ولا تستطيع رفض مسامحتي لك، كما أنني لا أنوي ذكر ما حدث لأمي أو لأي مخلوق حي. إنني مصمم على مسامحتك، لكني أتعجب بالفعل كيف مددت يدك على إنسان تعرف ضعته ومكانته».

شعرت وقتها فقط أنني أدنى منه منزلة. لقد عرفني أكثر مما عرفت نفسي. ولو أنه رد خطئي أو هاجمني علانية، لشعرت بالراحة وبررت موقفي، لكنه أوقد تحتي نارًا هادئة، ولم أزل محترقًا منذ منتصف الليل.

خرجت في الصباح، وكان جرس الكنيسة يصدر دقاته الأولى، بينما كان يتمشى مع والدته ذهابًا وإيابًا. خاطبني وكأن شيئًا لم يكن، فلم يسعني سوى الرد عليه. أظن أنني قد ضربته بقوة بما يكفي لإصابته

بألم في أسنانه. كان وجهه مغطى على أي حال بمنديل حريري أسود، كما اعتلت رأسه قبعة أبعد ما تكون عن الجمال. سمعت أنه ذهب إلى طبيب أسنان في لندن صباح الاثنين، وأنه قد اقتلع إحدى أسنانه، وإني لأرجو أن يكون قد اقتلع اثنتين.

قال الدكتور إنه مريض، فظل وحيدًا لفترات طويلة في الأيام التالية المتبقية من مدة الزيارة. لم يمر سوى أسبوع على عودة أجنيس ووالدها حتى استأنفنا عملنا المعتاد، وقد سلمني الدكتور بيديه في اليوم السابق للعمل ملاحظة مطوية غير مغلقة بإحكام. كانت موجهة إليَّ، وقد أفهمني، بكلمات حنونة مقتضبة، ألا أشير إلى أمر ذاك المساء مطلقًا. كنت قد أسررت به إلى عمتي، لكني لم أَبُح به لإنسان سواها، لأن موضوعها لم يكن لتطرح مناقشته مع أجنيس، وبالتأكيد لم يكن لدى أجنيس أدنى شك فيما حدث ولم تعلم عنه شيئًا.

كنت على قناعة تامة بأن السيدة سترونج لم تكن في أحسن حال في ذلك الوقت. مرت عدة أسابيع قبل أن ألحظ تغييرًا طفيفًا بها، فقد حدث لها تغير بطيء، كما تسير سحابة في سماء من دون أن تحركها الرياح. كانت في البداية تتساءل عن التعاطف والشفقة في الطريقة التي يتحدث بها الدكتور معها، وعن رغبته في أن ترافقها والدتها للتخفيف من رتابة حياتها الباهتة. كنا نجتمع للعمل في كثير من الأحيان وتجلس معنا، فأراه يتوقف عن العمل شاخصًا ببصره ناحيتها، يرمقها بوجه لا يُنسى. لاحظت بعد ذلك أنها تنهض أحيانًا بينما تمتلئ عيناها بالدموع فتغادر الغرفة، وقد هيمن ظل حزين على جمالها مع مرور الوقت،

وأخذ يتعمق أكثر فأكثر ويزداد قتامة. كانت السيدة ماركلهام تجلس كعاتها في المنزل آنذاك؛ تتحدث عن كل شيء من دون أن تبدي رأيًا ذا أهمية.

استولى هذا التغيير على حياة آني، واخترقها مثل أشعة الشمس المتسللة في منزل الدكتور. بدا الدكتور بعدها بمظهر أكبر سنًّا، وازداد هِرَمًا، لكن لين طبعه، ولطف سلوكه الهادئ، وعاطفته الطيبة تجاهها، جعلوه قادرًا على تحمل أي أعباء. رأيته ذات مرة، في وقت مبكر من صباح يوم عيد ميلادها، وقد جاءت للجلوس بجوار النافذة ونحن مشغولان بالعمل -كانت معتادة على جلوسها هناك دائمًا، لكنها صارت الآن تجلس في نوع من الخجل والتذبذب، في صورة أظنها مؤثرة للغاية- فتناول جبينها بين يديه وقبَّله، ثم انطلق بعيدًا في سرعة خاطفة، وتحرك بعيدًا عنها لتبقى هي مكانها. رأيتها جامدة في مكانها مثل التمثال، وقد طأطأت رأسها وشبكت يديها، ثم شرعت في البكاء. لا أستطيع أن أصف مدى حزني وأسفي عليها.

أحسب أنها حاولت التحدث معي في بعض الأوقات بعد ذلك الموقف، على فترات متباعدة كلما تُركنا بمفردنا، لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة. كان الدكتور يضع دائمًا بعض المخططات الجديدة لتسليتها، مثل التنزه في حدائق الألعاب بعيدًا عن المنزل مع والدتها والسيدة ماركلهام، التي كانت مغرمة جدًّا بمثل هذه الحدائق المسلية والألعاب، وغير راضية عن أي شيء سواها. لقد وطأتها من دون سابق معرفة بها، ثم جاهرت باستحسانها. أما آني فقد مضت تسير حيث أي مكان تساق

إليه، من دون أن تشعر بالسعادة، كما لو أنها بلا روح، ويبدو أنها لم تعد تهتم بأي شيء قَطُّ.

لم أعرف كيف أفكر في الأمر وكذلك عمتي، ولا بد أنها قد قطعت أميالًا داخل شرفتها جيئة وذهابة من شدة حيرتها، وكان الأغرب من ذلك كله هو أن الراحة الحقيقية الوحيدة التي شقت طريقها إلى هذه المنطقة السرية التعسة في منزلنا، قد تجسدت في شخص السيد دك.

إنني عاجز عن توضيح أفكاره حول الأمر، أو ملاحظته عنه، ولا أجرؤ على القول إنه كان سيطلب مني مساعدته لإيضاحها، إلا أنني دونت في قصتي مدى احترامه وتبجيله للدكتور الذي فاق الحدود، مع دقة في إدراك الأمور والمحافظة على الترابط الحقيقي لعلاقاته به. لقد احتمل هذا الإنسان أن يحيا في عباءة مخلوق ضعيف في هذه الدنيا، بينما يحوي أعلى درجات الذكاء. إن عقل وجوهر القلب الذي يحويه سيد دك ليسطع بنور الحقيقة داخله، إذا جاز لي أن أصفه بهذا الوصف.

لقد استعاد بكل فخر مكانته، بتلك الميزة التي كانت له قديمًا، إذ كان يسير متنزهًا في الحديقة مع الدكتور في ذهابه وإيابه في أوقات فراغه كما كان يفعل في كانتربري. أما الأمور فاختلفت عن عهدها القديم، لذلك كرس كل وقت فراغه، بل ونهض مبكرًا، لتطول المدة وتتسع لمشي أطول. تغمره سعادة لا يشعر بمثيلتها أبدًا عندما يقرأ الدكتور عليه جزءًا من القاموس بأدائه الرائع، بل مكث بائسًا حزينًا إلى أن يُخرج الدكتور القاموس من جيبه ويبدأ في تلاوة شيء منه. كنت أنشغل أنا والدكتور في العمل، فإذا بالسيد دك قد أَسَرَته عادة

المشي مع السيدة سترونج ذهابًا وإيابًا، وراقت له مساعدتها في تقليم زهورها المفضلة، أو إزالة الأعشاب الضارة عن أحواض النباتات. وإنني لعلى يقين من أنه نادرًا ما تحدث إليها، وأنه لم يتجاوز بحديثه بضع كلمات في الساعة. كانت رعايته الهادئة ووجهه الوديع، قد وجدا استحسانًا فوريًا بين جوانح الدكتور وزوجته، وعرف كل منهما أنه يحبهما، وأنه يبادلهما المحبة الخالصة، وقد أصبح الود رابطًا قويا لا يزحزحه إنسان.

كنت أحيانًا أفكر في أمره، فأستحضر هذا الوجه الحكيم الذي لا يمكن اختراق دواخله، وهو يسير مع الدكتور في كل مكان، مسرورًا بتأثره بالكلمات الصعبة في القاموس، وأتصوره بينما يحمل خلف آني قدورًا ضخمة لسقاية الزرع، يجثو على ركبتيه مرتديًا زوجًا من القفازات، في عمل مضنٍ دقيق، وهو فحص أوراق النباتات الصغيرة لتنقيتها من الآفات، معربًا في صورته عن عجز أي فيلسوف عن التعبير عن أفعاله. وإني لأتعجب من رغبته الشديدة في أن يصادقها، كما لو أنه يستحم بالمحبة والثقة والمودة في كل ثقب من ثقوب إناء السقاية. أفكر في أمره فلا أعجب من أنه لا يجول في عقله المدهش أبدًا أي مسمى للتعاسة، ولم يجلب حزن الملك تشارلز إلى الحديقة، ولم يتردد قَطُّ في أن يقدم خدماته، ولم يثنِ يومًا على معرفته بوجود خطأ ما، ولا عن رغبته في تصحيح الأمر - أشعر حقًّا بالخجل لأنني ظننت أنه لم يكن في كامل رشده، مع الأخذ في الاعتبار ما قمت أنا بفعله بكامل قواي العقلية التي استنفدتها.

راحت عمتي تبدي ملاحظتها بفخر عندما تحدثنا عن ذاك الأمر قائلة: «لا أحد غيري يعرف حقيقة هذا الرجل يا تروت، سيتفرد دك بعد حين بما يميزه».

يجب أن أشير هنا إلى موضوع آخر قبل أن أغلق هذا الفصل من الحكاية. لقد لاحظت خلال زيارة بيت الدكتور أن ساعي البريد يحضر رسالتين أو ثلاث رسائل في كل صباح ليورايا هيب، الذي كان قد أقام في هايجيت حتى عودة الباقين. حدث ذلك في أيام العطلة، وكانت الرسائل معنونة دائمًا بخط السيد ميكوبر وأسلوبه الرسمي. كان السيد ميكوبر قد تولى أمر المسؤوليات القانونية، وكان من دواعي فخري وسروري أن أستنتج من هذه المقدمات البسيطة، أن سيد ميكوبر كان يتقدم في عمله بشكل مميز. كانت من المفاجآت الضخمة أن أتلقى الرسالة التالية من زوجته الودودة في هذا الوقت تحديدًا.

«كانتربري، مساء الاثنين.

ستندهش بلا شك يا عزيزي السيد كوبرفيلد حين تتلقى هذه الرسالة، ولم يزل محتواها يحمل ما سيزيد من دهشتك. أذكرك قبل أي شيء بالثقة المتبادلة التي أرجو أن أفرضها بيننا وأتصور وجودها، ولم أكن لألجأ إلى هذا لولا أن مشاعري كزوجة وأم تتطلب نوعًا من راحة البال، ولا أرغب في استشارة عائلتي - التي تكن كراهية للسيد ميكوبر - فأنا لا أعرف أحدًا ألتمس مشورته أفضل من صديقي القديم والساكن السابق في بيتي.

لعلك تدرك، يا عزيزي السيد كوبرفيلد، أن بيني والسيد ميكوبر -الذي لن أتخلى عنه أبدًا- نوعًا من الثقة المتبادلة دومًا. قد يكون السيد ميكوبر قد كتب وثيقة مالية في يوم من الأيام من دون استشارتي، أو لعله قد ضللني فيما يتعلق بالفترة التي يصح فيها سداد مستحقاته المالية، وهذا ما حدث بالفعل. لم يكن سيد ميكوبر بشكل عام ليخفي أسرارًا على حبيبته -وأقصد زوجته- بل اعتاد دائمًا أن يحكي لي أحداث اليوم كله قبل أن نخلد إلى النوم.

لك أن تتخيل يا عزيزي السيد كوبرفيلد، ما ينتاب مشاعري، حين أبلغك أن سيد ميكوبر قد تغير تمامًا هذه الأيام. صار متحفظًا كما لو أنه يكتم سرًّا، وصارت حياته لغزًا على شريكة أفراحه وأحزانه - أشير مرة أخرى إلى أنني أقصد زوجته - وإذا أكدت لك أنه بخلاف معرفتي أنه يجلس من الصباح إلى المساء في المكتب، فإنني لم أعد أعرف عنه هذه الأيام سوى أقل القليل، كمعرفتي برجل يعيش في الجنوب، يخالط أناسًا منهم من يصبح حديث فمه كالأطفال الطائشين يرددون حكايات لا يفهمونها عن «عصيدة البرقوق الباردة». هكذا يجب أن أتبنى مقولة شعبية للتعبير عن حقيقة واقعة.

ولكن هذا ليس كل ما في الأمر. إن سيد ميكوبر قد صار كئيبًا متشددًا وعنيفًا، بعيدًا عن ابننا الأكبر وعن ابنتنا، ولا يظهر اعتزازه بتوأمه. يتطلع بعين فاترة إلى المخلوق الغريب -وإن لم يكن مؤذيًا على الإطلاق- والذي صار عضوًا جديدًا في أسرتنا مؤخرًا. أحصل منه على بعض النفقات المالية في صعوبة بالغة لتغطية نفقاتنا، والتي اقتضبناها

إلى أقصى حد، في ظل التهديدات المخيفة بأنه سوف يريح نفسه - على حد تعبيره الدقيق - ويرفض بلا هوادة تقديم أي تفسير أو أسباب لهذه السياسة المضطربة.

إنها لحال أصعب من أن تحتمل، بل إنه لأمر موجع. فإن تفضلت بإسداء نصحك لي في حدود معرفتك بقلة حيلتي وضعفي، فترشدني إلى أفضل تصرف أقوم به لحل هذه المعضلة. إنك بنصيحتك ستضيف إليَّ جميلًا آخر إلى كثير قدمته لنا. مع خالص التحية والمودة من الأطفال، وابتسامة من غريب لم يعِ شيئًا عن الحياة بعد، ولتعِش هانئًا يا عزيزي السيد كوبرفيلد.

من المنكوبة

إيما ميكوبر».

لم أشعر أن هناك مبررًا لإعطاء زوجة ذات خبرة مثل السيدة ميكوبر أي نصائح جديدة، سوى أن تحاول استعادة سيد ميكوبر بالصبر واللين - كما كنت أعرف أنها ستفعل ذلك على أي حال - لكن الرسالة جعلتني أفكر في أمره كثيرًا.



الفصل الثالث والأربعون

نظرة إلى الماضي

اسمحوا لي أن أتوقف هنا مرة أخرى عند فترة لا تنسى من حياتي. اسمحوا لي أن أتنحى فأراقب أشباح هذه الأيام تمر جانبي مصحوبة بظلي في موكب تعس حزين.

مرت أسابيع، وأشهر، وفصول، فلا تبدو أطول من أيام صيف جليلة أو أمسيات شتاء. تلوح اليوم بقاع الأرض التي سرت بها مع دورا نضرة، كحقل من ذهب لامع، فيترقرق لون البنفسج الخفي في أكوام وعناقيد تحت غطاء من الثلج، وتتلألأ صفحة النهر في اللحظة التي يتدفق فيها، حيث مسارنا بجواره في أيام الآحاد، تحت أشعة شمس الصيف، أو تتماوج صفحته مع رياح الشتاء، أو تتكاثف بأكوام الجليد المنجرفة. تمر الأيام أسرع من أي وقت مضى كنهر يجري نحو البحر، يومض، ثم ينطفئ، ويتدحرج موجه.

لم يتغير نمط الحياة في منزل السيدتين الصغيرتين كالعصافير. ظلت الساعة تدق فوق المدفأة، وزجاجة الطقس معلقة في القاعة. لم

تكن الساعة ولا زجاجة الطقس منضبطتين على الإطلاق، لكننا نؤمن بهما في إخلاص.

لقد بلغت مبلغ الرجال، وأشرفت على إتمام الواحد والعشرين. إلا أن بلوغ الرشد نوع من الكرامة التي تفرض على المرء أو يكسبها، فاسمحوا لي أن أفكر فيما حققته.

لقد روضت هذا الوحش الضاري، أقصد فن الاختزال، ورحت أحقق دخلًا لا بأس به من وراء احترافه، وحزت صيتًا عاليًا وشهرة لإنجازاتي في كل ما يتعلق بفروع هذا الفن، وجنيت أحد عشر جنيهًا آخر نظير نقل المناقشات البرلمانية إلى إحدى الصحف الصباحية. كنت أسجل ليلة بعد ليلة تنبؤات لا تتحقق أبدًا، ووعودًا لم تنجز قَطُّ، وتفسيرات لا تهدف إلا إلى الحيرة. رحت أتعثر أمام الكلمات، وأغوص في الألفاظ. إن بريطانيا، تلك الأنثى التعيسة تبدو أمامي دائمًا كما الطير المربوط؛ تخرقها أسياخ الشواء المتمثلة في الأقلام، أما رباط جناحيها برجليها فما هو إلا شريط أحمر. لقد تواريت تمامًا عن المشهد بما يكفي لأعرف قيمة الحياة السياسية، فأنا كافر تمامًا بها، ولن يُحوِّلني شيء عن ذلك طوال حياتي.

جرب صديقي العزيز ترادلز حظه في هذا الدرب نفسه، لكنه لم يتهيأ لهذا العمل ولم يناسبه. كان ترادلز يتمتع بقدر كبير من الفكاهة والسخرية في تعليقه على فشله في هذا العمل، فقد كان يذكرني دومًا بأنه كان يعتبر نفسه بطيئًا فلا يصلح لعمل يتطلب السرعة. كان قد حصل على عمل مؤقت في الصحيفة نفسها، ليكتب تقارير عن حقائق

بعض الموضوعات الجافة، ومن ثَم يصوغها من هم أفضل منه في صورة أفضل. استُدعي للمرافعة أمام القضاء، واستطاع بتفانيه واجتهاده وأخلاقه الحرية بالإعجاب، أن يوفر مائة جنيه أخرى دفعة واحدة، ليتدرب عند أحد المحامين المشتغلين في إجراءات التخصيص والملكية. احتسينا كمية كبيرة جدًّا من النبيذ الدافئ بعد عودته من مرافعته، وأحسب أن محكمة الأحوال المدنية قد حققت كسبًا لا بأس به من الرسوم التي رأى ترادلز أنها باهظة.

أما أنا فقد حصلت على قوتي من دروب أخرى، فأقبلت على الكتابة والتأليف برهبة وخوف. كتبت شيئًا بسيطًا سرًّا، ثم أرسلته إلى مجلة، وقد نُشر بها. تشرفت منذ ذلك الحين بكتابة بعض أعدادها، ومنذ ذلك الوقت صرت أكتب عددًا من القطع الأدبية المقبولة. صرت أتقاضى اليوم راتبي عنها بانتظام، وقد تيسرت الحال إجمالًا، وحين أحسب دخلي، فإنني أعد على أصابع يدي اليسرى فأجتاز الإصبع الثالثة وأقف عند المفصل الأوسط للإصبع الرابعة.

انتقلنا من شارع باكنجهام إلى كوخ صغير لطيف، قريب جدًّا من المنزل الذي تطلعت إليه، عندما أبديت حماسي للوهلة الأولى. كانت عمتي قد باعت منزلها في دوفر نظير صفقة جيدة، ومع ذلك لن تبقى هنا معي، لأنها تنوي الانتقال إلى منزل ريفي أصغر، قيمته في متناول اليد. فبماذا ينذر هذا الحدث؟ أينذر بقرب زواجي؟ نعم.

نعم، سوف أتزوج دورا. منحتنا الآنسة لافينيا والآنسة كلاريسا موافقتهما على الزواج، ففرحت طيور الكناري ورفرفت بأجنحتها في

رقة تفوق أي وقت مضى. كلفت الآنسة لافينيا نفسها بالإشراف على أمتعة وملابس حبيبتي، فانشغلت بقص «باترون» الثياب، وخاضت في محادثات واختلافات مع خياط يتمتع بشهرة واسعة، ويحمل حزمة مطوية ويتأبط مازورة قياس. ثم أقبلت خياطة تغرس دائمًا في صدرها إبرًا وخيطًا، وقد نشرت أدواتها في المنزل، حتى بدا لي أنها تأكل وتشرب وتنام من دون أن تخلع عن إصبعها الكشتبان قَطُّ. لقد جعلوا من حبيبتي عارضة أزياء؛ ينادونها فتأتي لتجرب ثوبًا أو تجرب فستانًا، حتى إننا لم نستطع أن نختلي ولم نهنأ ولو لخمس دقائق في المساء معًا، إذ تقبل إحدى الإناث المتطفلات وتقرع الباب قائلة: «هلا سمحتِ يا آنسة دورا بالصعود إلى الطابق العلوي».

أما آنسة كلاريسا وعمتي فتتجولان في جميع أنحاء لندن، لتكتشفا أماكن قطع الأثاث التي يمكن أن أقتنيها أنا ودورا، فتعودان لتخبرانا بأفضل ما علمتاه حتى نشاهده ونبتاعه دفعة واحدة، من دون إهدار الوقت في البحث. كنا نذهب لرؤية رف في مطبخ أو عارضة لتقطيع اللحوم، فترى دورا منزلًا صينيًّا لجيب، تعلوه أجراس صغيرة، فتنتبه إليه وتفضل ابتياعه. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا ليعتاد جيب مسكنه الجديد بعد أن ابتعناه، وراحت أجراسه جميعها تجلجل كلما دخل أو خرج منه، فينتابه خوف ورعب.

جاءت بيجوتي وانكبت على العمل على الفور، لتفيدنا بوجودها معنا. يبدو أن دورها يقتصر على تنظيف كل شيء مرارًا وتكرارًا. تقوم بفرك كل شيء يمكن فركه بصورة دائمة حتى يلمع، ليبدو ناصعًا مثل

جبهتها الصافية. بدأت الآن ملاحظة أخيها المنزوي، فإذا به يجول الشوارع المظلمة ليلًا. يتفرس الوجوه المتجولة بينما يسير، ولم أتحدث إليه في مثل هذه الساعة، لأنني أعرف جيدًا، مع مرور جسده أمامي في طريقه، ما يسعى إليه وما يخاف ملاقاته.

لماذا يبدو ترادلز جادًّا جدًّا عندما جاءني في مجلس العموم بعد ظهر هذا اليوم؟ كنت لم أظهر حضوري بين حين وآخر، للمحافظة على شكليات عملي، حالما يتوفر لديَّ بعض الوقت. لقد اقتربت من تحقيق أحلامي الشابة التي رجوتها كل يوم، وها أنا سأستخرج إذنًا للزواج.

إنها وثيقة صغيرة ولكنها تفعل الكثير. كان ترادلز يتأملها، حيث كانت موضوعة فوق مكتبي، ينظر إليها نظرة بين الإعجاب والرهبة. كانا اسما ديفيد كوبرفيلد ودورا سبنلو مدونين في خط تراثي حالم ومتشابك، وقد كتبت في الزاوية أسماء العائلتين، ولصق طابع باسم هذه المؤسسة الأبوية الحانية التي تهتم بمختلف معاملات الحياة الإنسانية، فبدت كما لو أنها تشرف على زواجنا. كان رئيس الأساقفة في كانتربري قد أنعم علينا بالبركة في عمل هذه المطبوعات لنا، وقد قام بذلك بمقابل بخس زهيد.

أشعر أنني على الرغم من كل ما مضى لم أزل في حلم، إنه حلم مرتبك، سعيد وعابر، لا أستطيع أن أصدق أنه سيتحقق بالفعل. كنت على الرغم من كل شيء لا أصدق أن كل إنسان مررت به في الطريق يعلم بوسيلة أو أخرى خبرًا عن أمر زواجي بعد غد. ذهبت لأداء القسم أمام وكيل الأسقفية، فعرفني وأنجز مهمتي كما لو أننا كنا نضمر عقدًا

للتفاهم بيننا. لم أطلب شيئًا من ترادلز على الإطلاق، ولكنه ظل حاضرًا بصفته الشاهد على صلاحي.

أقول لترادلز: «أرجو أن تأتي إلى هنا مرة ثانية يا صديقي العزيز، فأكون أنا مكانك وأشهد لك بالخير. أرجو أن يحدث هذا قريبًا».

أجاب: «أشكرك على أمنياتك الطيبة يا عزيزي كوبرفيلد. إنني لأرجو ذلك أيضًا. إنه لمن دواعي سروري أن أعرف أنها ستنتظرني مهما طال بي الوقت، وأنها حقًّا أعز فتاة».

سألته: «متى ستقابلها في العربة؟».

أجابني ترادلز ناظرًا إلى ساعته الفضية القديمة - الساعة ذاتها التي أخذ منها ترسًا في المدرسة ليصنع طاحونة مائية، قائلًا: «في السابعة. إنه وقت وصول السيدة ويكفيلد، أليس كذلك؟».

قلت: «ستصل بعد ذلك بقليل، إذ إن وقت وصولها هو الثامنة والنصف».

قال ترادلز: «أؤكد لك يا بني العزيز أنني مسرور كما لو أنني سأتزوج تقريبًا، وأحسب أن هذه الواقعة تقترب من نهاية سعيدة. إن الصداقة الوطيدة التي تربطنا، ودعوتك الكريمة لصوفي في هذه المناسبة السعيدة، ومشاركتها لتكون وصيفة الشرف بالاشتراك مع الآنسة ويكفيلد؛ أمور تتطلب مني جزيل الشكر، وإنني لممتن غاية الامتنان».

سمعته وصافحته، ورحنا نتحدث ونمشي ونتناول بعض الأطعمة وما إلى ذلك، لكني لا أصدق، فلا شيء من ذلك يبدو حقيقيًّا.

تصل صوفي في الوقت المناسب إلى منزل عمتَي دورا. تحمل وجهًا هو الأكثر قبولًا دون غيره. إنها ليست جميلة إطلاقًا، لكنها جذابة بصورة استثنائية - إنها واحدة من أكثر المخلوقات لطفًا. كما أنها غير مقلدة لغيرها، تبعد عن التصنع، ولبقة في تعاملها. قدمها ترادلز لنا بفخر كبير واعتزاز، وقد فرك يديه لعشر دقائق كاملة، بينما فزعت كل شعرة فوق رأسه مقشعرة منتصبة فوق منبتها، عندما هنأته في زاوية البيت على حسن اختياره.

أحضرت أجنيس عربة من كانتربري، وقد أطلَّت بوجهها البهيج والجميل بيننا للمرة الثانية، وقد تجانست مع ترادلز إلى حد كبير. كان من الرائع رؤية هذا اللقاء وملاحظة ازدهار ترادلز بينما يقدم لأجنيس أعز فتاة في العالم ويثني عليها.

ما زلت لا أصدق ما يجري. إننا نقضي أمسية ممتعة في سعادة بالغة، وعلى الرغم من ذلك لا أصدق ما يحدث حتى هذه اللحظة، لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي، لا يمكنني التيقن من سعادتي لأنها بالفعل تتحقق، أشعر أنني في حالة ضبابية وغير مستقرة، كما لو أنني قد استيقظت مبكرًا في صباح منذ أسبوع أو أسبوعين، ولم أنم منذ ذلك الحين. لا أستطيع أن أدرك ما وقع في الأيام الخوالي. يبدو أنني حملت إذن الزواج في جيبي لعدة أشهر متتالية.

ذهبنا جميعًا في اليوم التالي لمشاهدة المنزل -منزلنا؛ أنا ودورا- لا يمكنني اعتبار نفسي سيدًا على هذا البيت. كنت أشعر أنني سأسكنه بإذن من إنسان آخر، بل أتوقع قدوم سيده الحقيقي في أي وقت، فيقول

إنه سعيد لرؤيتي. يبدو أنه منزل صغير جميل، يحوي كل شيء مشرق وجديد. تصحبه أزهار مطلة من السجاد لتبدو كما لو أنها قد جمعت حديثًا، وتطل منها الأوراق الخضراء على أفرعها كما لو أنها قد خرجت للتوِّ من عناقيدها، فتتناغم مع الستائر المصنوعة من التل الناصع، والأثاث الوردي بلون حمرة الخجل. ترافقني دورا وقد زينتها قبعة الحديقة ذات الشريط الأزرق - هل أتذكر الآن كيف أحببتها مطلة في قبعة أخرى مثلها حين رأيتها لأول مرة! - كانت تعلق مشبكها الصغير، بينما يظهر الجيتار في المنزل منتصبًا تمامًا على حوافه عند الزاوية. ظل الجميع يتعثر في بيت جيب الصيني، الذي بدا أكبر من أن يتسع له بيتنا الصغير.

إنها أمسية سعيدة أخرى، حالمة تمامًا، مثل كل ما فات من أحلام، أتخيلها بينما لم أزل في الغرفة المعتادة قبل مغادرتي، ولم تكن دورا بها. أظن أنهم لم ينتهوا من عملهم بعد. لقد اختفت الآنسة لافينيا، وأخبرتني في ظروف غامضة أنها لن تطيل المغيب. كانت غيبتها قد طالت نوعًا ما، إلا أنه بمرور الوقت كان قد تناهى إلى سمعي حفيف لثوب عند الباب، وإذا بشخص ما يقرعه. قلت: «ادخل»، بينما عاود هذا الشخص قرع الباب مرة أخرى.

توجهت إلى الباب متسائلًا من يكون، فإذا بي ألتقي بعينين لامعتين ووجه خجول. إنهما عينا دورا ووجهها، وقد ألبستها آنسة لافينيا فستان الغد وكذلك القبعة، بل ألبستها كل شيء لأبدي رأيي فيه. ضممت زوجتي الصغيرة نحو فؤادي، فأصدرت آنسة لافينيا صوتًا يشبه الصراخ،

لأنني أسقطت عنها القبعة. تضحك دورا ثم تبكي في اللحظة نفسها. أما أنا فكنت في غاية السعادة، وظننت أنني أقل تصديقًا لما يجري من حولي من أي وقت مضى.

قالت دورا: «هل تظن أنه جميل يا دودي؟».

لعلي أجبتها مرددًا كذلك كلمة: «جميل».

راحت دورا تسأل: «وهل أنت متأكد من أنك تحبني كثيرًا؟».

كانت هذه المحادثة محفوفة بنوع من خطر يهدد القبعة، فأطلقت الآنسة لافينيا صرخة صغيرة أخرى، وطلبت مني أن أفهم أن عليَّ أن أنظر إلى دورا فقط، من دون أن ألمسها بأي حال من الأحوال. كانت دورا قد وقفت لهذا السبب في حالة من الارتباك الممزوج بالبهجة لدقيقة أو دقيقتين، لتحظى بإعجابي، ثم خلعت القبعة -كانت تبدو طبيعية جدًّا من دونها- ثم هربت ممسكة بها في يدها. تعود مرة أخرى لتتراقص أمامي في ثوبها العادي، وتسأل جيب عما إذا كنتُ قد ظفرت بزوجة صغيرة جميلة أم لا، وهل سيسامحها على زواجها. تنثني ناحيته ليقف على كتاب الطبخ، للمرة الأخيرة في حياة العزوبية.

أعود إلى المنزل في حالة أشبه بحلم لم أشهده قَطُّ، مستشعرًا إرهاقًا حتى وصولي إلى مهجعي. استيقظت في وقت مبكر جدًّا من صباح اليوم التالي، سالكًا طريقي إلى هايجيت لإحضار عمتي.

لم أرَ عمتي في مثل هذه الحالة من قبل. كانت ترتدي لباسًا من حرير بلون اللافندر، وقبعة بيضاء جعلتها تبدو فاتنة، لقد ساعدتها

جانيت على اختيار ثوبها كما أنها زينتها كذلك، ثم انتظرت إبداء رأيي في ملبسها. كانت بيجوتي مستعدة للذهاب إلى الكنيسة، وقد اعتزمت مشاهدة الحفل من صحنها. أما السيد دك، الذي سيسلمني حبيبتي عند المذبح، فقد هذب شعره وأصلح من مفرقه. قابلت كذلك ترادلز في الطريق مرتديًا مزيجًا رائعًا من اللون الكريمي والأزرق الفاتح. أضفى ترادلز والسيد دِك نوعًا من الجاذبية بوجه عام بارتدائهما قفازات أنيقة.

لا شك أنني ألمح هذه التفاصيل التي أعلم بوجودها، لكني جاهل كذلك بتفاصيل أخرى لا أعلم عنها شيئًا، وأكاد لا أصدق شيئًا على الإطلاق. كنا نسير في عربة مكشوفة، بينما أفكر في أن هذا الزواج الساحر يبدو حقيقيًّا إلى الحد الذي أشعر معه برثاء عجيب على هؤلاء التعساء الذين لم يشاركوا فيه، لأنهم يهدرون أوقاتهم في الذهاب إلى المتاجر، وإلى وظائفهم اليومية بدلًا من معاينة هذا السحر.

ظلت يد عمتي قابضة على كفي طوال الطريق. توقفنا على مسافة قصيرة من الكنيسة حتى تنزل بيجوتي، لأنها جلست معنا داخل العربة. شدت عمتي على يدي واعتصرتها ثم قبلتني قائلة: «بارك الله فيك يا تروت، إن كان لي ابن فلن يكون أعز منك أبدًا. لم أزل أفكر في طفلي العزيز منذ الصباح إلى الآن».

قلت: «وأنا كذلك، وإنني لمدين لكِ يا عمتي العزيزة».

تقول عمتي: «كفى يا تروت الصغير»، ثم تمد يدها في مودة خالصة إلى ترادلز، الذي يمد يده بعد ذلك إلى سيد دك، الذي يطلق بدوره يده لي، ثم أبسط يدي نحو ترادلز، حتى نصل إلى باب الكنيسة.

إنني متأكد من أن الكنيسة هادئة تمامًا، لكنها باتت في خيالي مزدحمة، كما لو أنها مغزل يعمل بقوة اندفاع البخار، فلا تهدأ أعصابي برؤيتها. كنت قد أطلق العنان لخيالي لأحلق بعيدًا شارد الذهن. صار ما تبقى من أحداث كما الحلم المفتت بلا رابط في مخيلتي.

إنه حلم من قدومهم مع دورا، مع انحناءة متفق عليها كما الحراس أمام أعمدة المذبح. إنه حلم تساءلت فيه عن هذا الموقف، وما السر في أن يكن المنظمات دائمًا من أقبح النساء هيئة في العالم، وما إذا كان ثمة تخوف ديني من انتشار عدوى تغلب فيها روح الدعابة والمرح، مما يقتضي وضع كل هذه الأوعية من الخل في الطريق إلى الجنة.

إنه حلم من ظهور القسيس والخادم عند الهيكل، مع عدد قليل من البحارة، وبعض الأشخاص الآخرين الذين يتجولون في صحن الكنيسة. ظهر ملاح قديم خلفي، فحلت رائحة قوية بالكنيسة أحدثها شراب الروم. ثم بدأت المراسم بالتراتيل بصوت عميق أجش، بينما وقفنا جميعًا في خشوع عظيم.

إنه حلم من ظهور آنسة لافينيا وصيفة للعروس أو أشبه بالمساعدة، وقد كانت أول من بكى -وأظن أنها كانت تبكي تبجيلًا لذكرى بيدجر- فتنهدت الآنسة كلاريسا وناولتها كأسًا من مادة فوارة لتنعشها. أما أجنيس فقد كانت ترعى دورا، بدلًا عن عمتي التي حاولت أن تُظهر نوعًا من الصرامة، فإذا بالدموع تنهمر على صفحة وجهها. بدت لي دورا الصغيرة مرتجفة مرارًا، بينما راحت تغمغم بردودها في همسات خافتة.

إنه حلم من ركوعنا معًا جنبًا إلى جنب، مما جعل ارتجافة دورا تهدأ شيئًا فشيئًا، لكنها أبقت دائمًا على تمسكها بيد أجنيس. أخذت المراسم تتوالى في هدوء وجدية، بينما أخذ كل منا ينظر إلى الآخر في تبادل للابتسامات والدموع. انقضت المراسم، فراحت زوجتي الشابة تبكي على أبيها المسكين في حالة هستيرية، يا لأبيها العزيز!

إنه حلم من سرعة ابتهاج زوجتي مرة أخرى، ووقوفنا جميعًا في حلقة لتوقيع عقد الزواج. ذهبت إلى المذبح كي أحضر بيجوتي للتوقيع على العقد، فعانقتني في زاوية بعيدة، وقد ذكرتني أنها قد شهدت على زواج والدتي العزيزة من بدايته حتى نهايته، وكذلك شهدت رحلة حياتي وزواجي.

إنه حلم أسير فيه عبر الممر في فخر وزهو متأبطًا ذراع زوجتي اللطيفة، وسط سحاب من وجوه الناس والمنابر، والتماثيل، والمقاعد، والأرغن، وأعضاء الكنيسة ونوافذها، كما راحت أجواء خافتة من ذكريات طفولتي عن كنيسة موطني ترفرف حولي من زمنها البعيد.

إنه حلم من تهامس الحاضرين من حولنا إعجابًا بالزوجين الشابين، وجمال العروس الغضة الفاتنة. إنه حلم من المرح والثرثرة التي لفتنا ونحن عائدون في العربة، وقد حكت لنا صوفي كيف فقدت وعيها في أول مرة التقت فيها بترادلز الذي أوكلتُ إليه حمل رخصة الزواج، فإذا به يسأل عنها ويتحسس جيوبه، بعد أن ألمحت صوفي أنه قد فقدها بالتأكيد أو انتشلت من جيبه. إنه حلم من ضحكات أجنيس المرحة، ومحبة دورا لها لدرجة أنها لم تنفصل عنها، ولم تترك يدها.

إنه حلم من إعداد فطور مكتظ بكل ما هو شهي ومتنوع من مأكل ومشرب، بينما أشارك تذوقها كما يشارك حالم في حلم آخر بالطعام، فيتذوق الملذات من دون أدنى إدراك لكنهها، كما لو أنني لم آكل ولم أشرب على مائدة سوى الحب والزواج، فلا أدرك حقيقة أي شيء ولا أجد مؤونة أخرى تضاهيه.

إنه حلم من إلقاء خطاب بنفس الأسلوب الحالم، من دون أن أحمل أي فكرة عن مقصد قولي أو هدفه، بما يتجاوز ما يمكن فهمه، وأنا في اقتناع كامل بأنني لم أقله. إنه حلم بأننا سعداء في مجتمع بسيط (كما الحلم الدائم في المنام)، بينما يتمتع جيب بكعكة زفاف هو الآخر، على الرغم من أنها أرهقت معدته بعد ذلك.

إنه حلم من مجيء عربة تجرها الخيول بزينتها، وقد انطلقت دورا لتبديل ملابسها في حين بقيت عمتي والآنسة كلاريسا معنا، بينما نسير في الحديقة. أما عمتي فقد ألقت خطابًا رائعًا حين تناولنا الإفطار بينما أشارت إلى عمتَي دورا في سعادة بالغة، وقد شعرتا بالزهو أيضًا من هذه الخطبة العظيمة.

إنه حلم من كون دورا متأهبة، وقد أحاطت بها الآنسة لافينيا كما لو أنها تخشى من أن تفقد اللعبة الجميلة التي منحتها الكثير من الرعاية في متعة ولذة. إنه حلم تبدي دورا فيه سلسلة طويلة من الاندهاشات لسهوها عن عدد من الأشياء الصغيرة، وتسابق الجميع بالركض في كل مكان لجلبها لها.

إنه حلم من التفاف الجميع حول دورا، حين شرعت في توديعهم قبل الانصراف، وقد التفوا حولها مثلما التفت زهور ملابسهم وألوانها و شرائطهم ، فبدوا مثل بستان من زهور، ثم إقبالهم على معانقتها حتى بدت كالمختنقة بحبائل من أزهار وقد اختلط الضحك والبكاء معًا، متكئة إلى ذراعَي الغيورتين.

إنه حلم من حملي لجيب (الذي سيرافقنا)، وإصرار دورا بقولها لا على أن تحمله هي، وإلا فإنه سيظن أنها لم تعد تحبه بعد أن صارت الآن متزوجة مما قد يكسر قلبه. إنه حلم من انطلاقنا متشابكي الأذرع، بينما تلتفت دورا ناظرة إلى الوراء وهي تقول: «إذا كنت قد تشاجرت في يوم من الأيام مع أحد أو ضايقت أي إنسان، فليغفر لي وليسامحني»، ثم انفجرت في البكاء.

إنه حلم من تلويحها بيدها الصغيرة، ورحيلنا مرة أخرى، ثم توقفها من جديد والتفاتها إلى الوراء مهرولة إلى أجنيس، لتهبها، دون أي إنسان سواها، آخر قبلاتها ووداعها.

نبتعد معًا، وأستيقظ من الحلم. أصدق في النهاية ما حدث. ها هي ذي زوجتي الصغيرة العزيزة الغالية، تدنو بجانبي، وأنا من يهيم بها عشقًا.

تسألني دورا: «هل أنت سعيد الآن أيها الولد الأحمق؟ أمتأكد من أنك لست نادمًا؟».

لقد وقفت بمعزل لأرى شبح تلك الأيام والأحداث تمر أمامي. لقد رحلوا عني، وها أنا أستأنف الرحلة إلى قصتي.

الفصل الرابع والأربعون

تدابير منزلنا

كانت الأمور مدهشة، فقد انتهى شهر العسل، وعادت وصيفتا العروس إلى بيتهما، فوجدت نفسي جالسًا في منزلي الصغير مع دورا، بلا عمل على الإطلاق، إجلالًا لهذا العمل المتعلق بالمهنة القديمة اللذيذة المتمثلة في ممارسة الحب.

لم أكن قد اعتدت وجود دورا هنا دومًا ترافقني، فقد كان أمرًا غير عادي، وصرت بلا شك غير مضطر إلى الخروج لالتماس رؤيتها، ولم يبقَ ما يدفع مهجتي إلى التهافت لمعرفة حالها، ولست مضطرًّا إلى مراسلتها، ولن أخطط لمكيدة أو أنتهز الفرصة لأختلي بها. مرت بي إحدى الأمسيات، كنت أرفع بصري عما أكتبه أحيانًا، فأراها جالسة في الجهة المقابلة مني، أتكئ على الكرسي وأفكر كم صار الأمر غريبًا بأن صرنا وحدنا معًا -لم يعد بالطبع لأحد أن يعبأ بأمرنا- أما جملة عواطفنا الحالمة في خطوبتنا فقد آلت إلى الرف، لتصدأ -فلم يسعَ أي منا لإرضاء الآخر- إذ لم يبقَ أمام أي منا سوى الرضا بالآخر مدى الحياة.

كنت أنشغل بحضور مناقشات برلمانية أحيانًا، فأضطر إلى المكوث في عملي خارج المنزل حتى وقت متأخر جدًّا من الليل، فإذا بي أفكر في طريق عودتي إلى المنزل أنه كم يبدو غريبًا لي أن أصل إلى المنزل فأجد دورا تنتظرني فيه في هذه اللحظة! كانت الأمور رائعة في البداية، حين تأتي إليَّ دورا لتتحدث معي في رقة بينما أتناول العشاء، ويا للروعة إذ أدرك أنها تركت أثرًا من شعرها بين أوراقي، فقد كانت رؤيتي لها حدثًا مذهلًا آسرًا.

لست أعرف ما إذا وُجد عصفوران صغيران قليلَي الخبرة، يجهلان تدابير المنزل، كما كنت أنا ودورا الجميلة. كنا بالطبع قد جلبنا إلينا خادمة، لتدير شؤون المنزل بدلًا عنا، ولم أزل أضمر ظنًّا بأن هذه الخادمة هي ابنة السيدة كروب، إلا أنها تخفي حقيقتها. لقد عانينا في هذه الفترة أشد معاناة من ماري آن.

كان تدعى باراجون، وكان طبعها غير مألوف لنا. أحضرت لنا شهادة بحسن سيرها وسلوكها، مكتوبة على روقة عريقة، فكانت أشبه بالمنشور يفصل بالذكر أنها تستطيع القيام بجميع الأعمال المنزلية التي سمعت عنها، أو لم أسمع عنها طوال حياتي. كانت فتاة شابة في مقتبل العمر، ذات وجه حاد الملامح، به تصبغات خاصة فوق الذراعين، وآثار طفح تشبه الحصبة الدائمة أو الالتهاب الجلدي. كان لديها ابن عم، يعمل ضمن فريق الحرس الخاص، ذو رجلين طويلتين، حتى إنه يتراءى لي كما لو أنه ظل لإنسان آخر وقت الظهيرة، وكان يرتدي سترة عسكرية صغيرة جدًّا لا تناسب حجمه، كما كان أضخم من أن يحويه

البيت الصغير، لأنه لا يتناسب مع حجمه على الإطلاق، كما أن جدرانه كانت رقيقة. كان كلما نزل في بيتنا أدركنا وجوده في المساء، حيث نستمع إلى همهمة مستمرة صادرة من المطبخ.

كان القدر رفيقًا بنا وكنا سذجًا، لذلك كنت مستعدًّا لتصديق أنها كانت في نوبة عصبية عندما وجدنا متاعنا ملقى تحت المرجل، وأن نقص ملاعق الشاي التي اختفت يعود إلى الكناس الذي ضيعها أو سرقها.

راحت سرًّا تنهش عقولنا في شراسة، فأحسسنا بقلة خبرتنا، وعجزنا عن مساعدة أنفسنا، فكان علينا أن نندس تحت رحمتها، إذا كانت تعرف أيًّا منها، لكنها كانت امرأة قاسية لا تعرف عزيزًا أو غاليًا. كانت كذلك سببًا لمشاجرتنا الصغيرة الأولى.

قلت لدورا ذات يوم: «يا حبيبة عمري، هل تظنين أن ماري آن لديها أي فكرة عن تنظيم الوقت؟».

سألت دورا وهي تنظر ببراءة بينما تكمل رسمها: «لماذا يا دودي؟».

«لأن الساعة الآن الخامسة يا حبيبتي، وكنا نتناول الغداء في الساعة الرابعة».

نظرت دورا بحزن إلى الساعة، وألمحت إلى أنها كانت تتصور أن الوقت لم يمر بهذه السرعة.

قلت وأنا أنظر إلى ساعتي: «بالعكس يا حبيبتي، لقد مر الوقت بطيئًا جدًّا».

اقتربت زوجتي الصغيرة مني وجلست على ركبتي، حتى تحثني على الهدوء والسكينة، ثم رسمت خطًّا بقلمها الرصاص في منتصف أنفي، وكم كانت هذه الحركة لطيفة لكنها لن تغنيني عن الغداء.

قلت: «ألا تظنين يا عزيزتي أنه من الأفضل لكِ أن تعترضي على ما تفعله ماري آن؟».

أجابت دورا: «آهٍ، لا، من فضلك لا تقل هذا».

سألتها في لين: «لمَ لا يا حبيبتي؟».

قالت دورا: «آهٍ، لأنني مثل إوزة صغيرة بلهاء، وهي تعرف أنني كذلك».

أدركت أن هذا الشعور اللين لن يتوافق مع إنشاء أي نظام للإشراف على ماري آن، مما جعلني أعبس قليلًا.

قالت دورا: «آهٍ، يا لهذه التجاعيد القبيحة المرتسمة على جبين الولد الشرير»، قالتها بينما لم تزل فوق ركبتي، تلعق قلمها وتضعه بين شفتيها الورديتين لتجعل خطه أكثر اسودادًا ثم ترسم خطًّا فوق تجاعيد جبيني، بينما تحاول فرد جبيني في صورة مضحكة وغريبة من كونها مجدة فيما تفعل، مما أسعدني تمامًا على الرغم مما يختلجني.

قالت دورا: «ها هو طفلي المطيع، يصير وجهه أجمل بكثير حين يضحك».

قلت: «لكن يا حبيبتي...».

صرخت دورا قائلة: «لا، لا، من فضلك»، ثم طبعت قبلة على خدي قائلة: «لا تكن مثل صاحب اللحية الزرقاء[١]، لا تكن جادًّا».

قلت: «يا زوجتي الغالية، يجب أن نكون جادين أحيانًا. تعالي، اجلسي على هذا الكرسي بجواري. أعطني القلم الرصاص، هيا، هيا نتحدث الآن بحكمة. إنكِ تعلمين يا عزيزتي»، يا لها من يد صغيرة فاتنة أمسكها، ويا له من خاتم زفاف صغير بالكاد يرى بين أناملها! «كما تعلمين يا حبيبتي أنه ليس من المريح تمامًا أن أضطر إلى الخروج من دون غداء الآن، أليس كذلك؟».

أجابت دورا بصوت خافت: «لا، لا».

«حبيبتي، لمَ ترتجفين؟!».

صاحت دورا في نبرة بائسة تثير الشفقة: «لأنني أعرف أنك ستوبخني».

«يا حلوتي، إنني أستمع فقط إلى صوت العقل وأناقشكِ».

صاحت دورا في يأس قائلة: «آهٍ، إن هذه المناقشة أسوأ من التوبيخ، لم أتزوج لأستمع إلى مناقشات. إذا كنت تقصد إدارة محاورات مع مثل هذا الشيء الصغير المسكين، فيجب أن تخبرني بذلك أيها الفتى القاسي».

---

(١) كتب شارل بيرو قصة عن قاتل متسلسل قتل زوجاته وأخفى جثثهن في غرفة مغلقة، بعد أن منعهن من فتح باب غرفة معين في غيابه، لكنهن لم ينفذن أوامره فقتلهن، وقد سُمي بـ«صاحب اللحية الزرقاء».

حاولت تهدئة دورا، لكنها أشاحت بوجهها عني، وهزت خصلات شعرها من جانب إلى آخر، ثم أردفت قائلة: «إنك فتى قاسٍ قاسٍ»، كررتها مرات عديدة، حتى إنني لم أدرِ ماذا أفعل، فرحت أتجول بالغرفة عدة مرات ذهابًا وإيابًا في قلة حيلة من أمري، إلى أن رجعت إليها مرة أخرى.

قلت: «يا دورا، يا حبيبتي».

عادت دورا تقول: «لا، إنني لست حبيبتك. لا بد أنك نادم على الزواج بي، وإلا فلا تفكر في مثل هذه النقاشات معي».

شعرت بالألم الشديد لهذه الطبيعة غير المنطقية لإلصاق هذه التهمة بي، فتشجعت لأبدو حازمًا جادًّا فقلت: «إنكِ الآن يا دورا تسلكين مسلك الأطفال، وتتفوهين بكلام ليس له معنى. إنني واثق من أنكِ تتذكرين أنني اضطررت إلى الخروج أمس من دون تناولي الغداء لأنه لم يكن قد أعد بعد، وأنني شعرت أول أمس بتوعك بسبب اضطراري إلى تناول اللحم بسرعة ولم يكتمل نضجه بعد، أما اليوم، فلا أتناول الغداء على الإطلاق. أخشى أن أذكركِ كم من الوقت انتظرنا لتناول الإفطار، وبعد أن طال انتظارنا لم يكن الماء قد أتم الغليان. إنني لا أقصد لومكِ يا عزيزتي، لكن هذا أمر غير مريح».

صرخت دورا قائلة: «آه، إنك أيها الفتى القاسي تقول إنني زوجة بشعة».

قلت: «يا عزيزتي دورا، يجب أن تعلمي في هذه اللحظة أنني لم أَقُل ذلك قَطُّ».

صرخت دورا تجيبني: «قلتَ إنني غير مريحة!».

«لقد قلتُ إن إدارة شؤون المنزل لم تكن مريحة».

صاحت دورا: «إنه نفس الشيء بالضبط»، كان من الواضح أنها ظنت أن هذا هو مقصد كلامي، لأنها بكت بشدة.

تجولت مرة أخرى داخل الحجرة، وأنا مفعم بالحب لزوجتي الجميلة، فشتت انتباهي بشعوري بالذنب والظلم حتى هممت بمعاقبة نفسي وطرق رأسي بالباب. جلست مرة أخرى وقلت:

«إنني لا ألومكِ يا دورا. إن لدينا الكثير لنتعلمه، لكنني أحاول فقط يا عزيزتي أن أرشدكِ إلى ما يجب عليكِ فعله، يجب عليكِ حقًّا...» -زاد تأكيدي وتصميمي على عدم التخلي عن هذا التعبير- «يجب أن تُعوِّدي نفسكِ على الإشراف على ماري آن، وفوق ذلك كله أن تؤدي عملًا ولو يسيرًا لراحتكِ وراحتي».

قالت دورا بينما تنتحب بشدة: «إنني أندهش حقًّا حين تتفوه بمثل تلك الأحاديث الجائرة. إنك تذكر ذاك اليوم، عندما قلت إنك ترغب في تناول القليل من السمك، خرجت بنفسي، سرت لأميال وأميال، وأحضرت ما طلبت، لأفاجئك».

قلت: «كان ذلك لطفًا منكِ يا حبيبتي، وقد أحسست بالامتنان العظيم لموقفكِ، حتى إنني لم أنبهكِ للثمن الذي اشتريتِ به سمك السلمون - والذي كان يفوق ما يحتاج إليه شخصان. ولم أنبهكِ إلى أن كلفته كانت جنيهًا وستين بنسًا، وهو ما يزيد على نفقاتنا».

بكت دورا قائلة: «لقد استمتعت به كثيرًا، وقلت إنني كنت كالفأرة».

أجبتها قائلًا: «لم أزل أمتدحكِ بهذا القول مرة أخرى يا حبيبتي، بل أكرر مدحي ألف مرة».

إلا أنني كنت قد جرحت قلب دورا الصغير الرقيق، ولم يكن هذا ليشعرها بالسكينة. كانت مثيرة للشفقة في بكائها ونحيبها، لدرجة شعرت فيها أنني لا أعي ما الذي يؤذيها في قولي. اضطررت بعدها إلى الإسراع بالخروج، ومكثت خارج البيت لوقت متأخر وقد اختلجتني طوال الليل آلام الندم، فبت معذب الفؤاد تعسًا. اعتصرني ضميري كما لو أنني قاتل، وكان يطاردني شعور غامض بالإثم الهائل الذي اقترفته.

وصلت إلى المنزل وقد جاوزت منتصف الليل بساعتين أو ثلاث ساعات، لأجد عمتي جالسة في منزلنا تنتظرني.

قلت في انزعاج: «هل حدث شيء يا عمتي؟».

أجابتني: «لا شيء يا تروت. اجلس، تعالَ اجلس. لم تكن زهرتنا الصغيرة في حالة جيدة فجئت لأرافقها، وهذا كل ما في الأمر».

أسندت رأسي على راحتي، وشعرت بالأسف والتعاسة. راحت عيناي تتأملان في تلك النار المشتعلة، وما كنت أتوقع أن يحدث كل ما حدث بعد مضي وقت قصير على تحقق آمالي المشرقة. جلست أفكر، بينما التقت عيناي بنظرات عمتي التي كانت تستقر على وجهي، وقد حملت نظراتها تعبيرًا من القلق، لكنه سرعان ما تلاشى مباشرة.

قلت: «أؤكد لكِ يا عمتي، أنني مكثت حزينًا جدًّا طوال الليل، أفكر في حال دورا، لكنني لم أقصد أي شيء سوى التحدث معها بحنان ومحبة عن شؤوننا المنزلية».

أومأت عمتي مشجعة لموقفي.

قالت: «يجب أن تتحلى بالصبر يا تروت».

قلت: «بالطبع بكل تأكيد. يعلم الله أنني لم أقصد المبالغة في الأمر يا عمتي».

قالت عمتي: «لا، بالطبع لم تقصد، لكن زهرتنا الصغيرة لم تزل رقيقة صغيرة للغاية، ويجب أن تهفو بريح لطيفة معها».

شكرت عمتي الطيبة من كل قلبي على حنانها على زوجتي. كنت على يقين من أنها تعرف أنني أفعل الأمر ذاته.

قلت بعد مزيد من تأمل في المشكلة مرة أخرى: «ألا تظنين يا عمتي أنه بإمكانكِ إسداء النصح اليسير إلى دورا من وقت إلى آخر، لمصلحة كل واحد منا؟».

ردت عمتي بنوع من الانفعال قائلة: «لا يا تروت، لا تطلب مني أمرًا كهذا».

كانت نبرة صوتها جادة للغاية، حتى إنني حملقت مندهشًا.

قالت عمتي: «إنني أسترجع حياتي السابقة يا بني، وأتذكر أناسًا ممن صاروا اليوم في قبورهم، وكان الأجدر بي أن أكون على علاقة طيبة معهم. إذا كنت قد حكمت في قسوة على أخطاء الآخرين في زيجاتهم،

فربما يكون ذلك لأنني وجدت أسبابًا في حياتي تجعل أحكامي مريرة وقاسية. فلننحِّ هذا الأمر جانبًا. لقد كنت امرأة غضوبة ومزعجة وصعبة المراس منذ سنوات عديدة، ولعلي لم أزل كذلك، أو سأظل كذلك. إلا أن كلًّا منا، أنا وأنت يا تروت، قد أسدى إلى الآخر معروفًا. إنك يا تروت قد وقفت بجانبي في جميع المجريات، وخيرًا فعلت بي يا عزيزي، فلا ينبغي أن يفرق شيء بيننا في مثل هذه اللحظات من اليوم».

صرخت قائلًا: «يفرق بيننا!».

قالت عمتي بينما تصلح طرف ثوبها: «اسمع يا بني، ما أسرع الفراق بيننا إن أنا فعلت ما تقول! وكم يؤلمني أن أتسبب في إيذاء زهرتنا الصغيرة المسكينة لو أنني تدخلت في أمور لا يستطيع أي إنسان، ولو كان قديسًا، التنبؤ بعواقبها. أريد من وليفتنا المدللة أن تحبني، وأن تكون خفيفة الروح مثل فراشة. تذكر منزلك في الفترة التي أعقبت زواجك، ولا تكن سببًا لأن نصاب أنا أو هي بما ألمحت به إليك».

أدركت على الفور أن عمتي على حق. وأدركت تمامًا مدى شعورها النبيل السخي تجاه زوجتي العزيزة.

راحت تقول: «إنها الأيام الأولى يا تروت، ولم تُبنَ روما في يوم ولا حتى في عام. لقد اخترت زوجة حسناء».

أحسست ساعتها أن غيمة قد أظلت وجهها للحظة، ثم مضت تقول: «لقد اخترت مخلوقًا جميلًا جدًّا وحنونًا للغاية، وسيكون من أولويات واجباتك، ومن دواعي سرورك أيضًا -بالطبع فأنا أعرف ذلك

ولا ألقي محاضرة- أن تقدر شخصها كما هي، وتحترم طبعها ومزاياها، من دون أن تتطلع إلى صفات قد لا تتمتع بها. ما عليك سوى أن تحاول دفعها إلى تطوير صفاتها إن استطعت. وإذا لم تستطع يا بني...»، وهنا فركت عمتي أنفها ثم أكملت: «يجب عليك فقط أن تُعود نفسك على الاستغناء عنها. تذكر يا عزيزي أن مستقبلك متوقف عليكما، وليس بوسع أحد مساعدتكما، بل إنكما اللذان سيتدبران أمركما. إنه الزواج يا تروت، فليبارككما الله أنتما الاثنين في مقاصدكما. يا لكما من صغيرين غضين كطفلين ضالين في الغابة![1]».

قالت عمتي ما قالته بلهجة مرحة، ثم قبلتني تعبيرًا عن مباركتها ورضاها.

قالت: «أما الآن، فلتنِر لي ناقوسي الصغير، ولترافقني إلى الممر الخاص بي نحو الحديقة» - حيث كان البيتان متصلين بممر من ناحية الحديقة - «ولتحمل محبة بيتسي تروود وتحياتها إلى زهرتنا عندما تعود. ومهما فعلت يا تروت، فلا تحلم أبدًا بوضع بيتسي في دور الفزَّاعة، لأنك لو كشفت عن مكنونها وكانت شفافة كالزجاج، لوجدتها ذابلة للغاية وهزيلة لا حول لها ولا قوة».

ربطت عمتي رأسها بمنديل بعد أن أنهت كلامها. كانت قد اعتادت على ارتدائه في مثل هذه المناسبات، ثم رافقتها في طريقها. وقفت في حديقتها تحمل ناقوسها الصغير لتضيء لي طريق عودتي، وقد بدت

---

(١) تعبير مأخوذ من قصيدة شعبية تعود لعام ١٥٩٥ باسم «الأطفال في الغابة»، حول اثنين من الأيتام الصغار الذين تم التخلي عنهم وتركهم للموت في الغابة.

نظراتها لي تحمل شيئًا آخر من القلق وانشغال البال، لكنني كنت مستغرقًا بالتفكير فيما قالته، وقد تأثرت كثيرًا -لأول مرة، في الواقع- واقتنعت بأنه عليَّ أنا ودورا رسم مستقبلنا بأنفسنا، وأنه لا يمكن لأحد أن يمد يد العون لنا، ومن ثَم لم أهتم كثيرًا بقلق عمتي البادي في عينيها.

جاءت دورا متسللة نحوي في نعالها الصغيرة، بعد أن صرت وحدي، وراحت تبكي فوق كتفي، وتقول كم كنت قاسيًا وكم كانت شقية، فرددت أنا الشيء نفسه، وهذا ما كنت أتصوره حقيقيًّا. تجاوزنا الأمر وتصالحنا، ثم اتفقنا على أن يكون خلافنا البسيط هذا هو خلافنا الأول والأخير بيننا، وأننا لن نختلف مرة أخرى، ولو عشنا مائة عام.

كان الاختبار المنزلي التالي الذي مررنا به هو معضلة اختيار الخدم. كان ابن عم ماري آن قد هرب من الجندية، واختبأ عندنا في مخزن الفحم، ثم ما لبث أن قبض عليه رفاقه من السلاح بعد أن أخرجوه من المخبأ وساروا به مكبلًا في موكب. لم يكن موكب غطى حديقتنا الأمامية بوابل من الخزي والفضيحة. أثارت هذه الفعلة حفيظتي وشجعتني على التخلص من ماري آن، والتي لم تغالِ في شيء، بل أدهشتني حين تقاضت أجرها في هدوء من دون احتجاج، ولكني فهمت السر، إذ اكتشفت اختفاء ملاعق الشاي، وكذلك عرفت أمر المبالغ الصغيرة التي اقترضتها باسمي من التجار من دون وجه حق أو إذن مني. وظفنا بعد فترة السيدة كيدجيربري - أكبر سكان بلدة كنتيش سنًّا، على ما أظن، كما لو أنها مومياء دبت فيها الروح، وكانت أضعف من أن تدرك أي تصور عن فنون إدارة المنزل. وجدنا بعد ذلك خادمة

أخرى كانت أوفر صحة، وأكثر لطفًا ولينًا، إلا أنها كانت تتعثر كثيرًا، فتُسقط أمتعتنا إما في صعودها أو نزولها من المطبخ، وكذلك فعلت في غرفة الجلوس، إذ حطمت أطقم تحضير الشاي، فصار أشبه بالمغطس. كان الخراب الذي ارتكبته مؤسفًا، مما جعل فصلها ضروريًّا. خلفتها -بعد فترات متقطعة من خدمة السيدة كيدجيربري لنا- سلسلة طويلة من العاجزات عن العمل، ثم انتهينا إلى شابة ذات مظهر أنيق، تبين لنا بعد ذلك أنها ذهبت إلى مشاهدة بعض العروض الشعبية في جرينتش مرتدية قبعة دورا. لا أتذكر بعد ذلك شيئًا عن هذه الخادمة سوى عدد متنوع من الإخفاقات.

ألم يغدُ للجميع مأرب سوى خداعنا! لقد صار ظهورنا في أحد المتاجر بمثابة إشارة لعرض البضائع التالفة على الفور، فإذا اشترينا سلطعونًا لنأكله فلا بد أن يكون منفوخًا بالماء لا اللحم، وصارت كل أنواع لحومنا قاسية جافة، ولم نتحصل على أرغفة صالحة للأكل إلا فيما ندر، ورحنا نبحث عن خبز طيب ناضج القشرة وجاف الحواف بعض الشيء، ورحت أطالع بنفسي كتاب الطبخ، حتى أتوصل إلى الطريقة المثلى لشواء الأفخاذ أو الضلوع أو الأكتاف حتى تنضج بالشكل المطلوب ولا تهترئ أكثر مما ينبغي فوق نار الموقد. قرأت في كتاب الطبخ أنه من المقرر ترك كل رطل من اللحم مدة لا تقل عن ربع ساعة كاملة، ولا تزيد على نصف ساعة بأي حال من الأحوال. كانت هذه الطريقة دائمًا ما تخذلنا بسبب بعض الخطوات الغريبة الفاشلة، ولم نتمكن قَطُّ من الوصول إلى حل وسطي بين النضج والاحتراق.

أتصور أن سلسلة الإخفاقات التي مررنا بها كانت سببًا في تكبدنا نفقات تفوق بكثير حدود أي انتصارات حققناها. إن وضعنا حسابات التجار محلًّا للاعتبار، فقد يبدو لي أنه من الأفضل لو أبقينا الطابق السفلي مرصوفًا بالزبدة، بالقياس إلى استهلاكنا لها على أوسع نطاق. لا أعرف ما إذا كانت الضرائب قد سجلت زيادة على استهلاك الفلفل أم لا، لكن إذا لم يؤثر استهلاكنا لهذا الصنف وحده على السوق، فلا يسعني إلا أن أقول إن عددًا من العائلات قد توقف عن استخدامه، أو شرائه، وأعجب ما في الأمر على الإطلاق هو أننا لم يكن لدينا يومًا شيء منه، ولم نحتج إليه في المنزل.

أما السيدة التي تغسل ملابسنا، فقد رهنت ثيابنا ثم جاءت في حالة مضنية من السُّكر لتعتذر لنا، وأتصور أن هذا الأمر وقع عدة مرات مع أناس آخرين. حدث الشيء نفسه مع عامل إصلاح المدخنة، وخادمي الرعية، إلى جانب شهادة زور من بعض الخدام على شماس الكنيسة، لكن البلاء ازداد بأن وظفنا خادمة تكن حبًّا للشراب فتطلبه وتستمتع به، مما أدى إلى تضخم ديوننا المستحقة للحانة العامة، ثمنًا لمشروبات نجهل كنهها، مثل: «ربع من الروم للسيدة كاف»، و«ثمن من الجن بالقرنفل للسيدة كاف»، و«زجاجة من الروم والنعناع للسيدة كاف»، وقد أشار اسم السيدة كاف إلى السيدة كوبرفيلد أي دورا، وكان من المفترض كما ظهر في شرح الحساب، أنها من احتست كل هذه المشروبات.

كان أول الأحداث الكبيرة في تدبير منزلنا هو إعداد غداء بسيط لترادلز. كنت قد التقيت به في المدينة، وطلبت منه أن يخرج معي

للتريض بعد ظهر ذلك اليوم، فوافق على الفور، وكتبت إلى دورا قائلًا إنني سأستضيفه اليوم في المنزل لتناول الغداء. كان الطقس بديعًا، وقد تحدثنا في طريقنا عن سعادتي في المنزل. كان ترادلز معجبًا به أشد الإعجاب، وقد صرح لي قائلًا إنه يتخيل نفسه بمثل هذا المنزل، بينما تنتظره صوفي وتتهيأ له بعد عودته من العمل، وأنه لا يمكن أن يفكر في أي شيء آخر أكثر سعادة وفرحًا.

لم أكن لأتمنى زوجة أجمل ولا أرق من هذه الزوجة الصغيرة التي تجلس أمامي في الطرف المقابل من الطاولة، لكنني بالتأكيد كنت أتمنى أن نجلس في مساحة أكبر قليلًا. لم أعرف كيف أصف الأمر، فعلى الرغم من أننا لم نكن سوى اثنين، فقد كنت أشعر بضيق المكان، فكنا دومًا نشغل الغرفة ذاتها في نفس اللحظة، وكان ثمة مجال كافٍ لفقدان كل شيء باستمرار. أظن أن السبب ربما يكون لعدم وجود مكان مخصص لأي شيء، باستثناء بيت جيب، الذي أغلق الممر الرئيسي للمنزل بشكل دائم.

كان ترادلز في هذه الاستضافة محاطًا ببيت جيب وعلبة الجيتار على مقربة منه، وكذلك لوحة أزهار دورا، وطاولة الكتابة الخاصة بي، حتى راودتني الشكوك في قدرته على استخدام السكين والشوكة في تناول الطعام، لكنه علق محتجًّا على مخاوفي في روح من دعابة قائلًا: «أؤكد لك يا كوبرفيلد أن مساحتي بحر واسع، أؤكد لكم، بل محيط واسع».

تمنيت شيئًا آخر، ألا وهو ألا يتجرأ جيب مطلقًا على المشي على مفرش المائدة في أثناء الغداء. بدأت أدرك أن فوضى ستندلع في وجوده بشكل عام، حتى لو لم يكن معتادًا على وضع قدمه في الملح أو الزبدة المذابة حتى تلك اللحظة. بدا في هذه المناسبة أنه يتصور أن إبقاءه صراحة يعني إبقاء ترادلز في وضع حرج، فقد أكثر النباح على صديقي القديم، وقام بجولات قصيرة حول طبقه، في نوع من الحماسة، لدرجة يمكن القول معها إنه استحوذ على المحادثة.

كنت على الرغم من كل ما جرى مدركًا رقة قلب عزيزة قلبي دورا، وعارفًا لمدى حساسيتها تجاه أي إهانة نحو مفضلاتها أو كلبها المدلل، لذلك لم ألمح بأي اعتراض، ولم أقل كلمة واحدة - لأسباب مماثلة - عن الأطباق المتناثرة المتزاحمة الملقاة على الأرض، والتي تعرقل الخطى. لم أعلق على ظهور قوارض في البيت التي كانت في عداد السادسة والسابعة، وبدت تجول حولنا في حالة من السكر كما لو أنها أفرطت في الشراب، أو الحصار الفج المفروض على ترادلز بما يحاوطه من أطباق وأباريق. لم يسعني إيقاف ذلك السيل من الاندهاش الذي يجول بمخيلتي حينما أبصرت قبالة عيني فخذة مسلوقة من لحم الضأن، قبل تشفيتها، وكيف أن قطع اللحم مبتورة في أشكال غير مستوية، وما إذا كان جزارنا قد تعاقد مع كل خروف مشوه قد أتى إلى العالم، لكنني احتفظت بتأملاتي لنفسي.

قلت لدورا: «يا حبيبتي، ماذا عندكِ في هذا الطبق؟».

لم أستطع أن أتخيل السبب الذي يجعل دورا تبدي على وجهها تلك التعبيرات الطفولية أمامي، كما لو أنها ترغب في تقبيلي.

قالت دورا في خجل: «إنه محار يا عزيزي».

فقلت: «هل كان من اختياركِ؟».

قالت دورا: «نعم يا دودي».

صحت بينما أضع عن يدي السكين والشوكة جانبًا: «يا لسعادة هذا المرء! إنها أحب صنوف الطعام إلى قلب ترادلز».

قالت دورا: «حقًّا يا دودي، ها قد اشتريت جالونًا صغيرًا جميلًا منه، وقد قال لي البائع إنه طيب شهي. لكنني أخشى... أخشى أن يكون قد تغير بعض الشيء. إنه لا يبدو على حاله». وهنا هزت دورا رأسها، وقد تلألأ في عينيها وميض من الماس والدموع.

قلت: «إنها مفتوحة إلى نصفَي القوقعة لا غير، تناولي مقدمة اللحم فقط يا حبيبتي».

قالت دورا بينما تحاول أن تبدو جادة لكنها حزينة للغاية: «لكن هذا الشيء لا أستطيع إخراجه».

قال ترادلز، بينما يفحص الطبق في مرح: «هل تعلم يا كوبرفيلد؛ أتصور وفقًا لكلام دورا أنه محار كبير فاخر، لكنني أستنتج من مظهره أنه لم يُفتح مطلقًا».

لم ينفتح المحار قَطُّ؛ ولم تكن لدينا سكاكين خاصة للمحار - وإن كانت بحوزتنا فإننا لم نكن نستطيع استخدامها، لذلك اكتفينا بالنظر

إلى المحار ثم تناولنا لحم الضأن، أو أكلنا على الأقل ما شئنا منه من الجزء الناضج فيه، بعد أن مزجناه ببعض من القبار[1]. وإنني على قناعة بأنني لو تركت ترادلز لحريته، فإنه سيترك العنان لنفسه بالكامل فيأكل طبقًا من اللحم النيء كما الوحش، حتى يعبر عن مدى استمتاعه بالمأدبة. والحقيقة أنني لم أكن لأسمع عن مثل هذه التضحية على مذبح الصداقة، لذا فكرت في جلب ما كنا نحفظه من طبق اللحم المقدد بدلًا من ذلك، وقد وجدت شيئًا من لحم الخنزير المقدد البارد في خزانة المأكولات لحسن الحظ.

صارت زوجتي الصغيرة المسكينة على وشك الكدر حين تصورت أنني سأنزعج مما جرى، لكن حالتها قد تبدلت إلى بهجة حين أدركت أنني لست كذلك، وأن القلق الذي ساورني، سرعان ما تلاشى، فأمضينا أمسية سعيدة. جلست دورا وقد أسندت ذراعها إلى مقعدي، بينما تناولت أنا وترادلز كأسًا من نبيذ، فراحت تغتنم كل فرصة للهمس في أذني قائلة كم كان لطيفًا مني جدًّا أنني لم أغضب ولم أكن فتى قاسيًا أو غليظًا. أعدت لنا شايًا بعد وقت قصير، وقد كان جميلًا جدًّا أن أراها تعده، فكانت تبدو كمن ينشغل بمجموعة من أدوات الشاي الخاصة بالدمى، ولم أهتم كثيرًا بجودة ما أحتسيه. لعبت أنا وترادلز بعد ذلك، لعبة أو اثنتين بالأوراق، بينما غنت دورا وعزفت على الجيتار في الوقت نفسه. بدا لي كما لو أن توقي لمحبتها وزواجنا كان حلمًا رقيقًا، وأن

---

(١) عشبة تُستخدم حبوبها التي تشبه البازلاء، وهي ذات طعم لاذع ومالح، وتضاف إلى كثير من الأطباق.

ولعي لسماع صوتها لم ينتهِ منذ الليلة التي سمعته فيها لأول مرة.

غادر ترادلز، فعدت إلى قاعة الاستقبال بعد أن ودعته خارجًا. وضعت زوجتي كرسيها بالقرب من مقعدي، ثم جلست بجانبي وقالت: «إنني آسفة جدًّا. هل ستحاول تعليمي يا دودي؟».

أجبتها: «يجب أن أعلم نفسي أولًا يا دورا. إن حالي سيئة مثلكِ يا حبيبتي».

أجابتني: «آه، لكنك تستطيع أن تتعلم، فأنت رجل ذكي ولماح».

قلت: «كلام فارغ يا فأرة».

استأنفت زوجتي بعد صمت طويل: «أتمنى لو كان بإمكاني السفر إلى الريف لأمكث لمدة عام كامل مع أجنيس».

كانت يداها متشابكتين حول كتفي، وقد استقر ذقنها عليها، ثم ثبتت نظرات عينيها الزرقاوين نحو عيني في سكينة.

سألتها: «لماذا؟».

قالت دورا: «أتصور أنها ربما استطاعت تطويري، وأظن أنني ربما كنت لأتعلم منها الكثير».

«سيحدث كل شيء في أوانه يا حبيبتي. يجب أن تتذكري أن أجنيس ظلت تعتني بوالدها طوال هذه السنوات المنصرمة. كانت أجنيس، حتى طوال طفولتها، هي نفسها أجنيس التي نعرفها حتى الآن».

سألت دورا من دون أن تتحرك: «هل يمكن أن تناديني باسم أريدك أن تناديني به؟».

سألتها في ابتسامة: «ما هو؟».

قالت وهي تعبث بخصلة من شعرها للحظة: «إنه اسم غبي. الزوجة الطفلة».

سألت زوجتي الطفلة ضاحكًا عن سبب رغبتها في أن تُطلق على نفسها هذا الاسم. أجابت من دون أن تحرك ساكنًا، غير أنها تركت ذراعي تطوقها وجعلت عينيها الزرقاوين أقرب إليَّ، فقالت:

«لا أقصد، أيها الرجل السخيف، أن تناديني بهذا الاسم بدلًا من دورا. لا أقصد سوى أن تفكر بي بمثل هذه الطريقة. قل لنفسك عندما تغضب مني: «إنها ليست سوى زوجة طفلة»، عندما تشعر بخيبة أمل كبيرة، فلتقل: «كنت أعرف، منذ وقت طويل، أنها لن تسلك سوى مسلك الزوجة الطفلة»، عندما أخيب ظنك فيما يجب أن أكون عليه، وأقترف ما لا يمكنك أن تتصور اقترافه، فلتقل: «لم تزل زوجتي الطفلة الحمقاء تحبني»، وفي الواقع أنا أحبك».

لم آخذ حديثها على محمل الجد. لم تكن هي نفسها حتى هذه اللحظة، لتتأمل حالها بجدية. أما سجيتها الساذجة فما لبثت أن أشرقت وغمرتها سعادة جمة بما قلته لها في هذه اللحظة من أعماق قلبي، حتى علت الضحكة وجهها سريعًا لتلحق ببريق عينها اللامعة. صارت زوجتي بعدها تتصرف بطفولية في واقع الأمر، فتجلس على الأرض خارج البيت الصيني الذي ابتعناه، وتقرع كل الأجراس الصغيرة الواحد تلو الآخر، لمعاقبة جيب على السلوك السيئ الذي صار من طبعه

مؤخرًا، بينما يرقد جسد جيب في الداخل مخرجًا رأسه يرمقنا خلسة في كسل كأن هذا العقاب لا يضايقه.

كانت مناشدة دورا الأخيرة الجذابة قد أحدثت بداخلي عظيم الأثر، فإنني أعود بذاكرتي إلى ذلك الوقت الذي أكتب عنه، لأستحضر هذه الشخصية الساذجة التي أحببتها بشدة، فتتهيأ لي من بين ضباب وظلال الماضي، وترسل رأسها اللطيف نحوي مرة أخرى؛ ما زلت أستطيع البوح بأن مناشدتها الصغيرة تلك دائمًا ما تجول بخلدي. ربما لم أسلك مسلكًا ملائمًا ساعتها، فقد كنت صغيرًا وعديم الخبرة. لكني لم أصم أذني عن فحوى هذه المناشدة البريئة.

أخبرتني دورا، بعد فترة وجيزة، أنها ستصبح ربة منزل رائعة. مضت تُلمع الطاولات الصغيرة، وقلمت القلم الرصاص لي، واشترت دفترًا ضخمًا للحسابات، وخاطت بالإبرة في عناية جميع صفحات كتاب الطبخ التي مزقها جيب فجمعتها. لقد قامت بمحاولة ضئيلة يائسة «لتصير نافعة»، على حد وصفها، إلا أن الأرقام كانت عضالًا، تأبى أن تتضافر في معادلة. دونت رقمين أو ثلاثة أرقام في دفتر الحسابات من دون أن تتحصل على حاصل جمع صحيح، وجاء جيب ليمشي فوق الصفحة ويهز ذيله ملطخًا الدفتر بأكمله. صارت إصبع يدها اليمنى الوسطى، تلك الصغيرة غارقة في الحبر، وأتصور أنها المحاولة الوحيدة التي تطرقت إليها.

أصبحت في بعض الأحيان أقضي بعض الأمسيات منشغلًا بعملي على الرغم من وجودي في المنزل - لأنني قد كتبت شيئًا لا بأس به

إلى الآن، وصرت معروفًا ككاتب في نطاق ضيق - كنت أنحي عني قلمي جانبًا، ثم أراقب طفلتي في محاولاتها لأن تصبح نافعة. ستخرج في بادئ الأمر دفتر الحسابات الضخم، ثم تضعه فوق الطاولة مصدرة تنهيدة عميقة. ستفتحه على الموضع الذي لطخه جيب وقد صار غير مقروء في الليلة الماضية، ثم تنادي على جيب ليشهد جريمته النكراء. قد يؤول الأمر لصالح جيب، فربما لا تعود عواقبه إلا ببعض الحبر فوق أنفه كنوع من العقوبة، ستطلب بعد ذلك من جيب الاستلقاء على الطاولة في الحال، «مثل الأسد» - وقد كان استلقاؤه هذا إحدى حيله، لا أستطيع أن أقول إن الشبه فيها بالأسد رائع ومطابق - لكننا لو أخذناها بروح من الدعابة واعتبارًا لطاعته، فإنه يستطيع تأديتها. ستمسك دورا بالقلم بعدئذ وتبدأ في الكتابة ثم ستجد فيه حبرًا هينًا، ثم تأخذ قلمًا آخر وتبدأ في الكتابة، فتجد أنه ينثر مداده فوق الورقة، ثم تأخذ قلمًا غيرهما وتبدأ في الكتابة، ثم تسمع صريرًا خفيضًا له فتقول: «آه، يا له من قلم مزعج، وسوف يزعج دودي»، ثم تتخلى عنه وتكف عن المحاولة، وتنحي الحسابات جانبًا بعد أن تتظاهر بأنها قد هزمت الأسد به.

أما إذا لفتها حالة ذهنية شديدة الهدوء والجدية، فإنها تجلس مع دفتر الحسابات وسلة صغيرة تضع فيها الفواتير وقوائم المشتريات الأخرى، والتي تبدو أشبه بأوراق ملفوفة أكثر من أي شيء آخر، فتسعى إلى الحصول على بعض النتائج منها. تعد مقارنة بالغة وتدقق أحدها مع الآخر، فتدون أرقامًا على لوحة الكتابة، ثم تمسحها، ثم تقوم بالعد على كل أصابع يدها اليسرى مرارًا وتكرارًا، وتكرر العد من الخلف للأمام،

ستشعر بعد ذلك بالضيق والإحباط، فتبدو بائسة للغاية. لقد خامرني ألم بمجرد أن رأيت وجهها اللامع مغطى بما يشبه الغيوم - أكان كل هذا لأجلي! - فأتوجه إليها بهدوء ثم أقول:

«ما الأمر يا دورا؟».

كانت دورا تتطلع إليَّ يائسة، فتجيب قائلة: «لن أحصل على نتائج صحيحة. إنها أشياء توجع رأسي. ولن يجدي ذلك نفعًا».

سأجيب قائلًا: «فلنحاول الآن معًا. دعيني أريكِ شيئًا يا دورا».

ثم أبدأ عرضًا عمليًّا ستوليه دورا اهتمامًا بالغًا، ربما لمدة خمس دقائق، ثم تبدأ أعراض التعب الشديد تلوح عليها، ثم تحاول تخفيف وطأة الأمر بالعبث بشعري، أو ستجرب تأثيرات وجهي بينما تقلب ياقة قميصي. إذا لم أستجب لتأثير هذه الدعابة، وأصررت على استكمال ما يدور، فسينتابها فزع مريع وستغتم، وساعتها ستزداد ارتباكًا شيئًا فشيئًا، ولذلك فإنني أتذكر عفويتها المبهجة عندما انجذبت نحوها لأول مرة، وأنها زوجتي الطفلة، وأن عتابها سيعود عليَّ باللوم، فأضع القلم الرصاص جانبًا وأطلب منها أن تتناول الجيتار.

ينتظرني قدر كبير من العمل لأقوم به، وتراودني كثير من المخاوف، لكنها الأسباب ذاتها التي جعلتني أحتفظ بهواجسي لنفسي. لست متأكدًا الآن، إن كانت أفعالي صائبة أم لا، لكنني ما سلكت هذا النحو إلا من أجل زوجتي الطفلة. أفتش في صدري، وأمسك بأسراره إن عرفتها، فأدلي بها من دون أي تحفظ على هذه الأوراق. أدون خسائري القديمة التعسة أو

فقداني شيئًا ما مضى، كما أدرك مكانها في قلبي، من دون أن يسعني التعبير عن مرارة عيشي. كنت أسير وحدي في طقس جيد بينما أتذكر أيام الصيف عندما عبأ الهواء سحر صبياني، شعرت أنني قد فقدت شيئًا من أحلامي من دون تحقيقه، لكنني أدركت أنها لم تكن ومضات ناعمة من ماضٍ بعيد، إذ لا يمكن لأي شيء أن يلقي بظلاله على الوقت الحاضر. شعرت في بعض الأحيان، أنني كنت أتمنى، لبعض من الوقت فحسب، لو كانت زوجتي مستشارة لأمري، لو أن لديها مزيدًا من الفهم والإدراك، لشدت من أزري وحسنت من حالي، لو أنني مُنحت ما يملأ هذا الفراغ الذي بدا داخلي في مكان ما، لكنني شعرت كما لو أن شيئًا يحول دون استكمال سعادتي، فلم يكن مقدرًا أن أحوزها قَطُّ، ولم تكن من مصيري الكائن.

كنت زوجًا طفلًا لسنوات بالنظر إلى عمري، فلم أدرك أي مؤثرات طيبة أو تجارب أخرى غير تلك المدونة فوق هذه الأوراق. إن كنت قد اقترفت خطأً، وقد اقترفت الكثير بالفعل، فقد أخطأت بدافع مضلل من الحب، أو لحاجتي إلى الحكمة والنصح. إنني أدون الحقيقة كما هي تمامًا إذ لن ينفعني تجنبها الآن.

هكذا أخذت على عاتقي متاعب واهتمامات حياتنا، ولم يكن لي معين فيها. عشنا كثيرًا في فوضى كما كانت حالنا من قبل على الرغم من المحاولات غير المثمرة، لكنني اعتدت الأمر، وقد صرت سعيدًا الآن بعد أن أصبح من النادر أن ألحظ انزعاجًا ظاهرًا على دورا. صارت مشرقة ومبتهجة على طريقتها الطفولية القديمة، أحبتني كثيرًا، وقد باتت سعيدة بلهوها السالف المعهود.

دارت في بعض الليالي مداولات برلمانية ثقيلة - أعني من حيث طولها وليس جودتها، لأنها لم تكن لتحل شيئًا في نهاية المطاف في كثير من الأحيان - فإذا عدت إلى المنزل متأخرًا، أجد دورا ساهرة تنتظر عودتي، فلا تستريح أبدًا إلا حين تسمع خطى أقدامي، فتهبط السلم كعادتها دائمًا لاستقبالي. ظلت بعض أمسياتي فارغة من دون أن أنشغل بعملي، الذي كنت أبذل فيه نفسي مضحيًا بالكثير ومستشعرًا الألم، كنت ساعتها أنخرط في الكتابة في المنزل، بينما تجلس دورا، مهما تأخر الوقت، في سكينة على مقربة مني يلفها صمت مطبق، لدرجة أنني كثيرًا ما أحسبها قد راحت في سبات، فإذا بعيني في كل مرة أرفع فيها رأسي إليها، تبصر عينيها الزرقاوين تنظران إليَّ في اهتمام هادئ وصفته من قبل.

كنت أنهي كتابتي ذات ليلة، بينما قابلت عيني دورا وهي تقول: «آه، يا لك من فتى مُتعَب!».

قلت: «يا لكِ من فتاة منهكة! إنه أمر يفوق احتمالكِ. يجب أن تأوي إلى فراشكِ مرة أخرى يا حبيبتي. لقد تأخر بكِ الوقت».

ناشدتني دورا بينما تقف بجانبي قائلة: «لا، لا ترسلني إلى النوم، أتوسل إليك، لا تفعل ذلك».

راحت دورا تنتحب معانقة رقبتي، بينما أقول: «دورا، لست بأفضل حال يا عزيزتي، لست سعيدًا».

قالت دورا: «حسنًا، لكن قل لي إنك ستتركني بجوارك، أراقبك بينما تكتب».

أجبتها: «لِمَ؟ يا له من مشهد مرهق لمثل هذه الأعين البراقة في منتصف الليل».

عادت دورا ضاحكة تقول: «هل ما زالت مشرقة على الرغم من الإرهاق؟ إنني سعيدة جدًّا لأنها لم تزل براقة».

قلت: «يا لكِ من مغرورة صغيرة».

لكنها لم تكن متفاخرة، بل انتابتها سعادة بريئة من إعجابي بها. كنت أعرف ذلك جيدًا، قبل أن تخبرني به.

استطردت دورا: «إذا كنت تراها بهذا الجمال، فلتقل إن عليَّ المكوث دائمًا، لأراقبك بينما تكتب. هل تعتقد أنها فاتنة؟».

«فاتنة جدًّا».

«إذن دعني أمكث دائمًا وأراقبك بينما تكتب».

«أخشى أن هذا لن يحسن من بريقها يا دورا».

«نعم، لأنك، أيها الفتى الذكي، لن تنساني حينها، بينما تصبح معبأً بهذه الخيالات الساكنة».

ثم تساءلت دورا، بينما تختلس النظر من فوق كتفي ناظرة نحو وجهي: «هل تمانع إذا قلت شيئًا سخيفًا للغاية؟ - أكثر من المعتاد؟».

استفسرت قائلًا: «وما الشيء العجيب الذي تريدين قوله؟».

قالت دورا: «من فضلك دعني أمسك الأقلام. أريد أن أفعل شيئًا خلال تلك الساعات العديدة التي تعمل فيها مُجِدًّا. هل تسمح لي بالإمساك بالأقلام؟».

إن ذكرى فرحتها المليحة عندما أجبت بنعم تجلب الدموع إلى عيني. أما المرة التالية التي جلست فيها للكتابة، وما تلاها من مرات في انتظام، فقد كانت تجلس فيها في مكانها القديم، مع مجموعة أقلام احتياطية إلى جانبها. إن انتصارها في هذا الارتباط بعملي، وسرورها كلما أردت قلمًا جديدًا - وهو ما كنت أتظاهر غالبًا بفعله - قد أوحى إليَّ بطريقة جديدة لإرضاء زوجتي الطفلة. كنت أحيانًا أتظاهر بحاجتي إلى نسخ صفحة أو اثنتين من مخطوطة كتابتي، ومن ثَم تتباهى دورا متألقة بما أقترحه عليها من عمل. كانت الاستعدادات التي أعدتها لهذا العمل رائعة، فارتدت المآزر، واستعارت المرايل من المطبخ لتجنب الحبر، وأتذكر كم استغرقت من وقت، والمرات التي لا حصر لها التي توقفت فيها عن العمل لتضحك مع جيب كما لو كان يفهم كل ما يدور، واقتناعها بأن عملها لم يكن ليكتمل إلا إذا وقعت اسمها في النهاية، ثم الطريقة التي تقدمه بها لي، كما لو أنها نسخة مدرسية، ثم إشادتي بها بعد ذلك، فما كان منها إلا أن طوقت رقبتي بذراعيها... لامست هذه الذكريات قلبيَّ وإن كانت تبدو لغيري من الناس بسيطة لا تلامس القلوب.

استحوذت دورا على المفاتيح بعد ذلك بفترة وجيزة، وذهبت لجولة حول المنزل مع مجموعة المفاتيح كلها في حزمة كالعنقود،

ووضعتها في سلسلة صغيرة مربوطة بخصرها النحيل. كانت نادرًا ما تجد بوابات الأماكن التي تقصدها مقفلة، فلا تجد للمفاتيح فائدة باستثناء أنها قد تصبح لعبة لجيب - أما دورا فكانت مسرورة بامتلاكها، وهذا ما أسعدني. كانت في غاية الامتنان والرضا بعد أن صارت موهومة بأنها تدير البيت بما يحدث أثرًا كبيرًا فيه، وكانت فرحتها لا تقدر بثمن كما لو أننا نشيد بيتًا كما يشيده الأطفال في ألعابهم على سبيل المزاح.

هكذا واصلنا العيش. كانت دورا أقل ودًّا لعمتي مني. أخبرتها كثيرًا عن خشيتها من الوقت الذي تصبح فيه «شيئًا قديمًا». لم أرَ عمتي مطلقًا متوددة إلى أي شخص سواها. لقد توددت إلى جيب، على الرغم من أن جيب لم يتجاوب معها؛ استمعت يومًا بعد يوم إلى الجيتار، على الرغم من أنني أعرف أنها لا تتذوق الموسيقى. لم يهاجمها العجز قَطُّ، إلا إذا كانت تبعاته قاسية، فقطعت المسافات الشاسعة سيرًا على الأقدام لتشتري أي تفاهات، لتفاجئ دورا بشيء قد اكتشفت أنها تريده؛ ولم تكن لتصل إلى الحديقة فأتفقدتها من غرفتي، فإذا بها تنادي عند أسفل الدرج، بصوت مبتهج يرن في جنبات المنزل سائلة:

«أين زهرتنا الصغيرة؟».



الفصل الخامس والأربعون

السيد دك يحقق توقعات عمتي

كان قد مر بعض الوقت، منذ أن غادرت الدكتور، لكني كنت أعيش في حيه، فأقابله كثيرًا، وقد ذهبنا جميعنا إلى منزله في مناسبتين أو ثلاث مناسبات لتناول العشاء أو احتساء الشاي. كانت «الجندي العجوز» تحتل مكانها المعتاد تحت سقف بيته، ظلت كما هي تمامًا دائمًا وأبدًا، وبقيت الفراشات الخالدة نفسها تحوم فوق قبعتها.

كانت السيدة ماركلهام كغيرها من الأمهات اللواتي عرفتهن في حياتي؛ تفوق ابنتها ولعًا بصنوف البهجة. لقد احتاجت إلى قدر كبير من التسلية، فتظاهرت، مثل جندي قديم يستشير ميوله الخاصة، بأن تكرس نفسها لابنتها، ولا عجب من رغبة الدكتور في الترفيه عن آني، وقد كان أمرًا مقبولًا خاصة لمثل هذا الوالد المثالي؛ والذي أعرب عن موافقته بلا شروط أو قيود.

لا يخامرني أدنى شك في حقيقة الأمر؛ أنها لاكت جرح الدكتور من دون معرفة الأمر. إنها لم تقصد شيئًا سوى اتباع درب الرعونة والأنانية، التي طالما لم تخلُ منها السنوات الماضية عن كاملها، أظن أنها أكدت له خوفه من أنه كان قيدًا على زوجته الشابة، وأنه لم يقع بينهما انسجام عاطفي، بينما تشيد بشدة بتصميمه لتخفيف عبء حياتها.

قالت له ذات يوم بينما كنتُ حاضرًا بينهما: «يا عزيزي، إنك تعلم بلا أدنى شك أن إقامة آني محتجزة وحيدة دومًا هنا يبعث على الضجر».

أومأ الدكتور برأسه الطيب موافقًا. قالت السيدة ماركلهام بينما تتباهى في زهو: «لو أنها بلغت سن والدتها، لاختلف الأمر. قد تضعني أنا في سجن، أو وسط جمع لطيف ولين، ولا أهتم أبدًا بالخروج. لكنني لست آني، كما تعلم، وآني ليست والدتها».

أجاب الدكتور: «بالتأكيد، بالتأكيد».

استطردت: «إنك أفضل مخلوق...».

أظهر الدكتور نوعًا من الاستنكار على هذا الوصف، لكنها أكملت قائلة: «لا، أستميحك عذرًا، يجب أن أقول أمامك ما أقوله خلف ظهرك دومًا، إنك أفضل المخلوقات، ولكنك بالطبع لا تقوم بـ... إنك لا تفعل هذا الآن، أليس كذلك؟ هل تجاري آني في الضلالات والأوهام نفسها؟».

قال الدكتور في نبرة حزينة: «لا».

ردت الجندي العجوز قائلة: «لا، بالطبع لا. خذ قاموسك، على

سبيل المثال. يا للقاموس من عمل مفيد! يا له من عمل ضروري! معاني الكلمات! لولا دكتور جونسون[1]، أو أي شخص على شاكلته، ربما مكثنا حتى هذه اللحظة نطلق على مكواة إيطالية اسم «سرير». لكننا لا نتوقع أن يثير قاموس - خاصة عند إعداده - اهتمام آني، أليس كذلك؟».

هز الدكتور رأسه موافقًا.

قالت السيدة ماركلهام، وهي تربت على كتفه في زهوها المطلق: «وهذا هو السبب في أنني أوافق بشدة على تفكيرك. إنه يظهر أنك لا تتوقع، كما يتوقع العديد من كبار السن، أن تتكئ رؤوس كبار السن على أكتاف الصغار. لقد درست شخصية آني، وإنك لتفهمها. وهذا ما أجده ساحرًا جدًّا».

حسبت أنه قد لاح على وجه دكتور سترونج، ذاك الوجه الهادئ والصبور، بعضًا من ألم، تحت وطأة هذه الإطراءات والمدائح.

راحت الجندي العجوز تربت على كتفه عدة مرات قائلة: «ومن ثَم يا عزيزي الدكتور، فإن لك أن تأمرني بفعل أي شيء، في جميع الأوقات والفصول. فلتعرف الآن أنني في خدمتك تمامًا. إنني مستعدة للذهاب مع آني إلى دور الأوبرا، وإلى الحفلات الموسيقية والمعارض، بل وإلى مختلف الأماكن، ولن تجدني أبدًا متعبة. إنه واجبي يا عزيزي الدكتور قبل أي اعتبار في هذا الكون».

---

(١) قاموس للغة الإنجليزية من إعداد صامويل جونسون، وقد حمل اسم صاحبه، وهو أحد أكثر القواميس الإنجليزية تأثيرًا إذ يُعد أول قاموس كامل للغة.

لقد أبرت بوعدها، فكانت واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يمكنهم تحمل قدر كبير من اللهو، ولم تتوانَ قَطُّ عن مثابرتها والدأب عليه. كانت مستقرة في مجلسها المعتاد فوق أكثر مقاعد البيت راحة ولينًا، تقرأ مرتدية نظاراتها لساعتين في اليوم، وكانت نادرًا ما تمسك بصحيفة لتقرأها من دون أن تجد بها شيئًا ترفيهيًّا من المؤكد أن آني سترغب في مشاهدته. كانت آني تحاول عبثًا أن تحتج بقولها إنها سئمت مثل هذه الأشياء، إذ كان رد والدتها دائمًا هو: «أما الآن يا عزيزتي آني، فإنني على يقين من أنكِ أفضل خبرة وأوسع دراية، لكن يجب أن أخبركِ يا حبيبتي أنكِ لا تقابلين لطف دكتور سترونج بما يجب من امتنان».

قيلت هذه العبارة عادة في حضور الدكتور، وقد بدا لي أنه يشكل حافزًا أساسيًّا آنيًّا لسحب اعتراضاتها إن انتوت إظهار أي اعتراض، لكنها استسلمت بشكل عام لوالدتها، وذهبت إلى حيث تريد الجندي العجوز.

لم يكن السيد مالدون يرافقهما إلا فيما ندر. وجهت ذات مرة دعوة إلى عمتي ودورا لمرافقتهما، وقد قبلتا الدعوة، ودعوتا في بعض الأحيان دورا فقط، حتى جاء وقت كنت أشعر فيه بقلق من ذهابها معهما، لكن التفكير فيما مر في تلك الليلة في مكتب الدكتور، قد بدل مخاوفي وبددها، وظننت أن الدكتور كان على حق، ولم تراودني شكوك في وقوع أي سوء.

كانت عمتي تفرك أنفها بين الحين والآخر حين يتصادف وجودها بمفردها معي، بينما تصرح بأنها لا تستطيع إدراك الحقيقة كاملة. تمنت

لو كانوا أكثر سعادة، ولم تتصور أن صديقتنا العسكرية -هكذا كانت تنادى الجندي العجوز- قد أصلحت الأمر على الإطلاق. كما أعربت عمتي عن رأيها قائلة: «إذا قطعت صديقتنا العسكرية الفراشات القائمة فوق قبعتها، ثم أعطتها لمنظفي المداخن في يوم من أيام مايو، لكان الأمر بداية لشيء معقول لها».

لم تعطِ عمتي ثقتها المطلقة إلا إلى السيد دك. قالت إنه من الواضح أن هذا الرجل يحمل فكرة ما في رأسه، وأنه يكفيه أن يرسخ أساسها لمرة واحدة فقط، فهنا تكمن الصعوبة الكبيرة التي يواجهها، وإن لم يفعل فسوف يجعل من نفسه نموذجًا لا يضاهى.

أخذ السيد دك يسلك الدرب نفسه عبر تصوراته السالفة تمامًا بشأن الدكتور والسيدة سترونج، من دون أن يعبأ بمثل توقعات عمتي تلك. يبدو أنه لا يتقدم ولا يتأخر، كما لو أنه استقر في مؤسسته الأصيلة، ثابتًا كما البناء الشامخ، وها أنا أعترف بأن إيماني بثباته الدائم، لم يكن ليبعد بكثير عن كونه بناءً شامخًا.

كان من المفارقة أنه في إحدى الليالي، وبعد أن مضى على زواجي عدة أشهر، أطل السيد دك برأسه في الردهة، بينما كنت جالسًا منكبًا على الكتابة وحدي، إذ خرجت دورا مع عمتي لاحتساء الشاي مع عمتيها العصفورتين الصغيرتين، فقال مع سعال شديد:

«أخشى أنك لا تستطيع أن تتحدث معي يا تروتوود من دون أن أتسبب في إزعاجك».

أجبته: «كلا يا سيد دك، تفضل بالدخول».

أسند السيد دك إصبعه إلى جانب أنفه بعد أن صافحني، ثم قال: «يا تروتوود، قبل أن أجلس، أود أن أبدي ملاحظة. هل تعرف عمتك؟».

أجبته قائلًا: «قليلًا».

«إنها أروع امرأة في العالم يا سيدي».

وما إن بث السيد دك هذه الرسالة التي أطلقها من أعماقه كما لو أنها رصاصة تخترقه، حتى جلس في هيبة أكبر من تلك التي اعتدتها، ثم رمقني بنظراته قائلًا: «أما الآن يا بني فسأطرح عليك سؤالًا».

قلت: «تفضل، سلني ما تشاء».

سأل السيد دك بينما يطوي ذراعيه: «كيف تتصورني يا سيدي؟».

أجبته قائلًا: «إنك صديق قديم عزيز».

رد السيد دك ضاحكًا، ثم مد يده في سعادة بالغة لمصافحتي قائلًا: «شكرًا لك يا تروتوود»، ثم استأنف كلامه في جدية: «إنني أعني يا بني... ما رأيك فيَّ من هذه الناحية؟»، ثم راح يربت على جبهته.

كنت في حيرة من أمري كيف أجيب، لكنه ساعدني بكلمة واحدة.

قال السيد دك: «هل أنا ضعيف؟».

أجبته متشككًا في قولي: «حسنًا، على الأرجح أنك كذلك».

صرخ السيد دك وقد بدا مفتونًا بردِّي قائلًا: «بالضبط، هذا هو الواقع يا تروتوود، عندما تنال بعض المشكلات من رأسك -بالطبع

تعرف من- فلتضعها في المكان الذي تعلمه... لقد كان...»، راح السيد دك يدير يديه في سرعة كبيرة حول بعضهما لمرات كثيرة متتالية، ثم اصطدم بهما، ودحرجهما فوق بعضهما في تعبير عن الارتباك، وأخذ يكمل قائلًا: «لقد كان شيء من هذا القبيل قد حدث لي بطريقة ما. آهٍ».

أومأت إليه برأسي، وأومأ هو إليَّ مرة أخرى.

قال السيد دك بعد أن أخفض صوته إلى حد الهمس: «باختصار يا بني، إنني بسيط».

كنت مهيأ للوصول إلى هذا الاستنتاج، لكنه أوقفني وقاطعني قائلًا: «نعم هذا أنا، إنها تتظاهر بأنني لست كذلك، ولن تسمعها تصرح بالأمر، لكنها حقيقتي. إنني أدرك صفاتي، ولولا أنها وقفت بجانبي موقف الصديق يا سيدي، لما كنت أستطيع أن أحيا إلا في سجن أصم وفي حياة كئيبة طوال هذه السنوات العديدة. لكنني سأعولها. إنني لا أنفق النقود التي أتقاضاها على النسخ، بل أضعها في صندوق، كما أنني أعددت وصية وسأترك كل شيء لها لتصير غنية وسامية ونبيلة».

أخرج السيد دك منديلًا من جيبه وأخذ يمسح عينيه، ثم طواه في عناية فائقة، وضغطه بسلاسة بين يديه وأدخله في جيبه، وبدا كما لو أنه قد أزاح عمتي معه.

قال السيد دك: «إنك الآن رجل مثقف يا تروتوود، وعالم بارع، كما أنك تعرف مكانة الرجل المتعلم فتقدر الدكتور هذا الرجل العظيم، وتعرف أي شرف قدمه لي واختصني به دومًا، إذ هو ليس بالمتكبر بل إنه متواضع مستكين. إنه وديع حتى مع دك المسكين البسيط الذي لا

يعرف شيئًا. لقد أعليت من اسمه حين دونته على قصاصة من أوراق الطائرة الورقية، وقد راحت تحلق بخيطها الطويل وتعلو في السماء بين الطيور والبلابل. لقد كانت الطائرة الورقية سعيدة باستقبال اسمه يا سيدي، وأشرقت السماء به».

لقد أسعدته بقولي، بكل صدق، إن الدكتور يستحق منا أجل احترام وأسمى تقدير.

قال السيد دك: «أما زوجته الجميلة فنجمة، إنها نجمة ساطعة، وقد رأيتها تتألق يا سيدي. لكن...»، هنا قرَّب مقعده، ثم وضع إحدى يدي على ركبتي قائلًا: «ثمة سحابة يا سيدي، ثمة غيوم».

أجبت على التعاطف الذي أبداه وجهه بأن بادلته التعبير نفسه مرتسمًا على وجهي، ثم رحت أهز رأسي.

قال السيد دك: «وأي غيوم؟».

نظر في وجهي بلهفة، وكان يبدو حريصًا جدًّا على فهم الأمر، حتى إنني بذلت جهدًا مضنيًا للإجابة عليه في رفق وبصورة واضحة، كما لو أنني قد رحت أشرح شيئًا لطفل فقلت: «يحول بينهما فارق مؤسف، وإنه لمن الأسباب التعيسة للتباعد. إنه سبب خفي قد لا يتصل اتصالًا وثيقًا بفكرة الفارق بين عمريهما، وربما هو خلاف نشأ بغير سبب تقريبًا».

توقف السيد دك بعدما أنهيت حديثي، وكان قد عبر عن فهم كل جملة قلتها بإيماءة من رأسه. جلس متأملًا وقد ثبت عينيه على وجهي، ووضع يده فوق ركبتي.

قال بعد فترة: «هل الدكتور غاضب منها يا تروتوود؟».

«لا، إنه مخلص لها».

قال السيد دك: «إذن، لقد فهمت الأمر يا بني».

ساوره ابتهاج مفاجئ جعله يضربني على ركبتي فرحًا، ثم انحنى إلى الخلف مسندًا ظهره إلى كرسيه، وقد ارتفع حاجباه حتى صارا معلقين، مما جعلني أفكر في أن به جنونًا أكثر مما ظننت في أي وقت مضى. عاد وجهه فجأة إلى جده مرة أخرى، ثم انحنى إلى الأمام كما كان من قبل وأقبل عليَّ بعد أن أخرج بكل وقار منديله من جيبه، كما لو أن المنديل يمثل عمتي حقًّا، ثم قال: «إنها أروع امرأة في العالم يا تروتوود. لماذا لم تفعل شيئًا لتصحيح الأمور؟».

أجبته: «إنه موضوع حساس للغاية ويصعب التدخل فيه».

قال السيد دك بينما يلمسني بإصبعه: «أيها المثقف البارع، لماذا لم يفعل شيئًا؟».

عدت أردد: «للسبب نفسه».

قال السيد دك: «لقد فهمت السر إذن يا بني»، ووقف بعدها أمامي في هيئة أكثر بهجة من ذي قبل، أومأ برأسه، ثم ضرب صدره بنفسه، وكرر فعلته مرارًا، حتى يظن المرء أنه كاد أن ينزع أنفاسه ورمحه مع ضربه لجسده.

قال السيد دك: «إنه رجل مسكين به شيء من جنون، إنه رجل أحمق يا سيدي، ضعيف التفكير، يفضل رفقاءه على نفسه، كما تعلم». ضرب

نفسه مرة أخرى، ثم أكمل: «يسلك بأفعاله ما لا يستطيع أي شخص رائع فعله. سأقرب بينهما يا بني. سأحاول ولن يلوماني، ولن يعترضا على شخصي. لن يمانعا ما سأفعله وإن كان خطأ. إنني لم أزل السيد دك. ومن يمانع دك؟ لا أحد يعرقل دك! واو!». زفر نفَسًا طفيفًا مُزدَرى، كما لو أنه ينفخ جسده ثم يطلقه بعيدًا منفجرًا في الفضاء.

لقد كان من حسن الحظ أنه واصل حتى الآن هذا اللغز، لأننا قد سمعنا الحافلة تتوقف عند بوابة الحديقة الصغيرة، وقد جلبت عمتي ودورا إلى المنزل.

راح يهمس قائلًا: «لا تنبس بكلمة يا بني. اترك كل اللوم على دك - دك بسيط - دك مجنون. لقد كنت أنكر يا سيدي أنني فهمت السر منذ وقت طويل، أما الآن فقد تأكدت. إنني متأكد من أنني قد فهمت ما قلته لي. حسنًا». لم يتفوه السيد دك بكلمة أخرى عن هذا الموضوع، لكنه اقتضب حديثه عن نفسه لمدة نصف ساعة تالية (في إزعاج كبير لعقل عمتي)، حتى يؤكد لي التزامه بالسرية من دون مساس بها.

دهشت لعدم سماعي عن الأمر لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع تالية، على الرغم من أنني كنت مهتمًا أشد ما يكون لمعرفة نتيجة مساعيه التي توسمت بها بارقة أمل غريبة من فطرته الطيبة تجلت من الخاتمة التي وصل إليها، ولست أقول شيئًا هنا عن الشعور الجيد نحوه، فقد أظهر دائمًا ما يؤيد هذا الأمر. بدأت أخيرًا أتصور أن عقله في حالة من الخلخلة، فنسي ما انتوى فعله أو تخلى عنه تمامًا.

مرت إحدى الأمسيات اللطيفة، حينها لم تكن دورا تميل إلى

الخروج، مما جعلني أنا وعمتي نذهب إلى منزل الدكتور. كان الخريف قد حلَّ، ولم تكن ثمة نقاشات تفسد أجواء المساء المنعشة، وأتذكر كيف كانت رائحة أوراق الشجر تشبه رائحة حديقة بيتنا القديم في بلندرستون ونحن ندوسها بأقدامنا، وكيف بدت مشاعري القديمة البائسة تمر أمامي كأنها تهب مع زفرات الريح الصاخبة.

حل الشفق مع وصولنا إلى المنزل، وكانت السيدة سترونج قد خرجت لتوِّها من الحديقة، بينما ظل السيد دك مشغولًا بسكينه يعمل على تهذيب بعض الأغصان لمساعدة البستاني في عمله. انخرط الدكتور بالحديث مع شخص ما في مكتبه، ولكن السيدة سترونج قالت إن الزائر سينصرف مباشرة، ومن ثَم توسلت إلينا أن نبقى لنقابله، واصطحبتنا إلى حجرة الاستقبال، وجلسنا بجوار النافذة المظلمة، ولم يستدعِ الأمر إظهار أي نوع من التكلف لزيارة الأصدقاء والجيران القدامى مثلنا.

لم تمر سوى دقائق معدودة على جلوسنا، حتى جاءت السيدة ماركلهام، التي عادة ما تحاول أن تُحدث ضجة حول شيء ما. حلَّت باهتمامها الزائد والمألوف بالتفاصيل، وكانت تحمل جريدة في يدها، فتحدثت لاهثة وقالت: «يا إلهي، يا آني، لماذا لم تخبريني أن هناك رجلًا في المكتب!».

أجابت في هدوء: «آه يا أمي العزيزة. كيف لي أن أعرف أنكِ تريدين إخبارك بالأمر؟».

قالت السيدة ماركلهام بينما تندس جالسة على الأريكة: «أريد معرفة كل الأخبار، لم أصل إلى مثل هذا المنعطف في حياتي بأسرها».

سألت آني: «هل توجهتِ إلى المكتب إذن يا ماما؟».

عاودت حديثها بنبرة قاطعة قائلة: «هل تسألين إن كنت قد ذهبت إلى المكتب يا عزيزتي؟ لقد ذهبت إليه بالفعل، وصادفت هذا المخلوق الودود - لو تشعرون بما يراودني يا آنسة تروتوود ويا ديفيد حين وجدته... إنه يكتب وصيته».

ما إن سمعت ابنتها هذا الكلام، حتى أدارت عينها سريعًا نحو النافذة.

نشرت السيدة ماركلهام الجريدة على حجرها كما لو أنها غطاء مائدة، ثم ألقت يدها عليها، واستطردت قائلة: «إنه يدون وصيته يا عزيزتي آني، إنها أمنيته الأخيرة فيما يريده. يا لبصيرة هذا الرجل ومحبته الغالية! يجب أن أخبركِ كيف كان ذلك. لا بد حقًّا أن أخبركِ، إنصافًا لحق هذا الرجل المحبوب -لأنه ليس أقل من أن يكون عزيزًا محبوبًا- عليَّ إخباركِ كيف صارت الأمور. لعلكِ تعرفين يا آنسة تروتوود أنه لا تتوافر شمعة تضاء في هذا المنزل أبدًا، إلا لتكون عين المرء في وسط رأسه بكل معنى الكلمة، فينتبه إلى قراءة كل ورقة يبصرها. وما من مقعد في هذا المنزل يمكن أن يجلس عليه إنسان ليقرأ هذه الورقة، باستثناء كرسي وحيد في المكتب، وهكذا دفعتني هذه الظروف إلى المكتب، حيث أبصرت ضوءًا، ففتحت الباب، ووجدت الدكتور العزيز بصحبة رجلين من مهنته نفسها، من الواضح أن لهما صلة بالعمل بالقانون. كان ثلاثتهم واقفين حول الطاولة، بينما يلوح الدكتور ممسكًا بقلمه المفضل في يده. وسمعته يقول: «إن الموقف يعبر ببساطة ووضوح...». يا

حبيبتي آني، أرجو أن تنتبهي إلى سماع هذه الكلمات ذاتها حين قال: «إن الموقف ببساطة ووضوح يعبر أيها السادة عن الثقة التي أكنها للسيدة سترونج، ويمنحها كل شيء من دون قيد أو شرط»، أجاب أحد المهنيين قائلًا: «نعم يعطيها كل شيء من دون قيد أو شرط». قلت حينها بمشاعر الأم الفطرية: «يا إلهي، يا رب». وسقطت فوق عتبة الباب، ثم تسللت خارجة من الممر الخلفي الصغير في اتجاه المخزن».

فتحت السيدة سترونج النوافذ، وخرجت إلى الشرفة حيث وقفت متكئة إلى عمود.

أما السيدة ماركلهام، فقد راحت تتبعها بنظراتها بشكل آلي ثم قالت: «أما الآن أليس الأمر منعشًا يا آنسة تروتوود، وأنت يا ديفيد، حيث يعثر المرء على رجل في عمر الدكتور سترونج بمثل هذه القوة العقلية ليقدم على هذا الفعل؟ إنه يدلل على نظرتي الصائبة، فلقد قلت لآني، حينما قام الدكتور سترونج بزيارة محببة جدًّا إلى قلبي، وقد جعلها مكاشفة لمشاعره وخطب فيها آني، فقلت لها: «يا عزيزتي، إنني أرى أنه لا مجال للشك في شيء، أقصد من ناحية توفير تأمين لكِ. إن دكتور سترونج سيفعل أكثر مما قد يلزم نفسه به»».

دق الجرس بعدها، وسمعنا صوت أقدام الزائرين، وهما في طريقهما للخروج.

قالت الجندي العجوز بعد الإنصات لها: «لقد انتهى كل شيء بلا شك. إن الرجل الغالي قد وقَّع وختم وسلَّم وصيته وأراح باله واستسلم لقدره. قد تسير الأمور جيدًا. يا لهذا العقل الكبير! يا آني يا حبيبتي، إنني

ذاهبة إلى المكتب بجريدتي، لأنني لا أتحمل الحياة من دون الاطلاع على الأخبار. يا آنسة تروتوود، ويا ديفيد، تعالا لمقابلة الدكتور».

كنت مدركًا أن السيد دك قابعًا في ظل الغرفة، حيث يغلق سكينه، بينما رافقناها إلى غرفة المكتب، وبالمناسبة لقد فركت عمتي أنفها بعنف كنوع من التنفيس اللطيف لعدم تسامحها مع صديقتنا الجندي، لكن نسيت من دخل إلى المكتب أولًا، أو كيف استقرت السيدة ماركلهام على كرسيها المريح، أو كيف تركت أنا وعمتي معًا بالقرب من الباب -إلا إذا كانت عيناها أسرع من عيني ملاحظة، فأرجعتني إلى الخلف في هذا المكان- نسيت كيف وقعت الأحداث، إن كنت قد أدركت نتائجها. إن كل ما أعرفه أننا رأينا الدكتور قبل أن يلاحظ وجودنا، وكان جالسًا على مكتبه بين مجلدات من الأوراق التي يعتز بها، بينما يسند رأسه إلى يده في سكينة. أبصرنا في اللحظة ذاتها السيدة سترونج بينما تتسلل إلى المكتب شاحبة ومرتجفة، فأسندها السيد دك بذراعه، وقد وضع يده الأخرى فوق ذراع الدكتور، مما أتاح له النظر إلى الأعلى والشرود في الفراغ. حرك الدكتور رأسه، فانكفأت زوجته متكئة على ركبتها جاثية عند قدميه، ثم رفعت يديها في توسل، شاخصة بعينيها نحو وجهه في هذا المشهد الذي لا ينسى، بل لم أنسَه بدوري قَطُّ. لاح هذا المشهد أمامنا، فأسقطت السيدة ماركلهام الجريدة من يدها، وراحت تحملق كما لو أنها تمثال نصفي لسفينة عابرة تسمى الدهشة، وهذا أقرب تصور يمكنني التفكير به أكثر من أي شيء آخر.

أكتب هذه الكلمات الآن بينما أستحضر صورة وصوت هذا الدكتور الراقي، والدهشة التي استولت عليه، والكرامة التي امتزجت بموقف توسل زوجته، والاهتمام الصادق من السيد دك، والجدية التي حدثت بها عمتي نفسها قائلة: «إنه لرجل مجنون»، معبرة عن الانتصار والفوز وإنقاذه من البؤس.

قال السيد دك: «يا دكتور، ما الخطب؟ انظر إلينا».

صاح الدكتور قائلًا: «يا آني، لا تنحني عند قدمَي يا عزيزتي».

ردت: «نعم، إنني أتوسل وأرجو ألا يغادر أحد الغرفة، آه يا زوجي ويا أبي، فلنكسر هذا الصمت الطويل. دعنا نفهم حقيقة ما وقع وحال بيننا».

كانت السيدة ماركلهام في هذا الوقت تحاول أن تستعيد زخم الكلام، ويبدو أنها قد عبأت نفسها زهوًا بمفاخر الأسرة وسخطها الأمومي، فصاحت في هذه اللحظة قائلة: «يا آني، عودي إلى رشدكِ على الفور وانهضي، ولا تلحقي العار بكل من ينتمون إليكِ بهذا الهوان الذي ترتضيه نفسكِ، إلا إذا كنتِ ترغبين في أن يمسني الجنون على الفور».

أخذت آني تقول: «يا ماما، لا تهدري كلماتكِ بلا فائدة، لأن مناشدتي وتوسلي لزوجي، ولا دخل لكِ في هذا الأمر».

صاحت السيدة ماركلهام: «لا دخل لي، لا دخل لي أنا، لقد فقدت تلك الابنة سيطرتها على عقلها. أرجوكم أحضروا لي كأسًا من ماء».

كنت منتبهًا جدًّا للدكتور وزوجته فلم أعبأ بهذا الطلب، ولم يكن له أي تأثير على أي إنسان آخر، فأثار هذا الإهمال السيدة ماركلهام فراحت تلهث وتحدق وتزأر غاضبة، ثم هدأت نفسها بالترويح بمروحتها.

تحدث الدكتور إلى آني وقد أخذ بيدها في حنان قائلًا: «يا آني، يا عزيزتي، إذا حدث أي تغيير لا مفر منه في وقت ما على مدار حياتنا الزوجية، فلستِ ملامة. إن الذنب ذنبي، ولم يكن الخطأ إلا مني. لم تتغير عاطفتي نحوكِ ولم يتبدل إعجابي واحترامي لكِ. أتمنى أن أسعدكِ، وإنني أحبكِ وأكرمكِ حقًّا. انهضي يا آني أرجوكِ».

أما هي فلم تنهض، بل غاصت على مقربة منه، بعد أن نظرت إليه قليلًا، وقد أسندت ذراعها على ركبته، وأمالت رأسها إليها، ثم قالت:

«لو أن لي صديقًا هنا، يمكنه أن يتحدث بكلمة حق واحدة لي أو لزوجي في هذا الأمر. لو أن لي صديقًا هنا يستطيع أن يقول كلمة حق عن أي شك كان يراود قلبي أحيانًا. لو أن لي صديقًا هنا يبجل زوجي أو يهتم بأمري، أو يعرف أي شيء بغض النظر عن ماهيته، قد يساعد في التوسط بيننا بالخير، فإنني أناشد هذا الصديق أن يتحدث».

حل صمت مطبق في هذه اللحظة، وما إن انقضت بعض لحظات من التردد المؤلم حتى كسرت هذا الصمت، قائلًا: «يا سيدة سترونج، إن ثمة أمرًا ما على حد معرفتي، وقد طلب مني دكتور سترونج أن أكتمه، وقد أخفيته حتى الليلة، ولكني أظن أن الوقت قد حان، وسيكون من الخطأ والظلم الفادح أن أخفيه بعد الآن، بعدما بدا لي أن توسلكِ يحررني من هذا العهد بالكتمان».

أدارت وجهها نحوي للحظة، فأدركت أنني كنت على حق. لم يكن بإمكاني مقاومة توسلاتها، حتى لو لم أكن مطمئنًّا.

قالت: «إن سلامة علاقتنا في المستقبل قد صارت بين يديك، وإنني أثق في أنك لن تكتم شيئًا أو تخفيه. أعلم سابقًا أنه ما من شيء تخبرني به أنت أو أي إنسان غيرك، سيُظهر قلب زوجي النبيل في أي هيئة أخرى غير التي عهدتها. مهما تتصور عن الأمر ومدى تأثيره عليَّ، فلتتجاهل ظنونك. سأراجع نفسي قبل أي شيء، ولأحاسب نفسي أمامه ثم أمام الله بعد ذلك».

لم أقم بأي إشارة توحي بالاستئذان من الدكتور أمام هذا التوسل الجاد، بل مضيت من دون تنازل آخر عن الحقيقة إلا التخفيف قليلًا من فجاجة منطق يورايا هيب وتعبيراته، ورحت أقص الأمر بوضوح وما جرى في الغرفة في تلك الليلة المنصرمة. كان تحديق السيدة ماركلهام في أثناء السرد بأكمله، ومداخلاتها الحادة والصاخبة بالصراخ الذي أقحمته من حين لآخر، يفوق أي وصف.

انتهيت من كلامي، ولم تزل آني صامتة لبضع لحظات محنية الرأس في الحال نفسها التي وصفتها من قبل. أمسكت بعدها بيد الدكتور -الذي ظل جالسًا بالهيئة نفسها التي رأيناها حين دخلنا الغرفة- وراحت تضغط يده على صدرها ثم قبَّلتها، وساعدها السيد دك على النهوض بلطف، ثم وقفت بعدها وبدأت حديثها متكئة عليه، تنظر إلى زوجها الذي لم تزحزح عنه عينيها قَطُّ.

قالت بصوت منخفض ذليل ورقيق: «لقد كانت كل هذه الأمور تجول بخاطري، منذ أن تزوجت، سأكشف أمري لأصبح عارية أمامك. لم أستطع العيش تحت وطأة تحفظ بعد أن عرفت ما عرفته الآن».

قال الدكتور في هدوء: «كلا يا آني، إنني لم أشك فيكِ قَطُّ يا طفلتي، فلا حاجة لقول ذلك، في الواقع لا حاجة لأن تقولي شيئًا يا عزيزتي».

أجابت بنفس الطريقة: «إن ثمة حاجة ماسة، يجب أن أبوح بمكنون قلبي أمام روح الكرم والصدق التي أحببتها سنة بعد سنة، ويومًا بعد يوم، وبجلتها أكثر فأكثر. والله يشهد بحالي».

قاطعت السيدة ماركلهام قائلة: «صدقًا ما تقول، إن كنت محلًّا للتقدير للإدلاء بشيء على الإطلاق. يجب أن تسمحوا لي بأن أدلي بملاحظة أنه ليس من الضروري الدخول في هذه التفاصيل».

تهامست عمتي قائلة بنبرة غضب: «لم تكوني محلًّا للتقدير يا فضولية».

قالت آني من دون أن ترفع عينيها عن وجهه: «ليس بوسع أي إنسان الحكم بذلك سوى زوجي يا ماما، وسوف يسمعني. إذا قلت أي شيء يسبب لكِ الألم يا ماما، فلتسامحيني. لقد تحملت الألم عن نفسي في كثير من الأحيان ولوقت طويل قبل أي إنسان».

شهقت السيدة ماركلهام قائلة: «يا للعجب!».

قالت آني: «كنت يومًا صغيرة جدًّا، مجرد طفلة ساذجة للغاية مرتبطة في معارفي الأولى بصديق ومعلم صبور - وهو صديق المرحوم

والدي - الذي كنت أكن له معزة دائمة. لا أستطيع تذكر أي شيء تعلمته من دون أن يكون مرتبطًا به. لقد تعبأ ذهني بكنوز المعرفة الأولى بفضله، وختم شخصيته على مداركي بأسرها. أظن أن أفكاري لم تكن لتصير نافعة لي، لو أنني تعلمتها على يد أي إنسان سواه».

صاحت السيدة ماركلهام: «إنها لا تقيم لوالدتها وزنًا أو فضلًا».

قالت آني: «ليس الأمر على هذا النحو يا ماما، لكنني أضعه في مكانته، وهذا ما يجب عليَّ فعله. لقد كبرتُ بينما ظل في المكانة نفسها، وكنت فخورة باهتمامه، ومرتبطة به بعمق، واعتزاز، وامتنان، وكنت أنظر إليه، وبالكاد أستطيع أن أصف حاله - كما الأب والمرشد، والإنسان الذي يصبح مدحه مختلفًا عن أي مديح آخر، كإنسان لطالما استطعت أن أثق به ولم أزل أثق به، حتى إن راودني شك في العالم بأسره. إنكِ تعرفين يا ماما، كم كنت صغيرة وساذجة، عندما ظهر أمامي فجأة وتقدم لي عاشقًا ومحبًّا».

قالت السيدة ماركلهام: «لقد قلتُ هذه الحقيقة خمسين مرة على الأقل أمام الحاضرين هنا جميعًا».

تمتمت عمتي قائلة: «أمسكي لسانكِ إذن كرامة لله، ولا تذكري الأمر أكثر بعد الآن».

تحدثت آني، بينما لم تزل تحتفظ بنفس الهيئة والنبرة: «كان التغيير عظيمًا؛ شعرت بتحول كبير في بداية الأمر، وأحسست باضطراب وحيرة إلى الحد الذي جعلني قلقة وخائفة. لم أكن سوى فتاة صغيرة،

أما بعدما حدث تغيير كبير في الشخصية التي كنت أتطلع إليها منذ فترة طويلة، لفني بالغ الأسى. لن يعيده أي شيء على ما كان عليه في البداية مرة أخرى. انتابني زهو دفعني لأثبت له أنني جديرة بذلك، ومن ثَم تزوجنا».

أضافت السيدة ماركلهام قائلة: «في سانت ألفاج كانتربري».

قالت عمتي هامسة: «لعنة الله على هذه المرأة، ألن تسكت!».

تابعت آني حديثها، في درب أكثر إشراقًا وخجلًا: «لم أفكر قَطُّ في أي مكسب دنيوي يجلبه زوجي لي. لم يكن لقلبي الشاب مكان لاعتبار أي عوامل مادية من هذا القبيل. سامحيني يا ماما إذا قلت إنكِ كنتِ أول من عرضت على ذهني فكرة أن ثمة شخصًا يمكن أن يظلمني، ويظلمه، بمثل هذه الشبهات القاسية».

صرخت السيدة ماركلهام قائلة: «أنا».

عقبت عمتي قائلة: «آه، أنتِ، بالتأكيد، ولا يمكنكِ إنكار الأمر أو طرده بمروحتكِ يا صديقتي العسكرية».

قالت آني: «لقد كان هذا الشك أول تعاسة في حياتي الجديدة. صار السبب الأول والدافع إلى كل لحظة تعيسة عرفتها. لقد كانت هذه اللحظات مؤخرًا أكثر مما أستطيع أن أحصيه عددًا، لكن لم يكن - يا زوجي الكريم - للسبب الذي تفترضه، لأنه لم تراود قلبي فكرة أو هاجس أو أمل في أن تنتزعني أي قوة أو تفصلني عنك».

رفعت عينيها وشبكت يديها، وكم بدت لي جميلة ونقية كما لو أنها روح شفافة صادقة. نظر الدكتور إليها منذ هذه اللحظة إلى ما تلاها، وقد ثبت إليها عينه مثلما فعلت قبله.

استطردت بعدها قائلة: «إنني لا ألوم أمي، لأنها حاولت التقرب نحوك بكل ما استطاعت، إنني لا ألومها في كل نياتها، إنني متأكدة من سلامة نياتها. إلا أنني لاحظت عددًا من الادعاءات الملحة التي استغلت اسمي فمثلت ضغطًا عليك، وكيف تم استغلالك باسمي، وكم كنت كريمًا، وكيف استاء السيد ويكفيلد، الذي كان يتمتع بفيض سخائك أيما تمتع، هنا سيطر عليَّ أول إحساس بالشك في أنني قد تعرضت لشبهات لئيمة، وأن حناني عليك قد راح يُشتَرى ثم يباع لك -أنت من بين جميع الرجال على وجه الأرض- كما لو أن عارًا غير مستحقة له، وظلمًا لا يناسبني، قد أجبرك يا زوجي على المشاركة فيه. لا أستطيع أن أصف لك، ولا في إمكان أمي أن تتخيل ما دار في خلدي واستمكن منه، إذ لفني الرعب وأحاطني الألم، ومع ذلك كانت روحي على يقين أنني في يوم زواجي كنت قد توجت بتاج الحب والشرف والعزة بقية حياتي».

صرخت السيدة ماركلهام باكية: «يا له من شكر يحصل عليه المرء نظير رعاية أسرته! كم أتمنى لو كنت غريبة خشنة من بلاد الترك».

قالت عمتي: «أتمنى لو كنتِ كذلك، من كل قلبي. وكم أتمنى لو كنتِ في وطن الأتراك كذلك».

راحت آني تتحدث في هدوء، ومن دون أي تردد قائلة: «كانت ماما في ذلك الوقت أكثر اهتمامًا بابن عمي مالدون، وقد أعجبت به

كثيرًا جدًّا. كنا ذات يوم كعاشقين صغيرين. لولا أن سارت الأمور على هذا النحو، لأقنعت نفسي أنني أحببته حقًّا، وربما كنت لأتخذه زوجًا، ولأصبحت أكثر بؤسًا. ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف».

راعني التفكير في هذه الكلمات «ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف»، بينما رحت أتابع بجدية ما تبعها من حديث، كما لو أن بعضها قد لامسني وخصني، وإن كان مدلولها غريبًا وقد حال بيني وإدراك المقصود تمامًا. «ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف».

قالت آني: «لم أجد شيئًا مشتركًا بيننا، حقًّا أدركت منذ فترة طويلة ألا شيء يجمعنا. أما إذا كان ثمة شيء واحد يدفعني إلى الامتنان لزوجي، عوضًا عن الكثير الذي يوجب امتناني له، فيجب أن أكون شاكرة له لأنه أنقذني من أول اندفاع خاطئ لقلبي الأهوج».

وقفت بلا حراك أمام الدكتور، وقد تحدثت بجدية أبهرتني، وإن ظل صوتها هادئًا كما كان من قبل.

تابعت كلامها قائلة: «كان من المنتظر أن يكون ابن عمي موضع كرامتك الذي أفضته عليه من أجلي. أما أنا فكنت في ألم من هذا الشكل للمقايضة التي قد بدوت عليه. ظننت أنه من الأفضل له أن يشق طريقه في الحياة بنفسه، وأحسب أنني لو كنت مكانه لحاولت الاعتماد على نفسي محتملة سبل المعاناة. لكنني لم أفكر في شيء أسوأ من ذلك، إلى أن جاءت ليلة رحيله إلى الهند، ففي تلك الليلة علمت أن لديه قلبًا زائفًا

وروحًا ناكرة للجميل. لقد أبصرت الشك في تحديق السيد ويكفيلد لي، وأدركت لأول مرة، هذا الشك المظلم الذي ظلل حياتي».

قال الدكتور: «أتقولين شكًّا يا آني! لا، لا، لا».

أجابت: «أعرف يا زوجي أنه لم يخامرك شيء من هذا الشك، لقد جئتك في تلك الليلة لأفرغ أمامك كل ما أحاطني من خزي وأسى، وقد أدركت أنه عليَّ أن أعترف أن أحدًا من أفراد عائلتي كنتَ محسنًا إليه، قد نطق تحت سقف بيتك بكلمات لا ينبغي أن تُقال، حتى إن كنت بائسة ضعيفة أو مرتزقة. لقد ثارت نفسي من قذارة الحكاية ذاتها، فمات الكلام على شفتي، ومنذ تلك الساعة وحتى الآن لم أتجاوز الأمر قَطُّ».

استندت السيدة ماركلهام إلى الخلف في كرسيها المريح، وقد أصدرت تنهيدات قصيرة، وتقاعدت خلف مروحتها، كما لو أنها لا تريد أن تظهر نفسها بعد الآن.

استطردت آني قائلة: «لم يسبق لي أن بادلته أي حديث منذ ذلك الوقت إلا في وجودك، وحين يكون الأمر ضروريًّا فقط لتجنب أي نوع من تأويل الموقف. انقضت سنوات منذ أن عرف مني طبيعة مركزه هنا. أما لطفك الذي فعلته سرًّا من أجل ترقيته، ثم معرفتي بعد ذلك أنك ما أردت سوى أن تُدخل السرور والسعادة عليَّ، فلتصدق قولي بأن الأمر نفسه زادني تعاسة ولم يزد السر الذي أطويه سوى ألم».

مالت برفق نحو قدمي الدكتور، على الرغم من أنه بذل قصارى جهده لمنعها، ثم قالت بينما تلوح عينها باكية وناظرة إلى وجهه: «لا

تتحدث إليَّ الآن، اسمح لي أن أزيد قولي بما هو أكثر من ذلك بقليل، فلو أن هذا الأمر تكرر الآن وكان خطأً أو صوابًا، فما كنت لأفعل إلا ما فعلت، ولن تستطيع أبدًا أن تدرك مقدار ما كنت أضمره لك من إخلاص، عوضًا عن كل الذكريات القديمة. لا تعلم مدى قسوة أن يظن الناس وفائي عبثًا أو أنني امرأة بلا قلب. لقد آلت المظاهر التي أحاطتني إلى تأكيد هذا الظن. كنت صغيرة جدًّا، ولم يكن عندي مَن أشركه في أمري، وكنت على خلاف مع أمي، وقد وقعت بيننا هوة سحيقة. انكمشتُ منكبة على نفسي لهذه الأسباب، وأخفيت الإهانة التي تعرضت لها، وذلك لأنني بجَّلتك كثيرًا، وتمنيت كثيرًا أن تبجلني».

قال الدكتور: «يا آني، يا قلبي النقي، يا فتاتي العزيزة».

قالت: «هلا أزيد حديثي قليلًا، بعدد من كلمات أُخَر، كنت أحسب أن ثمة الكثيرات ممن كنت لتتزوجهن، واللاتي لم يكنَّ ليجلبن عليك مثل هذه الاتهامات والمتاعب، وكن سيجعلن من منزلك أفضل المنازل. كنت أخشى أنه كان خيرًا لي لو بقيت تلميذتك، أو تقريبًا طفلتك، وكنت أخشى أنني لست كفئًا لمستوى علمك وحكمتك. إذا كان كل ما سلف يجعلني أنكمش على نفسي وأنزوي - كما حدث بالفعل - بينما صار عليَّ البوح بأمري، فلأنني لم أزل أبجلك كثيرًا، وآمل أن تبجلني كذلك يومًا ما».

قال الدكتور: «لقد لاح ذاك اليوم يا آني واستمر منذ وقت طويل يا آني، ولا يمكن أن ينزاح عني ولو ليلة واحدة كاملة يا عزيزتي».

«كلمة أخرى! قصدت بعد ذلك - وكنت أنتوي تحقيق مقصدي

بثبات، غير متزعزعة عنه - أن أتحمل على كاهلي ثقل إدراك أنني لا أستحق الإنسان الذي رافقته بكل طيبة. أما الآن فعندي كلمة أخيرة، يا أعز الأصدقاء وأفضلهم، لقد اتضح لي سبب تغيرك الأخير، والذي راقبته في ألم وحزن شديدين، وقد أرده أحيانًا إلى مخاوفي القديمة، وأحيانًا أخرى إلى افتراضات أقرب إلى الحقيقة، وهذا ما قد ظهر جليًّا الليلة. لقد عرفت الليلة بالصدفة أيضًا مدى ثقتك النبيلة بي، حتى في ظل هذا الخطأ، ولا أتطلع إلى أن أتصور أن أي حب أو واجب قد أقدمه لك سيجعلني في المقابل مستحقة لثقتك ونبلك اللذين لا يقدران بثمن، لكن بعد ما طرأ عليَّ من معرفة جديدة بحالي، يمكنني أن أرفع عيني إلى هذا الوجه العزيز، الذي احترمته كأب، وأحببته كزوج، وإني لأقسم لك بكل مقدس إنني لم أسئ إليك يومًا في خاطري أي إساءة كبيرة أو صغيرة، ولم أظلمك، ولم أتزحزح عن الإخلاص الذي أوليك إياه».

طوقت آني رقبة الدكتور، فأحنى رأسه إليها وقد امتزج شعره الرمادي بخصلات شعرها البني الداكن، وراحت تقول: «آهٍ، فلتضمني إلى قلبك يا زوجي، لا تطرحني خارجه، لا تفكر أو تتحدث عن فوارق بيننا، لأنه ليس ثمة تفاوت بيننا إلا بكثرة عيوبي، التي أدركت حقيقتها بصورة أفضل في كل عام انقضى، وتعلمت أن أزيد من احترامي لك أكثر فأكثر. آهٍ، فلتضمني إلى قلبك يا زوجي، لأن حبي لك مؤسس على صخرة وهو يدوم».

أعقب ذلك صمتٌ طويل. سارت عمتي بعد ذلك نحو السيد دك، من دون أن تستحث نفسها على الإسراع مطلقًا، ثم عانقته وقبلته. كان

من حسن حظه أنها فعلت ذلك، لأنني كنت على ثقة من أنني لاحظته هو في تلك اللحظة يستعد للوقوف على ساق واحدة في نوع من التعبير المناسب عن البهجة والفرح.

قالت عمتي في نوع من الاستحسان التام: «يا لك من رجل رائع جدًّا يا دك! ولا يبدو أنك تتصف بأي شيء آخر سوى هذه الروعة، لأنني أعرفك جيدًا».

جذبته عمتي من كمه نحوها، ثم أومأت إليَّ، فانسلَّ ثلاثتنا خارجين من الغرفة في هدوء.

قالت عمتي وهي في طريقها إلى المنزل: «إن ما وقع سيقضي على صديقتنا العسكرية، على أفضل تقدير، لذلك يجب أن أنام بشكل أفضل، فليس ثمة شيء آخر يسعدني ويريحني».

قال السيد دك في تعاطف كبير: «إنني أتصور أننا قد تغلبنا عليها تمامًا».

راحت عمتي تسأل: «ماذا؟! هل رأيت يومًا تمساحًا يُغلب؟».

رد السيد دك في هدوء قائلًا: «لا أظن أنني رأيت تمساحًا من قبل».

قالت عمتي في تركيز شديد: «لولا هذا الحيوان العجوز لما وقع شيء من هذا مطلقًا. أرجو أن تترك بعض الأمهات بناتهن وشأنهن بعد الزواج، فلا يتفاقم مثل هذا النوع من التعلق المبالغ فيه. يبدو أنهن يتصورن أن العاقبة الوحيدة التي يمكن تحقيقها هي إحضار امرأة شابة تعيسة إلى العالم - فليحفظ الله روحي، كما لو أنها طلبت من الله

إحضارها لتزهق روحها أو تخرجها منها بنفسها! ما الذي تفكر به يا تروت؟».

كنت أفكر في كل ما قيل. كان عقلي لم يزل يتأمل بعض التعبيرات المستخدمة. «ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف». «أول اندفاع خاطئ لقلب أهوج». «حبي تأسس على صخرة». وصلنا إلى المنزل، وكانت أوراق الشجر مستلقية تحت أقدامنا، وقد أخذت ريح الخريف تهفو.



الفصل السادس والأربعون

تبادل معلومات

يبدو أنه قد مر ما يقرب من عام أو نحو ذلك على زواجي، إذا جاز لي الوثوق في ذاكرتي المتذبذبة حول التواريخ، وكنت عائدًا من نزهة انفرادية في أحد المساءات، بينما أفكر في الكتاب الذي أكتبه في ذلك الوقت - لأن نجاحي كان قد صار في ازدياد مطرد وكانت متطلباتي ثابتة، فانخرطت في ذلك الوقت في أول أعمالي الروائية - وإذا بي مارًّا بمنزل السيدة ستيرفورث، وكنت أمر به كثيرًا قبل ذلك في أثناء إقامتي في ذلك الحي، ولم أكن لأختار طريقًا آخر للرجوع. ومع ذلك، لم يكن قَطُّ من السهل العثور على طريق آخر من دون أن أسلك طريقًا دائريًّا طويلًا، وهكذا مررت بالبيت بهذه الطريقة في كثير من الأحيان، بل وبشكل دوري.

لم أزد على أن ألقيت نظرة على المنزل حين ممرت به في خطى سريعة. بدا قاتمًا ومملًّا في هيئة موحشة. لم تكن غرف المنزل الفخمة التي تطل على الطريق تُظهر أي مظهر من الابتهاج. بدت النوافذ

القديمة الضيقة ذات الإطارات السميكة كئيبة للغاية، ولم يبدُ أي منها مبهجًا قَطُّ بأي حال من الأحوال، بعد أن ظلت الستائر مغلقة ومنسدلة دومًا. كان للمنزل طريق مسقوف عبر ساحة صغيرة مرصوفة، يؤدي إلى مدخل لم يستخدم قَطُّ، ينتهي إلى سلم مستدير مميز عن غيره، إذ له نافذة من دون ستائر لا يختلف شكلها عن النوافذ الأخرى في الظلام والكآبة. لا أذكر أنني لاحظت نورًا في أرجاء المنزل بأسره، ولو لمرة واحدة. أما إذ كنت أمر به باستمرار، فربما ظننت أن إنسانًا مقطوع النسل قد مات فيه، ولو كان الحظ قد حالفني بعدم معرفة أي شيء عن المكان، بينما أبصره كثيرًا على هذه الهيئة التي لا تتغير، لأطلقت العنان لخيالي الجريء بالعديد من التكهنات البارعة حوله.

ظل البيت كما كان دومًا، فأبعدت عن خاطري التفكير في أمره بقدر ما أستطيع، لكن عقلي لم يستطع أن يمر به ويتركه من دون انتباه، وكذلك فعل جسدي، فرحت كعادتي أوقظ سلسلة طويلة من التأملات. لاح أمامي في هذا المساء بالذات الذي أذكره، طيفٌ ممزوجٌ بذكريات الطفولة ونزوات المراهقة، وأشباح الآمال شبه المكتملة، وظلال منكسرة لخيبات أمل شوهدت فلا تكاد تتضح. امتزجت الخبرة بالخيال بما يشغل أفكاري دومًا، حتى أحسست أنها تفوق كونها مجرد خواطر أو أوهام. استغرقت في التفكير حتى تنبهت وأنا سائر في طريقي على صوت ما.

كان صوتًا لامرأة، وقد أخذت وقتًا طويلًا في التفكير لأتذكر الخادمة التي تقيم مع السيدة ستيرفورث، والتي كانت ترتدي في السابق

قبعة ذات شرائط زرقاء. لقد انتزعتها الآن، على ما أظن، لتتكيف مع الطابع المتغير للمنزل، فصارت ترتدي واحدًا أو اثنين فقط من شرائط غير محكمة الربط، بُنية، غامقة اللون.

قالت السيدة: «إذا سمحت يا سيدي، هلا تفضلت بالدخول والتحدث إلى آنسة دارتل؟».

سألت: «هل أرسلتك آنسة دارتل لي؟».

أجابت: «لم ترسلني الليلة يا سيدي، ولكن الآنسة دارتل قد لاحظتك وأنت تمر من هنا منذ ليلة أو ليلتين، فطلبت مني الجلوس عند السلم لحين رؤيتك تمر من هنا مرة أخرى، فأدعوك للدخول والتحدث إليها».

تراجعت بخطواتي إلى الوراء لترشدني إلى الطريق، ثم سألت عن حال آنسة ستيرفورث. قالت إن سيدتها مريضة، وقد انفردت وانزوت في غرفتها الخاصة.

وصلنا إلى المنزل، فأرشدتني الفتاة إلى مكان الآنسة دارتل، حيث كانت تجلس في الحديقة، ثم تركتني حتى أعلن لها عن وجودي بنفسي. كانت الآنسة دارتل تجلس على طرف مقعد أشبه بمصطبة تطل على المدينة العظيمة، وكان المساء قاتمًا، وقد لاح ضوء خافت في السماء، بينما انقشع كل شيء حولي إلا شيء ما أكبر بدأ يتوهج في كآبة، وقد تخيلت أنه كان رفيقًا لائقًا لذكرى هذه المرأة الشرسة.

أبصرتني بينما أتقدم نحوها، فنهضت للحظة لتستقبلني. كانت شاحبة أكثر مما تخيلت وأكثر نحافة مما عهدتها آخر مرة، ولم تزل عيناها اللامعتان أكثر إشراقًا، أما ندبتها فأكثر وضوحًا.

لم يكن لقاؤنا وديًّا بل جافًّا. لقد افترقنا غاضبين في المرة الأخيرة، وكان يبدو عليها نوع من الازدراء لم تحاول أن تخفيه.

وقفت على مقربة منها، وقد أسندت يدي على ظهر المقعد، رافضًا دعوتها لي بالجلوس، وقلت: «قيل لي إنكِ ترغبين في التحدث إليَّ يا آنسة دارتل».

قالت: «تفضل لو سمحت. رجاءً أخبرني، هل عثرت على هذه الفتاة؟».

«لا».

«ومع ذلك فقد هربت».

رأيت شفتيها النحيفتين تنفرجان بينما تنظر إليَّ، كما لو كانتا متشوقتين إلى توبيخها بلوم.

كررت قولها: «أتقولين هربت؟».

قالت ضاحكة: «نعم، هربت منه. إذا لم يعثر عليها، فربما لن يعثر عليها أبدًا. ومن المتوقع أن تكون قد ماتت».

يا لهذه القسوة الفاحشة التي قابلتْ بها نظراتي، والتي لم أرَ مثلها مطلقًا في أي وجه سواها.

قلت: «تتمنين موتها، قد تكون هذه أفضل أمنية يمكن أن تتمناها

لها إحدى بنات جنسها. إنني سعيد لأن الوقت قد خفف عنكِ غضبكِ كثيرًا يا آنسة دارتل».

منعت نفسها من الرد، لكنها أجابتني بضحكة احتقار أخرى، ثم قالت: «إن أصدقاء هذه الشابة الممتازة المصابة بأذى بالغ ليسوا سوى أصدقائك، وإنك لمدافع عن حقوقهم. فهل تريد أن تعرف أخبارًا عنها؟».

قلت: «نعم».

نهضت وقد رسمت ابتسامة لئيمة، وخطت بضع خطوات نحو جدار فخم كان على مقربة منها، يفصل الحديقة الخارجية عن حديقة المطبخ، ثم قالت بصوت عالٍ: «تعال إلى هنا» - كان نداؤها كما لو أنها تدعو حيوانًا ضاريًا.

تحدثت وهي تنظر نحوي من فوق كتفها بالسخرية ذاتها: «ستكبح أي بطولة استعراضية أو انتقام في هذا المكان يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي من دون أن أفهم مقصدها، فإذا بها تقول مرة أخرى: «تعالَ إلى هنا». عادت وقد تبعها السيد ليتيمر المحترم، وقد انحنى أمامي في احترام وتبجيل، فانحنيت بدوري لتحيته، وقد اتخذ مكانه خلفها. لاحت أجواء خبيثة من الانتصار، وكان من الغريب أن تتصف بأي شيء من الأنوثة والإغراء، حيث كانت تتكئ على مقعد بيننا، وقد وجهت نظراتها نحوي، ربما تستحق أن تكون أميرة قاسية في أسطورة ما.

بدأت في حديثها من دون أن تلقي بنظراتها إليه، بينما راحت تلمس ندبتها القديمة المرتعشة، ربما في سرور لا ألم في هذه اللحظة، قالت: «والآن، فلتخبر السيد كوبرفيلد عن قصة الهروب».

قال السيد ليتيمر: «إن السيد جيمس، وأنا، يا سيدتي...».

قاطعته في عبوس قائلة: «لا توجه حديثك إليَّ».

عاد يقول: «إن السيد جيمس، وأنا، يا سيدي...».

قلت: «ولا توجه حديثك إليَّ، إذا سمحت».

لم يشعر السيد ليتيمر بالحيرة على الإطلاق، ولم يبدُ ذلك ولو بإيحاء طفيف. صار أي شيء نقبله هو الشيء نفسه الذي يوافقه، ومن ثَم بدأ كلامه مرة أخرى، فقال: «لقد سافرت أنا والسيد جيمس إلى الخارج مع الفتاة الشابة، وقد ظلت تحت رعاية السيد جيمس منذ أن غادرت يارموث. تجولنا في أماكن مختلفة، وزرنا عددًا من الدولة الأجنبية. لقد ذهبنا إلى فرنسا وسويسرا وإيطاليا، تجولنا في الواقع في جميع أنحاء العالم تقريبًا».

التفت ناظرًا إلى ظهر المقعد كما لو أنه يخاطبه، ثم حرك يديه كما لو أنه يعزف بهدوء، أو يضرب أوتارًا على بيانو صامت أخرق.

استطرد ليتيمر قوله: «لقد انجذب السيد جيمس بصورة غير طبيعية إلى الشابة، وطالت علاقته بها فترة أطول مما عهدته في أي علاقة منذ أن كنت في خدمته. كانت الشابة تتحسن بصورة لافتة، فتعلمت اللغات وتحدثتها، حتى لم يكن لإنسان أن يدرك أنها الفتاة

الساذجة التي عرفها من قبل. لاحظت كذلك أنها صارت محط إعجاب كبير أينما ذهبت».

أحكمت آنسة دارتل يدها حول خصرها. وقد رأيته يسرق لمحة إليها، ويبتسم قليلًا خفية، ثم مضى في حديثه يقول: «كانت الشابة قد حازت إعجابًا جمًّا حقًّا؛ وإذا بجمال ثيابها، وبديع هيأتها مع الهواء و لفحة الشمس تزداد جمالًا وحسنًا، وأشياء أخرى من هذا السحر وذاك الجمال وغيرهما مما يصقل مواهبها ويحوز انتباهًا عامًّا».

توقف ليتيمر قليلًا عن الكلام، بينما راحت عينا الآنسة دارتل تجولان في قلق في فضاء بعيد، ثم عضت على شفتها السفلى لإيقاف حديث هذا الفم المرتجف الزاخر بالكلمات.

أزاح ليتيمر يديه من فوق المقعد وقد شبك إحداهما بالأخرى، ثم استقر جالسًا وقد رفع إحدى ساقيه على الأخرى، ومضى يقول وقد أطرق عينيه ورفع من رأسه المحترم مشرئبًّا بعض الشيء، ومائلًا نحو جانب واحد قليلًا:

«ظلت حال الشابة على هذا النحو بعضًا من الوقت، وكانت تنزوي أحيانًا، إلى أن تصورتُ أنها قد ضجرت من السيد جيمس، بعد استسلامها لروحها المنقبضة وعواطفها المختنقة وما إلى ذلك، ومن ثَم لم تسِر الأمور في سلاسة. بدأ السيد جيمس ينتابه القلق والضجر مرة أخرى، وكلما ألمح لذلك ازدادت انقباضًا وانزواءً. يجب أن أقول إنني قد مررت بوقت عصيب للغاية حقًّا في محاولة الصلح بين الاثنين. كنت لم أزل أصلح الأمور هنا وهناك، مرارًا وتكرارًا، واستمر الأمر

برمته على هذه الحال، وأنا متأكد من أن الأمور قد طالت لفترة أطول مما قد يتوقعها أي إنسان».

استرجعت الآنسة دارتل عينيها الزائغتين من إطراقهما البعيد، ونظرت إليَّ مرة أخرى في هذه اللحظة بطبيعتها السابقة. تمخض السيد ليتيمر بسعال قصير محترم لينظف حلقه مواربًا يده، وقد بدل وضعية ساقيه، ثم استطرد قائلًا:

«تحول الأمر في النهاية إلى عدد لا بأس به من كلمات اللوم والعتاب، إلى أن غادر السيد جيمس ذات صباح تاركًا حي نابولي، حيث كنا نقيم في «فيلا» بجوار البحر، وكانت الشابة متحيزة جدًّا للبحر وتحب المقام عنده. رحل قائلًا إنه سيعود في غضون يوم أو نحو ذلك، لكنه تركني مسؤولًا عن إيضاح الأمر، فأقول إنه من أجل سعادة الطرفين، إنه...».

توقف هنا لسعال قصير ثم أكمل: «قد رحل. يجب أن أشير هنا إلى أن السيد جيمس قد تصرف بشرف شديد، لأنه اقترح على الشابة الزواج من إنسان محترم للغاية على استعداد تام للتغاضي عن الماضي، وقد كان لا يقل ميزة عن أي رجل تطمح إليه شابة من بين عامة الناس من الدهماء».

بدَّل ساقيه مرة أخرى، ثم رطب شفتيه بريقه، وكنت مقتنعًا أن وغدًا يتحدث عن نفسه، ورأيت قناعاتي تنعكس على وجه آنسة دارتل كذلك.

قال: «هكذا كنت مسؤولًا أيضًا عن التواصل بينهما، وكنت على استعداد لفعل أي شيء يخلص السيد جيمس من الصعوبات التي يواجهها، لأعيد الانسجام بينه ووالدته الحنون التي عانت الكثير من أجله. توليت المفاوضات بينهما، فازداد عنف الشابة بعدما علمت خبر مغادرته، وقد كانت ثورتها تفوق كل التوقعات، حتى صارت في قمة الجنون، وكان لا بد أن تحتجز بالقوة، وإلا حاولت قتل نفسها، إما بالوصول إلى السكين، أو الوصول إلى البحر، وإن لم تستطع الوصول إلى أي منهما، فقد كان من المحتمل أن تضرب رأسها فوق الأرض الرخامية».

لاح على آنسة دارتل المتكئة على مقعدها، ضوء من الابتهاج يعلو وجهها، وكأنها راحت تداعب الأصوات التي نطق بها هذا الرجل وتلتهم كلماته.

تحدث السيد ليتيمر بينما فرك يديه في قلق فقال: «ولكن عندما جئت إلى الجزء الثاني من التعليمات، وهو ما كان من المفترض أن يعده أي إنسان في مختلف الظروف دليلًا على العفة والنية الطيبة، لم تلبث الشابة أن ظهرت على حقيقتها. لم أشهد في حياتي إنسانة أشنع أو أبشع منها. كان سلوكها سيئًا بشكل مدهش ومربك، إذ لم يعد لديها عرفان بالجميل، ولا مزيد من الإحساس أو الصبر، ولا أي دوافع سوى أنها صارت كخواء أو حجارة قاسية، وإذا لم أكن حذرًا، لامتصت دمي».

قلت بسخط: «أحسب أنني أحسن الرأي فيها لهذا السبب».

أحنى السيد ليتيمر رأسه كما لو أنه يريد أن يقول: «أحقًّا يا سيدي؟ لكنك لم تزل صغير السن!»، ثم استأنف سرده.

مضى يقول: «كان من الضروري باختصار، أن أحجب كل شيء قريب منها لفترة من الوقت، وإلا تمكنت من إصابة نفسها أو أي شخص آخر، وكذلك كان عليَّ مراقبتها عن قرب، إلا أنها على الرغم من كل شيء استطاعت أن تهرب في الليل، حيث أزاحت شبكة النافذة التي كنت قد سمَّرتها بنفسي، ثم تدلت على كرمة واقعة أدناها، ومنذ ذلك الحين لم أرَها ولم أسمع عنها أي شيء».

قالت آنسة دارتل بابتسامة: «لعلها ماتت». قالتها في جحود ينهش جسد الفتاة المحطمة.

عاد السيد ليتيمر إلى حديثه منتهزًا أي فرصة لمخاطبة أي إنسان، فقال: «لعلها أغرقت نفسها يا آنسة، فهذا أمر وارد جدًّا، أو لعلها وجدت من يمد لها يد العون من البحارة أو زوجاتهم أو أطفالهم. لقد كانت ذات ود وألفة بالاختلاط بهم، واعتادت التحدث إليهم دومًا بالقرب من الشاطئ يا آنسة دارتل، وكذلك اعتادت الجلوس بجانب قواربهم، فقد أدركتها تفعل هذه التصرفات في غياب السيد جيمس الذي كان يطول لأيام، حتى إنه قد استاء عندما علم ذات مرة أنها أخبرت الأطفال بأنها ابنة بحار، وأنها كانت تجول في وطنها على الشاطئ مثلهم منذ زمن بعيد».

آهٍ يا إيميلي، يا للجمال التعس! يا لصورتها التي تمثلت أمامي فتجسدت جالسة على شاطئ بعيد، تلهو بين أطفال على شاكلتها حينما

كانت بريئة، تسمع أصواتًا صغيرة كان من الممكن أن تناديها قائلة أمي لو أنها تزوجت من رجل فقير، أو تصغي إلى صوت البحر العظيم المتتالي بلا نهاية، بل ربما يردد لها الصوت قائلًا: «لن يعود من رحل».

قال ليتيمر: «صار من الواضح أنه ليس بالإمكان فعل أي شيء يا آنسة دارتل، وساعتها...».

قاطعته بازدراء شديد قائلة: «هل أذنت لك أن تتحدث إليَّ؟».

أجابها قائلًا: «لقد تحدثتِ معي يا آنسة، أستميحكِ عذرًا. إن من أصول خدمتي أن أطيع الأمر».

عادت تقول: «قم بخدمتك إذن. أنْهِ قصتك وانطلق».

تحدث في احترام فائق وانحناء خانع قائلًا: «صار من الواضح أننا لم نعثر عليها، فذهبت إلى السيد جيمس، حيث المكان الذي اتفقنا أن أرسل إليه خطاباتي، وأبلغته بما حدث. تبادلنا نقاشًا حول هذا الحادث، وشعرت أن طبيعة شخصيتي تحتم عليَّ أن أتركه. كنت أستطيع أن أواصل التحمل، كما تحملت الكثير من السيد جيمس، لكنه أهانني كثيرًا، وزاد الحد في أذيته. كنت على علم بالخلاف المؤسف بينه ووالدته، وما كانت عليه من قلق وشرود ذهن، لذلك حرصت على العودة إلى المنزل في إنجلترا، والتواصل...».

قالت لي آنسة دارتل: «مقابل المال الذي دفعته له».

استطرد السيد ليتيمر بعد لحظة من التفكير قائلًا: «وهذا صحيح تمامًا يا سيدتي. أليس هو ما قلته بنفسي! لم أكن على يقين بأي شيء

سوى ذلك، وها أنا الآن عاطل عن العمل، وسأصير ممتنًّا لو أنني ظفرت بمركز محترم».

نظرت آنسة دارتل إلى وجهي، وكأنها ستسأل عما إذا كنت أرغب في طرح أي أسئلة، فخطر لي شيء دفعني لأن أقول لها:

«أريد أن أعرف من هذا المخلوق...» - لم أستطع أن أجبر نفسي على النطق بأي كلمة أخرى، فأكملت «إذا ما عثروا على رسالة مبعوثة إليها من موطنها، أو أنه يظن أنها قد تلقت رسائل».

ظل هادئًا وصامتًا، وقد ثبت عينيه نحو الأرض، مقابلًا أطراف يده اليمنى في وضع دقيق بأطراف مثيلتها اليسرى.

أدارت آنسة دارتل رأسها نحوه في ازدراء، فإذا به ينتبه من غفلته ثم يقول: «أستميحكِ عذرًا يا آنسة. مهما يكن من طاعتي وخضوعي لكِ، وعلى الرغم من كوني خادمًا فإنني أصون كرامتي، وإنكِ يا آنسة والسيد كوبرفيلد شخصان مختلفان، فإذا رغب السيد كوبرفيلد في معرفة أي شيء مني، فليسمح لي أن أذكره بأنه يستطيع أن يطرح سؤاله عليَّ، إني أمتلك كرامة عليَّ صونها».

أحسست صراعًا في أعماقي، لكني سرعان ما وجهت عيني نحوه قائلًا: «لقد سمعت سؤالي. قد تعتبره موجهًا إليك، إن آثرت ذلك. فما جوابك؟».

عاود طريقته التي يسلكها بين الحين والآخر في الإدلاء ببعض النصائح الدقيقة، قائلًا: «يا سيدي، يجب أن تكون إجابتي لائقة، لأن

كشف سر السيد جيمس لأمه وإفشاءه لك فعلان مختلفان. أظن أنه من غير المحتمل أن يشجع السيد جيمس فكرة تلقي رسائل، لأنها تزيد من حالة الإحباط والبغض، وإنني يا سيدي لا أحبذ التجاوز في إجابتي عن هذا الحد».

سألتني آنسة دارتل: «أهذا كل شيء؟».

أشرت إليها أن هذا هو كل ما أردت قوله. إلا أنني أضفت شيئًا حين رأيته مبتعدًا، فقلت: «إنني أفهم الدور الشنيع الذي قام به هذا المخلوق في القصة البائسة، وسأوضح الأمر للرجل الصادق الذي كان رعاها كأب منذ طفولتها، وإني لأنصحه بتجنب الظهور وسط الناس مرة أخرى».

كان قد توقف منذ اللحظة التي بدأت فيها بالحديث، ليصغي بطريقته المعتادة، فقال: «شكرًا لك يا سيدي. لكنك ستلتمس لي العذر إذا قلت لك يا سيدي، إنه لا يوجد عبيد ولا سائقو عبيد في هذا البلد، وإنه لا يُسمح للناس بتحقيق القانون بأيديهم. وأظن أنهم لو فعلوا فستصير عاقبة كل امرئ وخيمة، وجملة القول إنني لست خائفًا على الإطلاق من الذهاب إلى أي مكان قد أرغب فيه يا سيدي».

بهذا القول انحنى أمامي في تهذيب، ثم أتبعها بانحناءة أخرى إلى آنسة دارتل، ثم خرج من شق الباب نفسه الذي جاء منه. تبادلت مع الآنسة دارتل نظرات وقد ساد كل منا السكون لفترة قصيرة، وسرعان ما استعادت طريقتها التي كانت عليها تمامًا حينما ظهر الرجل وأقبل إلينا.

عقبت متحدثة بحركة بطيئة من شفتها، فقالت: «إنه يقول إنه سمع بالإضافة إلى ما حدث، أن سيده قد تجاوز إسبانيا، وأنه يعتزم السفر بعيدًا ليرضي شغفه البحري حتى ينتابه الملل، لكن هذا الأمر لا يعنيك. لقد صار بين هذين الشخصين المختالين، أقصد الأم والابن، هوة شاسعة أكبر من ذي قبل، مع أمل ضئيل في التئامها، لأنهما من الطينة نفسها، يزيد الوقت كلًّا منهما عنادًا واستبدادًا. إنه أمر لا يعنيك، لكنه يوضح لك ما أريد قوله، وإن هذا الشيطان الذي تتصوره ملاكًا، أعني هذه الفتاة الحقيرة التي التقطها من بين وحل المد والجزر...».

جحظت عيناها السوداوان تحملقان نحوي، وأخذت ترفع إصبعها في وجهي وأكملت قائلة: «لعلها لم تزل على قيد الحياة، لأنني أظن أنه من الصعب أن تموت بعض الأشياء السوقية. إذا كان الأمر على هذا النحو، فسوف ترغب في العثور على هذه اللؤلؤة الثمينة ومن ثَم تتولى رعايتها. إننا نرغب في الشيء نفسه، لأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تقع في يده فريسة مرة أخرى، وهكذا فإننا متحدون حتى هذه اللحظة لأجل هدف واحد، ولهذا السبب فإنني قد طلبت حضورك لسماع ما سمعته، على الرغم من أنني لا أتردد في رميها بالأذى الذي تستحقه تلك الصعلوكة الحمقاء».

لاحظت من تغير معالم وجهها أن شخصًا قد جاء من خلفي. لقد كانت السيدة ستيرفورث، وقد مدت إليَّ يدها في جفاء أكبر مما مضى مع تكلفها بأسلوبها الفخم المعتاد، إلا أنني لم أزل أحتفظ بذكرى لا تُمحى عن حبي القديم لابنها، والذي لم أزل متأثرًا به. لقد تغيرت كثيرًا.

صار شكلها الرقيق أقل استقامة، وأصبح وجهها الوسيم غائرًا حادًّا، كما اشتعل معظم شعرها شيبًا، إلا أنها بمجرد جلوسها على المقعد، أدركت أنها لم تزل سيدة جميلة؛ تحمل هذه العين المشرقة التي أعرفها جيدًا بمظهرها البراق، والتي ظلت وضاءة في أحلامي أيام دراستي.

قالت السيدة ستيرفورث: «هل السيد كوبرفيلد على علم بكل شيء يا روزا؟».

أجابتها الآنسة دارتل قائلة: «نعم».

«وهل سمع ليتيمر بنفسه؟».

«نعم، لقد حدثته عن سبب رغبتكِ في سماعه».

«يا لكِ من فتاة مطيعة».

ثم تحدثت السيدة ستيرفورث إليَّ فقالت: «لقد أرسلت بعض الخطابات الطفيفة إلى صديقك السابق يا سيدي، لكنها لم تستثِر إحساسه بالواجب أو الالتزام الطبيعي، ولذلك فإني لا أريد شيئًا آخر غير ما ذكرته روزا. قد يغدو هذا الدرب مستساغًا لعقل الرجل المحترم الذي جلبته إلى هنا - الذي أنا آسفة حزينة له - ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، ومن ثَم ينقذ ابني من الوقوع مرة أخرى في أفخاخ عدو متربص به. أليس كذلك!».

اعتدلت في جلستها، ثم أشاحت بنظراتها بعيدًا نحو الفضاء.

قلت لها باحترام: «إنني أفهم مقصدكِ يا سيدتي. أؤكد لكِ أنني لا أمثل خطرًا بما يشغلكِ من دوافع. إلا أنه من واجبي أن أقول، لكِ على

وجه خاص، إنني قد عرفت هذه الأسرة المكلومة منذ الطفولة، وإنه إذا ظننت أن الفتاة التي تعرضت للظلم الشديد، لم تكن مخدوعة بضراوة، وأنها لا تؤثر أن تموت مائة مرة على أن تأخذ كوب ماء من يد ابنكِ، فإنكِ مخطئة خطأ فادحًا».

قالت السيدة ستيرفورث، بينما كانت الأخرى على وشك التدخل: «حسنًا يا روزا، حسنًا. هذا لا يهم، فليكن الأمر كذلك. قيل لي إنك متزوج يا سيد، أليس كذلك؟».

أجبت بأنني قد تزوجت منذ مدة.

سألتني: «وهل تسير أمور عملك بشكل جيد؟ إنني لا أسمع سوى القليل من الأنباء بسبب الحياة الهادئة التي أحياها، لكنني عرفت أنك على أعتاب الشهرة».

قلت: «كنت محظوظًا للغاية، وحاز اسمي بعض الثناء».

سألت بصوت خافت: «ألم تزل أمك حية؟».

قلت: «لا».

عادت تقول: «يا له من أمر مؤسف. لو أنها على قيد الحياة فإنها كانت ستفتخر بك. تصبح على خير».

أمسكت يديها الممدودتين في مهابة وجلال، فأحسست بها في يدي كما لو أن صدرها مفعم بالسكينة والسلام. بدا أن كبرياءها لا تزال تنبض بالحيوية، وقد ارتسم حجابًا هادئًا أمام وجهها، فجلست تنظر من خلاله أمامها مباشرة إلى الأفق البعيد.

ابتعدت عنهما متجاوزًا الشرفة، ولم أستطع منع نفسي من الالتفات لرؤيتهما جالستين في ثبات محدقتين في الأفق، وقد راحت سحبه تتكاثف ثم تتلاشى من حولهما. لاحت لي بعض المصابيح القديمة تتلألأ في المدينة البعيدة، بينما لم يزل الضوء الساطع يحوم في الربع الشرقي من السماء. أما الجزء الأكبر من الوادي الواسع المتداخل، فقد تخلله الضباب المتوالي مثل أمواج البحر، مما جعل المشهد يبدو كما لو أن المياه المتجمعة ستحيط بهما. وكان الباعث لتذكري هذا المشهد الآن والتفكير فيه برهبة، أنني حيث نظرت إلى هاتين المرأتين مرة أخرى، استحضرت مشهد البحر الهائج شديد الإعصار وقد ارتفعت أمواجه عند أقدامهما.

فكرت في ما قيل لي، وشعرت أنه من الصواب إبلاغ الأمر للسيد بيجوتي. ذهبت في المساء التالي إلى لندن بحثًا عنه، وكان يتجول دائمًا من مكان إلى آخر لهدف واحد، هو استعادة ابنة شقيقه أمامه، لكنه كان في أغلب الأوقات يتجه للإقامة في لندن أكثر مما سواها. أراه في كثير من الأحيان، وكما هي حاله الآن أيضًا، يتجول في الطرقات في جوف الليل باحثًا عن مبتغاه بين القلائل الذين تبعثروا خارج الأبواب في تلك الساعات المبكرة.

سكن منزلًا فوق متجر صغير للشموع في سوق هانجرفورد، والذي أتيحت لي الفرصة لذكره أكثر من مرة، وقد خرج منه لأول مرة لأداء رسالته الرحيمة، فوجهت مسيرتي إلى المكان نفسه، وعلمت من

أهل المنزل بعد السؤال عنه أنه لم يخرج بعد، وأنني سأجده في غرفته في الطابق العلوي.

جلس بالقرب من نافذة يحتفظ فيها ببعض النباتات وقد انشغل بالقراءة. كانت الغرفة في غاية النظافة والنظام. أدركت في لحظة أنه كان دائمًا على استعداد لاستقبالها، وأنه لم يخرج قَطُّ إلا وامتلكه اليقين بأنه من الممكن أن يجدها ويحضرها إلى المنزل. لم ينتبه لصوت استدارة مقبض الباب، ولم يرفع عينيه إلا عندما وضعت يدي على كتفه.

صاح قائلًا: «السيد ديفي، شكرًا لك يا سيدي، أشكرك من أعماق قلبي على هذه الزيارة. تفضل بالجلوس. أهلًا ومرحبًا يا سيدي».

تحدثت إليه بينما أتلقف الكرسي الذي ناوله لي: «يا سيد بيجوتي، لا تتوقع الكثير، لقد سمعت بعض الأخبار اليسيرة».

«عن إيميلي!».

وضع يده على فمه في توتر وقد حملقت عيناه نحو عيني.

«إن هذه الأخبار لا تعطي أي فكرة عن مكان وجودها، لكنها تقول إنها ليست معه».

جلس، ثم نظر إليَّ في اهتمام وانتباه، واستمع في صمت عميق إلى كل ما كان عليَّ أن أقوله. إنني أتذكر جيدًا الإحساس بالجلال، بل والجمال أيضًا، الذي أثارته جاذبية وجهه الصبور، حين جلس بعد أن أشاح عينيه عن عيني تدريجيًّا، وراح ينظر إلى الأسفل ويميل جبهته نحو يده. لم يُبدِ أي مقاطعة، فقد ظل ثابتًا طوال الوقت. بدا وكأنه يتابع

شخصيتها من خلال السرد، ويترك أي شيء سواها يمر به، كما لو أنه غير موجود.

انتهيت من الحديث فغطى وجهه بكفيه، ولبث صامتًا، فنظرتُ من النافذة لبعض الوقت، وشغلت نفسي بالنباتات.

واستفسر في تأنٍّ: «ما هو شعورك حيال الأمر يا سيد ديفي؟».

أجبته: «أظن أنها على قيد الحياة».

قال: «لا أعرف، ربما كانت الصدمة الأولى قاسية للغاية، فلم تستطع تحملها، ثم دفعتها الحيرة واليأس إلى...! إن البحر واسع على حد تعبيرها. هل يمكن أن تتخلى عن حياتها لأن هذا البحر القاسي من المفترض أن يكون قبرها».

كان يتكلم متأملًا في صوت خفيض، خائفًا، بينما يجول في الغرفة الصغيرة.

استطرد قائلًا: «ومع ذلك يا سيد ديفي، فإنني على يقين من أنها على قيد الحياة - كنت متيقنًا من ذلك في يقظتي ونومي، وصار من الرائع أن أجدها - لقد دفعني هذا اليقين، وتمسكت به - لا أظن أن وهمًا يضللني. لا، إن إيميلي على قيد الحياة».

أسند يده إلى الطاولة في قوة، وعلا وجهه الذي لفحته أشعة الشمس تعبير جاد.

قال في ثبات: «إن ابنة أخي إيميلي لم تزل على قيد الحياة يا سيدي، لا أعرف من أين عادت، أو كيف، لكن قيل لي إنها على قيد الحياة».

بدا وكأنه الرجل الملهم، على حد قوله. انتظرت بضع لحظات، حتى يعيرني انتباهه بالكامل، ثم شرعت في إيضاح نوع من الاحتياط بعد ما وقع لي الليلة الماضية، وسيكون من الحكمة إدراكه.

بدأت بعد ذلك في سرد حديثي قائلًا: «أما الآن يا صديقي العزيز...».

قال بينما يقبض على يدي بكلتا يديه: «شكرًا، شكرًا يا سيدي الطيب».

«إذا كان عليها أن تشق طريقها إلى لندن، فهذا أمر مرجح، لكن من الممكن أن تتوه وحدها بسهولة في هذه المدينة الشاسعة. إنها لا تريد أن تفقد نفسها لتضيع، فإذا لم تكن لتذهب إلى المنزل...؟».

قاطعني وهو يهز رأسه في حزن قائلًا: «ولن تعود إليه. إنها غادرت من تلقاء نفسها، ولأنها أقدمت على هذا الفعل، فإنها لم تعد كما كانت يا سيدي».

قلت: «إذا جاءت إلى هنا، فإني أظن أن ثمة شخصًا واحدًا، من المرجح أنه يعرف جوهرها أكثر من أي شخص آخر في العالم. هل تتذكر -فلتسمع ما أقوله في جلد وصبر، ولتفكر باليقين العظيم الذي تملكه- هل تتذكر مارثا؟».

سألني: «أتقصد الفتاة التي من بلدتنا؟».

لم أكن بحاجة إلى إجابة أخرى غير ما أبداه على وجهه.

«هل تعلم أنها في لندن؟».

أجاب بقشعريرة: «لقد رأيتها في الشارع».

قلت: «لكنك لا تعرف أن إيميلي كانت قد أحسنت إليها، بمساعدة هام، قبل فترة طويلة من هروبها من المنزل. لقد التقينا ذات ليلة، وتبادلنا حديثًا في الغرفة معًا، وقد كانت تتنصت طوال الوقت على حديثنا من وراء الباب».

رد في دهشة قائلًا: «يا سيد ديفي، أكان ذلك في تلك الليلة شديدة العاصفة؟».

قلت: «إنها تلك الليلة، ولم أرَها منذ ذلك الحين. عدت بعد انصرافي عنك لأتحدث معها ولكنها رحلت واختفت. ولم أرغب في ذكرها لك آنذاك، أما الآن فإنني أوضح لك أنها الشخص الذي أتحدث عنه وأحسب أننا يجب أن نصل إليها. هل فهمت مقصدي؟».

أجاب: «فهمتك تمامًا يا سيدي».

أخفتنا أصواتنا حتى الهمس تقريبًا، ولبثنا نتحدث بهذه النبرة.

قلت: «إنك تقول إنك رأيتها. هل تظن أننا نستطيع العثور عليها؟ فلا أمل عندي في ملاقاتها إلا عن طريق الصدفة».

«أظن يا سيد ديفي أنني أعرف أين أجدها».

«إنه ليل مظلم، لكننا معًا، فهل نخرج الآن ونحاول العثور عليها الليلة؟».

وافق واستعد لمرافقتي، ومن دون أن أقصد مراقبة ما يفعله، رأيت كيف عدَّل الغرفة الصغيرة في عناية، ووضع شمعة جاهزة ووسائل

إضاءة، ورتب السرير، وأخرج أخيرًا من الدرج أحد فساتينها الذي كان مطويًا بدقة مع بعض الملابس الأخرى -أتذكر أنني رأيتها ترتديه فيما قبل- وكذلك أخرج قبعة وضعها على كرسي. لم يشر إلى أمر هذه الملابس، ولم أذكرها له كذلك. لقد كانت ملابسها في انتظارها بلا شك، على مر ليالٍ كثيرة طوال.

هبطنا إلى الطابق السفلي وقد راح يقول: «يا سيد ديفي، لقد كنت أعد هذه الفتاة، مارثا، منذ وقت بعيد، أشبه بالوحل الذي انكب تحت قدمي إيميلي. فليغفر الله لي، وها قد اختلف الأمر الآن».

سرنا معًا ورحت أسأله عن هام، وكان جزء من سؤالي يتعلق بإشباع رغبته في الحديث، وجزء لإرضاء نفسي. أجابني بنفس الكلمات تقريبًا التي قيلت سابقًا، بأن هام ظل كما هو دومًا، يمضي حياته من دون أن يكترث لشيء بأي حال من الأحوال، لكنه لا يتذمر أبدًا وهو محبوب من الجميع.

سألته عن رأيه في نفسية هام، وهل يفكر في سبب مصائبهم هذه، وهل يتصور أن الأمر خطير، وماذا يتوقع من رد فعل هام إذا ما واجه ستيرفورث.

أجاب: «لا أعرف يا سيدي. لقد فكرت في الأمر في كثير من الأحيان، لكنني لا أستطيع أن أشتت نفسي بالإدلاء برأيي، بل إن توقعاتي لا تهم».

أعدت إلى ذاكرتي صورته في صباح اليوم التالي لمغادرتها، عندما

كان ثلاثتنا على الشاطئ. قلت: «هل تتذكر طريقته الموحشة التي نظر بها إلى البحر، متحدثًا عن «أنه نهاية الأمر»؟».

قال: «بالتأكيد أتذكر».

«وماذا كان مقصده؟».

أجاب: «يا سيد ديفي، لقد طرحت السؤال على نفسي عدة مرات، ولم أجد أي إجابة. إنه شيء وحيد غريب، إذ على الرغم من أنه لطيف للغاية، فإنني لن أرتاح إن حاولت الولوج إلى مكمن عقله. لم يتحدث قَطُّ أمامي إلا بكلمات لائقة محفوفة بزهو ومنضبطة المعنى، وليس من المحتمل أنه سيخالف طريقته في التحدث بوسيلة أخرى الآن، لكنه غطاء لما يكنه من فيض منهمر في ذهنه، حيث تكمن سريرته. إنه عميق يا سيدي، ولا أستطيع أن أرى ما يخفيه».

قلت: «إنك على حق، وهذا الأمر نفسه الذي جعلني أشعر بالقلق أحيانًا».

علق قائلًا: «وأنا كذلك يا سيد ديفي، بل أكثر من ذلك. أؤكد لك بأنني قلق من جرأته ومخاطرته، على الرغم من أنهما راجعان إلى ما اعتراه من تغيير، فإنني لم أعرف عنه يومًا أنه لجأ إلى العنف ممها كانت الظروف، وعلى الرغم من ذلك، فإنني آمل ألا يجمع الله بين الرجلين».

كنا قد وصلنا إلى المدينة مرورًا بـ«تمبل بار». لم يتابع حديثه بعد الآن، بل راح يمشي بجانبي، وقد أسلم حياته وكرسها لأجل هدف واحد. مضى مع هذا التركيز الهادئ نحو مرماه الذي كاد أن يحوله إلى شخص

منعزل وسط حشد من البشر، ولم نكن بعيدين عن جسر بلاكفريارس، حين أدار رأسه وأشار إلى شبح امرأة تسير بمحاذاة الجانب الآخر من الشارع. عرفت في الحال أنها الهدف الذي سعينا إليه.

عبرنا الطريق، وكدنا نصل إليها، إلى أن خطر ببالي أنها امرأة، وقد تتعاطف وتشعر باهتمام بأمر الفتاة المفقودة إذا تحدثنا إليها في مكان أكثر هدوءًا وبمعزل عن الزحام، ومن ثَم علينا ألا نظهر أنفسنا أمامها، لذلك نصحت رفيقي بألا نخاطبها الآن، بل نتتبعها. كان الدافع لهذه النصيحة هو رغبتي كذلك في معرفة إلى أين تتجه.

وافقني الرأي، فتتبعناها من بعيد، ولم نغفل عنها قَطُّ، لكننا لم نعبأ بالاقتراب منها كثيرًا، كما أنها كانت تتلفت كثيرًا حولها. توقفت مرة للاستماع إلى فرقة موسيقية، ومن ثَم توقفنا أيضًا.

توجهتْ إلى طريق طويل، فتتبعنا خطاها، وقد بدا لنا من معالم الطريق ومن حركاتها أنها قاصدة مكانًا بعينه حيث وجهة محددة. كان اختراقها لشوارع مزدحمة والطريقة التي أبدتها في محاولة إبعاد أي إنسان يراقبها خفية، هما ما دفعاني إلى التشبث بتتبعها، وفي النهاية رأيتها تتجه نحو شارع مظلم موحش، يخلو من الضوضاء والحشود. قلت: «لعلنا نستطيع أن نتحدث إليها الآن»، وبعدها أسرعنا خطانا، ومشينا في إثرها.



الفصل السابع والأربعون

مارثا

صرنا الآن في وستمنستر، وكنا قد تراجعنا خطوات بعد أن رأيناها تتجه نحونا، فإذا بها تسير نحو كنيسة وستمنستر بعد أن تحاشت الأضواء والضوضاء في شوارع البلدة الرئيسية. انطلقت بسرعة فائقة، متجاوزة بين هذا وذاك عددًا من العابرين من ناحية الجسر، واستطاعت أن تتقدمنا بهذه الخطى المتسارعة، فلم نستطع اللحاق بها إلى أن وصلنا إلى شارع ضيق موازٍ للنهر بالقرب من ميلبانك. عبرت الطريق في لحظة وصولنا، كأنها تتجنب الخطوات التي سمعتها عن قرب، فمرت مسرعة من دون أن تلتفت إلى الوراء.

جمدت أقدامي بعد نظرة خاطفة عبر البوابة الموحشة نحو النهر. ظهرت أمامي بعض العربات في ظلام الليل، فنكزت رفيقي من دون أن أتفوه بكلمة، وقد تحاشينا عبور الشارع، وآثرنا أن نتتبعها بالمسير على الجانب الآخر من الطريق، محاولين الحافظ على هدوئنا قدر الإمكان، محتجبين في ظل المنازل، وإن بقينا بالقرب منها.

لاح نزل في نهاية ذلك الشارع المنخفض - ولم يزل قائمًا في المكان ذاته حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها. إنه مبنى خشبي صغير متداعٍ، لعله كان مخزنًا قديمًا في أحد الأيام وقد عفا عليه الزمن. ينتصب النزل عند تلك النقطة التي ينتهي عندها الشارع، ويبدأ الطريق في التمدد بين صف من المنازل والنهر. لقد توقفتْ بمجرد أن وصلت إلى هناك إذ أبصرت النهر، كما لو أنها وصلت إلى وجهتها، ثم راحت تسير ببطء على حافة النهر، وتنظر إليه في تروٍّ.

كنت أحسب طوال الطريق أنها متجهة إلى منزل ما، وكان يختلجني أمل غامض -في حقيقة الأمر- أن ذاك المكان قد يكون ذا صلة بطريقة ما بالفتاة المفقودة، أما تلك النظرة القاتمة التي نظرتْ بها نحو النهر عبر بوابته الموحشة، كانت قد أبعدت عني فكرة ذهابها إلى مكان أبعد من هذا.

كان المكان كئيبًا في ذلك الوقت، موحشًا ومنعزلًا وسط هذا الليل، مثل أي مكان آخر متطرف في لندن، إذ يخلو من الأرصفة أو المنازل على جانبي الطرق الكئيبة وهو قريب من مبنى السجن الكبير، وقد ألقت المصارف الراكدة ثلة من الطين على جدران هذا السجن، وتناثرت الحشائش الخشنة والأعشاب على جميع أراضي المستنقع في المنطقة المجاورة. تلاشت في أحد هذه الأجزاء جثث المنازل التي انتصبت في وحشية متهدمة من دون أن تفنى عن آخرها. بدت الأرض في مكان آخر وقد امتلأت بوحوش من حديد صدئ لغلايات بخارية، وعجلات ورافعات وأنابيب وأفران ومجاديف ومراسٍ وأجراس

للغوص وأشرعة طواحين هوائية. تأملت بعض الأشياء الغريبة والتي لا أعرف ماذا تكون، و قد تراكمت وراحت تختبئ بين أكوام الغبار كما لو أنها تحاول عبثًا إخفاء نفسها، بعد أن غاصت ثقيلة في الأرض في هذا الطقس الرطب. كان وهج بعض النيران المتنوعة والمتصارعة على ضفة النهر قد انبث ليلًا ليشتت كل هذا السكون، عدا هذا الدخان الكثيف المتواصل المتصاعد من المداخن. تناثرت بعض الحفر والجسور الصغيرة الملتفة بين أكوام خشبية قديمة رثة متعلقة في وهن، فبدت مثل شعيرات خضراء تخترقها شواهد قبور منتصبة من العام الماضي، تنعى رجال غرقى رفرفت شواهد قبورهم فوق علامة المياه المرتفعة، مشرئبة بين نضح الطين وأمواج المد والجزر. دارت قصة مفادها أن إحدى الحفر التي حفرت للموتى في وقت الطاعون العظيم صارت على وشك الظهور، ويبدو أن تأثيرًا مدمرًا قد انطلق منها إلى المكان كله. بدا الأمر كما لو أن كابوسًا قد تخلل المكان تدريجيًا ليصل إلى هذه الحالة من فيض التيار الملوث والأوحال.

ظهرت الفتاة التي تبعناها حتى حافة النهر كما لو كانت كومة من قمامة ألقاها النهر وتركها للفساد والانحلال، ورأيناها وقد وقفت في وسط هذا المشهد الليلي وحيدة ساكنة تنظر إلى الماء.

جذبنا بعض القوارب والصنادل المنغرسة في الوحل، وقد مكنتنا من الاقتراب من الفتاة حتى صرنا على بعد خطوات منها من دون أن تلحظنا. أومأتُ بعد ذلك إلى السيد بيجوتي حتى يمكث في مكانه بينما انطلقتُ محاولًا الاقتراب منها. رحت أدنو منها مرتجفًا في هذا المكان

المعزول الموحش، حيث ظلال الجسر الحديدي الشنيع، كما كان ظلها النحيف المنعكس على صفحة النهر قد ألقى في قلبي رعبًا ورهبة.

أظن أنها كانت تتحدث إلى نفسها. إنني متأكد من ذلك، على الرغم من استغرابي من تحديقها في الماء، فقد كانت في حالة مضطربة ومربكة، كما أن شالها كان قد انزاح بعيدًا عن كتفيها، وقد دست يديها فيه. بدت هيئتها ومشيتها أشبه بإنسان نائم لا مستيقظ. أذكر -ولا يمكنني أن أنسى أبدًا- أن طريقتها الجامحة لم تكن لتشي بشيء سوى أنها ستغرق أمام عيني، فما لبثت أن قبضت على ذراعيها.

قلت في اللحظة نفسها: «مارثا».

أطلقت صرخة مروعة، وراحت تقاومني بقوة إلى أن ارتبت في مقدرتي على الإمساك بها بمفردي، وإذا بيد أقوى من يدي قد أمسكت بها. رفعت عينيها الخائفتين وعرفت من نحن، فبذلت محاولة أخرى للإفلات منه ثم هوت بيننا فحملناها عند الماء حيث وجدنا بعض الحجارة الجافة، فأجلسناها بينما راحت تبكي وتتأوه، ثم استوت في جلستها بين الحجارة وقد أمسكت رأسها بكلتا يديها.

راحت تصرخ في انفعال: «آهِ النهر، آهِ النهر».

قلت: «صه، اصمتي».

لكنها ظلت تكرر الكلمات نفسها، وتصرخ بلا انقطاع قائلة: «آهِ النهر، آهِ النهر، أعلم أنه يشبهني. أعلم أنني أنتمي إليه. أعلم أنه رفيق حقيقي لمخلوقة مثلي أنا. إنه يأتي من الريف حيث لم يحل الفساد في

يوم من الأيام، ثم يزحف عبر الطرق الكئيبة، مدنسًا وبائسًا، وما يلبث أن ينساب، مثل حياتي، فينصب في بحر عظيم دائم الاضطراب. وها أنا أشعر بذلك. يجب أن أمضي معه».

لم أعرف قَطُّ حقيقة اليأس إلا في وقع هذه الكلمات.

استرسلت قائلة: «لا يمكنني الابتعاد عنه. لا أستطيع أن أنساه. إنه يطاردني ليلًا ونهارًا، وهو الشيء الوحيد في العالم الذي أناسبه وأصلح له، أو يناسبني. آهٍ، أيها النهر المهيب».

خطر لي أنني أرى في وجه رفيقي تاريخ ابنة أخيه، وقد أخذ ينظر إليها من دون كلام أو حركة، ولو لم أكن أعرف شيئًا عنها. لم أرَ قَطُّ، في أي مشهد طوال حياتي، هذا الامتزاج العجيب الذي رأيته على ملامح وجهه بين الرعب والرحمة. ارتجف كما لو أنه على وشك السقوط، فأمسكت يده بعد أن أقلقني مظهره، فإذا بها شديدة البرودة كأنها لإنسان ميت.

همستُ: «إنها في حالة جنون. ستتحدث بشكل مختلف بعد وقت قصير».

لم أعرف بماذا أجابني، فقد أومأ بحركة ما بفمه، وبدا أنه يظن أنه يتكلم، لكنه ما لبث أن اكتفى بالإشارة إليها بيده الممدودة.

انتابتها نوبة أخرى من الصراخ، وقد أخفت وجهها مرة أخرى بين الحجارة، وانكبت مستلقية أمامنا في صورة مهيبة للذل والخراب. أدركت أن هذه الحالة يجب أن تنقشع، قبل أن نتمكن من التحدث

إليها، فتجرأت على كبح جماح أمله قبل أن يسترسل في حديثه، ووقفنا صامتين حتى أصبحت أكثر هدوءًا.

انحنيت بعد ذلك لأساعدها على النهوض، فبدا لي أنها تريد النهوض للفرار منا، لكنها كانت واهنة، متكئة على أحد المراكب، فقلت لها: «يا مارثا، هل تعرفين من هذا، أتعرفين الرجل الذي يرافقني؟».

أجابت بصوت خافت: «نعم».

«هل تعلمين أننا تتبعناكِ كثيرًا الليلة؟».

هزت رأسها من دون أن تلتفت نحوه ولا نحوي، لكنها وقفت ذليلة، ممسكة بقبعتها وشالها في إحدى يديها، من دون أن تبدو منتبهة لهما، ثم ضغطت بيدها الأخرى على جبينها.

قلت: «هل هدأتِ من روعكِ؟ -أرجو أن يشملنا الله بعطفه- لنتحدث في موضوع يهمكِ وقع في تلك الليلة الثلجية».

اندلعت في البكاء من جديد، وتمتمت ببعض الشكر الجزيل لي لأنني لم أطردها في تلك الليلة حين وقفت خلف الباب.

قالت بعد لحظات: «لا أريد أن أقول شيئًا عن نفسي. إنني امرأة بائسة ضائعة. لا أمل لي على الإطلاق». ابتعدت عن السيد بيجوتي وانزوت خائفة منه قائلة: «فلتخبره يا سيدي -إذا كنت لا تشعر بصعوبة كبيرة في القيام بذلك- بأنني لم أكن قَطُّ سببًا في محنته بأي حال من الأحوال».

أجبتها في جدية تفوق نبرتها الجادة: «إنه لم يتهمكِ قَطُّ بهذا الأمر».

تحدثت في صوت منكسر قائلة: «إن لم تخدعني ذاكرتي، فقد كنت أنت من جاء إلى المطبخ، في الليلة التي غمرتني فيها بهذه الشفقة الطيبة؛ كنت لطيفًا جدًّا معي، لم تنبذني مثل البقية، وقدمت لي يد العطف الحانية. أهذا أنت يا سيدي؟».

أجبت: «أجل، إنه أنا».

تكلمت بينما تنظر إلى النهر في تعبير مروع، قائلة: «إن كانت قد أوذيت بسببي، فحري بي أن أكون غارقة في النهر منذ فترة طويلة. إذا لم أكن بريئة من أي ذنب يخص أمرها، فلم أكن لأبتعد قَطُّ في جوف ليلة شتاء واحدة».

قلت: «إن سبب رحيلها مفهوم جيدًا. إنكِ بريئة من أي جزء فيه، نحن نؤمن بذلك تمامًا. إننا نعلم حقيقة الأمر».

صاحت الفتاة في أسف بالغ قائلة: «آه، لو أن لي قلبًا طاهرًا، لكان أولى بي أن أكون خير عون لها وأحسن صنعًا! كم كانت تحنو عليَّ دومًا! لم تخاطبني قَطُّ بكلمة إلا برفق ولين. هل من المحتمل أن أحاول جعلها مثلي، وأنا عارفة بحالي التي أنا عليها جيدًا؟ لقد فقدت كل عزيز في الحياة، وكان أسوأ ما فقدته هو انفصالي عنها إلى الأبد».

وقف السيد بيجوتي وقد أسند إحدى يديه على مقدمة القارب، رافعًا عينيه، وواضعًا يده الأخرى أمام وجهه.

استطردت مارثا قائلة: «سمعت ما حدث قبل تلك الليلة الثلجية من بعض أهالي بلدتنا. صار أكثر ما يخطر في بالي هو أن الناس سيتذكرون

أنها رافقتني في يوم من الأيام، وسيقولون إنني من أفسدها. يعلم الله وحده، أنني كدت أبذل نفسي فداء لأن أعيد إليها اسمها الطاهر وسمعتها الطيبة».

ظلت فترة طويلة على حالتها، من دون أن تستطيع ضبط نفسها. كان ألمها حادًّا يشي بندمها وحزنها المفجع.

صرخت تقول: «إن موتي، ليس بشيء يذكر -ماذا عساي أن أقول؟- أكنت سأحيا! كنت سأحيا عجوزًا في الشوارع البائسة. أتجول فيتجنبني الناس في الظلام، ثم أرى أشعة النهار تنكسر على خط المنازل المروع، وأتذكر كيف كانت الشمس نفسها تسطع في غرفتي وتوقظني ذات مرة. لقد كنت أتمنى الموت في سبيل إنقاذها».

انكبت فوق الحجارة، وقبضت على بعضها بكلتا يديها، ثم جذبتها كما لو أنها ستطحنها. ظلت تتلوى بين الحين والآخر في وضعية جديدة، فتصلب ذراعيها أو تعقدهما أمام وجهها، كما لو أنها تحجب عن عينيها قليلًا من الضوء. ظلت تدلي برأسها، كما لو أنها مثقلة بالذكريات التي لا تُحتمل.

راحت تتحدث وقد غلبها اليأس قائلة: «ما الذي سأحيا لأجله؟! كيف يمكنني العيش بما أنا عليه؟! إنها لعنة تلتهمني، ووصمة عار على كل من اقترب مني».

التفتت فجأة نحو رفيقي وقالت: «فلتنقض عليَّ، فلتقتلني، كانت فتاتك مفخرتك، وظننتَ أنني أسأت إليها أو دفعتها إلى الشارع. لا يمكنك أن تصدق غير ذلك. لماذا ستصدق أي كلمة واحدة تخرج من

بين شفتي؟ سيمسسك أشد عار، وسيلتصق بك حتى هذه اللحظة، إذا نحن تبادلنا كلمة واحدة. إنني لا أشكو حالي، ولا أقول إنها تشبهني لأنني أعلم أن ثمة هوة شاسعة وفارقة بيننا. ليس بوسعي سوى أن أقول، مع كل ذنبي وبؤسي الذي أحمله فوق رأسي، إنني أحبها، وممتنة لها من كل قلبي. آهٍ، لا تظن أن قدرتي على حب أي شيء قد تآكلت تمامًا. فلتلفظوني بعيدًا كما يفعل العالم بأسره. اقتلني لكوني ما أنا عليه، ولأنني عرفتها يومًا، لكن لا تحسب أنني بلا مشاعر».

نظر إليها بينما كانت تتضرع بطريقة هوجاء، وما إن سكتت حتى اقترب منها وأنهضها من مكانها برفق.

قال السيد بيجوتي: «يا مارثا، إنني لا أحكم عليكِ بذنب لا سمح الله. حاشاي من بين كل الرجال أن أفعل ذلك يا بنيتي، إنكِ لا تدركين نصف ما طرأ عليَّ من تغيير، وقد أثقل عاتقي بمرور الزمن».

سكت للحظة، ثم استأنف حديثه قائلًا: «حسنًا، إنكِ لا تفهمين كيف أنني وهذا الرجل المحترم وددنا التحدث إليكِ. إنكِ لا تفهمين ما الذي دار بيننا. فلتسمعي الآن».

كان تأثيره عليها بالغًا، فوقفت أمامه منكمشة كأنها تخشى أن تلتقي بعينيه، وقد هدأت ثورتها البائسة وسكنت.

قال السيد بيجوتي: «إذا كنتِ مهتمة لما دار بيني والسيد ديفي، فإنني كما تعرفين - أو لا تعرفين - كنت أسعى للبحث عن ابنة أخي العزيزة، بعد تلك الليلة الصاخبة».

كرر في ثبات قوله: «آه، ابنة أخي العزيزة، إنها عزيزة عليَّ الآن يا مارثا، أكثر من ذي قبل».

حجبت وجهها بيديها، وبخلاف هذا الفعل فقد ظلت هادئة.

قال السيد بيجوتي: «لقد اعتنيت بها منذ أن تيتمت صغيرة، فكانت مثلكِ بلا أب أو أم، وبلا صديق يرعاها في درب هذا البحر القاسي. ربما يمكنكِ تخمين عاقبة أن تحصل على مثل هذا الصديق. لقد انجذبت إلى الطريقة التي جعلتني مغرمًا بها بمرور الوقت. صارت ابنة أخي بمثابة ابنتي».

راحت ترتجف في صمت، فما لبث أن وضع شالها بعناية حولها، بعد أن التقطه من الأرض.

قال: «إنني على يقين من أنها ستأتي معي إلى أقصى الأرض، إذا هي تمكنت من رؤيتي مرة أخرى، وإنها لن تضطر إلى الفرار إلى أطراف العالم لكي تتحاشى لقائي، إذ لا شيء يدعو إلى الشك في محبتي وحناني».

راح يكرر مقولته في تأكيد هادئ لحقيقة ما قاله: «إلا أن الخجل يفرق بيننا ويداخلها الإحساس بالعار فيبعدها عني».

قرأت بين ثنايا كل كلمة في طريقته الواضحة والمثيرة للإعجاب في تقديم نفسه، دليلًا جديدًا على أنه فكر في هذا الموضوع بكل تفاصيله وزواياه.

استطرد قائلًا: «وفقًا لتقديراتنا، فإنني والسيد ديفي، نعرف أنها أرادت ذات يوم أن تجعل وجهتها الانفرادية البائسة نحو لندن. إننا

جميعًا -أنا وغيري وكذلك السيد ديفي- ندرك أنكِ بريئة من كل ما حل بها، براءة الطفل الذي لم يولد بعد. لقد تحدثتِ عن كونها لطيفة، وبالأخص طيبة معكِ. فليحفظها الله، أعلم أنها كانت ودودة، أعلم أنها كانت دائمًا طيبة مع الجميع. إنكِ ممتنة لها وتحبينها. فلتساعدينا بكل ما تستطيعين للعثور عليها، وليجزيكِ الله خير الجزاء».

أسرعت ترمقه كأنها تشك للمرة الأولى في ما قاله.

سألته بصوت خفيض تتخلله الدهشة: «هل ستثق بي؟».

قال السيد بيجوتي: «كل الثقة وإلى أبعد الحدود».

سألت على عجل: «سأتحدث إليها حالما وجدتها في أي وقت، سآويها، إذا كان لديَّ مأوى لأشاطرها ليلها. سآتي إليك بعد ذلك من دون علمها، ثم سآتي بك إليها؛ أليس كذلك؟».

أجبنا معًا: «بلى».

رفعت عينيها، وتعهدت إلينا بأنها ستكرس نفسها لهذه المهمة في حماس وإخلاص. إنها لن تتأرجح عن هدفها أبدًا، ولن تنحرف عنه أبدًا، ولن تتخلى عنها أبدًا، حينما تظهر أي بارقة من أمل. لن تصبح إلا وفية لأمرها، لأن كل ما تملكه الآن في الحياة، يربطها بشيء خالٍ من الشر. كان تركها للأمر - إذا كان ذلك ممكنًا - سيزيدها بؤسًا ويأسًا مما كانت عليه عند حافة النهر في تلك الليلة، وقد تتكاتف جميع القوى البشرية والإلهية على نبذها إلى الأبد.

لم ترفع صوتها ليتجاوز صوت أنفاسها، ولم توجه خطابها إلينا، بل ناجت سماء الليل، ثم انتصبت في هدوء جم ناظرة نحو الماء القاتم.

رأينا أنه من المناسب في هذه اللحظة، أن نصرح لها بكل ما نعرفه، مما رويته قبلًا. لقد استمعت باهتمام كبير، وبوجه دائم التغير بين لحظة وأخرى متأثرًا، ولكنه لا يخلو من مرماه الواحد في جميع تعابيره المختلفة. تمتلئ عيناها بالدموع من حين لآخر، لكنها تلك المرة كانت تحبسها. بدا أن مشاعرها قد تغيرت تمامًا، ولم يعد بوسعها أن تهدأ عن آخرها.

قصصنا عليها كل شيء، ثم سألت بعدها عن مكان يمكن أن تصل فيه إلينا، إذا جدت مناسبة. كتبتُ تحت مصباح كئيب في الطريق عنوانين لنا على ورقة من دفتر الجيب ثم انتزعتها وأعطيتها لها، فدستها في صدرها البائس. سألتها عن مكان سكنها فأجابت بعد برهة إنها بلا مأوى منذ عهد بعيد، ومن الأفضل ألا أعرفه.

اقترح عليَّ السيد بيجوتي هامسًا بشيء ما كان بالفعل يدور بخلدي، فأخرجت محفظة نقودي، لكنني لم أستطع إقناعها بقبول أي نقود. ولم أتمكن من أن أطلب منها أي وعد بأنها ستقبل نقودًا في أي وقت آخر. لقد أوضحت لها أنه لا يمكن الاستعانة بالسيد بيجوتي في البحث، لأن شخصًا مثله صار في حالة يرثى لها. أما فكرة مشاركتها في هذا البحث، مع الاعتماد على مواردها الخاصة، فشيء يصدمنا تمامًا. واصلت الصمود على موقفها. كان تأثيره عليها في هذا الأمر لا حول له ولا قوة. شكرته بامتنان لكنها أصرت على موقفها بلا هوادة.

قالت: «قد يصبح من الأجدى حصولي على عمل. سأحاول».

عدت أقول لها: «فلتأخذي قليلًا من مال يساعدك، حتى تحصلي على عمل».

أجابتني: «لا يسعني القيام بما وعدت به في مقابل المال. لا أستطيع أن أحتمل الأمر ولو صرت أتضور جوعًا. إن أعطيتني مالًا يعني أنك تنتزع ثقتك بي، فلا تأخذ الشيء الوحيد الذي وهبتني إياه، لا تأخذ الشيء الوحيد المؤكد الذي ينقذني من هلاك النهر».

قلتُ: «قسمًا بالعادل الحكم الذي لن نلبث أن نقف جميعًا؛ أنتِ وجميعنا، ماثلين بين يديه يوم الحساب، إنني أرفض هذه الفكرة البشعة. يمكننا معًا أن نفعل بعض الخير، إذا أردنا».

ارتجفت، وارتجفت شفتها وشحب وجهها ثم قالت:

«لقد قذف الله بي في قلبيكما، ربما لإنقاذي، أنا المخلوق البائس، لتكفر عن سيئاتها بالتوبة. أخشى أن ظني هذا يبدو جريئًا جدًّا، فإنني إذا أتيت بأي خير، فلعلي أبدأ في إنعاش أملي بأن خيرًا يمكن أن تجلبه أفعالي، لأنني إلى اليوم لم أقترف إلا السوء والعار. لقد وثقتما بي بما منحتماني من ثقة لأول مرة منذ فترة طويلة، وعلى الرغم من حياتي البائسة الأليمة، فإنني أجدكما تعهدان إليَّ بما سأحاول تحقيقه. لا أعرف أكثر من هذا، ولا أستطيع أن أزيد شيئًا».

كفكفت مرة أخرى دموعها التي انهمرت وفاضت، ثم مدت يدها المرتجفة ولمست السيد بيجوتي، كما لو أنها تتلمس فيه بركة أو

فضيلة شفاء، ثم ذهبت على طول الطريق المقفر. ظلت واهنة، ربما لفترة طويلة، وقد وجدت حينما اقتربت مني فرصة لملاحظة أنها كانت متهالكة وواهنة، وأن عينيها الغائرتين تعبران عن حرمانها وجلدها.

تبعناها حتى مسافة قصيرة، فقد كان طريقنا ممتدًّا في الاتجاه نفسه، حتى عدنا إلى الشوارع المضاءة والمكتظة بالسكان. كنت أضمر ثقة بما باحت به، وقد نقلت هذه الثقة إلى السيد بيجوتي بعد ذلك. تبدل ما كان يظهره في البداية من عدم الثقة بها وتتبعها من بعيد. كنا نفكر بالطريقة ذاتها، ونعتمد عليها بنفس القدر، لذا فقد تركناها لتسلك طريقها الخاص. أما نحن فسلكنا طريقنا، وكانت وجهتنا نحو هايجيت. رافقني حتى جزء كبير من الطريق. افترقنا وقد تبادلنا دعاءنا من أجل نجاح هذا الجهد الجديد. بدت عليه عاطفة جديدة ومفهومة أسبابها، فلم أكن في حاجة إلى تفسيرها.

حلَّ منتصف الليل بوصولي إلى المنزل. كنت قد وصلت إلى بوابتي، حتى وقفت أستمع إلى جرس كنيسة القديس بولس العميق، بعد أن ظننت أن صوتها قد تناهى إلى أذني عبر العديد من دقات الساعات المذهلة. فوجئت بعدها برؤية باب منزل عمتي مفتوحًا، بينما يتسلل ضوء خافت عبر المدخل ليضيء الطريق.

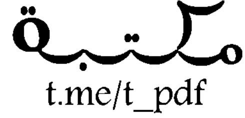
فكرت في أن عمتي ربما عاودها إعياؤها القديم، فراحت تراقب نشوب بعض الحرائق الوهمية في الأفق، لذا ذهبت للتحدث معها. كانت مفاجأة كبيرة أن رأيت رجلًا يقف في حديقتها الصغيرة.

كان يحمل في يده كأسًا وزجاجة يشرب منها. توقفت، بين أوراق

الشجر الكثيفة بالخارج، حيث كان القمر مكتملًا في هذا الوقت، على الرغم من احتجابه. تعرفت إلى الرجل الذي كان من المفترض أن يكون شبحًا للسيد دك، وقد قابلته ذات مرة مع عمتي في شوارع المدينة.

راح يأكل ويشرب في جوع ونهم، وقد بدا عليه الفضول من ناحية البيت أيضًا، كما لو أنها المرة الأولى التي يراه فيها. انحنى يضع الزجاجة على الأرض، ثم نظر نحو النوافذ وحولها، في تأفف ونفاد صبر، حتى بدا حريصًا على الرحيل.

انقطع الضوء من الأفق للحظة، ثم ظهرت عمتي. كان يبدو عليه الاضطراب، وقد دست ببعض النقود في يده، وقد سمعت ما أحدثته من طقطقة.



سأل: «ما فائدة هذا المبلغ؟».

ردت عمتي: «لا أستطيع دفع المزيد».

قال: «إذن لن أذهب. ها هي نقودكِ يمكنكِ استعادته».

ردت عمتي في انفعال شديد قائلة: «أيها الرجل الخبيث، كيف تجرؤ على استغلالي؟ لكن لماذا أسأل؟ إنك تفعل ذلك لأنك تعرف أنني في موقف ضعف. ماذا عليَّ أن أفعل لأحرر نفسي إلى الأبد من زياراتك، وأتركك إلى حالك القفر؟».

قال: «ولماذا تتخلي عني؟».

ردت عمتي: «أتسألني لماذا! يا لهذا القلب الذي بين ضلوعك!».

وقف منفعلًا يهز المال ويهز رأسه ثم قال أخيرًا:

«هل هذا كل ما تتعمدين إعطاءه لي إذن؟».

قالت عمتي: «هذا كل ما يمكنني أن أعطيك إياه. إنك تعلم ما تعرضت له من خسائر، وأنا أفقر مما كنت عليه في السابق. لقد أخبرتك بذلك. ألم تفهم مقصدي بعد! لماذا توجعني بمغبة النظر إليك للحظة أخرى، ورؤية ما أصبحت عليه؟».

قال: «لقد أصبحت رث الثياب مهلهلًا، إن كان هذا ما ترمين إليه. إنني أعيش حياتي مثل البومة».

قالت عمتي: «لقد جردتني تمامًا من الجزء الأكبر من كل ما امتلكته. لقد أغلقت قلبي لسنوات طوال عن العالم بأسره. لقد عاملتني بنكران وجحود وقسوة. اذهب وكفر عن أفعالك. لا تزِد جراحًا جديدة إلى قائمة الأضرار الطويلة والمتتالية التي سببتها لي».

عاد: «أجل، إن كل شيء على ما يرام. حسنًا، يجب أن أبذل قصارى جهدي، على ما أظن، في الوقت الحاضر».

بدا مندهشًا من دموع عمتي الغاضبة، وخرج على مضض متراخيًا عبر الحديقة. خطوت خطوتين أو ثلاث خطوات سريعة، متظاهرًا بأنني قد حضرت للتوِّ. التقيت الرجل عند البوابة، ثم دخلت في لحظة خروجه منها. نظر كل منا إلى الآخر نظرة خاطفة وعابرة من دون محاباة.

قلتُ على عجل: «يا عمتي، أيزعجكِ هذا الرجل مرة أخرى؟! دعيني أتحدث إليه. مَن يكون هذا الرجل؟».

أجابتني عمتي بينما جذبتني من ذراعي إليها: «يا بني، تعالَ ولا تتحدث معي لعشر دقائق».

جلسنا في صالونها الصغير. جلست عمتي خلف المروحة الخضراء المستديرة، والتي ظلت في مكانها منذ أيام مشدودة على ظهر كرسي. ظلت عمتي تمسح عينيها من حين لآخر، لمدة ربع ساعة تقريبًا. ثم خرجت من مكانها وجلست بجواري.

قالت عمتي في هدوء: «إنه زوجي يا تروت».

«أهذا زوجكِ يا عمتي؟ لقد ظننت أنه مات».

أجابتني عمتي: «إنه ميت بالنسبة إليَّ، لكنه لم يزل على قيد الحياة».

جلست صامتًا في ذهول.

قالت عمتي في هدوء: «إن بيتسي تروتوود ليست حالمة ذات مشاعر جامحة، لكن وقع ما وقع منذ زمن يا تروت، عندما كانت تؤمن بهذا الرجل تمامًا. حسنًا، لقد أحبته يا تروت. لم تتوانَ عن إثبات كل ما تكن من تعلق ومودة، فقدمت له كل ما تستطيع. ما لبث أن سدد العطاء؛ بكسر ثروتها وكاد يكسر قلبها. لذلك وضعت كل هذه الصنوف من المشاعر، مرة واحدة وإلى الأبد، في قبر، ثم ملأته وسوته بالأرض».

«آه يا عمتي الغالية الطيبة».

مدت عمتي يدها كالمعتاد مستندة إلى ظهري، وأكملت قائلة: «لقد تركته وأكرمته. أستطيع يا تروت أن أقول بعد أن مر الزمن، إنني تركته وكنت سخية عليه كريمة، وإن كان بالغ القسوة معي، للحد الذي

جعلني أُفضل أن أفصل نفسي عنه بشروط سهلة، لكنني لم أفعل. لقد أنفق سريعًا وفي تهور كل ما أعطيته له، وغرق في حضيض العيش. تزوج على ما أظن امرأة أخرى، وأصبح مغامرًا، ومقامرًا، وغشاشًا. إنه ما هو عليه الآن، كما ترى».

استطردت عمتي كلامها مع صدى قديم من كبرياء وزهو بنبرة صوتها، قائلة: «كان على الرغم من ذلك رجلًا حسن المظهر عندما تزوجته. وأنا صدقت أنه سيصير لي مكرمة! كنت حمقاء».

ضغطت على يدي وهزت رأسها، وأكملت:

«لم يعد يمثل لي شيئًا بعد الآن يا تروت. إنه أحط من أن يُذكر. إنه يدفع الآن ثمن جرائمه (كما لو كان شحاذًا يجول في هذا البلد). لقد أعطيته أموالًا على فترات، في كل مرة يظهر فيها. أعطيته ما يفوق طاقتي، ليذهب بعيدًا. كنت حمقاء عندما تزوجته، ولم أزل حتى هذه اللحظة حمقاء، لا تجد دواءً لهذا الداء الذي ظنَّت فيه خيرًا يومًا ما. لقد تعطلت مخيلتي عن التفكير في كيفية التعامل معه. لذلك يا تروت، صرت امرأة خشنة».

نفضت عمتي الأمر عنها بتنهيدة شديدة، وكذلك نفضت ثوبها.

قالت: «هذا كل ما في الأمر يا عزيزي، بت الآن تعرف البداية والوسط والنهاية، وكل شيء عن أمري. لن يذكر أي منا هذا الأمر للآخر بعد الآن، وبالطبع لن تذكره أيضًا لأي شخص آخر. هذه هي قصتي الغاضبة والمرهقة، وسوف نحتفظ بها لأنفسنا يا تروت!».

الفصل الثامن والأربعون

تدابير البيت

اجتهدت في كتابي، من دون أن أقصر في إنهاء عملي الصحفي في موعده المحدد، حتى خرج للنور وحقق نجاحًا باهرًا. لم أنبهر بما سمعته من ثناء تناهى إلى أذني، على الرغم من أنني أدركت ما يدور من الإشادة بالكتاب. فكرت في تحسين كتابتي، فلطالما خامرني شك في تقديرات الناس، أكثر من أي إنسان آخر، وكنت أضع أمام عيني على الدوام ما لاحظته عن الطبيعة البشرية؛ إذ ما يلبث المرء أن يجد سببًا وجيهًا للإيمان بنفسه، حتى يخبو، فلا يعنيه سوى التجلي أمام وجوه الآخرين حتى يؤمنوا به، ولهذا السبب حرصت على تواضعي واحترام ذاتي وكلما ازداد مديح الناس لي، حاولت بذل ما يدفعني لاستحقاقه بالاجتهاد.

إن كتابتي هذه تمثل بالأساس ذاكرتي المكتوبة، ولست أهدف من ورائها إلى أن أتابع تاريخ قصصي التي ألفتها في تلك الأيام، فهي تعبر عن نفسها، وما عليَّ سوى أن أترك لها العنان لتفصح عن نفسها، إنما أشير إليها فقط، لأنها جزء من سيرتي.

رسخ عندي اعتقاد مبني على أساس مفداه أن الطبيعة والصدفة قد صنعتا مني كتابًا، ولذلك تابعت مهنتي ككاتب في ثقة واطمئنان، ولولاهما لتنحيت عن الكتابة، ولتركت هذا الدرب وتحولت طاقتي إلى مساعٍ أخرى. كان عليَّ أن أكتشف موهبتي والدافع الحقيقي الذي حرك داخلي الموهبة، وأن أكون ما أنا عليه ولا شيء سواه.

لقد وُفقت في نشر كتاباتي في الصحف أو أماكن أخرى، وظلت كتابتي تزدهر، وتصورت بعد تحقيق هذا النجاح الجديد، أنني مؤهل بجدارة لأن أهرب من تسجيل المناقشات الكئيبة، وذات ليلة مبهجة انتهيت من صخب المناقشات البرلمانية المزعجة، ولم أسمعها منذ ذلك الحين، على الرغم من أنني لم أزل أتعرف على النغمات القديمة المدونة في الصحف، من دون أن ألحظ أي اختلاف جوهري، باستثناء تغير بسيط لا يتناسب مع طول الدورة البرلمانية، فتكون قد ازدادت صخبًا وضجيجًا.

أكتب الآن عن فترة زواجي، وأظن أنها امتدت إلى ما يقرب من عام ونصف. توصلنا بعد عدة تجارب متنوعة، إلى أن نبعد أنفسنا عن شؤون التدبير المنزلي باعتباره عملًا سيئًا. ظل المنزل على هيئته واستعنا بخادم. كانت الوظيفة الرئيسية لهذا الخادم هي الشجار مع الطاهية، فكان أشبه بـ«ويتنجتون»[1] بارعًا في هذا الصدد، لكن من دون قطته ومن دون أن يحظى بفرصة ولو بعيدة لانتخابه عمدة في المدينة.

(١) قصة من الفولكلور الإنجليزي عن صبي يُدعى ويتنجتون ساعدته قطته على تحقيق الشهرة والثراء، وقد اشتهر بالمشاجرة مع الطاهية.

يبدو لي أنه عاش تحت وابل من الحظ السيئ والتشرد، وأنه أمضى عمره في شجار لا ينقطع. لقد راح يصرخ في أكثر من مناسبة حرجة طلبًا للمساعدة، خاصة إذا كنا نقيم عشاء صغيرًا، أو نحتفل مع بعض الأصدقاء في المساء، وكان يخرج من المطبخ متعثرًا تتطاير خلفه قذائف معدنية تقذفه بها الطاهية. أردنا التخلص منه، لكنه كان متمسكًا بنا للغاية، فلم يرحل عنا. كان فتى بكّاء، وقد اندلع في نحيب أليم حين ألمحنا بفكرة الاستغناء عنه، فاضطررنا للإبقاء عليه. كان يتيم الأم، ولم أستطع العثور بأي طريقة على أقارب له ولو من بعيد، باستثناء أخته التي فرت إلى أمريكا في اللحظة التي أخلت فيها مسؤوليتها عنه وسلمته لنا. صار بعدها الشاب عبئًا مقيمًا لا يتغير. كان مدركًا ويقظًا لحالته المؤسفة، ولطالما فرك عينيه بكم سترته، أو انحنى ليمسح أنفه في الزاوية القصوى بمنديل جيب صغير، والذي لم يكن ليخرجه عن آخره من جيبه، ولكنه أبقاه دومًا مخفيًّا.

كانت هذه الصفحة غير الموفقة في حياتنا، قد أهلت علينا في ساعة نحس بتكلفة ستة جنيات وعشرة شلنات في السنة، ثم صار مصدرًا مستمرًّا للمتاعب لنا. شاهدته بينما يكبر على مرور الأيام، فإذا به ينمو مثل حبات الفاصولياء الحمراء، فانتابتني مخاوف أليمة من الوقت الذي سيبلغ فيه الحلم وتنبت فيه لحيته، بل امتدت مخاوفي إلى ما بعدها حيث أيام سيصير فيها أصلع أو أشيب. لم يعد عندي أي بارقة أمل في التخلص منه، بل رحت أتصور نفسي في المستقبل، وقد اعتدت التفكير في الإزعاج الذي سيخلفه عندما يصبح رجلًا عجوزًا.

لم أتوقع أي سبب أقل شأنًا مما ذكرت، يدفعني للخروج من هذا المأزق النحس. لقد سرق هذا الصبي المشؤوم ساعة دورا التي كانت مثل باقي أغراضنا ملقاة من دون مكان مخصص لها. كان الصبي ضعيف الذهن ساذجًا، فقد باع الساعة وأنفق ثمنها على ركوبه المستمر للعربات العامة، والجلوس خارجًا في رحلة ذهابًا وإيابًا بين لندن وأوكسبريدج. انتهى به المطاف على ما أذكر في مركز شرطة باوستريت، بعد الانتهاء من رحلته الخامسة عشرة، ولم نعثر معه إلا على أربعة شلنات وستة بنسات، وناي مستعمل لم يستطع العزف عليه.

كانت المفاجأة وعواقبها ستبدو أقل وقعًا عليَّ لو أنه لم يكن تائبًا. كان دومًا مبديًا أقصى درجات الندم الصادق، وبطريقة غريبة - ليس بصورة نهائية، بل بالتقسيط، إذ راح على سبيل المثال في اليوم التالي حين اضطررت إلى الشهادة ضده، يكشف لنا أسرارًا عن المخزن، إذ كنا نحسب أنه مليء بالنبيذ، إلا أنه لم يكن مليئًا إلا بالزجاجات الفارغة والفلين. افترضنا بعد هذا الموقف أنه أحكم عقله، إلى أن أخبرنا بأسوأ ما يعرفه عن الطاهية بعد يوم أو يومين، فكان ضميره قد وخزه من جديد، فكشف لنا كيف أنها أنجبت طفلة صغيرة، وقد كانت تأتي فتأخذ خبزنا في وقت مبكر كل صباح. كما أخبرنا أنه أغرى بائع اللبن لإمداده بالفحم الذي يلزمه من مؤونتنا، ثم أبلغتني السلطات في غضون يومين أو ثلاثة أخر، عن اكتشاف شرائح من لحم البقر بين أدوات المطبخ، وعدد من الأغطية في كيس من قماش بالٍ. ثم توجه بعد فترة وجيزة نحو شيء جديد تمامًا، إذ اعترف بعلمه بأن الفتى جامع الزجاجات قد

انتوى السطو على مبانينا، من ثَم اعتقلت الشرطة ذاك الفتى على الفور. اعتراني خجل جم من أن أصير مثل هذه الضحية، للحد الذي وددت فيه أن أدفع له أي ثمن من أجل أن يحفظ لسانه ولا يبوح بشيء، أو أعرض عليه رشوة كبيرة مقابل أن يلوذ بالفرار. لقد زاد ثقل الأمر على خاطري، خاصة لأنه لم يدرك شيئًا عن هذا كله، بل تصور أنه أراد التكفير عن آثامه السالفة بالتفكير في كشف جديد يفضح سره ويفشيه، بل لعله ظن أنه بهذه الأفعال يكدس أفضاله فوق رأسي.

نجوت في النهاية بنفسي، فاختبأت كلما رأيت مبعوثًا من الشرطة يقوم ببعض التحريات الجديدة، ومارست حياتي خلسة حتى حوكم الفتى وأُمر بإبعاده، ولكنه راح يكتب لنا الرسائل دومًا ولم يكن ليهدأ، بل ألح كثيرًا حتى يرى دورا قبل رحيله. ذهبت دورا لزيارته، وقد فقدت وعيها بعدما وجدت نفسها داخل القضبان الحديدية. باختصار، لم أشعر بهدوء في حياتي حتى تم ترحيله، وكما سمعت لاحقًا، فقد وكلت إليه رعاية بعض الأغنام في مكان ما «أعالي البلاد»، وليست لديَّ فكرة جغرافية عن هذا المكان.

قادتني كل هذه الحوادث إلى بعض التأملات الجادة، لعرض أخطائنا في منحناها الجديد. لم أستطع منع نفسي من البوح بأفكاري لدورا في إحدى الأمسيات على الرغم من رقتي معها وحناني عليها.

قلت: «يا حبيبتي، إنه لأمر يؤلمني جدًّا أن أتصور أن افتقار حياتنا إلى النظام والإدارة، لم يعد يشملنا فقط -وإنه الشيء الذي اعتدنا عليه- بل صار يشمل أناسًا آخرين».

قالت دورا: «لقد سكت لفترة طويلة، أما الآن فأنت على وشك التحول».

«لا يا عزيزتي، حسنًا، اسمحي لي أن أشرح لكِ ما أعنيه».

قالت دورا: «أظن أنني لا أريد أن أعرف».

«لكني أريدكِ أن تعرفي يا حبيبتي. أنزلي جيب بعيدًا».

وجهت دورا أنفه نحو أنفي ثم قالت: «بوه»، لتزيح عني صرامتي من دون جدوى. أمرته بالدخول إلى بيته، ثم جلست تنظر إليَّ ويداها مطويتان، وقد علا وجهها انتباه ضئيل للغاية.

شرعت حديثي قائلًا: «يا عزيزتي، في الحقيقة إن ثمة مرضًا معديًا بيننا. إننا نعدي الجميع به».

ربما كنت سأستمر بهذه الطريقة المجازية، لو لم يُبدِ وجه دورا تحذيرًا بأنها على وشك أن تتساءل بكل قوتها عما إذا كنت سأقترح أي نوع جديد من التطعيم، أو أي علاج طبي آخر، لهذه الحالة غير الصحية التي تنتابنا. راجعت نفسي، ثم جعلت المعنى أوضح.

قلت: «لم يعد الأمر يا قطتي مقتصرًا على خسارتنا للمال والراحة فقط، بل صار الأمر مرهونًا بعدم تعلمنا أن نكون أكثر حرصًا. إننا نتحمل مسؤولية إفساد كل من يأتي إلى خدمتنا، أو يتعامل معنا. إنني أشعر بالخوف من أن الخطأ لا يقع بالكامل من جانب واحد. إن هؤلاء الأشخاص جميعًا يصابون بالمرض نفسه، لأننا لا نبدي انتباهًا ملائمًا لأنفسنا».

صاحت دورا، بينما اتسعت عيناها على مصراعيهما: «آهٍ، يا له من اتهام قاسٍ، لتقول إنك رأيتني أسرق ساعات ذهبية، آهٍ».

اعترضت قائلًا: «يا عزيزتي، لا تتحدثي عن هراء لا يُعقل. من ذا الذي ألمح بأقل إشارة إلى الساعات الذهبية؟».

عادت دورا تردد: «أنت فعلت ذلك، إنك تعلم أنك القائل، لقد قلت إنني لم أعد جيدة، وقارنتني به».

سألتها: «بمن؟».

انتحبت دورا قائلة: «بالخادم. آه، أيها الرجل القاسي، إنك تقارن زوجتك الحنونة بخادم أبعدوه من البلدة. لماذا لم تخبرني برأيك عني قبل الزواج؟ لماذا لم تقل، أيها الإنسان القاسي، إنك مقتنع بأنني أسوأ من الخادم المُبعد؟ آه، يا له من رأي يفزعني! يا إلهي».

حاولت برفق إزالة المنديل الذي ضغطته على عينيها، ورحت أقول: «أما الآن يا دورا، يا حبيبتي، فإن ما تفعلينه الآن ليس أمرًا سخيفًا جدًّا فحسب، بل وخاطئ تمامًا. وهذا ليس صحيحًا قبل أي شيء».

تبكي دورا قائلة: «كنت تقول دومًا عن الخادم إنه ينسج القصص. وها أنت الآن تقول الشيء نفسه عني! آهٍ، ماذا أفعل؟! ماذا عليَّ أن أفعل؟!».

أجبتها قائلًا: «يا فتاتي الحبيبة، إنني أتوسل إليكِ حتى تعقلي الأمور وأن تصغي إلى ما قلته وما أقوله. يا عزيزتي دورا، إذا لم نتعلم كيف نؤدي دورنا مباشرة مع الذين نوظفهم، فإنهم لن يتعلموا أبدًا كيفية

القيام بواجبهم نحونا. أخشى أننا نهيئ فرصًا للناس لارتكاب أخطاء، والأجدر بنا ألا نتيحها لهم أبدًا. إننا أناس متساهلون في جميع ترتيباتنا، أو في شروط اختيارنا التي لا نفرضها. إن أحببنا اختيارنا، ووجدناه مناسبًا -وهو ما لا يحدث- فأنا مقتنع بأننا ينبغي أن نحيد عن المضي في هذا الطريق. إننا نفسد الناس بصورة متعمدة، وقد صرنا ملزمين بالتفكير في أمرنا، ولا يسعني التفكير في الأمر وحدي يا دورا. إنه أمر لا أستطيع التخلي عنه، ويجعلني أحيانًا أشعر بتوتر وقلق شديد. هذا هو يا عزيزتي كل ما في الأمر. تعالي إليَّ الآن، لا تكوني حمقاء».

لم تسمح لي دورا لوقت طويل بإزالة وشاحها. انكبت وراءه تبكي وتغمغم بأشياء من قبيل: إذا كنتَ غير مرتاح، فلماذا تزوجت؟ لماذا لم أقل، قبل يوم من ذهابنا إلى الكنيسة، إنني كنت أعرف أنني لن أستريح ولن أهنأ، وإنني لا أفضل الزواج بها؟ إذا لم أستطع تحملها، فلماذا لم أرسلها بعيدًا إلى عمتيها في بوتني أو إلى جوليا ميلز في الهند؟ ستسعد جوليا برؤيتها ولن تسميها خادمة مُبعَدة، وأن جوليا لم تطلق عليها قَطُّ أي وصف من هذا القبيل. باختصار، كانت دورا مكتئبة للغاية، وأصابتني كآبتها بالألم لأنني تسببت لها في هذه الحالة. شعرت أنه لا جدوى من تكرار هذا النوع من الجهد، ويجب أن أتخذ مسارًا آخر، على الرغم من أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

أي مسار قد تبقى لأسلكه؟ ما الذي يناسب «تكوين عقلها»؟ كانت هذه عبارات شائعة من كلمات لها صدى عادل وواعد بالخير، وقد عقدت العزم على تشكيل عقل دورا.

بدأت التفكير على الفور. كانت دورا طفولية للغاية، وربما كنت سأستمر في إضحاكها إلى الأبد، لكنني حاولت أن أكون جادًّا وقد أزعجها الأمر وأربكني أيضًا. تحدثت معها في الموضوعات التي شغلت أفكاري، فقرأت لها شكسبير، حتى أرهقها وأضجرها حتى المنتهى. لقد اعتدت أن أمدها -كان الأمر عرضًا ولم يستمر- بقصاصات صغيرة عن معلومات مفيدة، أو رأي سديد أو نصيحة، لكنها كانت تنبذها كما لو أنها مفرقعات نارية، ومهما حاولت قصدًا تشكيل عقل زوجتي الصغيرة، بدا لي أنها تعرف ما أنا منتويه بالغريزة، فتصبح فريسة لمخاوف أشد. كانت -بوجه خاص وبصورة واضحة بالنسبة لي- تعتقد أن شكسبير رجلًا شريرًا. هكذا صار تشكيل العقل أمرًا بطيء الخطى.

لقد أقحمت ترادلز لإسداء خدمة إليَّ من دون علمه، فكان كلما جاء لزيارتنا ما ألبث أن أفجر مناجم معلوماتي عليه، من أجل تشييد عقل دورا من جهة خفية. كان مقدار الحكمة العملية التي ألقيتها على ترادلز بهذه الطريقة هائلة، وذات أهمية بالغة، إلا أنها لم تحدث أي تأثير آخر على دورا، سوى خفض معنوياتها، مما جعلها متوترة دائمًا من جراء الخوف الذي تحول إلى عرضها التالي. وجدت نفسي في حالة أشبه بمدير المدرسة، أو أنني في فخ أو ورطة؛ ألعب دور العنكبوت فأنسج خيوطي دائمًا لإيقاع دورا كالذبابة في شبكتي، فأنقض دائمًا خارج حفرتي لأسبب لها اضطرابًا لا متناهٍ.

ثابرت وتطلعت، على الرغم من كل شيء في هذه المرحلة المتوسطة، إلى الوقت الذي يقع فيه تعاطف تام بيني ودورا، وكان من المفترض أن أكون قد «شكلت عقلها» بصورة مُرضية تمامًا، لقد ثابرت طوال أشهر. اكتشفت أخيرًا أنه على الرغم من أنني كنت طوال هذا الوقت قنفذًا، وكنت أكد في كل شيء بعزم، وبعد أن خيل لي فيما مضى أن عقل دورا ربما قد صار تام التكوين بالفعل، فإنني لم أُصِب هدفي.

فكرت في الأمر بصورة أعمق، وقد بدا الأمر جليًّا للغاية، للدرجة التي تخليت فيها عن مخططي الذي كان له مظهر واعد قولًا لا فعلًا، عازمًا من الآن فصاعدًا على أن أكون راضيًا عن زوجتي الطفلة، وألا أحاول تغييرها إلى أي شيء آخر بأي وسيلة. لقد سئمت من أن أكون ثاقبًا وحصيفًا أمام نفسي، وسئمت من رؤية حبيبتي من أجل كبحها، لذلك اشتريت لها قرطًا جميلًا، وطوقًا لجيب، وذهبت بهم إلى المنزل ذات يوم لترضى عني.

كانت دورا مسرورة بالهدايا الصغيرة فقبلتني فرحة، إلا أن ثمة هوة مظلمة ظلت بيننا. قررت أنه ينبغي لهذه الغمة أن تنقشع، مهما كان ظلامها طفيفًا. إذا كان لا بد من وجود مثل هذه الظلمة في أي مكان، فسأحتفظ به للمستقبل في صدري.

جلست بجانب زوجتي على الأريكة، ووضعت القرطين في أذنيها. أخبرتها بعدها أنني أخشى أننا لم نكن على وفاق في الآونة الأخيرة، كما اعتدنا أن نكون، وأن الخطأ كان خطئي. كان هذا هو شعوري الصادق، وهو الأمر الذي حدث بالفعل.

قلت: «في الحقيقة يا دورا يا حياتي، إنني كنت أحاول أن أكون حكيمًا».

قالت دورا في خجل: «وحاولت أن تجعلني حكيمة أيضًا. أليس كذلك يا دودي؟».

أومأت بالموافقة على سؤالها، أمام هذين الحاجبين المرتفعين في جمال، وقبلت شفتيها المنفرجتين.

قالت دورا بينما تهز رأسها حتى اهتز القرطان مرة أخرى: «ليس ثمة فائدة تذكر. إنك تعرف طبيعة ما أنا عليه، وأي اسم أردت أن تطلقه عليَّ منذ البداية. إذا لم تتمكن من القيام بذلك، فإني أخشى أنك لن تحبني أبدًا. هل أنت متأكد من أنك لا تعتقد في بعض الأحيان أنه كان من الأفضل أن تحصل على...».

لم تبذل أي جهد للمضي قدمًا في حديثها، فسألتها: «أن أفعل ماذا يا عزيزتي؟».

قالت دورا: «لا شيء».

كررتُ: «كيف لا شيء؟».

وضعت ذراعيها حول رقبتي، وضحكت، ووصفت نفسها باسمها المفضل الساذج، ثم أخفت وجهها فوق كتفي، مظهرة هذا الكم من موجات شعرها الذي اعتنت به للغاية، وبذلت جهدًا في تنظيفه وإظهاره.

قلت ضاحكًا على تفكيري: «ألا أظن أنه كان من الأفضل ألا أفعل شيئًا، بدلًا من محاولة تشكيل عقل زوجتي الصغيرة؟ هل هذا هو السؤال؟ نعم، في الحقيقة لقد حاولت فعل ذلك حقًّا».

صرخت دورا قائلة: «أهذا ما حاولت فعله! يا لك من فتى صادم!».

قلت: «لكنني لن أحاول أبدًا بعد الآن، لأني أحبها حبًّا جمًّا كما هي».

سألتني دورا بينما تقترب مني: «من دون قصة... حقًّا؟».

قلت: «لماذا أسعى لتغيير من كانت كنزي الثمين لفترة طويلة؟! لا يمكنكِ أبدًا أن تظهري بصورة أفضل من طبيعتكِ يا دورا يا حلوتي، ولن نخوض أي تجارب واهية، ولكننا سنعود إلى طريقتنا القديمة، وسنصبح سعداء».

أجابتني دورا: «لنكن سعداء، نعم، طوال اليوم، ألن تمانع إن ساءت الأمور في بعض الأحيان؟».

فقلت: «نعم، نعم، علينا أن نبذل قصارى جهدنا».

تدللت دورا في قولها: «ولن تخبرني بعد الآن أننا نتسبب في إفساد الآخرين. أليس كذلك؟ لأنك تعلم أن هذا أمر متناقض بشكل مخيف».

قلت: «نعم، نعم».

قالت دورا: «أليس من الأفضل لي أن أكون غبية على أن أكون متوترة؟».

«من الأفضل أن تكوني دورا التي على فطرتها على أن تكوني أي شيء آخر في العالم».

«في العالم! آه يا دودي، يا له من مكان كبير!».

هزت رأسها، وقد وجهت عينيها المبتهجتين نحو عيني، وقبّلتني، ثم ابتدعت ضحكة مرحة، واندفعت بعيدًا لتُلبس جيب طوقه الجديد.

وهكذا انتهت محاولتي الأخيرة من دون أن أحدث في دورا أي تغيير. كنت متألمًا من هذه التجربة، ولم أستطع تحمل نتائج تفكيري المنفرد، وكذلك لم أستطع التوفيق بين فكرتي ومناشدتها السابقة بمعاملتها كزوجة طفلة. لقد عقدت العزم على أن أفعل ما بوسعي في هدوء، لتحسين تدابير عيشنا بنفسي، إلا أنني توقعت أن أقصى ما سأبذله سيظل ضئيلًا للغاية، أو يدفعني إلى التدهور مرة أخرى في شباك العنكبوت، وأبقى في انتظار الفرج إلى الأبد.

انقشعت الغشاوة التي ذكرتها، ولم تعد تحتل مكانًا بيننا الآن، ولكن هل انصبت كليًّا داخل قلبي؟ أو كيف سقطت عني؟

ساد شعور الحزن القديم في حياتي، لقد تعمّق، إذ تغيرت هيئته، لكنها صارت غير محددة كما كانت دائمًا. خاطبني شجن مثل مقطوعة موسيقية حزينة تناهى صوتها الخافت إلى أذني في الليل. لقد أحببت زوجتي كثيرًا وكنت سعيدًا، لكن السعادة التي كنت أتوقعها حولها غموض، ولم تصبح هي السعادة التي وددت الاستمتاع بها في يوم من الأيام، وقد صار ثمة شيء مفقود دومًا.

ها أنا أدلي برأيي في هذه الورقة؛ وفاءً لاتفاق أبرمته أمام نفسي، وأعاود فحصها عن كثب، وأظهر أسرارها للنور. أدون ما فاتني، وما

زلت أعتبره -كما كنت أعتبره دائمًا- شيئًا من حلم خيالي لشبابي. إنه حلم غير قابل التحقق. ها أنا أكتشف الأمر الآن، ممزوجًا ببعض الألم الطبيعي، كما يفعل كل الرجال. ربما كان من الأفضل أن أجد عونًا أكبر من زوجتي، وأن تشاركني أفكاري المتعددة، والتي أعرف أنها لم يكن ليشاركني فيها إنسان.

حاولت أن أوازن نفسي بين هذين الاستنتاجين المتعارضين، لأن أولهما شعرت به شعورًا عامًّا ولا مفر منه، وثانيهما خاص بي، ولعله كان من الممكن أن يصير مختلفًا. شعرت بعدم وجود فارق واضح يشي بمعارضتهما البعض، فعدت لأفكر في أحلام الشباب البعيدة عن التحقق، لكني استرجعت مرحلة ما قبل الرجولة التي تجاوزتها في أفضل حال، ثم استرجعت أيامي الرائقة التي قضيتها مع أجنيس في المنزل القديم المحبب إليَّ. انقضت هذه الأيام أمامي مثل أشباح الموتى، التي قد تبعث من جديد في عالم آخر، ولكنها لا يمكن أن تحيا لمدة أطول في هذا العالم.

راودني في بعض الأحيان بعض من هواجس؛ ماذا كان ليحدث، لو لم نتعرف أنا ودورا كل منا على الآخر؟ لقد كان وجودها مندمجًا جدًّا مع وجودي، لدرجة جعلت من هذا الهاجس الأكثر خمولًا من بين جميع الأوهام، وسرعان ما انقشع بعيدًا عن متناول يدي وبصري، مثل شعاع الشمس يخبو في الهواء.

لطالما أحببتها. صار كل ما أصفه، غفوات، ثم صحوة، ثم نومًا مرة أخرى، في أعمق فترات ذهني استرخاء. لم يكن عندي دليل على

أقوالي. لا أعرف أي تأثير لها في أي شيء قلته أو فعلته. لقد تحملت ثقل همومنا الصغيرة بأسرها وكذلك كل مشاريعي، بعد أن اكتفت دورا بحمل الأقلام. أدرك كلانا أدوارنا التي تتغير بحسب حالتنا. كانت دورا مغرمة وفخورة بي حقًّا. لقد كتبت أجنيس بضع كلمات جادة في رسائلها، مادحة حالة الزهو والاهتمام التي يبديها أصدقائي القدامى حين يتحدثون عن مكانتي المتنامية، وعن قراءتهم كتابي كما لو أنهم سمعوني أتحدث بمحتوياته. لقد قرأت دورا كلمات أجنيس وقد لاحت دموع من فرح في عينيها اللامعتين، ثم قالت إنني فتى عزيز عليها، ذكي ومشهور.

«إنه الدافع الخاطئ الأول لقلب غير منضبط». كانت كلمات السيدة سترونج تلك تتكرر داخل رأسي باستمرار في ذاك الوقت، وتعاد دائمًا في عقلي، بل رحت أستيقظ عليها في جوف الليل، وأتذكر أنني قرأتها حتى في أحلامي، وأنها كانت منقوشة على جدران المنازل. لقد عرفت الآن أن قلبي كان أهوج ساذجًا بفطرته عندما أحب دورا، وأنه لو كان منضبطًا متعقلًا، ما شعرت أبدًا عندما تزوجنا بما شعرت به من مشاعر خفية.

«ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف». تذكرت هذه الكلمات أيضًا، فقد حاولت أن أُكيف دورا مع نفسي، إلى أن صار الأمر بلا جدوى، ولم يبقَ أمامي سوى أن أُكيف نفسي مع دورا، لأتشارك معها أمرها ما دمت استطعت، فأغدو سعيدًا راضيًا، وأحمل على عاتقي ما أستطيع تحمله، ولأبقي على السعادة بيننا

كذلك. كان هذا هو الانضباط الذي حاولت أن أكنه في قلبي، حينما بدأت التفكير في الأمر. صار عامي الثاني من الزواج أكثر سعادة من العام الأول. والأفضل من ذلك، أن صارت حياة دورا مشرقة.

لم تكن دورا بوافر صحتها مع حلول ذلك العام. كنت آمل أن تساعدني يدان أخف من يدي في تشكيل شخصيتها وصوغها من جديد، وأن ابتسامة طفل على صدرها كفيلة بأن تغير زوجتي الطفلة وتحولها إلى امرأة ناضجة، لكن لم تسِر الأمور على هذا النحو، إذ رفرفت هذه الروح للحظة على عتبة سجنها الصغير، وأطلقت جناحها من دون أن تعي من الأمر شيئًا.

قالت دورا: «عندما يمكنني الركض مرة أخرى، كما تعودت أن أركض يا عمتي، سأجعل جيب يتسابق معي. لقد صار بطيئًا وكسولًا».

قالت عمتي بينما تعمل بجانبها في هدوء: «إنني أشك في ذلك يا عزيزتي، إنه يعاني من اضطراب أسوأ من الكسل. إنه التقدم في العمر يا دورا».

سألت دورا مندهشة: «هل تعتقدين أنه كبير في السن؟ آهٍ، كم يبدو غريبًا أن يصير جيب عجوزًا».

قالت عمتي في مرح: «إنه أمر سنتحمله جميعًا يا صغيرتي، وها نحن نواصل مسيرتنا في الحياة نحو الكبر. أؤكد لكِ أنني لا أجد مهربًا لأتحرر من عوارض التقدم في السن».

قالت دورا بينما تنظر إليه برأفة: «لكن جيب... حتى جيب الصغير، آهٍ يا رفيقي المسكين».

ربتت عمتي على خدَّي دورا حين انحنت من فوق أريكتها لتنظر إلى جيب، الذي استجاب لها بالوقوف على رجليه الخلفيتين، ثم حاول بمختلف الطرق القفز فوق رأسها وكتفها. قالت عمتي: «سأصارحكِ بأنه سيستمر في تعبه لفترة طويلة، يا زهرتي... يجب أن نبطن له بيته بقطع القماش هذا الشتاء، ولن أندهش إذا ما عاد منتعشًا مرة أخرى مع تفتح الأزهار في الربيع. فليحفظ الله الكلب الصغير. إذا امتلك جيب عديدًا من الأرواح مثل قطة، وكان على وشك أن يفقدها جميعًا، فإنني أظن أنه لن يكف عن النباح في وجهي مع أنفاسه الأخيرة».

ساعدته دورا على النهوض فوق الأريكة. كان حقًّا يتحدى عمتي بالنباح إلى أقصى درجات الغضب، لدرجة أنه لم يستطع الحفاظ على استقامته، لكنه ظل ينبح على الرغم من اعوجاج جسده إلى جانبه. كانت عمتي تطيل النظر نحوه، فتزداد نظراته إليها لومًا، ويزداد نباحًا، إلا أنها كانت قد اعتادت أخيرًا أن تلبس نظارتها، ولسبب غامض اعتبر جيب أن النظارة إهانة موجهة إليه تحديدًا.

أقنعته دورا أن يرقد بجانبها بعد إلحاح طويل، وما إن صار هادئًا، حتى سحبت إحدى أذنيه الطويلتين وأخذت تديرها وتخلخلها بيدها، مكررة في تمعن قولها: «حتى جيب الصغير! آهٍ يا رفيقي المسكين».

قالت عمتي في مودة: «إن رئتيه سليمتان بما يكفي لمواصلة العيش، وغضبه ليس هينًا على الإطلاق. لم تزل أمامه سنوات عديدة بلا

شك ليحيا، ولكن إذا كنتِ تريدين كلبًا يتسابق معكِ يا زهرتي الصغيرة، فقد أدى جيب ما عليه من هذا الدور، وسأمنحكِ كلبًا جديدًا يناسبكِ».

قالت دورا بصوت خافت: «شكرًا لكِ يا عمتي. لكن لا، من فضلكِ».

سألت عمتي وهي تخلع نظارتها: «لمَ لا؟».

أجابت دورا: «لا يمكنني حيازة أي كلب آخر سوى جيب. سيكون الأمر قاسيًا جدًّا على جيب. علاوة على ذلك، فإنني لا أستطيع أن أكن هذه الصداقة نفسها مع أي كلب آخر غير جيب، لأنه لازمني قبل أن أتزوج، ولم ينبح على دودي عندما جاء لأول مرة إلى منزلنا. لا أستطيع رعاية أي كلب آخر، ولكني أخاف على جيب يا عمتي».

تحدثت عمتي بينما تربت على خدها مرة أخرى: «بالتأكيد، إنكِ على حق».

قالت دورا: «إنكِ لستِ مستاءة، أليس كذلك؟».

صرخت عمتي بينما تنحني عليها في ود: «لماذا أستاء؟! يا لكِ من قطة أليفة وحساسة! كيف تتصورين أنني يمكن أن أشعر بالإهانة لرفضكِ؟!».

راحت دورا تقول: «لا، لا، لم أكن أتصور ذلك حقًّا، لكنني متعبة قليلًا، وقد جعلني ذلك سخيفة لبعض الوقت في حديثي عن جيب. إنني دائمًا شيء صغير سخيف كما تعلمون، لكن التعب قد جعلني أكثر سخافة. لقد عرفني في كل ما حدث لي، أليس كذلك يا جيب؟

ولا أستطيع تحمل إهانته، لأنه قد تغير قليلًا. هل يمكنني أن أفعل ذلك يا جيب؟».

صار جيب يقترب من سيدته، وقد أخذ يلعق يدها في تكاسل.

قالت دورا: «أنت لست عجوزًا يا جيب إلى الحد الذي يجعلك تترك سيدتك الآن، أليس كذلك؟ قد نحتفظ بوجودنا معًا لفترة أطول قليلًا».

يا لجمالكِ يا دورا! نزلت لتناول العشاء يوم الأحد التالي، وقد لفتها سعادة بالغة لرؤية ترادلز الذي اعتاد أن يتناول معنا العشاء دائمًا في يوم الأحد. ظننا أنها ستركض كما كانت تفعل في غضون أيام قليلة، لكنها لم تفعل. انتظرنا أيامًا قليلة لتعود لعهدها السابق، ثم انتظرنا بضعة أيام أخر من دون أن تركض أو تمشي كذلك. إلا أنها بدت في غاية الجمال، ولم تزل كذلك مرحة جدًّا. أما قدماها الصغيرتان اللتان اعتادتا أن تكونا رشيقتين للغاية وأن تتراقصا حول جيب، فقد صارتا واهنتين وبلا حراك.

بدأتُ في حملها نزولًا إلى الطابق السفلي كل صباح، وصعودًا إلى الطابق العلوي كل ليلة. تتشبث حول رقبتي وتضحك، كما لو أنني أراهن كل مرة على إضحاكها. ينبح جيب ثم يدور حولنا ليسبقنا بخطواته، ثم يلتفت إلى الوراء ليتأكد أننا في طريقنا للهبوط، يلتقط أنفاسه ويراقب قدومنا نحوه. كانت عمتي، أفضل الممرضات وأكثرهن بهجة. تمشي وراءنا، كتلة متحركة من أغطية الشالات والوسائد. أما السيد دك، فلم يكن ليتنازل عن منصب حامل الشمعة لأي شخص على قيد الحياة. أما

ترادلز فغالبًا ما كان يمكث أسفل الدرج، يراقبنا ويتولى مسؤولية أي رسائل إشارية من دورا إلى فتاته الأعز عليه في العالم. لقد صنعنا موكبًا مثاليًّا تمامًا، وكانت زوجتي الطفلة الأكثر جاذبية به.

كنت أحملها في بعض الأحيان، فأشعر أنها أخف وزنًا بين ذراعي. انتابني شعور بأن ثمة هوة سحيقة، كما لو أنني أقترب من منطقة متجمدة غير مرئية، كان لها من الأثر في تخدير حياتي. تجنبت الاعتراف بهذا الشعور تحت أي مسمى. تجاهلت وقع مشاعري على نفسي، إلى أن حلت ليلة، أثقلتني بوقعها. كانت عمتي قد تركت دورا بعد أن حيتها قائلة: «ليلة سعيدة يا زهرتنا الصغيرة». جلست إلى مكتبي وحدي، ورحت أفكر قائلًا لنفسي: يا له من اسم مشؤوم. كيف ذبلت الزهرة الصغيرة قبل أن تتفتح على أفرع الشجرة؟!



الفصل التاسع والأربعون

اشتراكي في سر

تلقيت ذات صباح بالبريد الرسالة التالية، والتي أرسلت من كانتربري معنونة باسمي إلى مكتبي في مجلس العموم. قرأت فيها ما يلي في دهشة:

«سيدي العزيز،

لقد أدت ظروف خارجة عن إرادتي الشخصية، ولفترة طويلة من الزمن، إلى قطع هذه العلاقة الحميمة. انقطعت في ظل الفرص المحدودة التي أتيحت لي في خضم واجباتي المهنية، إلا أنني رحت أتأمل مشاهد وأحداث الماضي، وقد أضفت عليها ذاكرتي مختلف المباهج العالقة بها، وعليها أن تحتفظ بها إلى الأبد، لإثراء هذا النوع من المشاعر المبهجة التي لا توصف. وإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة يا سيدي العزيز ما حققته لك موهبتك من الرقي والتميز، والتي قد تمنعني من الافتراض بأن أتطلع في حرية إلى مخاطبة رفيق شبابي، باسمه المألوف كوبرفيلد! يكفي أن أعرف أن الاسم الذي أتشرف بأن أشير إليه، سيبقى فخرًا لا يضاهى بين ذخائر منزلنا (أشرت إلى المحفوظات

المتعلقة بنزلائنا السابقين، والتي احتفظت بها السيدة ميكوبر)، وسيبقى محاطًا بكل مشاعر الاحترام لشخصه والتي تبلغ منزلة المودة والحب.

لم يكن لإنسان مثلي الوقوع في مثل هذه الأخطاء الفارقة مع مجموعة من المصادفات المشؤومة غير المعهودة، فأصير كسفينة محطمة (إذا كان مسموحًا لي الاستعانة بمثل هذا التشبيه من بين زمرة البحرية)، ها هو يتناول القلم في هذه اللحظة ليكتب إليك - أكرر أنه لسبب ما، لا تُبنى لغتي على المجاملة أو التهنئة، فمن الأفضل أن أترك هذه الصفات ليدين أقوى حديثًا وأنقى قلمًا.

إذا سمحت لك أعمالك المهمة بأن تلقي نظرة على مثل هذه العبارات غير الكاملة حتى الآن - والتي قد تظهر، أو لا تظهر لك، مصادفة - فسوف تتساءل بشكل طبيعي إذن عن الشيء الذي تأثرت به، وحثها على كتابة الرسالة الحالية. اسمح لي أن أقول إنني أسعى تمامًا لإدراك الدافع المعقول لإجابة السؤال، وأشرع في تقديم الرد عليه، وأفترض أنه ليس من ورائه دافعًا ماليًّا.

لست هنا بصدد الإشارة بشكل مباشر إلى قدرتي الشخصية على توجيه الصاعقة، أو إطلاق اللهب الثائر، للانتقام في أي مكان، فهل يُسمح لي أن أقول قولًا عابرًا بأن تطلعاتي الزاهية قد تبددت للأبد، وأن سلامي قد تحطم وأن قوتي في البهجة قد دُمرت، وأن قلبي لم يعد في مكانه المناسب، ولم أعد أسير منتصبًا أمام المخلوقات. لقد تقرحت الزهرة، وامتلأت الكأس بالمرارة حتى حافتها، والتهمت الدودة فريستها، وسرعان ما ستتخلص من ضحيتها، وفي الإبكار الخير. إنني

لن أستطرد أكثر. إنني في وضع نفسي مؤلم غريب، بل لا تستطيع السيدة ميكوبر التخفيف عن أوجاعي، على الرغم من أنها تؤدي دورًا ثلاثيًّا من كونها امرأة وزوجة وأمًّا، ولذلك إنني أعتزم الهروب من نفسي لفترة قصيرة، فأخصص فترة راحة مدتها ثمانٍ وأربعون ساعة، لإعادة زيارة بعض المشاهد الحضرية للاستمتاع بالماضي والتاريخ بما يريح بالي ويبعث في روحي السكينة. ستأخذني قدماي بشكل طبيعي نحو سجن الملك، وسأكون خارج الجدار الجنوبي له في عملية مدنية بعد غد في تمام الساعة السابعة مساءً على وجه التحديد، وهذا هو الهدف من هذه الرسالة.

لا أشعر أن هناك ما يدعو لتبرير طلبي من صديقي السابق السيد كوبرفيلد، أو صديقي السابق السيد توماس ترادلز -إذا كان هذا الرجل لا يزال موجودًا وقريبًا- بالتنازل لمقابلتي، وتجديد علاقاتنا القديمة في الأيام الخوالي بما تسمح به الظروف. سأكتفي بقول ملاحظة حيث إنكما ستجدانني في الساعة والمكان اللذين أشرت إليهما، حيث يمكنكما العثور على أشباهي من آثار مدمرة موجودة حتى الآن

من حطام

برج متهدم

ويلكنز ميكوبر».

«ملاحظة: قد يكون من الأفضل، إضافة إلى ما سبق، الإفادة بأن السيدة ميكوبر لا تعرف شيئًا عن هذا السر».

قرأت الرسالة عدة مرات. حاولت أن أجد مسوغًا لأسلوب السيد ميكوبر النبيل في الكتابة، ورحت أفكر في المتعة الاستثنائية التي دفعته للجلوس وكتابة رسائل طويلة بمختلف طرق الالتواء البعيدة. ما زلت أظن أن شيئًا مهمًّا يكمن وراء هذا التواصل غير المباشر، وقد نحيت الرسالة جانبًا لأفكر في مرماها، ثم تناولتها مرة أخرى لأعيد قراءتها، فجاءني ترادلز بينما لم أزل أتفحصها في ذروة حيرتي.

قلت: «صديقي العزيز، لم أكن سعيدًا يومًا برؤيتك مثل الآن. لقد أتيت لتعطيني خلاصة حكمتك الرصينة في أنسب وقت، إذ تلقيت خطابًا فريدًا جدًّا من السيد ميكوبر يا ترادلز».

صاح ترادلز: «أحقًّا ما تقوله؟ لا تقل إنه حقيقي؟ إنني تلقيت بدوري رسالة من السيدة ميكوبر».

تجمدت مشية ترادلز بهذه الكلمات، وقد اقشعر وانتصبت شعيراته تحت تأثير الجهد والإثارة معًا، كما لو أبصر شبحًا مرتاعًا، ثم أخرج رسالته وتبادلها مع رسالتي. راقبت انفعالاته التي يبديها مع قراءته لرسالة السيد ميكوبر، وإذا به يرفع حاجبيه مع قراءته لبعض تعبيراتها مرددًا: «توجيه الصاعقة، أو إطلاق اللهب الثائر، للانتقام»، وما لبث أن قال: «يا للعجب يا كوبرفيلد!» تحولت بدوري إلى رسالة السيدة ميكوبر واطلعت عليها.

كانت الرسالة على النحو التالي:

«تحياتي الطيبة إلى السيد توماس ترادلز، وإذا لم يزل يتذكر إنسانة قد حظيت سابقًا بسعادة وشرف التعرف عليه، فهل أرجو أن أشغل بضع لحظات من وقته؟ أؤكد للسيد توماس ترادلز أنني لم أكن لأتطفل طالبة عطفه، لو أنني كنت في أي وضع آخر غير هذا الوضع المتشرذم.

إنه من دواعي أسفي أن أذكر نفور السيد ميكوبر من زوجته وعائلته (على الرغم من أنه طالما استأنس بهما من قبل). وهذا هو سبب مراسلتي للسيد ترادلز بهذا النداء التعيس، ربما ألتمس أفضل الأعذار له. لا يستطيع السيد ترادلز تخيل فكرة ملائمة تعبر عن مدى تغير سلوك السيد ميكوبر، بما في ذلك وحشيته وعنفه. لقد تفاقم الأمر تدريجيًّا إلى أن خرج عن حدود العقل. إنني أؤكد للسيد ترادلز أنه نادرًا ما يمر يوم، من دون أن تحدث بعض من هذه النوبات. إن السيد ترادلز لن يطلب مني تصوير مشاعري، عندما أبلغه أنني قد اعتدت سماع السيد ميكوبر بينما يؤكد أنه باع نفسه لشيء غامض، وقد صارت سماته الرئيسية منذ فترة طويلة تتسم بالسرية، هكذا تبدلت بصورة غير محدودة. إن أدنى استفزاز ولو كان يقتصر على سؤاله عن شيء يفضله على العشاء، قد يجعله يعبر عن رغبته في الانفصال. أما ليلة أمس عندما سأله التوأم بسذاجة أن يمنحهما بنسين لشراء «حلوى الليمون» -وهي نوع من الحلوى المحلية- إذا به يخرج سكين المحار في وجه التوأم.

إنني أناشد السيد ترادلز أن يتحمل معي عبء الدخول في هذه التفاصيل، لأنه من دونها سيجد صعوبة في تكوين ولو صورة هينة حقًّا لوضعي الحقيقي الذي يفطر قلبي.

هل يمكنني الآن أن أخاطر بالبوح للسيد ترادلز بمغزى رسالتي؟ هل سيسمح لي الآن أن أطمع في وده وعطفه؟ آه، نعم لأني أدرك حقيقة قلبه.

إن فطنة المشاعر لا يمكن أن تعمى عن شيء بسهولة، خاصة إن كان لامرأة. سيذهب السيد ميكوبر إلى لندن. لقد أخفى يده عن كثب هذا الصباح قبل الإفطار، وقد طوى فيها تذكرة معنونة باتجاه السفر. لقد حجبها داخل جراب بني صغير وكانت بقيت لدينا منذ أيامنا السعيدة الماضية. لكنني بنوع من القلق الزوجي وبنظرة نسر وقلق الأم، فأبصرت حرفي الدال والنون، وميزتهما بوضوح، كانت وجهة الحافلة ناحية الغرب، وستصل إلى جولدن كروس. إنني أتضرع إلى السيد ترادلز بحرارة، وأناشده أن يقابل زوجي الضال وأن يتفاهم معه. أتجرأ على أن أطلب من السيد ترادلز أن يحاول التدخل بين السيد ميكوبر وعائلته المنكوبة. آهٍ وا أسفاه، يا له من مطلب فوق طاقة الاحتمال!

إذا كان السيد كوبرفيلد لم يزل يذكر إلى الآن امرأة مثلي نكراء، فهل سيتكرم السيد ترادلز فيحمل إليه تحياتي واحترامي اللذين لا يتبدلان، وينقل إليه توسلاتي نفسها. أرجو أن يعتبر هذه الرسالة خاصة من دون أن يلمح بها بأي حال من الأحوال ولو من بعيد في حضور السيد ميكوبر. وإذا تكرم السيد ترادلز بالرد على رسالتي (وهو الأمر الذي لا يسعني إلا أن أتصوره بعيد الاحتمال)، فإني أرجو أن تحفظ

الرسالة الموجهة إلى السيدة أ. م في مكتب بريد كانتربري، ليكون الأمر محفوفًا بعواقب أقل إيلامًا من أي رسالة موجهة على الفور إلى الإنسانة التي تعد نفسها في هذا الكرب الشديد.

صديقة السيد توماس ترادلز المحترم والمتعاون؛

إيما ميكوبر».

كان ترادلز قد قرأ الرسالة لمرتين، ثم راح ينظر إليَّ بعدها قائلًا: «ما رأيك في هذه الرسالة؟».

سألته بينما لم يزل عاقدًا حاجبيه يتفحصها: «وما رأيك أنت في الرسالة الأخرى؟».

أجاب ترادلز قائلًا: «أظن أن كلًّا منهما يا كوبرفيلد يقصد كتابة ما يفوق قصدهما في رسالتيهما، وهذه عادة السيد ميكوبر وزوجته في مراسلاتهما - لكني لا أعرف السبب. إن الخطابين مكتوبان بحسن نية، ولا شك لديَّ في ذلك، ومن دون أي اتفاق بينهما. يا للمسكينة!» كان ترادلز يلمح في هذه اللحظة إلى رسالة السيدة ميكوبر، وكنا نقف جنبًا إلى جنب بينما نقارن كل واحدة بالأخرى. قال ترادلز: «أرى أنه من اللطف لو أجبناها في جميع الأحوال، ولنخبرها أننا لن نتردد أبدًا في مقابلة السيد ميكوبر».

وافقت على هذه الفكرة في سهولة جمة، وقد صرت في هذه اللحظات ألوم نفسي بعد أن تعاملت مع رسالتها السابقة باستخفاف. استدعى هذا الموقف وقتًا مضى، أذكر ما وقع به جيدًا حيث كنت

مستغرقًا في أعمالي الخاصة، وتجربتي مع الأسرة، ولم أكن لأنتبه إلى ما سواهما، وقد انتهى الأمر تدريجيًّا برفضي لمضمون الرسالة. كنت غالبًا ما أفكر في عائلة ميكوبر، ولكني أتساءل في الأساس عن «الالتزامات المالية» التي راكموها في كانتربري، وأتذكر كيف بدا السيد ميكوبر خجولًا أمامي بعد أن صار كاتبًا ليورايا هيب.

كتبت الآن -على الرغم من كل شيء- رسالة مطمئنة إلى السيدة ميكوبر، ثم وقعناها باسمينا مجتمعين، ثم سرنا نحو المدينة في طريقنا إلى إرسالها. رحت أنا وترادلز نتجادل في مناقشات طويلة، وأطلقنا عددًا من التكهنات، والتي لا أحتاج إلى تكرارها. ما لبثنا بعدها إلا واتجهنا إلى عمتي بعد الظهيرة طالبين منها المشورة. كان الشيء الوحيد الذي قررناه هو أننا سنلتزم بالموعد المحدد الذي عينه السيد ميكوبر لمقابلتنا.

وصلنا إلى المكان المحدد قبل ربع ساعة من الموعد، إلا أننا وجدنا السيد ميكوبر هناك بانتظارنا. كان يقف وقد شبك ذراعيه مستندًا إلى الحائط، ينظر إلى الأسياخ التي تعلوه، في تعبير عاطفي، كما لو أنه يتصورها أغصان الأشجار المتشابكة التي ظللته في شبابه.

دنونا منه، وخاطبناه وقد انتبهنا إلى طريقته التي صارت أكثر حيرة وأقل رقة مما كانت عليه منذ وقت مضى. كان قد تخلى عن زيه الرسمي ذي اللون الأسود، ليقوم بهذه الرحلة بعد أن ارتدى معطفًا قديمًا وبنطالًا، ولكنه بدا أقل أناقة من ذي قبل. استعاد رونقه القديم شيئًا فشيئًا بعد أن تحدثنا إليه، أما نظارته فقد كانت تتدلى بسهولة عن عينيه، وكذلك

فاضت عنه ياقة قميصه، على الرغم من أنها لم تزل محتفظة بقوامها القديم هائل الحجم، فإنها كانت متدلية بعض الشيء.

ألقينا التحايا ثم قال السيد ميكوبر: «أيها السادة، إنكما صديقان حقيقيان، إنكما نعم الصديقان وقت الشدائد. فلتسمحا لي أن أسأل عن الحالة الصحية للسيدة كوبرفيلد في الوقت الحالي، أما مكانة السيدة ترادلز فمحفوظة على افتراض ما سأتبعه من سؤالي عليها، على اعتبار أنني صرت صديقًا للسيد ترادلز في السراء والضراء».

شكرنا ذوقه، وقدمنا له ردودًا لائقة. نبهنا للاقتراب قليلًا نحو الجدار ثم بدأ يقول: «أؤكد لكما، أيها السيدان...» لكنني اعترضت على ما أبداه من تكليف بيننا، فرجوته أن يتحدث إلينا بطريقته القديمة.

عاود حديثه بعد أن شد على يدي قائلًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، إن لطفك يغلب عليَّ. أما هذا الاستقبال لواجهة محطمة من هيكل كان ذات يوم إنسانًا ينم عن قلب يكشف عن طبيعتنا الطيبة المشتركة، إذا سمح لي بالتعبير عن نفسي بهذا الشكل. كنت على وشك ملاحظة ما أراه مرة أخرى في تلك الفترة الهادئة التي مر بها بعض أسعد ساعات وجودي».

قلت: «لقد فعلت ذلك بلا شك بفضل السيدة ميكوبر، وأرجو أن تكون بخير».

صار وجه السيد ميكوبر غائمًا عند هذه الإشارة، فأومأ في حزن قائلًا: «شكرًا لك. إن حالتها متذبذبة، وكذلك حال السجن! لأول مرة منذ سنوات عديدة، لم أعانِ هذا الكم الهائل من ضغط الالتزامات

المالية، والديون التي تتراكم من يوم لآخر. لقد تكدس الممر بالدائنين وصاروا يرفضون إخلاءه. لا توجد مطرقة على الباب لكي يلجأ دائن إليها ليدقها، ولم تكن ثمة محاباة لإجراءات شخصية، ولم يتبقَّ شيء للحجز عليه، لم يبقَ سوى الباب العام أيها السيدان! لقد أبصرت ظل انعكاس الحديد المشيد فوق قمة هرم الطوب المتراس بين حصى المكان، ورأيت أطفالي يخربون متاهات هذا النمط المتماسك، متجنبين علامات الاستدلال الغامقة. لقد كنت على دراية بكل حجر في المكان. أما وقد حلَّ الوهن، فإنكما لمدركان كيف تعذراني».

قلت: «لقد شرعنا جميعًا في مسايرة الحياة منذ ذلك الحين يا سيد ميكوبر».

عاود السيد ميكوبر حديثه قائلًا في مرارة: «يا سيد كوبرفيلد، كنت نزيلًا في ذلك المعزل، وكان بإمكاني ساعتها أن أنظر إلى وجه زميلي وألكم رأسه إذا أساء إليَّ. إلا أنني أنا وزملائي فلم نعد على أخلاقنا المجيدة الآن».

ابتعد السيد ميكوبر عن حائط المبنى في هيئة يائسة، وقد تناول ذراعي الممتدة من جهة، وكذلك أخذ بيد ترادلز من الجهة الأخرى، ثم سار بيننا.

استطرد السيد ميكوبر حديثه بينما يلتفت نحو الخلف بنظراته الحانية من فوق كتفه، قائلًا: «إن بعض معالم الطريق تؤول إلى القبر، ولولا معصية الطموح، ما رغب إنسان في تجاوزها أبدًا. وهكذا كان مسار حياتي المتقلبة».

قال ترادلز: «آه، إنك ليائس يا سيد ميكوبر».

قاطعه السيد ميكوبر قائلًا: «إنني كذلك يا سيدي».

قال ترادلز: «أرجو ألا يكون السبب هو ما صورته من كراهية للقانون، لأنني محامٍ كما تعلم».

لم يُجب السيد ميكوبر بكلمة واحدة.

تكلمت بعد فترة صمت سائلًا: «كيف حال صديقنا هيب يا سيد ميكوبر؟».

أجاب السيد ميكوبر، بعد أن انفجر في حالة انفعال بالغ، وقد تحول شاحبًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، إذا كنت تسأل عن صاحب العمل بوصفه صديقًا لك، فإنني آسف على هذه الصداقة، وإذا سألت عنه بصفته صديقي، فها أنا أبتسم ساخرًا. وبغض النظر عن الصفة التي تسأل بها عن صاحب العمل، فإنني أتوسل إليك من دون إساءة، أن أقصر إجابتي على هذا القول: فمهما كانت هيئته صالحة، فإن جوهره ماكر، لا أصوره إلا بشيطان. سوف تسمح لي على اعتبار مكانتي لديك، أن أرفض متابعة التحدث في موضوع جعلني أشعر باليأس إلى أقصى درجاته في مسيرتي المهنية».

أعربت عن أسفي لتطرقي ببراءة لموضوع قد أثاره للغاية. قلت: «هل لي أن أسأل، من دون مغبة تكرار الخطأ؛ كيف حال أصدقائي القدامى السيد ويكفيلد والآنسة ابنته؟».

أجاب السيد ميكوبر، بعد أن اعتلت وجهه حمرة الحياة: «إن الآنسة ويكفيلد كانت وستظل كما هي دائمًا؛ قدوة ومثالًا مشرقًا. إنها يا عزيزي كوبرفيلد النقطة الوحيدة المرصعة بالنجوم في هذا الوجود البائس. إنني أكن احترامًا لهذه السيدة الشابة، وإعجابًا بشخصيتها، وتفانيًا لها من أجل حبها وحقيقتها، وصلاحها. هلا تأخذاني، خذاني إلى مكان هادئ لأتمالك روحي، فإني لست في حالة متماسكة».

سقناه إلى شارع ضيق، حيث أخرج منديلًا من جيبه ووقف مسندًا ظهره إلى الحائط. ولو أنني نظرتُ إليه متحفزًا كما يفعل ترادلز، لوجد مرافقتنا له غير ملهمة بأي حال من الأحوال.

راح السيد ميكوبر يبكي بغير تصنع، لكنه لاح في ظل نحيبه لطيفًا راقيًا كعادته، وقال: «إنه قدري... قدري أيها السيدان. لقد صارت مشاعرنا الطبيعية الخالصة مثارًا لتوبيخي. إن تبجيلي للآنسة ويكفيلد يرفرف بين جوانحي. ألم يكن من الأفضل لو تركتني هائمًا شريدًا في الأراضي، فينهال عليَّ الدود وأفنى في وقت وجيز؟».

لم نشاركه هذا الدعاء، بل وقفنا متفرجين، حتى أعاد منديله إلى جيبه، ورفع ياقة قميصه، ربما ليخدع أي شخص يحاول مراقبة بكائه في الحي، غمغم بكلمات ثم أمال قبعته كذلك جانبًا في صورة مبالغة. لم أدرك ماذا كان ليفوتنا منه لو لم نحرص على رؤيته. دعوته لزيارة عمتي لأقدمه إليها وقلت إن موافقته ستسرني ما دام سيأتي إلى هايجيت، حيث ثمة سرير في انتظاره.

قلت له: «ستعد لنا كأسًا من البانش يا سيد ميكوبر على طريقتك،

ومن ثَم ستبعد عن ذهنك كل ما يشغله، وستُبقي على ذكرياتك الممتعة».

قال ترادلز في تروٍّ: «لعله من الأفضل لو كشفت مكنون صدرك إلى صديقين فترتاح، وتسكن لوعتك، هيا فلتبح لنا يا سيد ميكوبر».

قال السيد ميكوبر: «أيها السيدان، فلتفعلا بي ما تشاءان، لست سوى قشة تطفو على سطح الهاوية، وقد ألقت بي الأفيال وبعثرتني في مختلف الدروب. أستميحكم عذرًا، كان عليَّ أن أبوح بتعبير يلائم حالي».

مشينا وقد تأبط كل منا الآخر مرة أخرى، ووجدنا عربة على وشك التحرك، وبالمناسبة لقد وصلنا إلى هايجيت من دون مواجهة أي صعوبات. انتابني شعور بالغ بالاضطراب وقد صار ذهني مشوشًا، فلم أوقن بما يحسن عليَّ قوله أو فعله بالضبط، وكذلك شعر ترادلز بالشيء نفسه، بل تجلى اضطرابه عليه. كان السيد ميكوبر غارقًا في كآبة عميقة أغلب الوقت، لكنه حاول من حين لآخر أن يذكي نفسه، ويرنم ببعض الألحان الشاذة، لكن منظر قبعته المائلة، وياقة قميصه المرفوعة حتى عينيه، لم تزيداه إلا إيغالًا في أعماق البؤس.

لم تكن دورا في حالة صحية جيدة، ومن ثَم ذهبنا إلى منزل عمتي بدلًا من منزلي. قدمت عمتي نفسها حال وصولها، ورحبت في ود بالسيد ميكوبر. قبَّل السيد ميكوبر يدها، وجلس بجوار النافذة، وقد أزاح منديله، وبدا كما لو أنه رجل يصارع انفعالات مشاعره.

كان السيد دك في المنزل، وكان بطبيعته شديد التعاطف مع أي إنسان تبدو عليه الكآبة والهدوء، وقد كان سريعًا جدًّا في العثور على أي إنسان

على هذه الشاكلة، لدرجة أنه صافح السيد ميكوبر ست مرات على الأقل في خمس دقائق. وجد السيد ميكوبر نفسه مندمجًا وقد تورط في كل هذا الاحتواء الذي أبداه رجل غريب، وقد كان مؤثرًا للغاية، إلى الحد الذي منعه من الحديث إلا أن يومئ برأسه كلما أتيحت له الفرصة قائلًا: «يا سيدي العزيز، لقد غلبني قولك»، أرضى هذا الموقف السيد دك للغاية، حتى إنه راح يكرر مصافحته في قوة تفوق ما قبلها مرات عدة.

قال السيد ميكوبر لعمتي: «يا سيدتي الفاضلة، إذا سمحتِ لي باستعارة عبارة من بين كلمات ومفردات تعبيراتنا الوطنية الجزلة، فإن هذا الرجل قد «غمرني عزًّا». إن حفاوة هذا الاستقبال قد أنقذت رجلًا مهدر الشعور يعاني عبئًا عضالًا من الحيرة والقلق».

أجابت عمتي في فخر: «إن صديقي السيد دك ليس رجلًا عاديًّا».

قال السيد ميكوبر: «إنني على يقين من ذلك يا سيدتي العزيزة، إنني ممتن لشدة لطفك»، ومن ثَم راح السيد دك يصافحه مرة أخرى.

قال السيد دك بنظرة قلقة: «كيف حالك؟».

أجاب السيد ميكوبر متنهدًا: «إنني غير مبالٍ، يائس يا سيدي العزيز».

قال السيد دك: «يجب أن تحافظ على معنوياتك مرتفعة، وتريح نفسك قدر الإمكان».

أثَّرت هذه الكلمات الودودة على السيد ميكوبر، وكذلك فعلت يد السيد دك التي أحاطت مرة أخرى بيده، فأردف قائلًا: «كان قدري أن

ألتقي في واحة الحياة العريضة هذه بكوكبة زاخرة ومتنوعة من البشر، لكني لم أكن لأجتمع قَطُّ بواحة زاهية خضراء، مثل التي تحضرني هنا».

كنت لأسعد في وقت آخر بهذه الكلمات، لكنني شعرت أننا جميعًا مقيدون وغير مرتاحين، ورحت أرقب السيد ميكوبر بتحفز بالغ. ظل متذبذبًا بين نزعة واضحة للإفصاح عن مكنون ما، والتصرف النقيض بعدم الإفصاح عن أي شيء. صرت لذلك كما لو أنني أنازع الحُمى. جلس ترادلز على حافة كرسيه وقد اتسعت عيناه على مصراعيهما وانتصب شعره أكثر من أي وقت مضى. أخذ يحدق في منعطفات الأرض وفي السيد ميكوبر من دون أن يحاول أن ينبس ببنت شفة. أما عمتي فقد كانت الأكثر انتباهًا لضيفنا الجديد. إنها لم تزل تمتلك ذكاء يفوق أيًا منا. لاحظت أنها قد حملته على الحديث، وجعلته يتكلم سواء أحب ذلك أم كره.

قالت عمتي: «إنك صديق قديم جدًا لابن أخي يا سيد ميكوبر. كنت أرجو لو سررت برؤيتك والتعرف عليك من قبل».

رد السيد ميكوبر قائلًا: «يا سيدتي، إنني أرجو لو تشرفت بمعرفتكِ من قبل، ربما تبدل انكساري فرحًا».

قالت عمتي: «أرجو أن تكون السيدة ميكوبر وعائلتك بخير يا سيدي».

أمال السيد ميكوبر رأسه، وتوقف عن الحديث لبرهة ثم عقب قائلًا: «إنهم بخير يا سيدتي، كما يلوذ الغريب بأفضل مأمن».

صاحت عمتي في هيئة مباغتة وقالت: «حفظك الله يا سيدي، ما الذي تتحدث عنه؟».

أردف السيد ميكوبر يقول: «إن رزق عائلتي يا سيدتي يرتجف بين كفي ميزان. إن صاحب العمل...».

توقف السيد ميكوبر هنا باضطراب جلي، ثم بدأ في تقشير البرتقال الذي وضع أمامه تلبية لطلبي، بالإضافة إلى جميع الأدوات الأخرى التي ربما يستخدمها في صنع شرابه المفضل.

أمد السيد دك فقد نكز السيد ميكوبر في ذراعه كنوع من التذكير اللطيف، قائلًا: «كما تعلم إن صاحب عملك...».

تصافحا مرة أخرى ثم عاود السيد ميكوبر حديثه قائلًا: «يا سيدي العزيز، إنك تذكرني بحديثي وإنني لمدين لك بالشكر. لقد تفضل عليَّ صاحب العمل ذات مرة يا سيدتي، وهو السيد هيب، بأن قال لولا أنني أحصل على راتب من جراء عملي معه، فإنني على الأرجح سأغدو متسكعًا أجول البلدة مبتلعًا للسيوف، أو ملتهمًا للزجاج، حتى أكسب قوتي. ولا يسعني إلا أن أتصور المشهد ذاته إذ قد يغدو أطفالي بلا عمل، فلا يشغلهم سوى البحث عن مصدر رزق في نوع من الاستجداء والشحاذة، بينما تعلن السيدة ميكوبر عن تشجيعهم نظرًا لحاجتهم المضنية، فتعزف هي الأخرى على أرغن بدائي».

راح السيد ميكوبر يلوح بسكينه في شكل عشوائي ولكن معبر، ليشير إلى أنه من المتوقع أن تتحقق هذه المشاهد بعد توقفه عن العمل، ثم ما لبث أن استأنف تقشيره للبرتقال في يأس.

أسندت عمتي مرفقها إلى المائدة المستديرة الصغيرة التي ظلت بجانبها كعادتها، بينما تنظر إليه في اهتمام. استبعدت عن ذهني فكرة إغرائه بإفشاء سره، طالما لم يكن مستعدًّا للبوح به طواعية، وكان من الممكن أن أطلب منه استكمال الحديث في هذه المرحلة، ولكن حالت دون طلبي هذه الإجراءات الغريبة التي رأيته منهمكًا فيها. لقد وضع قشر البرتقال في الغلاية، وسكب السكر فوق صينية التقديم، والكحول في الإبريق الفارغ، ثم رأيت - من بين هذه الأشياء الرائعة - محاولته لصب الماء المغلي بكل عناية. رأيت أن كارثة على وشك الوقوع، وقد حدثت بالفعل، حين أوقع كل أدواته ومحتوياتها معًا، ثم قام من كرسيه، وأخرج منديل جيبه، وانفجر في البكاء.

تكلم السيد ميكوبر من وراء منديله قائلًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، إن هذه المهنة من بين جميع المهن الأخرى، تتطلب عقلًا منظمًا، وسيطرة على النفس، فلا أستطيع القيام بهذه المهمة الآن، وهذا أمر لا جدال فيه».

قلت: «يا سيد ميكوبر، ما الأمر؟ أستميحك أن تتكلم، إنك بين أصدقاء».

كرر السيد ميكوبر جملتي قائلًا: «بين أصدقاء يا سيدي»، ثم ما لبث أن باح بكل ما كتمه قائلًا: «يا إلهي، إنني بهذه الحالة وعلى سجيتي لأنني بين الأصدقاء. هل تسألوني ما القضية أيها السادة؟ أليس حريًّا أن تسألوا ما الذي ليس بقضية؟ إن الحقارة هي القضية. إن الدناءة هي القضية. إن الخداع، والاحتيال، والتآمر، هي القضية؛ واسم هذه الكتلة الفظة بأكملها هو... هيب».

صفقت عمتي بيديها، وأسبلنا جميعًا كما لو كنا ممسوسين.

استطرد السيد ميكوبر بينما يحرك منديله في عنف، ويضربه بذراعيه من وقت لآخر، كما لو أنه يكابد غارقًا في مصاعب خارقة: «لقد انتهى الصراع، لن أكابد هذه الحياة بعد الآن. إنني كائن بائس في معزل عن مختلف سبل الحياة المقبولة. لقد اقترفت آثامًا في خدمة هذا الوغد الجهنمي. فلتعيدوا إليَّ زوجتي، وأعيدوا إليَّ أسرتي، فلتستبدلوا ميكوبر بالبؤس الهين الذي يجول في حذاء على قدميه في الوقت الحاضر، فلتدعوني غدًا لابتلاع سيف، وسأبتلعه بشهية».

لم أرَ رجلًا أشد انفعالًا في حياتي منه. لقد حاولت تهدئته، حتى نصل إلى حل عقلاني، لكنه صار أكثر ثورية وسخونة، ولم يستمع لكلمة واحدة.

قال السيد ميكوبر، بينما يلهث، وينفث الهواء، وينتحب كما لو أنه رجل يصارع الأهوال: «سأضع يدي في يد أي إنسان، حتى أبدده إلى شظايا... أبغض - هذا الثعبان - هيب! لن أحيا في كنف الإنسانية، حتى أقوم - أنقل جبل فيزوف[1] - فيثور - على - هذا - الوغد المخادع - هيب! الانتعاش - تحت هذا السقف - لا سيما لكمة - من شأنها - أ - أن تخنقني - إلا إذا كنت سألكمه قبلًا فأقلع العينين - من الرأس - من - هذا المخادع والكذاب فلا نهاية له - هيب! إنني - أنا - لن أعرف أحدًا - و - أنا - لن أقول شيئًا - و - لن - لن أعيش في أي مكان

(١) جبل بركاني يقع شرق مدينة نابولي ويعد الجبل البركاني الوحيد الثائر في أوروبا.

- حتى أسحق - إلى - ذرات غير قابلة للاكتشاف - هذا - المنافق والحاذق المتعالي والوغد - هيب».

انتابني خوف من أن يموت السيد ميكوبر على الفور. لقد كابد الحديث بهذه الطريقة من خلال هذه الجمل غير المفصلة. كان كلما وجد نفسه يقترب من اسم هيب شق طريقه إليه، وقد لاح نطقه أقرب ما يكون من حالة إغماء، لقد انتزع نفسه بقوة فاقت الحد، وكانت طريقته مخيفة إلى أبعد مدى. أما الآن فقد انكفأ على المقعد، بينما ينفث ناظرًا إلينا، وقد اعتلى وجهه مختلف الألوان المحتملة من دون أدنى توقف. تتابعت سلسلة لا نهاية لها من الاختناقات تلاحق بعضها بعضًا في عجلة من أمرها، وقد بدا أثرها على جبهته، فلاح كما لو أنه يحيا على رمق. كنت سأذهب لمساعدته، لكنه لوح لي، ولم يبدِ اهتمامًا بسماع كلمة واحدة مني.

«لا يا كوبرفيلد - لا داعي للحديث - حتى - نستطيع - إنصاف - الآنسة ويكفيلد - من المظالم التي ارتكبها الوغد البارع - هيب».

إنني على قناعة تامة من أنه لم يكن ليقوى على النطق بهذه الكلمات لولا الدافع الذي استلهمه من ذاك الاسم، فقال: «إنه سر خفي - أ - عن العالم بأسره - أ - لا استثناءات - في يوم ما من الأسبوع - أ - في وقت الإفطار - أ - سيكون الجميع حاضرًا - بما في ذلك العمة - أ - وهذا الرجل الودود للغاية - سنجتمع في فندق كانتربري - حيث - أنا والسيدة ميكوبر - سنغني نشيد الوداع في جوقة - و - أ - سوف نفضح فائق الشر الذي لا يطاق - هيب! لا أكترث لقول - أ - أو أود الاستماع

إلى أي إقناع - سأنصرف فورًا - إنني غير قادر - أ - على تحمل الجلوس - سأراقب مسار الخائن المحكوم عليه بالفشل - هيب».

ظل يكرر هذه الكلمة الساحرة الأخيرة التي أبقى عليها لوقت لا بأس به، والتي تجاوز فيها كل جهده أكثر من ذي قبل، ثم ما لبث أن هرع السيد ميكوبر خارج المنزل، وتركنا في حالة من الإثارة والأمل والدهشة، مما جعلنا في حالة تضاهي على الأقل حالته. وقع ما وقع في ذلك الحين، وعلى الرغم من ذلك فإن شغفه بكتابة الرسائل كان أقوى من أن يقاوم. كنا لم نزل في ذروة الإثارة والأمل والعجب، وإذا برسالة نتسلمها من نادل من حانة مجاورة، حيث مر به لكتابتها.



«سري للغاية».

«سيدي العزيز،

أتوسل إليك أن تسمح لي بأن أنقل من خلالك خالص اعتذاري إلى عمتك القديرة على اهتياجي الأخير. لقد انفجر البركان المحترق داخلي، والذي حاولت أن أخمده لفترة طويلة؛ نتيجة لصراع داخلي من السهل للمرء أن يتصوره لا أن يصفه.

إنني أؤكد لكم موعدي الذي حددته ووضحته أجلّ وضوح في صباح هذا اليوم من الأسبوع، في قاعة الاحتفال العامة في كانتربري، حيث سأتشرف أنا والسيدة ميكوبر بانضمام أصواتنا إلى أصواتكم، لننضم في حزب واحد ليقضي على هذا الخشن المعمر.

إنه الواجب الذي عليَّ أن أؤديه، والفرض الذي لا مفر منه، والذي يمكنني عبر تحقيقه إنقاذ غيري من بني البشر، حتى وإن تلاشى ذكري بعد الآن. سأطلب بكل بساطة أن أودع في هذا المكان من مأواي الأخير، حيث:

«حيث مرقد المرء في ضيق إلى الأبد،

نوم الراحلين تحت الرمال والكثب»[1].

فلْتعلُ قبري هذه الكتابة البسيطة؛

ويلكنز ميكوبر».



(١) من قصيدة رثاء في ساحة كنيسة، للشاعر الإنجليزي توماس جراي (١٧١٦ - ١٧٧١)م.

الفصل الخمسون

حلم السيد بيجوتي يتحقق

مرت الآن بضعة أشهر منذ مقابلتنا مع مارثا على ضفة النهر. لم أرَها قَطُّ منذ ذلك الحين، لكنها تواصلت مع السيد بيجوتي في عدة مناسبات. لم يثمر تدخلها في الأمر عن شيء. ولا يمكنني الاستدلال، مما نقله لي السيد بيجوتي، على أي دليل أو ملاحظة فارقة عن مصير إيميلي. أعترف أنني بدأت استشعار اليأس من نجاتها، وغرقت تدريجيًّا في مغبة اعتقاد موتها.

ظلت قناعة السيد بيجوتي ثابتة لا تتزحزح. أظن -على قدر علمي- وأحسب أن قلبه الصادق لاح جليًّا أمامي -فلم يتزحزح يقينه الراسخ قَطُّ، ولو لمرة واحدة، ولم ينأ عن إيمانه بالعثور عليها، ولم ينفد صبره. كنت أرتجف من هول الألم الذي قد يكون عليه يومًا ما، إلا أن يقينه الذي لا يتزحزح ظل كأنفاسه، يشي بأن ثمة روحانية خالصة تكمن داخله، مما يعبر في صورة مؤثرة عن أن ملاذًا نقيًّا يكمن في أعماق فطرته الجميلة. صار احترامي وتبجيلي اللذان أحملهما له يتعاظمان كل يوم.

لم يكن خائر العزم ليفقد يقينه، وقد كان رجلًا يتمتع بعمل شاق طوال حياته، مما أكسبه الجلد، كما كان يعلم أنه في كل الأشياء التي يرغب فيها المساعدة، ما عليه سوى القيام بدوره بأمانة وإخلاص، ومن ثَم يسعى إليه العون نفسه. لقد عرفت أنه انطلق في الليل، مستسلمًا لهاتف تجلى له عن طريق الصدفة من نافذة قارب قديم، حتى سار إلى يارموث. لقد عرفت ما جرى له، حين قرأ شيئًا في الجريدة قد ينطبق عليها. لقد حمل عصاه، وانطلق في رحلة من ثلاثة أو أربعة أميال، فشق طريقه في البحر إلى نابولي، ثم ما لبث أن عاد بعد أن سمع السرد الذي أرشدتني آنسة دارتل به. كانت جميع رحلاته صعبة، لأنه طالما أصر دومًا على توفير المال من أجل إيميلي، حيث يجب العثور عليها بما معه من مال. لم أسمعه يتراجع قَطُّ طوال هذه المطاردة الطويلة، لم أسمعه قَطُّ يقول إنه صار مرهقًا أو أوشك على الانفجار.

رأته دورا كثيرًا منذ زواجنا، وكانت مولعة به جدًّا. أتخيل شخصيته التي أمامي الآن، واقفة بالقرب من أريكتها، مع قبعته الخشنة في يده، وقد ارتقت عينا زوجتي الطفلة الزرقاوان نحو وجهه في دهشة وخجل. يأتي لتبادل الحديث معي في بعض الأحيان في مساء إحدى ليالي الشفق، فأشجعه على تدخين قصبته في الحديقة، بينما نسير ببطء معًا، ومن ثَم تلوح لخاطري صورة منزله المهجور، ويسري هذا الهواء المريح الذي اعتدت أن أستشعره بعين الطفولة ذات أمسية حيث كانت النار مشتعلة، والرياح تئن من حولها.

أخبرني في إحدى الأمسيات، في مثل هذه الساعة المعتادة، أنه وجد مارثا تنتظر بالقرب من مسكنه عندما خرج في الليلة السابقة. وأنها طلبت منه ألا يغادر لندن لأي سبب، حتى يراها مرة أخرى.

سألته: «هل أخبرتك بالسبب؟».

فأجاب: «لقد سألتها يا سيد ديفي، لكنها لم تتحدث إلا ببضع كلمات قليلة، وما لبثت أن سمعت وعدي لها ثم انطلقت بعيدًا».

سألته: «هل قالت متى تتوقع رؤيتها مرة أخرى؟».

عاود حديثه مسندًا يده نحو وجهه في رفق قائلًا: «لا يا سيد ديفي، سألتها عن هذا أيضًا، لكنها قالت إنها لا تستطيع قول أي شيء أكثر مما قالته».

كنت قد عاهدت نفسي منذ فترة طويلة ألا أشجعه بآمال معلقة على خيوط واهية، لذلك لم أُبدِ أي تعليق آخر على هذه المعلومات، غير أنني توقعت أنه سيراها قريبًا. كانت مثل هذه التخمينات تراود نفسي باهتة بما فيه الكفاية، فأحتفظ بها في قرارة نفسي.

سرت ذات مساء، بعد خمسة عشر يومًا تقريبًا، في الحديقة وحدي. أذكر ذاك الأصيل جيدًا، حيث كان في الأسبوع الثاني من أحاديث السيد ميكوبر المثيرة. هطلت الأمطار طوال اليوم، مما أضفى نوع من الرطوبة في الهواء. صارت أوراق الأشجار الكثيفة مثقلة برطوبة الهواء بعد أن توقف المطر، على الرغم من أن السماء ظلت مظلمة بالسحاب. راحت الطيور الغنَّاء تشدو في مرح. بدأ الشفق ينغلق من حولي بينما أسير

ذهابًا وجيئة في الحديقة، فصمتت أغاريد الطيور الصغيرة، وقد ساد ذاك السكون الغريب الذي يلازم مثل هذه الأمسية في البلاد. صارت أفرع الأشجار الأخف وزنًا ساكنة بعد جفافها، من دون أفرع الأغصان العرضية.

انبسطت رقعة بسيطة من الأفرع الخضراء، كانت كافية لعمل ما يشبه التعريشة، كما نما اللبلاب على جانب منزلنا، حيث أستطيع النظر من خلال فجواته بينما أخطو خطواتي في الحديقة نحو الطريق إلى المنزل. تصادف أن أدرت عيني نحو هذا المكان، حيث كنت أفكر في أشياء كثيرة. أبصرت امرأة وراءها، مرتدية عباءة بسيطة. كانت تنحني نحوي بشغف، وتومئ لي بالاقتراب.

قلت: «مارثا».

طلبت مني في تهامس مضطرب: «هل يمكنك أن تأتي معي؟ لقد ذهبت إليه، وهو ليس في المنزل. كتبت رسالة إلى المكان الذي سيأتي إليه، وتركتها على طاولته. قالوا إنه لن يغيب طويلًا. عندي أخبار له. هل يمكنك المجيء في الحال؟».

كان جوابي أن تجاوزت البوابة على الفور. قامت على الفور بإيماءة بيدها، كما لو أنها تقطع صبري وصمتي، فأشارت بيدها نحو لندن، ثم ما لبثت أن سارت بسرعةٍ كشفت عن ردائها.

أشرت إليها نحو وجهتنا وسألتها إن كانت هي أم لا؟ أشارت إليَّ موافقة، بنفس الإيماءة المتسرعة كما في السابق. ما لبثت أن

أوقفت عربة فارغة قادمة نحونا، وجلسنا داخلها. سألتها عن وجهة السائق، فأجابت: «إلى أي مكان بالقرب من جولدن سكوير، سريعًا» - ثم انكمشت في زاوية العربة، وقد لاحت إحدى يديها مرتجفة أمام وجهها، أما الأخرى فتدلي بالإشارة الأولى، وكما لو أنها لا تستطيع تحمل إصدار أي صوت.

صرت في هذه اللحظة منزعجًا للغاية، ومنبهرًا مع بريق متضارب من الأمل والخوف. نظرت إليها للحصول على بعض الشرح، إلا أنني أدركت رغبتها في التزام الصمت، وقد كان هذا الشعور ميلًا طبيعيًا عندي أيضًا. لم أحاول كسر الصمت في هذا الوقت. انطلقنا من دون أن ننبس ببنت شفة. كانت تنظر من النافذة أحيانًا، معتقدة أننا نسير ببطء، على الرغم من سرعتنا التي كنا نسير بها، لكنها ظنت خلاف ذلك تمامًا في البداية.

نزلنا عند أحد مداخل ساحة جولدن سكوير، وما لبثت أن طلبت من الحوذي الانتظار، من دون أن أعلم شيئًا عن طول مدة انتظاره لنا. مدت يدها لتمسك بذراعي، وقد وجهت خطواتي سريعًا نحو أحد الشوارع الكئيبة، الشائعة في هذا المكان. لاحت المنازل متفرقة حيث استقلت كل عائلة فيما مضى منزلا، لكنها تدهورت منذ فترة طويلة، وتحولت إلى مساكن فقيرة تقطن في غرفها العائلات. أدخلتني إلى أحد الأبواب المفتوحة لهذه البنايات، ثم أطلقت ذراعي. طلبت مني أن أتبعها لصعود الدرج المشترك الذي كان بمثابة قناة رافدة نحو الشارع.

كان المنزل مكتظًّا بالنزلاء. كنا نصعد، فتفتح أبواب الغرف وتطل منها رؤوس الناس، وكنا قد تجاوزنا كذلك أشخاصًا آخرين نازلين على الدرج. ألقيت نظرة خاطفة إلى الخارج قبل دخولنا، فرأيت نساء وأطفالًا يتسكعون عند النوافذ فوق أواني الزهور، فقد بدا أننا استدعينا فضولهم، لأنهم كانوا يمثلون أغلب المراقبين الذين نظروا من أبوابهم فيما بعد. كان السلم عريضًا مكسوًّا بالألواح، به درابزينات ضخمة من بعض الخشب الداكن، وكذلك تعلو الأبواب أفاريز مزينة بالفاكهة والزهور المنحوتة، وثمة مقاعد واسعة تلوح من النوافذ. لكن كل هذه الرموز المميزة لعظمة الماضي كانت فاسدة وقذرة؛ أدى التعفن والرطوبة ومرور الزمن إلى إضعاف الأرضيات، والتي كانت واهية في عدة أماكن إلى درجة غير آمنة. لاحظت أن بعض المحاولات قد بذلت لبث دماء جديدة في هذا الإطار المتضائل، من خلال إصلاح بعض الأعمال الخشبية القديمة باهظة الثمن في عدة أماكن. كانت مثل هذه الإصلاحات أشبه بزواج نبيل عجوز مترف بفقير سوقي، وقد انكمش كل طرف في اتحاد غير ممتزج بالطرف الآخر. كانت العديد من النوافذ الخلفية التي تطل على الدرج مظلمة أو مسدودة بالكامل. أما تلك التي بقيت، فبالكاد يلوح بها أي زجاج. انبعث هواء عفن يبدو أنه معتاد عبر الإطارات المتهالكة، من دون أن يخرج منها قَطُّ. رأيت من خلال نوافذ أخرى، لا تحتوي بدورها على زجاج، منازل أخرى في حالة مماثلة. نظرت بعدها إلى أسفل حيث فناء قذر، وكومة من غبار مشترك بين النزل.

انتقلنا إلى الطابق العلوي من المنزل. بالمناسبة، ظننت لمرتين أو ثلاث أنني أبصرت في ضوء غير واضح تنورة لامرأة ترتفع أمامنا. استدرنا لصعود آخر درجات السلم التي تفصلنا عن السطح، فإذا بالهيئة التي أبصرتها تتجلي كاملة أمامي، لأبصر سيدة تتوقف للحظة أمامي عند الباب. ما لبثت أن أدارت المقبض ثم دخلت.

قالت مارثا في صوت خافت: «من هذه؟! لقد دخلت غرفتي. إنني لا أعرفها».

أما أنا فعرفتها. لقد تعرفت إليها في ذهول، وقلت إنها آنسة دارتل.

قلت لمارثا في كلمات مقتضبة شيئًا مفاده أنها سيدة كنت قد رأيتها من قبل. لقد تعرفت عليها عندما سمعنا صوتها في الغرفة، لكني لم أكن لأتعرف عليها من وقفتها. كررت مارثا في نظرة مندهشة عملها السابق، حيث قادتني في هدوء لصعود الدرج، لنصل بعد ذلك إلى باب خلفي صغير. يبدو أنه لا يحتوي على قفل، فقد فتحته بلمسة واحدة، ثم وصلنا إلى غرفة صغيرة فارغة ذات سقف مائل ومنخفض، أفضل قليلًا من أن يكون خزانة. كان ثمة باب صغير للتوصيل بين هذه الغرفة وأخرى مفتوحًا جزئيًّا. توقفنا هنا، لاهثًا بعد صعودنا، فما لبثت أن وضعت مارثا يدها برفق على شفتي. صار بإمكاني فقط رؤية الغرفة التي خلفها. كانت كبيرة جدًّا وتحوي سريرًا. لاح لي بعض الصور المألوفة للسفن معلقة على الجدران. لم أتمكن من رؤية آنسة دارتل أو الشخص الذي سمعنا حديثه. بالتأكيد لم تستطع مارثا رؤية أي شيء، فقد كان موقعي

أفضل منها. ساد صمت دام للحظات. أبقت مارثا إحدى يديها نحو شفتي ورفعت الأخرى نحو أذنها في هيئة استماع.

قالت روزا دارتل في غطرسة: «لا يهمني ألا تكون في المنزل، لا أعرف شيئًا عنها. لقد جئت لرؤيتكِ أنتِ».

رد صوت ناعم قائلًا: «رؤيتي أنا؟».

تناهى إلى أذني هذا الصوت فانتابتني قشعريرة وسرت في جسدي. لقد كان الصوت لإيميلي.

عادت آنسة دارتل تقول: «نعم، جئت لأراكِ. ماذا؟ ألا تخجلين من هذا الوجه الذي فعل الكثير لكِ؟».

كانت الكراهية الحازمة التي لا تلين في لهجتها، وحدتها الشديدة الباردة، وغضبها المتقن، قد جعلتها تتمثل أمامي، كما لو أنني أراها واقفة قبالتي في النور. استدعيت أمام ناظري تلكما العينين السوداوين الوامضتين، وهذه الهيئة التي تخلو من العاطفة، بل رأيت الندبة، ومسارها الأبيض الذي يقطع شفتيها، ترتجف وتنبض بينما تتكلم.

قالت: «لقد جئت لأرى نزوة جيمس ستيرفورث؛ تلك الفتاة التي هربت معه، فصارت حديث المدينة، يلوكها أحط الناس في موطنها بعد أن صارت ملهاة للمتبجح الفاسق أمثال هذا المدعو جيمس ستيرفورث. أريد أن أعرف كيف لمثل هذه الوقيعة أن تحدث».

كان ثمة حفيف، كما لو أن الفتاة التعسة التي كانت تنهال عليها هذه

الاستهزاءات، قد ركضت نحو الباب، ثم سرعان ما أقحمت آنسة دارتل نفسها أمامها. تلت ذلك لحظة سكون أخرى.

عاودت الآنسة دارتل التحدث مرة أخرى، وقد انهالت عليها بوابل من توبيخ.

قالت: «ابقي هنا، أو سأفضح أمرك في المنزل، بل الشارع كله، إذا حاولتِ التهرب مني، فسأوقفكِ حتى إن تطلب الأمر الأخذ بشعركِ، ورفع أقرب الأحجار لردعكِ».

كان الرد الوحيد الذي تناهى إلى أذني، مجرد نفثة من أنفاس مرعوبة. توالى الصمت. لم أكن أعرف ما دوري نحو ما حدث، وبقدر ما كنت أرغب في إنهاء المقابلة، إلا أنني شعرت أنه لا يحق لي أن أقحم نفسي. لقد كان للسيد بيجوتي وحده الحق في رؤيتها واستعادتها. ألن يأتي أبدًا؟ فكرت في الأمر بفارغ الصبر.

قالت روزا دارتل في ضحكة ساخرة: «إذن! ها قد رأيت هذه الفتاة أخيرًا! أي سبب هذا الذي يجعل مخلوقًا صغيرا يتصف بهذا التواضع الرقيق!».

صاحت إيميلي قائلة: «آه، أستحلفكِ بالله، لتبعدي هذا عني، مهما كان من أمري، فإنكِ تعرفين قصتي المحزنة، كرامة لله فلتعفيني من هذا القول، ما دمتِ قد نجوتِ بنفسكِ».

ردت الأخرى في ضراوة قائلة: «إذا كنت نجوت بنفسي! ما المشترك بيننا، في رأيكِ؟».

قالت إيميلي وهي تبكي: «لا شيء سوى جنسنا».

قالت روزا دارتل: «يا له من ادعاء غاية في القوة، يُصرح به شخص سيئ السمعة. إن أكننت أي ضيق في صدري أو شعورًا باحتقاركِ والاشمئزاز منكِ، فسيجمده هذا القول... جنسنا! يا لكِ من شرف لبنات جنسنا!».

قالت إيميلي: «لقد استحققت هذا العناء، لكنه أمر مروع. عزيزتي، سيدتي العزيزة، فكري فيما عانيت وكيف سرت إلى هاوية! آهٍ، يا مارثا، فلتعودي! آهٍ، يا موطني، يا موطني».

جلست آنسة دارتل على كرسي على مرأى من الباب، ثم نظرت إلى أسفل، كما لو كانت إيميلي تجلس على الأرض أمامها. صارت الآن قابعة أمامي وخلفها بقعة من نور، بحيث استطعت أن أرى شفتها الملتفة، وعينيها القاسيتين مثبتتين باهتمام في مكان واحد، في انتصار جشع.

قالت: «استمعي إلى قولي، واحتفظي بفنونكِ الزائفة المخادعة أمام السُّذج. هل تأملين أن تحركني دموعكِ؟ لا يمكنكِ أن تسحريني بابتساماتكِ التي لا تأسر سوى العبيد».

صرخت إيميلي: «آه، فلترحميني بعض الشيء، أظهري لي بعض التعاطف، وإلا سأموت جنونًا».

قالت روزا دارتل: «لن يصبح موتكِ كفارة عظيمة لجرائمكِ. هل تعلمين ماذا فعلتِ؟ هل فكرتِ يومًا في المنزل الذي دمرتِه؟».

صرخت إيميلي: «آهٍ، هل مضت ليلة أو نهار من دون أن أفكر في الأمر؟!».

أستطيع الآن رؤيتها جاثمة على ركبتيها، ورأسها مرفوع للخلف، بينما ينظر وجهها الشاحب إلى الأعلى. أما يداها فمتشابكتان وقد حبست أنفاسها، بينما يتدفق شعرها منبسطًا حولها.

عادت إيميلي تقول: «هل مرت دقيقة واحدة، مستيقظة كنت أو نائمة، من دون أن أتمثله أمامي، تمامًا كما كان في الأيام الخوالي، قبل أن أدير إليه ظهري دائمًا وإلى الأبد؟! آهٍ، يا لموطني، ومنزلي! يا عمي العزيز، إذا كنت لتعرف كم أشقى بمحبتك بعدما ابتعدت عن مصدر الخير، فلن تغمرني بها أبدًا كما عهدك. ستغضب لحالي ولو لمرة واحدة على الأقل في حياتي، لأنني ربما شعرت ببعض الراحة! كان الجميع مغرمًا بي دائمًا! لذلك لم أنعم بأي راحة على وجه الأرض بأسرها».

انكفأت إيميلي على وجهها، أمام تلك الشخصية المستبدة القابعة على الكرسي، في محاولة لمناشدتها بالتعلق في تنورة فستانها.

جلست روزا دارتل تنظر إليها، متصلبة كما لو أنها إنسان نحاسي. كانت قد ضغطت على شفتيها بشدة، كما لو أنها تعلم أنه يجب عليها أن تبقي قيدًا قويًا على نفسها -أكتب ما أؤمن به بصدق- أو أنها ستميل إلى ضرب هذه الهيئة الجميلة بقدمها. لقد رأيتها بوضوح، وبدا أن القوة الكاملة لوجهها وشخصيتها مضطرة إلى إظهار هذا التعبير..... «ألن يأتي أبدًا؟».

صارت تسيطر بعد هذه اللحظة على ثقل صدرها الغاضب، بحيث يمكنها الآن أن تثق بنفسها للتحدث، فقالت: «يا لهذا الزهو البائس لديدان الأرض! منزلكِ! هل تتخيلين أنني أفكر في ذلك الأمر، أو أفترض أنكِ يمكن أن تُلحقي أي ضرر بهذا المكان المنحط الذي لا يساوي -في كل جلاء- فتات المال؟ منزلكِ! لقد كنتِ جزءًا من تجارة منزلكِ، وقد شروكِ وباعوكِ مثل أي شيء آخر يمكن بيعه حين يتعامل معه موظف».

صرخت إيميلي: «آهٍ، لم يكن الأمر على هذا النحو. فلتقولي أي شيء عني، لكن لا تفتري عليَّ بأقوال فاحشة ومخزية، فتتكدس فوق ما اقترفت، وتنكفئ على أناس شرفاء مثلكِ! فلتكني لهم بعض الاحترام، ليس رحمة بي، بل احترامًا لكونكِ امرأة».

لم تلقِ بالًا لهذا النداء، ولم تكن لتعير الأمر اهتمامًا. راحت تبعد فستانها مغبة أن تلوثه لمسات إيميلي، ثم قالت: «إنني أتحدث... أتحدث عن منزله - حيث أعيش». ظلت تتكلم بينما تمد يدها ملوحة أمام ضحكتها المحتقرة، ناظرة إلى الفتاة الساجدة أمامها. أكملت قائلة: «إنكِ سبب في التفرقة بين السيدة الأم وابنها المحترم، بعد أن جلبتِ من الحزن ما يفوق منزلًا لا يقبلكِ للعمل به ولو فتاة في المطبخ تكفيرًا بعدما جلبتِ له سخطًا. إنكِ قطعة من قذارة؛ انتشلت من صفحة الماء، لتَشقى وتُشقي لساعة، ثم ما تلبث أن تعود إلى مكانها الأصلي».

صرخت إيميلي وقد شبكت يديها معًا قائلة: «لا، لا، حمله الطريق إليَّ لأول مرة -ولم يخطر ببالي ذلك اليوم، إنه قابلني بينما أحمل

نفسي إلى قبري- لقد نشأتُ فاضلة مثلكِ أو مثل أي سيدة. توقعت أن أكون زوجة طيبة مثلكِ لرجل طيب، أو أتزوج مثل أي امرأة في العالم. إذا كنتِ تعيشين في منزله وتعرفينه، فربما تدركين مدى قوته مع فتاة ضعيفة بلا جدوى. إنني لا أدافع عن نفسي، لكني أعلم جيدًا، وهو يعلم جيدًا أيضًا، أو سيعرف حين يحين أجله بعد أن يضطرب عقله بالحقيقة، أنه استخدم كل قوته لخداعي، وأنني صدقته ووثقت به وأحببته».

هبت روزا دارتل من مقعدها مرتدة إلى الوراء ثم ما لبثت أن ركلت إيميلي. كان وجهها قد علاه خبث وظلام موحش ومشوه بسخط، إلى الحد الذي ألقيت فيه بنفسي حائلًا بينهما. انقشعت الضربة -التي لم يكن لها هدف- في الهواء. وقفت بعد لحظة لاهثة الأنفاس، تنظر إلى إيميلي في كراهية عمياء، وقد كانت ملامحها قادرة على التعبير عن هذا البغض. ترتجف من رأسها إلى أخمص قدمها في ثورة غضب واحتقار، ظننت أنني لم أرَ مثل هذا المشهد من قبل، ولن أتمكن من رؤية مثله طوال حياتي.

أحكمت آنسة دارتل قبضتها، مرتجفة كما لو أنها لا تريد سوى سلاح فتطعن سبب غضبها، ثم صرخت قائلة: «تحبينه؟».

تقلصت إيميلي أمام ناظري، من دون أن تنبس ببنت شفة.

تحدثت آنسة دارتل قائلة: «أتتحدثين بقولكِ هذا بشفتيكِ المخزيتين؟ لماذا لا يجلدون مثل هذه المخلوقات؟ لو أن الأمر بيدي، لأمرت بجلد هذه الفتاة حتى الموت».

لم يراودني شك في أنها قد تقدم على مثل هذا العمل. لم أكن لأثق بها لو أنها امتلكت سلاحًا، بينما استمرت بنظرتها الغاضبة تلك. بدأت تضحك في بطء، ببطء شديد، ثم أشاحت بيدها نحو إيميلي، كما لو كانت مشهدًا من محاكمة لعار نشب بين آلهة وبني البشر.

قالت: «إنها محبة، تلك الجيفة، وقالت لي إنه كان يهتم بها من قبل. ها ها، يا لهم من تجار كاذبين».

كان استهزاؤها أشنع من غضبها المعلن. كنت أفضل من بين الحالتين، أن يقتصر الأمر على الدافع الأخير. كانت قد أظهرت جل غضبها حين انهارت للحظة واحدة فقط. لكنها سرعان ما قيدته مرة أخرى، ومع ذلك ظل يمزقها من الداخل، على الرغم من أنها تمالكت فورتها.

قالت: «لقد جئت إلى هنا، يا نبع الحب النقي، لأرى -كما أخبرتكِ في البداية- الحال التي صرتِ إليها. كنت فضولية. إنني راضية. وأخبركِ أيضًا، أنه كان من الأفضل لكِ أن تبحثي عن موطنكِ سريعًا، وعليكِ إخفاء رأسكِ بين هؤلاء الأشخاص الممتازين الذين ينتظرونكِ، والذين سيتحكمون في حالكِ ومالكِ. بعد أن ينتهي كل شيء، تستطيعين أن تؤمني بشيء وتثقي وتحبي مرة أخرى، كما تعلمين! حسبت أنكِ لعبة مكسورة عاشت وقتها؛ شيء متلألئ لا قيمة له بعد أن تلطخ وقذف به بعيدًا. لا شيء سيدعو لمعاملتكِ مثل كنز حقيقي، وامرأة كاملة، وبريئة ساذجة، وقلب جديد مليء بالحب والثقة، وهو ما تبدين عليه، ويتوافق تمامًا مع قصتكِ. لديَّ شيء آخر لأقوله. فلتنتبهي لما أقوله لأنني

سأفعله. هل تسمعينني يا روح خرافية؟ ما أقوله، أعني به ما أفعله».

تغلب عليها غضبها مرة أخرى للحظة، لكنه قد مر على وجهها مثل تشنج ثم تركها تبتسم.

أردفت قائلة: «فلتخفي نفسكِ، إذا لم يكن في المنزل، ففي مكان آخر. فليكن في مكان بعيد المنال، في حياة غامضة - أو الأفضل من ذلك، أن تختفي بموت غامض. أتساءل، إذا لم ينكسر قلبكِ المحب، فلماذا لم تجدي طريقة لمساعدته على البقاء! لقد سمعت عن مثل هذه الوسائل في بعض الأحيان. أحسب أنه يمكن العثور عليها بسهولة».

قاطعها هنا نحيب إيميلي الهادر. توقفت عن الكلام واستمعت إليه كما الموسيقى.

مضت روزا دارتل تقول: «ربما أكون ذات طبيعة غريبة، إلا أنني لا أتحمل أن ألتقط أنفاسي بحرية في نفس الهواء الذي تتنفسينه. أجده فاسدًا. سأحرره من أنفاسكِ، سوف أطهره منكِ. إذا بقيتِ على قيد الحياة هنا غدًا، فسأفضح قصتكِ وشخصيتكِ الحقيقية على هذا الدرج المشترك. يقولون إن ثمة نساء محترمات في هذا المنزل، وإنه لأمر مؤسف أن تتخفي بينهن مثل هذه الفتاة المنحطة التافهة. إذا كنتِ ستغادرين هذا المكان، فلتبحثي عن أي ملجأ في هذه المدينة بشخصية مستعارة غير شخصيتكِ الحقيقية (والتي سأرحب بها من دون مضايقة مني)، وإلا سأقوم بالأفعال ذاتها، لو أنني سمعت عن تراجعكِ عن تنفيذ الأمر. سيساعدني رجل نبيل كان يتطلع منذ وقت ليس ببعيد ليصل إليكِ، لذا فإنني متفائلة لتنفيذ الأمر».

ألن يأتي مطلقًا، أبدًا؟ كم مضى من وقت تحملت هذا الحدث؟ كم من الوقت سأصمد وأتحمل؟ صرخت إيميلي البائسة قائلة: «آهِ يا نفسي، آه يا روحي، ماذا؟ ماذا سأفعل؟». كانت نبرتها تلين أشد القلوب قساوة، هكذا ظننت، إلا أنها لم تكن لتؤثر في ابتسامة روزا دارتل الساخرة.

عادت الأخرى تجيب: «ما عليكِ فعله! أن تنعمي بالحياة داخل خواطركِ! فلتكرسي حياتكِ لتحيي على ذكرى حنان جيمس ستيرفورث -كان سيجعلكِ زوجة الرجل الذي يخدمه، أليس كذلك؟- أو تعيشين ممتنة للمخلوق المستقيم والقدير الذي كان سيحصل عليكِ كهدية له. أما إذا كانت تلك الذكريات الزاخرة، والوعي بفضائلكِ، ومكانتكِ المشرفة التي رفعوكِ إليها في أعين كل ما يتهيأ بشكل بشري، لن تدعمكِ، فلتتزوجي ذلك الرجل الطيب، ولتسعدي بهذا التنازل الذي قدمه لكِ. إذا لم يفلح هذا أيضًا، موتي! ثمة مدافن وأكوام غبار لمثل هذه الوفيات، وبمثل هذا اليأس، فلتبحثي عن طريقة، ولتشُقي رحلتكِ إلى الجنة».

تناهى إلى أذني وقع أقدام بعيدة على الدرج، عرفتها، كنت متأكدًا منها. كانت وقع أقدامه حمدًا لله.

تحركت ببطء أمام الباب بعد قولها ذاك، ثم حالت بيني ورؤيتي.

فتحت الباب الآخر لتنصرف، لكنها أضافت في بطء وحزم قائلة: «انتبهي لقولي! إنني عازمة -لأسباب تخصني- على طردكِ غدًا، إن لم تنسحبي من محيط أقدامي تمامًا، وإلا أسقطت قناعكِ الجميل

بفضيحة. هذا ما كان عليَّ قوله. وما أقوله، أعني به ما أفعله».

اقتربت الخطوات على الدرج أكثر -تجاوزتها بينما تهبط- ثم اندفعت إلى الغرفة!

«عمي».

أعقبت هذه الكلمة صرخة مخيفة. توقفت للحظة، ونظرت إلى الداخل، فرأيته يسند جسدها الضئيل المتهاوي بين ذراعيه. حدق في وجهها لبضع ثوانٍ. ثم انحنى متكئًا أرضًا لتقبيلها. آهٍ، يا لرقته!

قال في صوت خافت مرتجف: «يا سيد ديفي، أشكر الله لأن حلمي صار حقيقة. أشكره من كل قلبي لأنه أرشدني، بطريقته الخاصة، إلى حبيبتي».

بهذه الكلمات حملها بين ذراعيه. ووجهها المحجوب ملقى على صدره، مقابلًا وجهه. حملها مغشيًّا عليها وغير واعية، وهبط السلم.



الفصل الواحد والخمسون

بداية رحلة أطول

تمشيت في الحديقة مع عمتي في صباح اليوم التالي، وكنا لم نزل في ساعة مبكرة. صارت عمتي تمارس قليلًا من التمارين الآن، بعد أن أمضت وقتًا طويلًا في خدمة عزيزتي دورا. قيل لي وقتها إن السيد بيجوتي يرغب في التحدث إليَّ. وقد لحقني في منتصف الطريق في أثناء سيري في الحديقة، بينما رحت أسير إليه نحو البوابة. ما إن أبصر عمتي حتى خلع قبعته كاشفًا رأسه كما اعتاد دومًا، فقد كان يكنُّ لها احترامًا كبيرًا. كنت قد أخبرتها بكل ما حدث بين عشية وضحاها. سارت بوجه بشوش وصافحت السيد بيجوتي من دون أن تنبس ببنت شفة، ثم ربتت على ذراعه. كان ترحيبها صادقًا، حتى إنها لم تكن بحاجة إلى قول أي شيء. لقد أدرك السيد بيجوتي كرمها تمامًا كما لو أنها قالت آلاف الكلمات.

قالت عمتي: «سأدخل الآن يا تروت، عليك أن تعتني بزهرتنا الصغيرة التي ستستيقظ في غضون لحظات».

قال السيد بيجوتي: «سأحاول ألا يطول وجودي هنا يا سيدتي. ما لم يكن عقلي قد ولى وذهب عني هذا الصباح محلقًا حيث تعطش الطيور» - قصد السيد بيجوتي بكلامه أن يقول (حيث تعشش الطيور) - ثم أكمل: «أيبقى عقلي هنا ما دمتِ ستغادريننا؟».

راحت عمتي تقول: «عندك ما تقوله يا صديقي العزيز، وسوف تتصرف بشكل أفضل من دوني».

أجاب السيد بيجوتي قائلًا: «أستميحكِ عذرًا يا سيدتي، يجب أن أتعامل مع الأمر بلطف، فلا تمانعي الاستماع إلى همهماتي، إن كنتِ ستبقين هنا».

قالت عمتي في جملة قصيرة: «ألن تصغي أنت لكلامي أيضًا؟ إذن أنا متأكدة من أنني سأفعل الشيء نفسه».

وجهت عمتي بعدها إشارة بذراعها إلى السيد بيجوتي، وسارت معه نحو كوخ صيفي صغير مورق يقبع في الجزء السفلي من الحديقة، حيث جلست على مقعد، وجلست بجانبها. كان ثمة مقعد آخر للسيد بيجوتي، لكنه فضَّل الوقوف، بينما أسند يده إلى طاولة ريفية صغيرة. وقف ينظر إلى قبعته لفترة قصيرة قبل أن يشرع في الكلام، لم أستطع كبح تأملي في قوة مشاعره التي عبَّرت عنها يده القوية في حمل القبعة، ويا له من رفيق طيب ومحل ثقة كما يتجلى في جبينه الصادق وشعره الرمادي الخشن.

استهل السيد بيجوتي حديثه بعد أن رفع عينيه نحو أعيننا قائلًا: «لقد

أخذتُ ابنتي الغالية في الليلة الماضية إلى مسكني البعيد، حيث كنت أتوقع قدومها منذ وقت طويل وأعده لها من أجل راحتها. لقد مرت ساعات قبل أن تفيق لتعرفني جيدًا، وعندما أفاقت ركعت عند قدمي، ثم قالت لي ببراءة الطفولة، كما لو أنها تتلو صلواتها، كيف حدث كل شيء. قد تصدقوني حين أقول إنني اعتدت أن أسمع صوتها في المنزل في غاية المرح قبل ذلك، وعندما سمعته هذه المرة وقد أبصرتها مستكينة، كنت كما الغارق في خضم نعم الله مُخلِّصنا - شعرت بذهول أفناني وحال بيني وشكره».

رشم صليبًا فوق جبينه من دون أن يخفي علينا السبب. ثم علا صوته متحدثًا.

«لم يراودني هذا الشعور منذ وقت طويل، وقد أحسسته الآن لأني وجدتها. كنت أظن فقط أنها قد كانت لديَّ ثم ذهبت بلا رجعة. لا أعرف لماذا لم أتذكر فضائله الكثيرة قبل ذلك مثلما أذكرها الآن، وأوقن بها. لم يكن ثمة شيء يدور في ذهني منذ دقيقة لأتفوه بكلمة واحدة عن نفسي، لكن الأمر جاء طبيعيًّا لدرجة أنني استسلمت له من دون أن أشعر برهبة في الحديث».

قالت عمتي: «إنك روح طيبة متواضعة، وسوف تحصد مكافأتك».

كانت ظلال الأوراق تلاعب وجه السيد بيجوتي، الذي ما لبث أن انحنى برأسه انحناءة مفاجئة نحو عمتي، تقديرًا لحسن رأيها، ثم تناول الخيط الذي تركه، ليكمل حديثه.

قال في حنق شديد انتابه للحظات: «بحثت عن صغيرتي إيميلي، بعد أن صارت أسيرة بسبب ذلك الثعبان على حد قول السيد ديفي، وقصته المعروفة، جزاه الله بمثل أفعاله! كانت إيميلي قد هرعت في الليل. كانت ليلة مظلمة، يشوبها العديد من النجوم المتلألئة. أصابها جموح. ركضت على طول شاطئ البحر معتقدة أنها بمحاذاة الصندل القديم، بينما تصرخ لكي نحول وجوهنا عنها، لأنها كانت قادمة. كانت تصرخ منادية نفسها وكأنها شخص آخر. جرحت نفسها بالحجارة والصخور المكسوة، ولم تعد تشعر بها كما لو أنها تحولت هي الأخرى إلى حجارة بينها. كانت تهرب في هيئة لم أعهدها من قبل، كما لو أن ثمة نيرانًا تلتهب أمام عينيها وزئيرًا يدوي في أذنيها. فجأة - أو هكذا قالت، كما تفهمان - تغير حال اليوم، وصار ممطرًا وعاصفًا، بينما صارت مستلقية على كومة من الحجارة على الشاطئ. ظهرت امرأة تتحدث إليها بلهجة أهل هذا البلد، قائلة: «ما فات قد ولَّى، فلماذا تبتئسين؟»».

لقد رأى كل ما يتعلق به. مر أمامه في وضوح شديد، بينما يتحدث. كان يصف لي ما يراه بجديته المفرطة. تحدث بتميز أعظم من أن يمكنني وصفه. أستطيع الآن فقط بعد مرور فترة طويلة، أن أصدق ما حدث باسترجاع الأمر بالكتابة، لكنني كنت حاضرًا بالفعل في هذه المشاهد. لقد سحرني هذا الجو المذهل من الإخلاص والتفاني.

تابع السيد بيجوتي حديثه قائلًا: «كانت عينا إيميلي ثقيلتين -كما كانتا في هذا الوقت- حتى أبصرت هذه المرأة بشكل أفضل. كانت تعرف أنها كانت واحدة منهم، كما كانت تتحدث معها كثيرًا على

الشاطئ. كانت تركض (على حد قولها) كثيرًا في الليل، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تتجول أيضًا غالبًا في طرق طويلة سيرًا على قدميها في بعض الأحيان، أو متنقلة بين القوارب والعربات في أوقات أخر، وكانت تعرف البلدة بأسرها على طول ساحلها لأميال عديدة. لم تُرزق هذه المرأة أطفالًا، منذ أن تزوجت في شبابها، لكنها كانت تتطلع إلى حضانة طفل قبل ذلك. أتمنى أن يسمع الله صلاتي فيهبها كل النعيم والسعادة في ملكوت السماوات ويعزي قلبها، وتسعد فيها خالدة. أتمنى أن يرافق شيخوختها ملاك يحرسها ويرحمها، وأن يصير ونيسًا لها في الحياة وبعد الممات».

قالت عمتي: «آمين».

قال السيد بيجوتي: «لقد كانت خجولة وهادئة. جلست في بداية الأمر بعيدًا إلى حد ما، عن محيطها، أو شيء من هذا القبيل، عندما تحدثت إيميلي إلى بعض الأطفال. كانت إيميلي قد لاحظت وجودها، فذهبت للتحدث إليها، وبما أن الشابة كانت منحازة كذلك للأطفال، فقد صارتا صديقتين سريعًا. على أي حال، كانت كلما خطت إيميلي خطوة نحو هذا المكان استقبلتها بالزهور. كانت هذه هي حالتها كما عرفناها حتى تلك اللحظة، كما كان لديها الكثير من الخفايا. عرضت على إيميلي المجيء إلى المنزل، وبالفعل أخذتها. لقد فعلت ذلك حقًّا». استطرد السيد بيجوتي كلامه بعد أن غطى وجهه قائلًا: «لقد أخذتها إلى المنزل».

لقد رأيته متأثرًا بهذا العمل الطيب أكثر من تأثره بأي شيء سواه منذ الليلة التي غابت فيها. لم نحاول أنا وعمتي إزعاجه أو مقاطعته.

أكمل حديثه في اللحظة ذاتها قائلًا: «كان كوخًا صغيرًا. نفترض أنه كذلك، لكنها وجدت مكانًا لإيميلي فيه. كان زوجها بعيدًا في البحر، وقد أبقت شخصيته سرًّا، وقد أبقته سرًّا أيضًا وسط جيرانها المحيطين بها (لم يكن ثمة الكثير بالقرب منهم). أصيبت إيميلي بالحمى، والغريب جدًّا بالنسبة لي -ربما لم يكن هذا الأمر غريبًا جدًّا بالنسبة للعلماء- أنها أخرجت لغة هذه البلدة من رأسها، ولم يعد بإمكانها التحدث إلا بلهجتها، لم يتمكن أحد من تفسير الأمر. تتذكر ما حدث، كما لو أنها كانت تحلم. تحكي بلسانها الحالي أنها كانت ترقد هناك دائمًا، وتوقن أن الصندل القديم كان يدور دومًا على بُعد أمتار من الخليج، وصارت تتوسل وتطلب منهم إرسال خطاب ينبئ عن كيف كانت تحتضر، لتعود إليها رسالة مغفرة، إذا كانت ثمة طريقة للمراسلة. لقد ظنت طوال الوقت تقريبًا - حتى هذه اللحظة، أنه كما ذكرت للتوِّ كان يتربص بها تحت التعاريش، بعد أن أحضرها إلى هذه الغرفة، وقد طلبت من الشابة الطيبة ألا تتخلى عنها، وعلمت في الوقت نفسه أنها لا تستطيع أن تتفهم كلامها، وخافت أن تؤخذ بعيدًا. هكذا كانت النيران تهب من عينيها وتئن أصوات زمجرة في أذنيها. ولم يتبدل الأمر اليوم ولا البارحة ولا غدًا. أما كل شيء في حياتها، فقد صار كما كان دائمًا، أو يمكن أن يظل دائمًا، أو كل شيء صار كما لم يكن من قبل، وظل كما لم يكن له أن يكون، كان كل شيء قد تكالب عليها دفعة واحدة، وليس ثمة أمر واضح ولا سار، ومع ذلك فهي تغني وتضحك حوله. كم من الوقت استمر هذا الأمر؟ لا أعرف. ولكن بعد أن ينقضي اليوم تأتي

للنوم، وفي ذاك النوم، صارت في ضعف أصغر طفل بعد أن كانت أقوى من نفسها أضعاف المرات».

توقف هنا كما لو أنه يستريح من أهوال وصفه. تابع قصته بعد أن انتابه صمت لبضع لحظات.

«كان عصرًا لطيفًا عندما استيقظت وهادئًا للغاية من دون صوت، فيما عدا تموجات هذا البحر الأزرق على الشاطئ من دون مد. ظنت في البداية أنها كانت في المنزل منذ صباح يوم الأحد، لكن أوراق العنب كما تراها تحت التعاريش ومن ورائها التلال لا تشي بأن هذا هو المنزل وتُشوِّشها. ثم جاءت صديقتها لتراقب سريرها بجانبها، ثم عرفت أن الصندل القديم لم يعد يدور على بُعد أمتار أخر من الخليج، بل لم يكن سوى خمائل من نسيج. وقد عرفت أين هي ولماذا. وهنا انفجرت في البكاء في أحضان تلك الشابة الطيبة، التي آمل أن يكون طفلها راقدًا الآن، ويلتفت نحوها بعينيه الجميلتين».

لم يستطع التحدث عن هذه الصديقة الطيبة لإيميلي من دون أن تنهمر منه الدموع. كانت المحاولة عبثًا. انهار مرة أخرى محاولًا أن يباركها.

استأنف حديثه، بعد هذه المشاعر التي لم أستطع رؤيتها من دون المشاركة فيها، أما عمتي فبكت من كل قلبها. «صارت حالة إيميلي على هذا النحو، وبدأت في التحسن. أما لغة هذه البلدة فقد اختفت عنها تمامًا، وأجبرتها على استخدام الإشارات. استمرت الحال هكذا، بينما تتحسن حالتها يومًا بعد يوم في بطء لكن في تطور ملحوظ، وقد حاولت

معرفة أسماء الأشياء الشائعة -الأسماء التي بدت وكأنها لم تهتم بها طوال حياتها- حتى حلت إحدى الأمسيات، عندما كانت تجلس عند نافذتها فأبصرت طفلة تلعب عند الشاطئ. مدت هذه الطفلة يدها إليها فجأة، ثم قالت ما سيكون معناه باللغة الإنجليزية: «ابنة الصياد، يا لها من صدفة!» - عليكم أن تعرفوا أنهم اعتادوا تسميتها بـ«السيدة الجميلة»، إنها الطريقة العامة للتسمية في تلك البلدة، وأنها علمتهم أن يطلقوا عليها اسم «ابنة الصياد» بدلًا من ذلك. وما تلبث الطفلة أن تقول بعد ذلك فجأة: «يا ابنة الصياد، ها محارة!»، ثم تفهمها إيميلي، فتصرخ باكية، بعد أن تسترجع كل شيء».

قال السيد بيجوتي بعد فترة قصيرة أخرى من الصمت: «ما إن استعادت إيميلي عافيتها مرة أخرى، حتى صارت على وشك مغادرة هذا الحي الصغير الطيب، لتعود إلى موطنها. عاد بعد ذلك الزوج إلى المنزل، وقد رافقها الاثنان معًا حتى متن باخرة صغيرة متجهة إلى ليجورن، ومنها إلى فرنسا. كان بحوزتها القليل من المال، لكنه كان أكثر قليلًا من القليل الذي أخذوه مقابل كل ما فعلوه. إنني سعيد جدًّا بذلك، على الرغم من أنهم كانوا فقراء للغاية. إن ما فعلوه أمر لم يفسده العث أو الصدأ، ولم تصل إليه يد اللصوص ولا سرقوا فضائله. يا سيد ديفي، سوف يصمدون بكرامتهم أمام كل كنوز هذا العالم».

«وصلت إيميلي إلى فرنسا، وكانت ضمن السيدات المسافرات، وقد انتظرن في فندق بالميناء. وها هنا جاء الثعبان ذات يوم - أبعده الله عني دومًا. فلا أعرف مدى الأذى الذي قد أسببه له - وسرعان ما رأته،

من دون أن يراها، فعاودها كل خوفها ووحشيتها، وهربت قبل أن يرتد إليه زفير أنفاسه. لقد جاءت إلى إنجلترا، ثم جلست عند الشاطئ في دوفر».

قال السيد بيجوتي: «لا أعرف بالتأكيد متى بدأت تفقد عزيمتها، ولكنها حاولت المجيء إلى منزلها العزيز مرات على طول الطريق إلى إنجلترا. ما إن وصلت سريعًا إلى إنجلترا حتى وجّهت وجهها نحوه. ولكن الخوف من عدم الغفران، والخوف من التعرض للوم، والخوف من موت بعضنا، والخوف من أشياء كثيرة، حال بينها بقوة كفيلة بدفعها بعيدًا عن إتمام الطريق. لقد قالت لي: «عمي، يا عمي، لقد كان الخوف من أنني لا أستحق أن أفعل ما يشتاق إليه صدري الممزق والنازف، هو الخوف الأكثر رعبًا على الإطلاق. لقد تراجعت، بعدما كان قلبي مليئًا بالرجاء والصلاة، حتى أتمكن من الزحف إلى عتبة الباب القديم في الليل، فأقبله، وأمرغ وجهي الشرير عليه، ثم أجدني ميتة في الصباح».

أخفض السيد بيجوتي صوته حتى صار هامسًا ومتعجبًا فقال: «لقد جاءت إلى لندن... أتت إلى لندن وحدها، كما لم يسبق لها من قبل، من دون فلس واحد، شابة، جميلة جدًّا. كانت في هذه اللحظة التي عادت فيها إلى الوراء بائسة تمامًا، إلى أن وجدت (كما ظنت) صديقة تحدثت معها كامرأة محترمة عن أعمال حياكة كما أنها تربت على هذا العمل، ووعدتها بالعثور على الكثير من العمل، وعن توفير مسكن لها في الليل، وذلك لإجراء بعض الاتصالات السرية بي وبجميع الأشخاص في المنزل في اليوم التالي». أكمل حديثه بصوت عالٍ وبطاقة من امتنان

هزته من رأسه إلى أخمص قدمه، قائلًا: «وقفت طفلتي على حافة الهاوية، أكثر مما أستطيع أن أتصور أو أتخيل أمرها. كانت مارثا، قد خالفت وعدها لها فأنقذتها».

لم أستطع قمع صيحة ابتهاجي.

أمسك يدي بكلتا يديه القويتين قائلًا: «يا سيد ديفي، لقد كنتَ أول من ذكرها. شكرًا يا سيدي. لقد كانت متماسكة. كانت قد أدركت حقيقة حالها المريرة التي عليها أن تبصرها، وعرفت كيف تتصرف. لقد فعلت ما عليها فعله. وكانت إرادة الله فوق الجميع. جاءت، شاحبة ومسرعة، بعد أن غطَّت إيميلي في نومها. لتقول لها: «قومي من شر الموت، وتعالي معي». كان من الممكن أن يوقفها نزلاء هذا المنزل، لكن ربما قد أوقفهم البحر عن ذلك في آخر لحظة، بينما قالت لهم: «فلتبتعدوا عني، إنني شبح يناديها من جانب قبرها المفتوح». أخبرت إيميلي أنها رأتني، وتعلم أنني أحببتها وأسامحها. لفتها على عجل بملابسها. أخذتها على ذراعها، بينما كانت خافتة ومرتجفة. لم تستجب لما قالوه كما لو كانت لم تخلق لها آذان. سارت بينهم مع طفلتي، ولم تُبدِ اهتمامًا بسواها، وأخرجتها بأمان في جوف الليل من حفرة الخراب السوداء تلك».

قال السيد بيجوتي، بعد أن أطلق يدي، ووضعها فوق صدره المرتفع: «لقد اعتنت بإيميلي. اعتنت بابنتي إيميلي، بينما كانت مستلقية منهكة، وراحت تتجول في أثناء نومها، حتى وقت متأخر من اليوم التالي. ثم ذهبت للبحث عني. ثم بحثت عنك يا سيد ديفي. لم

تخبر إيميلي بالسبب الذي خرجت لأجله، خشية أن يفشل مخططها، وكان عليها أن تفكر في إخفاء نفسها. كيف عرفت السيدة القاسية أنها هي؟ لا أعرف. إما أنه رآها، كما كنت أقول دومًا، أو أنه -كما يرتاح خاطري إلى حد بعيد- قد عرف الأمر من هذه المرأة. إنني على أي حال لا أسأل نفسي كثيرًا. فقد عثرت على ابنتي».

أردف السيد بيجوتي قائلًا: «كنا طوال الليل، أنا وإيميلي معًا. يا لهذه الصغيرة! عدنا -على حد تعبيرها- بعد ما انقضى من وقت في أجواء تشوبها دموع من انكسرت قلوبهم. كان وجهها الغالي أصغر من أن أراه منكسرًا، بعد أن نمت وصارت امرأة في منزلي. ظلت ذراعها ملتفة حول عنقي طوال الليل، وقد انحرف رأسها، ناظرة نحوي. صار كل منا على يقين من أن الآخر قد صار محلًّا لثقته أكثر من أي وقت مضى».

توقف عن الكلام، واستقرت يده على الطاولة مفعمًا بعزم الأسود.

قالت عمتي بينما تجفف دموع عينيها: «لقد راودني بريق من نور يا تروت، عندما قررت أن أصير عرابة لأختك بيتسي تروتوود، والتي أحبطتني بعدم مجيئها، ولكن عوضًا عن ذلك، لن يمنحني أي شيء آخر متعة أكبر من أن أكون عرابة هذه الطفلة الصغيرة الطيبة».

أومأ السيد بيجوتي برأسه متفهمًا مشاعر عمتي، لكنه لم يستطع الوثوق في نفسه ليعبر عن امتداحها بأي إشارة لفظية. بقينا جميعًا صامتين، وانشغل كل منا بتأملاته (كانت عمتي تجفف عينيها، ثم صارت بعد لحظات تبكي متشنجة، ثم بدأت تضحك وتدعو نفسها حمقاء)، إلى أن شرعت في حديثي.

قلت للسيد بيجوتي: «هل اتخذت قرارًا واضحًا فيما يتعلق بالمستقبل يا صديقي العزيز؟ إنني بحاجة إلى أن أطرح عليك هذا السؤال».

أجابني: «بالفعل يا سيد ديفي، لقد أخبرت إيميلي بالقرار. إن ثمة بلادًا عظيمة بعيدة عن هنا. إن حياتنا المستقبلية ممتدة نحو البحر».

قلت: «سوف يهاجرون معًا يا عمتي».

قال السيد بيجوتي بابتسامة متفائلة: «نعم، لا أحد يستطيع أن يوبخ حبيبتي في أستراليا. سنبدأ حياة جديدة هناك».

سألته عما إذا كان قد حدد لنفسه وقتًا للمغادرة.

أجاب: «لقد توجهت إلى المرفأ مبكرًا هذا الصباح يا سيدي، لكي أستعلم عن موعد السفن. عرفت أن ثمة إبحارًا واحدًا في غضون ستة أسابيع أو شهرين تقريبًا من الآن - لقد شاهدت هذه السفينة هذا الصباح وصعدت على متنها - ومن ثَم سنحجز بها مكاننا للسفر».

سألته: «بمفردك؟».

أجاب قائلًا: «نعم يا سيد ديفي، إن أختي، كما ترى، مولعة بك وبكل ما يخصك، ولم تعتَد سوى التفكير في بلدها، ولن يكون من الإنصاف أن نتركها تسافر. بالإضافة إلى ذلك، فإن لديها أعباءً تتحمل مسؤوليتها يا سيد ديفي، ولا ينبغي أن نغفل عنها».

قلت: «مسكين هام».

أوضح السيد بيجوتي الأمر لعمتي حتى تحيط بمعلومات أكثر عن

الأمر قائلًا: «إن أختي الطيبة تعتني بمنزله، كما ترين يا سيدتي، وهو يتعامل معها بلطف. سوف يجلس ويتحدث معها بنفس هادئة، كما لو أنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة مع إنسان سواها». أكمل السيد بيجوتي بينما يهز رأسه قائلًا: «أيها المسكين، إنه لا يتحدث كثيرًا، حتى يمكن أن يوفر القليل من حديثه لغيرها».

قلت: «وماذا عن السيدة جامدج؟».

أجاب السيد بيجوتي، بنظرة متحيرة تلاشت تدريجيًّا بعد تقدمه في الحديث: «حسنًا، لقد راودتني الكثير من الاعتبارات، سأقول لكما ما يتعلق بالسيدة جامدج. كما تريان، إن السيدة جامدج تقبع في عالمها القديم، وهي ليست ما قد أسميه رفيقة جيدة. بيني وبينك يا سيد ديفي -وأنت يا سيدتي- إن السيدة جامدج تقود المرء إلى الانتعاش»- إنه تعبير شعبي قديم. «حقًّا من المحتمل اعتبارها على هذا النحو لأنها لا تعرف سوى عالمها القديم، بما فيه من نوبات غضب». استطرد السيد بيجوتي قائلًا: «إنني الآن فهمت ما يدور في عالمها الهَرِم، وصرت أقدر نياتها، لذلك أفهمها، لكن لا يمكن أن تسير الأمور تمامًا على هذا النحو، كما تعرف، مع الآخرين - لا يمكن أن نتعامل مع أمرها هذا بوجه طبيعي».

وافقتُ أنا وعمتي على كلامه.

قال السيد بيجوتي «وفقًا لذلك، فإنني لا أقول إن أختي ستفعل هذا الأمر بالتأكيد، ولكن ربما تتصور أن السيدة جامدج ستتسبب لها في مشكلة صغيرة بين الحين والآخر. لا أنتوي لهذه الأسباب الإبقاء

على السيدة جامدج بصحبتهم لفترة طويلة، ولكنني سأحاول العثور على عش حتى تستطيع أن تصيده لنفسها. (تشير كلمة عش، في تلك اللهجة، إلى المنزل، أما الصيد فيقصد به احتياجاتها) ولهذا الغرض قررت أن أعوضها بمعونة قبل رحيلي، بحيث تعيش في راحة تامة. إنها إنسانة وفية. تعيش وحيدة في هذا العمر، فلا ننتظر منها أن تتحمل ركوب السفينة، والتنقل بين الغابات والبراري في بلد جديد على أطراف العالم. لذلك سأقدم على ما انتويته من أجلها».

لم ينسَ الرجل أحدًا. لقد كان يفكر في احتياجات الجميع ومصائرهم، من دون أن يلتفت لمطالبه الشخصية.

ثم تابع كلامه: «أما إيميلي، فستبقى معي -الطفلة المسكينة، إنها متألمة وفي حاجة إلى السلام والراحة- حتى يحين الوقت الذي نمضي فيه إلى رحلتنا، فتنشغل بإعداد الثياب التي تحتاجها، وأرجو أن تنقضي أحزانها فينقشع عنها الحزن كأنه ماضٍ بعيد منصرم، بعد أن تجد نفسها في رفقة عمها الخشن المحب مرة أخرى».

أومأت عمتي برأسها لتأكيد هذا الأمل، مما منح السيد بيجوتي ارتياحًا كبيرًا.

وضع يده في جيب صدره، وأخرج بصعوبة حزمة أوراق بسيطة كنت قد رأيتها من قبل، وما لبث أن بسطها على الطاولة ثم قال: «إن ثمة شيئًا أكثر قد تبقى يا سيد ديفي. إن هذه الأوراق النقدية هنا - خمسون جنيهًا وعشرة. أود أن أضيف قدرًا من المال وأرتب هذه الأوراق لتصير منفصلة. لقد طلبت منها فعل ذلك قبلًا (لكني لم أذكر السبب)، وقد

قامت بترتيبها. إنني لست عالمًا. هل من الممكن أن تقوم بـ«هذا» الأمر؟».

ناولني الأوراق واحدة تلو الأخرى، معتذرًا عن عجزه عن حسابها، ثم راح يراقبني بينما كنت أنظر إليها، إلى أن تأكدت أنها مرتبة تمامًا.

أعادها قائلًا: «شكرًا يا سيدي. إذا لم يكن لديك اعتراض يا سيد ديفي، فإنني سأضع بعضًا من هذا المال في ظرف موجه إليه، وسأرسل البعض الآخر إلى أمه. لن أقول لها شيئًا أكثر مما سأقوله لكما، فقط سأشير لها بالمبلغ المتروك، وسأشير أيضًا إلى أنني قد سافرت، وأبلغها بتاريخ استعادته مرة أخرى».

أخبرته أنني أظن أنه من الأفضل أن يتم أمره، وأنني كنت مقتنعًا تمامًا أن تفكيره صحيحًا، عندما أقبل على فعله.

شرع في إظهار ابتسامة غامضة، بينما رتب رزمة أوراقه الصغيرة مرة أخرى، ثم أعادها إلى جيبه: «لقد قلت إنه قد تبقى شيء واحد، ولكن ثمة شيئًا آخر. لم أكن على يقين من أمري، حين خرجت هذا الصباح، ما إذا كنت أستطيع أن أذهب إلى هام وأخبره بكل شيء بنفسي أم لا. قد وقع ما وقع لحسن الحظ. لذلك، فإنني قد كتبت رسالة قبل خروجي، ووضعتها في مكتب البريد، لأخبرهم كيف صارت مثل «تلك» الأحداث معي، وأنني يجب أن أبتعد قليلًا غدًا لأفرغ ذهني لأقوى على التفكير في العمل، والأكثر من ذلك، أن أتفرغ لوداع يارموث أخيرًا».

قلت له: «وهل تريدني أن أذهب معك؟».

أجابني: «إن كنت تستطيع أن تقدم لي هذه الخدمة اللطيفة، فلتفعل يا سيد ديفي. أعلم أن رؤيتهم لك ستشجعهم قليلًا».

كانت دورا الصغيرة في حالة معنوية جيدة، وقد أبدت موافقة شديدة على ذهابي -كما شعرت بذلك في أثناء التحدث إليها- وقد عهدت إلى نفسي بمرافقته نزولًا على رغبته. كنا في صباح اليوم التالي على متن حافلة يارموث، بعد أن عبرنا الأرض القديمة مرة أخرى.

كنا نسير على طول الشارع المألوف في الليل - أما السيد بيجوتي، وعلى الرغم من كل ما أبديته من اعتراض، قد حمل حقيبتي - ومن ثَم ألقيت نظرة خاطفة على متجر عمر وجورام. رأيت صديقي القديم السيد عمر هناك يدخن قصبته. شعرت بتردد لوجودي، بينما التقى السيد بيجوتي به مقدمًا أخته وهام لأول مرة إليه، وقد جعلت من هذا الأمر عذرًا لي أمام السيد عمر.

قلت: «كيف حال السيد عمر بعد هذا الوقت الطويل؟».

نفض عنه دخان قصبته، حتى يتمكن من رؤيتي بشكل أفضل، وسرعان ما تعرف عليَّ وقد أبدى سعادة بالغة.

قال: «يجب أن أقوم يا سيدي، اعترافًا مني بشرف هذه الزيارة، لكن لتعذرني فأطرافي عاجزة لا تقوى على الحراك من دون مقعد بعجلات. على أي حال وباستثناء أطرافي وأنفاسي، فإنني لا أزال ودودًا بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون ودودًا، وإنني ممتن لهذا».

هنأته على شعوره بالرضا وروحه الطيبة، بعد أن أبصرت للتوِّ مقعده المتحرك ذا العجلات.

تابع نظراتي بعد أن صقل ذراعَي المقعد بكوعيه، وقد أخذ يسأل: «إنه شيء عبقري، أليس كذلك؟ إنه يعمل بخفة الريشة، ويسير على درب محدد كما ساعي البريد. بارك الله فيك يا ميني الصغيرة - إنها حفيدتي التي تعرفها، ابنة ميني - إنها تضخ قوتها الصغيرة في مواجهة ظهر المقعد، فتدفعه دفعة واحدة فيتحرك بعيدًا، كما لو أنه أسرع وأنشط من أي شيء. سأقول لكم شيئًا، إنه مقعد غير عادي يصلح لتدخين القصبة عليه».

لم أرَ قَطُّ رجلًا مثل السيد عمر. إن هذا العجوز الطيب يحقق أقصى استفادة من أي شيء، ويكتشف طرقًا خاصة للاستمتاع به. لقد كان مشرق الوجه، كما لو أن مقعده والربو، وكذلك عجز أطرافه، لم تكن سوى أفرع مختلفة لاختراع عظيم يعزز من رفاهية غليونه.

قال السيد عمر: «إنني أؤكد لكم أنني وأنا جالس فوق هذا المقعد أبصر من العالم ما لم أبصره في أي وقت مضى. إنني أرى ما هو أبعد منه. ستندهش من عدد الأشخاص الذين يأملون في محادثتي طوال اليوم. ستندهش حقًّا! لقد تضاعفت قراءتي للصحف عن ذي قبل منذ أن أخذني هذا المقعد. وكذلك تضاعفت قراءتي العامة يا عزيزي، وما أكثرها! وقد جعلتني أشعر بنفسي قويًّا جدًّا، كما تعلم! ماذا لو كنت مصابًا في عيني، ماذا كنت لأفعل؟ ماذا لو كنت مصابًا في أذني، فماذا كنت لأفعل؟ أما كوني مصابًا في أطرافي، فماذا يعني ذلك؟

كانت أطرافي تحد من أنفاسي عندما أستخدمها. أما الآن، فإذا رغبت في الخروج إلى الشارع أو النزول إلى الرمال، فلا بد لي من الاتصال بـ«دك»، أصغر طفل لجورام، فأذهب بعيدًا في عربتي الخاصة، كما لو أنني عمدة لندن».

وهنا كاد أن يختنق من كثرة الضحك.

تحدث السيد عمر، وقد استأنف نفثه في قصبته: «ليباركك الرب. يجب على المرء أن يحصد المكسب مع الخسارة؛ هذا ما يقرره الإنسان في هذه الحياة. إن جورام يعمل بشكل جيد. لم تزل أعماله السابقة قائمة».

قلت: «إنني سعيد جدًّا لسماع ذلك».

قال السيد عمر: «كنت أعرف أنك ستسعد بذلك. إن جورام وميني يُظهران لي كل الحب. أي شيء يريده المرء أكثر من ذلك؟! ما فائدة أطرافه عوضًا عن هذا الحب؟!».

كان ازدراؤه الشديد لأطرافه، بينما هو جالس يدخن، من أجمل الأشياء الغريبة التي واجهتها على الإطلاق.

قال السيد عمر بينما يتطلع إليَّ في إعجاب: «لقد توجهتُ إلى القراءة العامة، منذ أن انتقلتَ أنت أيضًا إلى الكتابة، أليس كذلك يا سيدي؟ كان ما كتبته عملًا جميلًا! ما أجمل التعبيرات فيه! إنني قرأت كل كلمة فيه - كل كلمة. لم يراودني شعور بالنعاس، على الإطلاق».

ضحكتُ مظهرًا امتناني، لكن يجب أن أعترف أنني أدركت أهمية مثل هذه النقاشات حول الكتاب.

قال السيد عمر: «أعطيك كلمتي وبشرفي يا سيدي، إنني حين أضع هذا الكتاب على الطاولة، وأنظر إليه من الخارج، بعد أن أدمجت أجزاءه الثلاثة المنفصلة معًا – واحد، اثنان، ثلاثة، أصير فخورًا إلى درجة النشوة من أنني كان لي شرف التواصل مع عائلتك. آه يا عزيزي، لقد مضى وقت طويل إلى الآن، أليس كذلك؟ انتهى المطاف في بلندرستون بعد حفلة صغيرة جميلة أقيمت مع وصول طفل آخر. كنت صغيرًا في حفلة صغيرة جدًّا. آه يا عزيزي، آه يا عزيزي».

لقد غيرت الموضوع بالإشارة إلى إيميلي. بعد أن أكدت له أنني لم أنسَ مدى اهتمامه بها دائمًا، وكيف كان يعاملها دومًا بلطف. شرحت له بشكل عام ما يتعلق بأمر إعادتها إلى عمها بمساعدة مارثا. كنت أعرف أن هذه الحكاية سترضي الرجل العجوز. استمع في اهتمام شديد، ثم قال متأثرًا بعدما انتهيت:

«إنني سعيد بذلك يا سيدي، إنه أفضل خبر سمعته في هذا اليوم. آه يا عزيزي، يا عزيزي، يا عزيزي! وما الذي سيجري الآن لتلك الشابة التعيسة مارثا؟».

قلت: «إنك تلمس أمرًا ظللت أفكر فيه منذ الأمس، ولكنني لا أستطيع أن أقدم لك أي معلومات حتى الآن يا سيد عمر. لم يلمح السيد بيجوتي إلى ذلك الأمر، وأنا حريص على عدم الإشارة إليها. إنني متأكد من أنه لم ينسَها. إنه لا ينسى شيئًا أبدًا بمثل هذه الأهمية».

تحدث السيد عمر مستكملًا كلماته التي توقف عندها قائلًا: «إنك تعلم، مهما يكن من أمر، فإنني أتمنى أن أشارك في أي شيء يخصها.

فلتجعلني في مهب أي شيء تعتبره صحيحًا، واسمحوا لي أن أكون على علم بما يجري. إنني لا أتصور أن هذه الفتاة سيئة كليًّا، ويسعدني أن أجدها غير ذلك. إن ميني أحيانًا ما تكون على هذا النحو. إن الشابات مخلوقات متناقضات في بعض الأشياء -كانت والدتها مثلها تمامًا- لكن قلوبهن لينة ورقيقة. لقد تعرضت ميني إلى كل ما تعرضت له مارثا. لماذا لم أتصور أنه من الضروري تقديم يد المساعدة من قبل؟! لكني أطرحه عليك الآن. لتسمح لي أن أقدم لها مساعدة بارك الله فيك. إنه ليسعدني أن ندرك أن هذه الفتاة طيبة حقًّا. لذا، ضعني في خدمة كل ما تراه صحيحًا، هل ستجدني جيدًا جدًّا لهذا الأمر؟ فلترسل لي توجيهك بإشارة إلى ما يجب أن أقوم به. آه يا عزيزي! إن المرء قد يخطط في وقت ما من حياته لمستقبله، إلى أن يلتقي أمامه طرفَا الحياة، حينها يجد نفسه، مهما كان قلبه، يتحرك مرة أخرى، في مسار عربة متحركة نحو عمل شيء ما، وينبغي وقتها أن يبتهج مستعينًا بطيب العمل إن استطاع، بل ربما يريد أن يفعل الكثير. إنني هنا لا أتحدث عن نفسي على وجه الخصوص، لأن الطريقة التي أرى بها الأمور يا سيدي، هي أننا جميعًا نسير إلى أسفل التل، مهما كان عمرنا، فإن الزمن لا يتوقف ساكنًا للحظة واحدة. لذلك دعونا دائمًا نعمل للخير، ونبتهج به، كي تتأكد نياتنا».

نفث دخانه الرمادي من قصبته، ثم وضعه على حافة في ظهر مقعده، كانت قد صُنعت خصوصًا لاستقباله.

قال السيد عمر بينما يفرك يديه في رقة: «أتعرف ابن عم إيميلي؟ كان من المفترض أن يتزوجها، حينما كان رفيقًا في يارموث. سيأتي ويتحدث

إليَّ أو يقرأ لي في المساء، هكذا يفعل أحيانًا لمدة ساعة حين نجلس معًا. إنه شخص طيب، كما أحب أن أصفه بهذا الوصف كل حياته طيبة».

قلت: «سأراه الآن».

سألني السيد عمر: «هل ستفعل؟ إذن فلتخبره أنني أرسل إليه مودتي وتحياتي. إن ميني وجورام في شجار. سيسعدان برؤيتك كما سعدت بذلك، إن كانا في المنزل. إن ميني لا تخرج على الإطلاق، كما ترى، لأسباب تخص والدها، على حد قولها. لذلك فقد أقسمتُ إنها إذا لم تخرج الليلة إليَّ فسوف أنام في الساعة السادسة». اهتز جسد السيد عمر ضاحكًا، وكذلك اهتز مقعده من جراء هذه الحركة واستطرد قائلًا: «لهذا السبب فإنها في شجار مع جورام».

صافحته، وتمنيت له ليلة سعيدة.

قال السيد عمر: «اعذرني للحظات يا سيدي. إذا كنت ستذهب من دون رؤية الفيل الصغير، فستخسر أفضل ما يمكن أن تراه. إنك لن ترى مثل هذا المشهد. يا ميني».

أجاب صوت لطفل صغير في نغمات، من مكان ما في الطابق العلوي، قائلًا: «إنني قادم يا جدي»، وسرعان ما دخلت إلى المتجر فتاة صغيرة جميلة ذات شعر بني طويل مجعد.

قال السيد عمر بينما يداعب الطفلة: «هذه هي الفيل الصغير يا سيدي. إنها السلالة السيامية يا سيدي. ها هي الفيل الصغير أمامك الآن».

فتحت الفيل الصغير باب قاعة الاستقبال، مما مكنني من رؤية أنها قد تحولت في هذه الأيام الأخيرة، إلى غرفة نوم للسيد عمر، حيث لم يكن من السهل نقله إلى الطابق العلوي. ما لبثت الفتاة أن أخفت جبهتها الجميلة بعد أن قلبت شعرها الطويل على ظهر مقعد السيد عمر.

أخذ السيد عمر يتغامز قائلًا: «هكذا هي أعقاب الفيل، كما تعلم يا سيدي، تتحرك بينما تتجه إلى شيء ما. هيا أيها الفيل. مرة واحدة، مرتان، ثلاث مرات».

نهض الفيل الصغير عند هذه الإشارة. أظهر من البراعة ما يزيد على أي مخلوق بالغ الروعة، فدفعت المقعد مستديرة مع السيد عمر الذي يقبع جالسًا عليه، ثم حركته مجلجلًا نحو الردهة، من دون أن يلمس الباب. كان المغزى أن استمتع السيد عمر بالأداء بشكل لا يوصف، وقد أخذ ينظر إليَّ في طريقه كمن حاز القضية الظافرة من مجهودات حياته.

تنزهت في المدينة ثم توجهت نحو منزل هام. لقد ابتعدت بيجوتي الآن وإلى الأبد، وتركت منزلها الخاص لخليفة السيد باركس في مجال النقل، والذي دفع لها مقابلًا مجزيًا عن الاسم التجاري للعمل وعن العربة والحصان. أعتقد أنه الحصان البطيء نفسه الذي قاده السيد باركس والذي لم يزل يعمل.

لقد وجدتهم في المطبخ الأنيق، برفقة السيدة جامدج، التي جلبها السيد بيجوتي بنفسه من الصندل القديم. أشك في أنه كان بإمكان أي شخص آخر حملها على ترك مكانها غيره. كان من الواضح أنه أخبرهم جميعًا بأمره. كان كل من بيجوتي والسيدة جامدج ترتديان مآزرهما

وقد ارتفعت حتى أعينهما، أما هام فكان قد عاد لتوِّه بعد أن «أخذ جولة على الشاطئ». عاد الآن إلى المنزل، فأبدى سعادة بالغة لرؤيتي. وقد أملت في أن يكونوا جميعًا سعداء كذلك لوجودي هناك. تحدثنا، في جو أقرب إلى البهجة، عن تطور السيد بيجوتي نحو الثراء في بلد جديد، وعن العجائب التي سيصفها في رسائله إلينا. لم نقل شيئًا عن إيميلي على وجه التحديد، لكننا أشرنا إليها من بعيد أكثر من مرة. كان هام أهدأ من باقي أفراد الجمع.

أما بيجوتي، فقد أخبرتني بعدما قادتني إلى غرفة صغيرة، حيث كان كتاب التمساح مجهزًا لي على المنضدة، أن هام دائمًا على هذه الحال الهادئة. بكت وقالت إنها تظن أنه محطم القلب، على الرغم من أنه كان مليئًا بالشجاعة والعذوبة، وعمل بمهارة تفوق أي صانع قوارب في أي مكان في هذه المنطقة بأسرها. حدثتني أنه كان في كثير من الأوقات حيث أسمار الأمسيات، وبينما يتحدث عن حياتهم القديمة في منزلها الصندل، لا يلبث أن يحكي عن إيميلي الطفلة، لكنه لم يذكرها كامرأة بالغة قَطُّ.

أحسب أنني قرأت في ملامح وجهه أنه يود لو يتحدث معي على انفراد. لذلك قررت أن أضع نفسي في طريقه، مساء اليوم التالي، إلى المنزل بعد عمله. وما إن استقرت هذه الخطة في نفسي، حتى رحت في سبات. في هذه الليلة، ولأول مرة بعد كل هذه الليالي الكثيرة، أخذ السيد بيجوتي الشمعة من على النافذة وراح يتأرجح في شبكته القديمة حيث الصندل القديم، فغمغمت الرياح وصدحت بصوتها القديم حول رأسه.

انشغل طوال اليوم التالي بالتخلص من قاربه ومعالجته، ثم حزْم أمتعته وإرسالها إلى لندن عن طريق عربة. كانت أغراضه بعضًا من المقتنيات المحلية الصغيرة التي ظن أنها ستكون مفيدة له، ثم ما لبث أن ترك البقية أو منحها للسيدة جامدج. رافقته السيدة جامدج طوال اليوم. تمنيت آسفًا أن أرى المكان القديم مرة أخرى، قبل أن تخفى عنا معالمه، لذلك فقد خططت لمقابلتهما هناك في المساء، لكنني رتبت وقتي بحيث أقابل هام أولًا.

كان من السهل أن أقابله في طريقه، لأنني كنت أعرف مكان عمله. التقيت به عند جزء منحسر من الرمال، كنت أعلم أنه سيعبرها ثم سأعود معه بعدها، ساعتها ربما يتاح لديه وقت فراغ للتحدث معي إذا كان يرغب في ذلك حقًّا. لم أخطئ في تقدير تعبير وجهه. كنا قد تمشينا بعض الشيء معًا، حينما تحدث من دون أن يلتفت نحوي قائلًا:

«هل رأيتها يا سيد ديفي؟».

أجبت في هدوء: «رأيتها للحظة فقط، عندما كانت في حالة من إغماء».

مشينا لمسافة أبعد قليلًا، ثم قال:

«يا سيد ديفي، هل ستراها، هل تظن ذلك؟».

قلت: «ربما يكون الأمر مؤلمًا للغاية بالنسبة لها».

أجاب: «لقد أدركت ذلك. هذا ما سيحدث يا سيدي، هذا ما سيكون».

قلت في لطف: «لكن يا هام، إذا كان ثمة شيء يمكنني كتابته لها، بدلًا منك، في حال لم أتمكن من الحديث إليها، إذا كان ثمة شيء تود أن تخبرها به من خلالي، فإنني سأعتبر توصيل ذلك أمانة مقدسة».

«إنني متأكد من ذلك. شكرًا يا سيدي، إنه لطف كبير منك. أعتقد أن ثمة شيئًا أود قوله أو كتابته».

«أي شيء؟».

مشينا مسافة أبعد قليلًا في صمت، ثم قال:

«إنني أسامحها. كما أرجو منها أن تسامحني، بقدر مشاعري الجمة نحوها التي ربما تكون سببًا في الضغط عليها. تنتابني في بعض الأوقات الغريبة، تصورات عما لو أنها لم تكن قد وعدتني بالزواج منها. لو أنها وثقت بي يا سيدي، وعاملتني بود صافٍ، لأخبرتني بمكنون خاطرها، وربما أخذت بمشورتي، وربما كنت قد أنقذتها».

شددت على يده وقلت: «هل هذا كل شيء؟».

أجابني: «ثمة شيء آخر، إن سمحت لي بقول المزيد يا سيد ديفي».

مشينا، أبعد قليلًا مما مشينا، قبل أن يتكلم مرة أخرى. لم يكن يبكي حين توقف برهة كما عبرت عن ذلك في سطور، لكنه كان يتمالك نفسه ليتحدث في وضوح شديد.

«لقد أحببتها -وأحببت ذكراها- إلى درجة عميقة جدًّا- تملكتني -حتى ظننت من أعماق نفسي أنني رجل سعيد. يمكن أن أكون سعيدًا فقط -بعد نسيانها- وأنا لا أستطيع تحمل هذا الأمر إلا بمشقة، وعليها

أن تعلم أنني فعلت. أما أنت يا سيد ديفي فأكثر علمًا، ويمكنك التفكير في أي شيء تقوله لها بحيث يجعلها تعتقد أنني لم أتأذَّ كثيرًا، وما زلت أحبها، وتحزنني حالها. قل أي شيء يقنعها بأنني لم أعد أعاني من حياتي، وآمل مع ذلك أن أراها من دون لوم، ربما يتوقف أي خبيث عن بعث القلق والإرهاق بالنهاية - قل أي شيء من شأنه أن يخفف عن خاطرها الحزين، ومع ذلك، لا تجعلها تفكر أنني من الممكن أن أتزوج، أو ينال أي إنسان سواها مكانتها عندي -ها أنا أطلب منك أن تقول ذلك- ولتخبرها بصلواتي لأجلها - فقد كانت عزيزة جدًّا عليَّ».

شددت على يده الخشنة مرة أخرى، وأخبرته أنني سألتزم بتنفيذ ذلك بقدر ما أستطيع.

أجاب: «إنني أشكرك يا سيدي. كان من لطفك أن قابلتني. وكم كنت طيبًا في أن تتحمل هذه الرفقة. يا سيد ديفي، إنني أتفهم الأمور جيدًا، ستأتي عمتي إلى لندن قبل إبحارهم، وسوف يجتمعون من جديد، لكنني لا أحب رؤية السيد بيجوتي مرة أخرى. إنني على يقين من مشاعري حيال الأمر. نحن لا نصرح بذلك، ولكن سيكون الأمر أفضل على هذا النحو. إن رأيته للمرة الأخيرة، فهل ستتكرم وتبلغه بسلام محب وشكر من هذا اليتيم الذي كان له أكثر من أب؟».

وعدته بهذا أيضًا، بكل أمانة.

صافحني بحرارة قائلًا: «أشكرك مرة أخرى يا سيدي. أعرف أنك في طريقك للذهاب. وداعًا».

أشاح بحركة خفيفة من يده، كأنه يشرح لي أنه لا يستطيع دخول هذا المكان القديم، ثم التفت بعيدًا. رحت أتتبع هيئته الراحلة بينما يعبر النفايات في ضوء القمر، ثم ما لبث أن أبصرته وقد وجَّه وجهه شطر شريط من الضوء الفضي الساري على البحر. أخذ يدنو منه، وينظر إليه، حتى توارى بعيدًا.

كان باب الصندل مفتوحًا عندما اقتربت؛ دخلت فوجدت أنه خالٍ من أثاثه كله، وقد احتفظوا بإحدى الخزائن القديمة، حيث جلست عليها السيدة جامدج، واضعة سلة على ركبتها، ناظرة نحو السيد بيجوتي. أسند السيد بيجوتي كوعه على مسند للمدخنة الخشنة، بينما راح يحدق في عدد قليل من الجمرات المتهالكة على شباكها. رفع رأسه، كما كنت أتمنى، عند مجيئي، وتحدث إليَّ بطريقة مبهجة.

تناول شمعة وقال: «هيا، ستودع المكان وفاءً بالوعد، أليس كذلك يا سيد ديفي؟ عندك ما يكفي من الوقت الآن، أليس كذلك؟». قلت: «حسنًا، إنه الوقت المناسب».

تحدث السيد بيجوتي، قائلًا: «عجبًا! لم نكن مكتوفي الأيدي يا سيدي. لقد عملت السيدة جامدج كما لو أنها... أنا لا أعرف ما الذي لا تستطيع السيدة جامدج عمله». أخذ ينظر إليها في حيرة من أجل استجلاء موافقتها.

كانت السيدة جامدج متكئة على سلتها، ولم تُبدِ أي إيماءة.

قال السيد بيجوتي هامسًا: «إن هذه هي الخزانة ذاتها التي سبق وأن

جلست عليها لفترة طويلة مع إيميلي، سأحملها معي في آخر المطاف. وها هي غرفة نومك الصغيرة القديمة، فلتنظر إليها يا سيد ديفي، إنها لليلة قاتمة بقدر ما يمكن لفن من الفنون أن يتمناها».

كانت الرياح في حقيقة الأمر هادئة، إلا أنها أحدثت صوتًا مهيبًا، فهبت حول المنزل المهجور منتحبة هامسة في حزن بالغ. لقد اختفى كل شيء، حتى المرآة الصغيرة ذات الهيكل المصنوع من صدفة المحار. تخيلت نفسي مستلقيًا هناك، حيث وقع هذا التغيير العظيم لأول مرة في المنزل. فكرت في الطفلة ذات العينين الزرقاوين التي سحرتني. فكرت في ستيرفورث، وراودني طيف أحمق ومخيف من كونه قريبًا، ومن احتمالية أن أواجهه في أي منعطف أتجه إليه.

قال السيد بيجوتي بصوت هامس: «لا بد أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا، قبل أن يجد الصندل مستأجرين جددًا. إنهم يعاينونه على هذا النحو آسفين لحالته الآن».

سألته: «هل تخص أي شخص في الحي بمتابعة الأمر؟».

قال السيد بيجوتي: «نعم، أخص صانع الصاري. سأعطي له المفتاح الليلة».

نظرنا إلى الغرفة الصغيرة الأخرى، وعدنا إلى السيدة جامدج، التي لم تزل جالسة على الخزانة. ما لبثت أن طلبت من السيد بيجوتي أن يُوجِّه الضوء نحو المدخنة، حتى يضيء الطريق، لتتمكن من الخروج من الباب قبل إطفاء الشمعة.

تخلت السيدة جامدج فجأة عن سلتها، وقد تشبثت بذراع السيد بيجوتي ثم قالت: «يا دانيال، يا عزيزي دانيال، إن أسماري السالفة التي تحدثت عنها في هذا المنزل ستبقى خالدة، ليس عليَّ أن أتركها وراءنا. لا تفكر في نسياني يا دانيال، آه، لا تفعل ذلك أبدًا».

تفاجأ السيد بيجوتي، ثم أخذت نظراته تتحول من السيدة جامدج إليَّ، ثم مني إلى السيدة جامدج، كما لو أنه قد أفاق لتوِّه من النوم.

صرخت السيدة جامدج في حماس قائلة: «لا، عزيزي دانيال، لا تفعل. فلتأخذني معك لفترة طويلة يا دانيال، خذني معك لفترة طويلة مع إيميلي. سأكون خادمتك، سأكون ثابتة وهادئة. لو كان ثمة عبيد في هذه الأطراف البعيدة حيث سترحل، فسأكون ملتزمة بخدمتك وحدك، وسأسعد بذلك، لكن لا تتركني وراءك هنا يا دانيال، يا عزيزي».

هز السيد بيجوتي رأسه قائلًا: «يا روحي الطيبة، إنكِ لا تعرفين ما الرحلة الطويلة، وما هذه الحياة الصعبة». صرخت السيدة جامدج مجيبة: «حقًّا، إنني أعرف يا دانيال، أستطيع أن أخمن. أما كلماتي المودعة تحت هذا السقف، فهي أنني سأدخل المنزل ثم أموت، إذا لم تأخذني معك. أستطيع أن أحفر يا دانيال. أستطيع أن أعمل. أستطيع العيش في كد وكبد. أستطيع أن أكون محبة وصبورة الآن، أكثر مما تعتقد يا دانيال، لو أنك جربتني. لن أنبس ببنت شفة، لو كنت على شفا الموت من العوز يا دانيال بيجوتي. لكنني سأذهب معك ومع إيميلي، إذا سمحت لي، ولو إلى نهاية العالم. أعرف كيف يدور الأمر، أعلم أنك تظن أنني وحيدة وبائسة، لكن الأمر يا حبيبي الغالي لم يعد كذلك.

إنني لن أجلس هنا طويلًا، لأراقب وأتذكر تجاربك، من دون أن أفعل شيئًا جيدًا حيال أمرك. يا سيد ديفي، فلتتحدث معه من أجلي. أنا أعرف طباعه، وكذلك أعرف إيميلي، وأعرف أوجاعهما، ويمكنني أن أصير مصدر راحة لهما، في بعض الأوقات الصعبة، وأستطيع العمل في خدمتهما. يا دانيال، عزيزي دانيال، دعني أذهب معك إلى الأبد».

تناولت السيدة جامدج يده وقبلتها في حنان وعاطفة ودودة، في نشوة عائلية من الإخلاص والامتنان، وهو ما يستحقه عن جدارة.

أخرجنا الخزانة، وأطفأنا الشمعة، وأغلقنا الباب من الخارج، وتركنا الصندل القديم مغلقًا، في بقعة داكنة من هذا الليل الغائم. استقللنا في اليوم التالي الحافلة متوجهين إلى لندن، بينما كانت السيدة جامدج وسلتها على المقعد الخلفي، وقد صارت سعيدة.





الفصل الثاني والخمسون

أحضر انفجارًا

كان الوقت الذي عيَّنه السيد ميكوبر يقترب، وقد مكثت أنا وعمتي طوال أربع وعشرين ساعة نفكر فيما سنفعله، لأنها لم ترغب في ترك دورا وحدها. آه، لقد صرت أحمل دورا بسهولة صعودًا وهبوطًا الآن.

اشترط السيد ميكوبر حضور عمتي، إلا أننا عزمنا على بقائها في المنزل، على أن أمثلها أنا والسيد دك بحضورنا. باختصار، لقد عقدنا العزم على خوض هذا الغمار، إلى أن اعترضتنا دورا مرة أخرى بإعلانها أنها لن تسامح نفسها أبدًا، ولن تسامح هذا الولد الشرير مطلقًا، إذا بقيت عمتي، لأي ذريعة أو سبب.

قالت دورا بينما تهز تجعيد شعرها في وجه عمتي: «لن أتحدث إليكِ. سأصير سخيفة. سأجعل جيب ينبح عليكِ طوال اليوم. سأتيقن من أنكِ صرتِ حقًّا شيئًا قديمًا لا فائدة منه، إذا لم تذهبي».

ضحكت عمتي قائلة: «يا برعمنا الصغير، إنكِ تعلمين أنه لا يمكنكِ الاستغناء عني».

قالت دورا: «بل أستطيع. لا فائدة لكِ على الإطلاق. إنكِ لا تستطيعين صعود السلم وهبوطه مرات من أجلي طوال اليوم. إنكِ لا تجلسين أبدًا لتقصي عليَّ حكايات دودي، عندما كان حذاؤه مهترئًا، ومغطى بالغبار. آه، يا له من عث صغير مسكين! إنكِ لا تفعلين أي شيء لإرضائي، أليس كذلك يا عزيزتي؟». أسرعت دورا بعدها بتقبيل عمتي حتى لا تظن عمتي أنها تعني ما قالته حقًّا، ثم قالت: «بلى، إنكِ تفعلين، إنني أمزح فقط».

قالت دورا بنبرة دلال: «لكن يا عمة، فلتسمعيني الآن. يجب أن تذهبي، ولن أكف عن معاكستكِ حتى تسمحي لي أن أعبر عما أريده بطريقتي الخاصة. سأجعل حياة دودي المشاغب نكدًا وكدرًا، إذا لم يدفعكِ إلى الذهاب. سأجعل من نفسي شخصًا بغيضًا، بل سأدفع جيب إلى التصرف على المنوال نفسه. سأجعلكِ تتمنين لو ذهبتِ، لتتخلصي من هذه الحال إلى حال أفضل. ستندمين في كل يوم من هذه اللحظة وإلى الأبد إن لم تذهبي». راحت دورا تملس شعرها وتتلفت بنظراتها إليَّ ثم إلى عمتي متسائلة: «وبالإضافة إلى ذلك كله، لماذا لا تذهبان معًا؟ إنني لست مريضة للغاية. هل أنا حقًّا كذلك؟».

صرخت عمتي: «لِمَ تطرحين هذا السؤال؟ أي سؤال هذا!».

قلت: «يا لها من خيالات!».

قالت دورا وهي تدير نظراتها ببطء من أحدنا إلى الآخر، ثم ترفع شفتيها الجميلتين لتقبلنا وهي مستلقية على أريكتها: «نعم، إنني أعلم

أنني سخيفة، حسنًا إذن، يجب أن تذهبا معًا، وإلا فإنني لن أصدقكما، بل سأبكي».

رأيت في وجه عمتي ما يوحي بأنها قد بدأت الآن تفسح مجالًا للموافقة، كما رأيت وجه دورا قد أشرق وتهلل من جديد.

قالت دورا: «ستعودان محملين بالكثير من القصص لتخبراني بها، وسيستغرق فهمي للأمر أسبوعًا على الأقل. أعلم أنني لن أفهم ما ستقولانه لفترة طويلة، خاصة إذا كانت الأخبار تتعلق بأي عمل بينكما. ومن المؤكد أنكما ستحكيان أمورًا عنه. أما إذا كان ثمة موضوعات أخرى يمكن إضافتها إلى جانب ذلك، فإنني لا أعرف متى سأتفهمها. يبدو أن طفلي الشرير سيظل بائسًا كدرًا طوال الوقت، مضطرًّا إلى شرح هذه الأمور لي. ها! ستذهبان الآن، أليس كذلك؟ ستغيبان لليلة واحدة فقط، وسيتولى جيب العناية بي في غيابكما. سيحملني دودي إلى الطابق العلوي قبل أن تذهبا، ولن أنزل مرة أخرى حتى تعودا، وسوف تتلقى أجنيس رسالة توبيخ مخيفة مني، لأنها لم تزُرنا قَطُّ».

اتفقنا من دون مزيد من التشاور على أن نذهب معًا، وأن دورا لم تكن سوى محتالة صغيرة تتظاهر بأنها مريضة إلى حد ما، لأنها تحب أن نذللها. بدت دورا حينها مسرورة جدًّا ومرحة جدًّا. أما نحن الأربعة -أي عمتي، والسيد دك، وترادلز وأنا- فقد ذهبنا إلى كانتربري في عربة دوفر في تلك الليلة.

وصلنا إلى الفندق الذي طلب منا السيد ميكوبر أن ننتظره فيه، بعد أن تجاوزنا بعض العقبات في منتصف الليل. وجدت رسالة تفيد بأنه

سيلتقي بنا في الصباح في الموعد المحدد في الساعة التاسعة والنصف. توجَّه كل واحد منا إلى سريره، وكنا نرتجف من البرد، منهكين بعد هذه الأوقات العصيبة. سرنا عبر ممرات ضيقة ومختلفة تفوح منها رائحة تشبه شيئًا منقوعًا منذ زمن طويل، في محلول من الحساء أو رائحة الإسطبلات.

تجولت في الصباح الباكر في الشوارع القديمة الهادئة العزيزة على قلبي، وقد اختلطت مرة أخرى في خيالي بظلال البوابات ومداخل الكنائس الجليلة. كانت الغربان تحلق حول أبراج الكاتدرائية. أما أبراج الكنائس نفسها، المطلة على الأميال العتيقة الممتدة في هذه البلدة الثرية النضرة والجداول الخلابة، فقد راحت تشق هواء هذا الصباح المشرق، كما لو أن شيئًا لم يتغير على وجه البسيطة، إلى أن دقت أجراس الكنيسة معلنة في حزن عن التغير الذي اعترى كل شيء. باحت لي عن عمرها الحقيقي، وعن شباب دورا النضر، وعن الكثيرين الذين لم تعتريهم الشيخوخة، ممن عاشوا وأحبوا ثم ماتوا، في حين ظلت أصداء أجراس الكنيسة تدوي عبر درع الأمير السوداء الصدئة المعلقة داخلها[1]، ثم تلاشت أنفاسهم في الهواء كما تتلاشى الدوائر على صفحة الماء.

نظرت إلى المنزل القديم عند زاوية الشارع، لكنني لم أقترب منه، لئلا يلاحظني أحد فأتسبب عن غير قصد في إفساد الغرض الذي

---

(١) الأمير الأسود اسم أطلق على إدوارد من وودستوك، وهو الابن الأكبر للملك إدوارد الثالث، دُفن في كاتدرائية كانتربري، وقد نسبت إليه درع سوداء، مسماة بدرع السلام، وهي محفوظة بالكاتدرائية.

اعتزمت فعله. كانت أشعة شمس الصباح تضرب سقف المنزل ونوافذه الشبكية، وتلامسها بوميض من ذهب، كما بدا أن أشعتها راحت تلامس قلبي مستثيرة سلامه القديم.

تجولت في أرجاء البلدة لساعة أو نحو ذلك، ثم عدت إلى الشارع الرئيسي، الذي كان قد نفض عنه أثر نومه في الليلة الماضية. رأيت من بين المتنقلين في المتاجر ذاك الجزار عدوي القديم، الذي ينتعل الآن حذاءً طويلًا وقد رُزق بطفلٍ دفعه إلى العمل الجاد طلبًا لرزقه. كان الطفل يرضع، وقد بدا عليه أنه عضو صالح في المجتمع.

استولى القلق علينا جميعًا، ونفد صبرنا بعدما جلسنا لتناول الإفطار. ازددنا حيرة واضطربنا مع اقتراب الساعة من التاسعة والنصف بينما ننتظر السيد ميكوبر. لم نستطع في النهاية أن نتظاهر بالإقبال على تناول الطعام، باستثناء السيد دك، فلم يتجاوز الإفطار مجرد كونه شكلًا وطقسًا لا معنى له. راحت عمتي تتمشى بين أرجاء الغرفة ذهابًا وإيابًا، وجلس ترادلز على الأريكة متظاهرًا بأنه منكب على قراءة الصحيفة، بينما زاغت عيناه نحو السقف. أما أنا فقد نظرت من النافذة لأنبههم إلى قدوم السيد ميكوبر فور مجيئه، ولم أُطِل الانتظار حتى ظهر في الشارع مع أول دقات للساعة في التاسعة والنصف.

قلت: «ها هو ذا، لكنه لا يرتدي زيه الرسمي».

ربطت عمتي أربطة قبعتها - نزلت إلى تناول الإفطار مرتدية قبعتها - ثم تلفحت بشالها، كما لو أنها تسعد لأي شيء عارض خطير لا هوادة فيه. وراح ترادلز يحكم أزرار معطفه بتأنٍّ. انزعج السيد دك من

هذه المظاهر المتكلفة، لكنه شعر أنه من الضروري تقليدها، فسحب قبعته بكلتا يديه حتى ثبتها فوق أذنيه قدر استطاعته، ثم خلعها على الفور مرة أخرى للترحيب بالسيد ميكوبر.

قال السيد ميكوبر: «أيها السادة، سيدتي، صباح الخير. ويا سيدي العزيز، يا لك من رجل طيب». قصد السيد دك، وقد صافحه بحرارة.

قال السيد دك: «هل تناولت الإفطار؟ أترغب في شرائح اللحم؟!».

صرخ السيد ميكوبر بعد أن منعه من دق الجرس: «لا أريده يا سيدي الكريم، إنني والشهية يا سيد ديكسون قد صرنا غرباء منذ وقت طويل».

صار السيد ديكسون سعيدًا جدًّا باسمه الجديد، وبدا أنه يتصور أنه جدير باستحقاق هذا الاسم من السيد ميكوبر، حتى إنه صافحه مرة أخرى امتنانًا، وراح يضحك ضحكات طفولية.

قالت عمتي: «يا دك، انتبه».

عاد السيد دك إلى رشده، وقد احمر وجهه خجلًا.

قالت عمتي للسيد ميكوبر، وهي ترتدي قفازها: «أما الآن يا سيدي، فإننا مستعدون لجبل فيزوف[1]، أو أي شيء غيره، بمجرد أن تشاء».

وقال السيد ميكوبر: «يا سيدتي، أثق بأنكِ ستشهدين انفجارًا قريبًا. وأحسب يا سيد ترادلز أنك قد تأذن لي بأن أذكر هنا أننا تحدثنا عن الأمر معًا، أليس كذلك؟».

---

(١) بركان فيزوف يقع على خليج نابولي في إيطاليا.

قال ترادلز وقد نظرتُ إليه بدهشة: «هذا ما وقع يا كوبرفيلد بلا شك. لقد استشارني السيد ميكوبر حول ما يفكر فيه. وقد نصحته بأحسن الرأي».

أردف السيد ميكوبر قائلًا: «إن لم أكن مخطئًا يا سيد ترادلز، فإن ما أفكر فيه هو الكشف عن أمر خطير».

قال ترادلز: «إنه خطير للغاية».

قال السيد ميكوبر: «ربما في ظل هذه الظروف، يا سيدتي ويا سادتي، ستقدمون إليَّ معروفًا بتهيئة أنفسكم في الوقت الحالي، لتوجيه شخص، وإن كان لا يستحق أن يُلتفت إليه في أي ظرف آخر، فلا يعد أكثر من ضال شريد على ضفاف البشرية. فهل تستطيعون اعتباره أخًا لكم في الإنسانية، على الرغم من أخطائه التي شوهت آدميته، وهل تستطيعون إصلاح ظروفه؟».

قلت: «إننا نثق بك تمامًا يا سيد ميكوبر، وسنفعل ما يحلو لك».

قال السيد ميكوبر: «يا سيد كوبرفيلد، إن ثقتك في محلها في هذا الأمر. أود أن أستأذنكم في الاختلاء بنفسي لخمس دقائق، ثم استقبالكم جميعًا في مكتب ويكفيلد وهيب الذي أعمل به، ومن ثَم أستطيع السؤال عن أحوال الآنسة ويكفيلد».

نظرت أنا وعمتي إلى ترادلز، الذي أومأ بالموافقة.

استطرد السيد ميكوبر: «ليس لديَّ شيء جديد لأقوله في الوقت الحالي».

لفتني دهشة لا متناهية، في حين انحنى أمامنا ثم ابتعد عنا بهذه الطريقة الغريبة كل الغرابة، وقد بدا وجهه شاحبًا للغاية.

نظرت إلى ترادلز مستفهمًا عما نرى، فما كان منه إلا أن ابتسم، وهز رأسه وقد انتصب شعره فوقه من الدهشة. أخرجت ساعتي بعدها، ورحت أحسب الدقائق الخمس التي حددها. نظرت إلى عمتي فإذا بساعتها في يدها، وإذا بها تقوم بالأمر نفسه. انتهى الوقت المحدد، وناول ترادلز ذراعه لعمتي، ثم خرجنا معًا متجهين إلى المنزل القديم، من دون أن نتفوه بكلمة واحدة طوال الطريق.

وجدنا السيد ميكوبر في مكتبه في الطابق الأرضي. كان يكتب، أو يتظاهر بالكتابة في تأنٍّ. كانت مسطرة المكتب الكبيرة مندسة في صدريته، ولم يستطع إخفاءها جيدًا، بل ظهرت منها قدم أو أكثر بارزة من حضنه، كما لو أنها نوع جديد من الزينة تزين القميص.

بدا لي أنهم يتوقعون أن أبدأ بالحديث، فقلت بصوت عالٍ: «كيف حالك يا سيد ميكوبر؟».

قال السيد ميكوبر بنبرة جادة: «يا سيد كوبرفيلد، أرجو أن تكون بخير».

قلت: «هل الآنسة ويكفيلد في المنزل؟».

أجابني قائلًا: «إن السيد ويكفيلد مريض ملازم للفراش يا سيدي، يشكو من الحمى الروماتيزمية. لكن لا يراودني شك في أن الآنسة ويكفيلد ستسعد برؤية الأصدقاء القدامى. هلا تفضلت بالدخول يا سيدي؟».

لقد سبقنا إلى غرفة الطعام - كانت الغرفة الأولى التي دخلتها في ذلك المنزل، ثم فتح باب مكتب السيد ويكفيلد القديم، وقال بصوت رنان:

«الآنسة تروتوود والسيد ديفيد كوبرفيلد والسيد توماس ترادلز والسيد ديكسون».

لم أرَ يورايا هيب منذ صفعته. وكان من الواضح أن زيارتنا له قد أذهلته، وأجرؤ على القول بأن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا. لم يستطع أن يعقد حاجبيه غضبًا، إذ لم يكن لهما أي ملامح تذكر، لكنه عبس إلى الحد الذي كاد معه أن يغمض عينيه الصغيرتين، في حين رفع يده المروعة بسرعة إلى ذقنه، دلالة على الخوف أو المفاجأة. ولم يظهر بهذا المشهد إلا حين صرنا بصدد دخول غرفته، بعدما ألقيت نظرة عليه من فوق كتف عمتي، لكنه بعد لحظة واحدة، عاد إلى اتضاعه كعهده دومًا.

قال: «حسنًا، إنني على يقين بأن هذه الزيارة لم تكن متوقعة. قد أقول إن اجتماع جميع الأصدقاء حول كنيسة سانت بول في وقت واحد، أمر ممتع وغير متوقع. يا أيها السيد كوبرفيلد، أرجو أن تكون بخير، وإذا سمحت لي بالتعبير عما يدور في نفسي بتواضع، فإنني أتقدم بخالص الود إليهم كما هي الحال دائمًا مع أصدقائك، سواء بادلوني الود نفسه أو لم يبادلوني إياه. ويا سيدي، إني لأرجو أن تكون السيدة كوبرفيلد في أفضل حال. إنني أؤكد لكم أننا في الآونة الأخيرة قد صرنا قلقين للغاية على صحتها بسبب بعض الأقاويل السيئة عن حالتها».

شعرت بالخجل من أن أسمح له بمصافحتي، لكنني لم أعرف ماذا أفعل غير ذلك.

تحدث يورايا بابتسامته البغيضة، فقال: «لقد تغيرت الأمور في هذا المكتب يا آنسة تروتوود، منذ كنت كاتبًا منحطًّا حين توليت أمر مهركِ، أليس كذلك؟ لكنني لم أتغير يا آنسة تروتوود».

أجابت عمتي: «حسنًا، سأخبرك بالحقيقة يا سيدي. إنني أحسب أنك ثابت جدًّا على وعود شبابك، إذا كان هذا القول يرضيك».

قال يورايا وهو يتلوى بأسلوبه المعتاد القبيح: «شكرًا لكِ يا آنسة تروتوود على هذا الرأي الطيب. يا ميكوبر، فلتخبر الآنسة أجنيس وأمي بوجودهم. كم ستسعد أمي برؤية هذه الجماعة». ثم راح يهيئ لنا مقاعد للجلوس.

اشتعلت عين يورايا بحمرة ماكرة وقد التقت بعين ترادلز عن طريق الخطأ، لأنها كانت تفحصنا ثم تهرب من نظراتنا في الحال، فراح ترادلز يقول: «هل أنت مشغول يا سيد هيب؟».

عاد يورايا إلى مقعده الرسمي، وأخذ يعتصر يديه، ووضع راحة يده بين ركبتيه العظيمتين، ثم أجاب قائلًا: «كلا يا سيد ترادلز، لست مشغولًا بالقدر الذي كنت أرجوه. لكن المحامين مثل أسماك القرش والعلق، وهم كما تعلم لا يشعرون بالرضا بسهولة. إن أيدينا أنا وميكوبر مشغولة بالعمل بشكل عام، وذلك لأن السيد ويكفيلد لا يكاد يصلح لأي وظيفة يا سيدي. إلا أنني على يقين من أن عملي لديه يسعدني كما

أنه واجب عليَّ. ولا أظن أنك كنت على علاقة وطيدة بالسيد ويكفيلد يا سيد ترادلز، أليس كذلك؟ أحسب أنني لم أتشرف برؤيتك ولو لمرة واحدة قبل الآن».

قال ترادلز: «كلا، لم أكن على علاقة وطيدة بالسيد ويكفيلد، وإلا كنت قد التقيت بك منذ فترة طويلة يا سيد هيب».

كانت لهجة هذا الرد تحمل شيئًا جعل يورايا ينظر إلى المتحدث مرة أخرى، مُبديًا تعبيرًا شريرًا ومريبًا للغاية. لكنه ما إن وقعت عيناه على ترادلز، حتى أبصر على ملامحه حسن النية، وقد انتصب شعر رأسه، وإذا بترادلز ينفي ببساطة ما دار في ذهن يورايا بعد أن تحدث وقد سرت رعشة في جسده كله، ولكنها بدت بشكل خاص نابعة من حلقه، فقال:

«إنني آسف لذلك يا سيد ترادلز. لو أنك تعرفه لأعجبت به بقدر إعجابنا جميعًا به. أما إخفاقاته الصغيرة فكانت أولى أن تجعله محبوبًا بدرجة أكبر. ولكن إذا أردت سماع حديث بليغ عن شريكي في العمل، فينبغي عليَّ أن أحيلك إلى كوبرفيلد. وإذا لم تسمعه من قبل، فإن محور الأسرة عنده مؤثر للغاية».

مُنعت من التنصل من هذه المجاملة -إذا كان عليَّ أن أتنصل منها على أي حال- إذ أقبلت علينا أجنيس، بعد أن أعلن السيد ميكوبر عن دخولها في هذه اللحظة. وأحسب أنها لم تكن واثقة من نفسها على غير العادة، بل كان من الواضح أنها تعاني قلقًا وتعبًا. إلا أن ودها الصادق وجمالها الهادئ قد أضفيا عليها بريقًا ولطفًا.

رأيت يورايا يراقبها وهي تستقبلنا، فذكرتني هيئته بصورة جني قبيح ومتمرد يراقب الروح الطيبة. وفي غضون تخيلاتي، تبادل السيد ميكوبر وترادلز بعض الإيماءات الطفيفة، ثم خرج ترادلز من دون أن يلحظه أحد غيري.

قال يورايا: «انصرف يا ميكوبر».

وقف السيد ميكوبر، وقد أسند يده على المسطرة المخبأة في صدره، وظل منتصبًا أمام الباب. بدا عليه بصورة لا لبس فيها، أنه يفكر في أن أحد أقرانه من الرجال، بل إن هذا الرجل هو صاحب عمله.

قال يورايا: «ماذا تنتظر؟ يا ميكوبر، هل سمعت أنني أقول لك انصرف؟».

أجاب السيد ميكوبر الثابت في مكانه، فقال: «نعم».

قال يورايا: «إذن لماذا تنتظر؟».

أجاب السيد ميكوبر باندفاع: «لأنني... باختصار، أريد أن أبقى».

امتعض وجه يورايا، ولاح عليه شحوب قبيح، وانتشرت صفرة شحوبه حتى أضعفت احمرار بشرته. ثم أطال النظر إلى السيد ميكوبر، وقد صارت قسمات وجهه بأكملها تلهث بأنفاس متقطعة.

قال محاولًا تصنع الابتسام: «إنك رجل مشتت كما يعرفك الناس كلهم، وأخشى أن تُجبرني على التخلص منك. امشِ، سأتحدث معك فيما بعد».

تحدث السيد ميكوبر مرة أخرى، وقد انفجر بأقصى درجات الحدة

فجأة، فقال: «إذا كان ثمة وغد على هذه الأرض، وقد تحدثت معه كثيرًا، فإن هذا الوغد يُدعى... هيب».

ارتد يورايا إلى الوراء وكأنه قد صُفع أو لُسع بشيء. ثم قال بصوت منخفض وهو يدير نظراته بيننا ببطء، وقد ارتسم على وجهه أحلك تعبير شرير يمكن أن يرتسم على وجه إنسان:

«آه! إنها مؤامرة! لقد التقيتم هنا في موعد محدد مقصود! وأنت يا كوبرفيلد، هل تريد أن تقتسم الغنائم مع كاتبي؟ والآن، فلتحذر! لن تنفذ شيئًا من هذا. إن كلًّا منا يفهم الآخر، أنت وأنا، لا تجمعنا أي مودة. لقد كنت منذ قدومك الأول إلى هنا جروًا فخورًا متكبرًا دائمًا. إنك تحسدني على الترقي، أليس كذلك؟ لن تفلح مؤامراتك ضدي. سأتصدى لها. يا ميكوبر، اخرج. سأتحدث إليك فيما بعد».

قلت: «يا سيد ميكوبر، لقد تغير هذا الرجل تغييرًا مفاجئًا، وقد ظهر عليه في أكثر من جانب، فتجاوز المألوف ولم يفضِ بالحقيقة في أمر بعينه، مما يؤكد لي أنه قد خرج عن رشده، فتعامل معه بما يستحق».

قال يورايا، بالصوت الخفيض نفسه، وقد تصبب عرقًا، وراح يمسحه عن جبينه بيده النحيلة الطويلة: «يا لكم من عصابة مذهلة، أليس كذلك؟ هل تشترون كاتبي وهو من حثالة المجتمع -كما كنت أنت يا كوبرفيلد قبل أن يتعطف أحد عليك، كما تعلم- لتشويه سمعتي بأكاذيبه؟ يا آنسة تروتوود، من الأفضل أن توقفي هذا الهراء، وإلا سأوقف زوجكِ أسرع مما تتوقعين. إنني لم أعرف قصتك عبثًا بل بمهنية واحتراف يا أيتها السيدة العجوز. ويا آنسة ويكفيلد، إذا كنتِ تحبين والدكِ قيد أنملة،

فمن الأفضل ألا تنضمي إلى هذه العصابة. وأقول لكِ إنكِ إذا انضممتِ إليهم، سأطيح به. والآن هيا، لقد أوقعت بعضًا منكم تحت المقصلة. أعيدوا التفكير، قبل أن أمررها فوق رقابكم. فكر مرة أخرى يا ميكوبر، إذا كنت لا تريد أن تُسحق. أنصحك أن تنصرف بعيدًا عن هنا، وسوف أتحدث معك فيما بعد، أيها الأحمق، فلتنصرف قبل فوات الأوان. أين أمي؟». لاحظ يورايا غياب ترادلز فجأة، فسحب حبل الجرس في توتر، وقال: «يا لها من أفعال مذهلة تجري في منزلي!».

قال ترادلز، وقد عاد مع الأم المحترمة لهذا الابن المحترم: «ها هي السيدة هيب يا سيدي، لقد سمحت لنفسي بأن أتعرف عليها».

رد يورايا قائلًا: «من أنت حتى تُعرِّف نفسك لها؟ وماذا تريد بوجودك هنا؟».

قال ترادلز بلهجة هادئة قريبة إلى التفكير العملي: «إنني وكيل السيد ويكفيلد وصديقه يا سيدي، كما أنني أحمل في جيبي توكيلًا رسميًّا منه، لأنوب عنه في الأمور كافة».

قال يورايا بعد أن صار وجهه أبشع وأقبح مما كان: «يا لهذا الحمار العجوز! يشرب حتى يفقد عقله، ثم تحصل منه على هذا التوكيل بالاحتيال!».

قال ترادلز بهدوء: «أعرف أن شيئًا قد أُخذ منه بالاحتيال. كما أنك تعرف هذا الشيء يا سيد هيب. سنحيل هذه المسألة، إذا سمحت، إلى السيد ميكوبر».

بدأت السيدة هيب تبدي إيماءة قلقة، وتقول: «يوري...».

أجاب: «أمسكي لسانكِ يا أمي. إن أصلح ما يمكن عمله في الوقت الراهن هو الإقلال من الحديث».

«لكن يا يوري...».

«هلا أمسكتِ لسانكِ يا أمي وتركتِ الأمر لي؟».

كنت أعرف منذ فترة طويلة أن خنوعه زائف، وأن ادعاءاته كلها خادعة وجوفاء، إلا أنني لم أكن أتصور مدى نفاقه، حتى رأيته في هذه اللحظة بعد أن أزال قناعه. وكانت المفاجأة والسرعة اللتان أسقطه بهما بعد أن أدرك أنه لن يفيده، قد كشفتا عن مدى الحقد والوقاحة والكراهية. ويا لسخرية القدر، كم تباهى بالشر الذي اقترفه حتى هذه اللحظة! لقد ظل طوال هذا الوقت يائسًا أيضًا، بعد أن بذل قصارى جهده وتفكيره من أجل استغلالنا. كان وجهه الحقيقي يتوافق تمامًا مع تجربتي معه التي مررت بها منذ أن عرفته من فترة طويلة، حين فاجأني في البداية ثم كرهته أشد الكراهية.

لن أقول شيئًا عن النظرة التي وجهها لي، وهو واقف يرمقنا بنظراته واحدة تلو الأخرى، لأنني كنت أعرف دائمًا أنه يكرهني، وقد تذكرت علامات صفعة يدي على خده. لكن عندما انتقلت عيناه إلى أجنيس، ورأيت الغضب الذي شعر به لأن سلطته عليها تتلاشى، ولاحت لي خيبة أمله في مشاعره البغيضة التي دفعته إلى التطلع إلى الارتباط بإنسانة فاضلة، أبعد أن ينالها رجل مثله لا يقدرها قدرها أو يهتم بمحاسنها،

انتابتني صدمة من مجرد التفكير في أنها قد عاشت، ولو لساعة واحدة، على مرأى من رجل مثله.

فرك الجزء السفلي من وجهه، ونظر إلينا بهاتين العينين المقيتتين من فوق أصابعه البشعة. راح بعدها يوجه حديثًا آخر لي، بطريقة تمزج بين الصراخ والإساءة.

قال: «هل تظن أن من حقك، أنت يا كوبرفيلد، وأنت الذي تفتخر بشرفك كثيرًا وتتباهى بأشياء من هذا القبيل، أن تتسلل إلى مكاني، وتتجسس عليَّ مع كاتبي؟ لو كنت أنا من اقترف مثل هذا الفعل فما كنت لأعجب، لأنني لا أدَّعي أنني رجل نبيل. وإن كنتُ -على حد قول ميكوبر- لم أتسكع في الشارع قَطُّ مثلك. فيا للعجب من أن تقدم أنت على هذا الفعل! ألم تخشَ عواقب القيام بذلك أيضًا؟ إنك لا تتصور ما سأفعله ردًّا عليك. لا تعرف كيف ستتورط في مشكلات بسبب تآمرك. جميل جدًّا، سوف نرى. أنت يا سيد، أيًّا ما كان اسمك، كنت ستحيل بعض المسائل إلى ميكوبر، هاك حكمك، لماذا لا تحثه على الكلام؟ أظن أنه قد تعلم الدرس».

لم يلحظ تأثيرًا يذكر لكلامه عليَّ أو على أيٍّ منا، فجلس على حافة مكتبه وقد دس يديه في جيوبه، وقد لف إحدى ساقيه حول الأخرى، منتظرًا عاقبة كلامه في إصرار وترقب.

أما السيد ميكوبر، فكنت قد كبحت جماح غضبه حتى هذه اللحظة بصعوبة بالغة، بعد أن حاول مرارًا مقاطعة يورايا بتكرار الأحرف الأولى من كلمة مجرم، من دون الوصول إلى نهايتها، فإذا به ينفجر في

هذه اللحظة ويسحب المسطرة من صدره (على ما يبدو كان يريد أن يستخدمها كسلاح دفاعي)، وأخرج من جيبه وثيقة مطوية بطول صفحة كاملة، كانت مطوية على شكل كتاب كبير. بسط الوثيقة بانتفاضاته المعهودة، ثم ألقى نظرة خاطفة على محتوياتها، وكأنه يعتز بإعجاب فني بأسلوب كتابتها، ومضى يقرأ ما يلي:

«عزيزتي الآنسة تروتوود والسادة الأعزاء...».

قالت عمتي بصوت منخفض: «فليرحم الله هذا الرجل، إنه ينسخ الخطابات على رزمة من الورق، حتى لو كانت تشكل أعظم إساءة».

تابع السيد ميكوبر قراءته، من دون أن يسمعها.

«إنني شاخص أمامكم للتنديد بأكثر الناس شرًّا على الإطلاق». أشار السيد ميكوبر بمسطرته إلى يورايا هيب، من دون أن يرفع بصره عن كتابه، ومضى يقول: «إنني لا أطلب شيئًا لنفسي. لقد كنت منذ المهد فريسة الالتزامات المالية التي لم أتمكن من سدادها، وصرت لعبة في يد الظروف المهينة. صار العار، والعوز، واليأس، والجنون، مجتمعين أو منفصلين، عقبة أمام مسيرتي المهنية».

كانت اللذة التي وصف بها السيد ميكوبر نفسه بأنه فريسة لهذه المصائب الكئيبة، لا يضاهيها سوى التركيز الذي قرأ به رسالته، والتبجيل الذي حمله بها، بينما راح يهز رأسه، حين يظن أنه قد أصاب بجملته كبد مقصده.

استطرد قائلًا: «تراكمت الإهانة، والعوز، واليأس، والجنون،

بعد أن دخلت إلى مكتب الشركة -أو كما يطلق عليه جارنا من بلاد الغال[1]، وسُمِّي رسميًا بمكتب ويكفيلد وهيب، ولكنه في الواقع، تحت سلطة هيب وحده. إن هيب، وهيب فقط، هو المحرك الرئيس لتلك الآلة. هيب، وهيب فقط، هو المزور والغشاش».

اشتد وجه يورايا زرقة، واختلط به شحوب بعد ظهور هذا الخطاب، فاندفع إليه ويبدو أنه أراد أن يمزقه إلى أشلاء. منعه السيد ميكوبر بمعجزة وبراعة مدهشة أو حظ عجيب، إذ أمسك بمفاصل أصابعه مع المسطرة، فعطل يده اليمنى عن الإمساك بأوراقه، فانهار رسغ يورايا كما لو أنه مكسور، وأصدرت ضربة المسطرة صوتًا كما لو أنها سقطت على خشب.

قال يورايا وهو يتلوى من الألم بطريقة جديدة: «ليأخذك شيطان! سأنال منك تحت أي ظرف».

شهق السيد ميكوبر قائلًا: «اقترب مني مرة أخرى، إنك أنت... أنت... أنت من يحمل العار، وإذا كان لديك رأس إنسان حقيقي، فسأكسره. هيا... هيا تعالَ».

أظن أنني لم أرَ قطُّ أي شيء أكثر تفاهة من هذا المشهد - لم أزل أذكر هذا الشعور حتى يومي هذا. كان السيد ميكوبر يتخذ من مسطرته سلاحًا للقتال ويصرخ قائلًا: «هيا تعالَ»، بينما دفعته أنا وترادلز للعودة إلى إحدى زوايا الغرفة، ولكننا كلما أبقيناه عندها، أصر على التحرك مرة أخرى.

---

(١) اسم أطلقه الرومان على المنطقة التي تمتد من شمال إيطاليا إلى فرنسا وبلجيكا.

تمتم عدوه متحدثًا إلى نفسه، بعد أن فرك يده الجريحة لبعض الوقت، وسحب ببطء منديلًا كان ملتفًّا حول رقبته وربطه على جرحه، ثم أمسكها بيده الأخرى، وجلس على طاولته ناظرًا بوجهه المتجهم إلى أسفل.

هدأ السيد ميكوبر بما فيه الكفاية، وشرع في قراءة رسالته، فقال:

«إن الراتب الذي دخلت به في خدمة - هيب»، ظل يتوقف دائمًا أمام تلك الكلمة وراح ينطقها بقوة مذهلة وقد استطرد: «لم يتجاوز اثنين وعشرين شلنًا وستة بنسات في الأسبوع، على أن يصير باقي أجري مرهونًا بقيمة مجهوداتي المهنية، أو بعبارة أخرى أدق وصفًا، يُحدَّد على أساس مذلتي، وطيبة دوافعي، وفقر عائلتي، والتشابه الأخلاقي العام - أو بالأحرى غير الأخلاقي - بيني وهيب. أود أن أقول إنه سرعان ما صار من الضروري لي أن ألتمس من هيب سلفًا نقديًّا، حتى أسد حاجة السيدة ميكوبر وعائلتنا المنكوبة، ولكنها ستنهض من مذلتها. هل أحتاج إلى القول بأن هيب كان يتوقع مني ذلك، فأقرضني، ووقعتُ على إيصالات وأوراق من هذا القبيل، معروفة لدى المؤسسات القانونية في هذا البلد؟ وهكذا صرت منغمسًا في الشباك التي أعدها لافتراسي؟».

يبدو أن استمتاع السيد ميكوبر برسالته البليغة، في وصف هذه الحالة المؤسفة للأمر، فاق أي ألم أو قلق كان من الممكن أن تسببه له الأحداث الحقيقية. وقد راح يقرأ منها:

«حينها بدأ هيب يمنحني قدرًا كبيرًا من ثقته، فقد كان هذا ضروريًّا لتنفيذ أعماله الجهنمية. بدأت بعدها -إذا جاز لي استخدام

تعبير شكسبير وإضفاؤه على نفسي- أنكمش، وأتضاءل، وأنحل. لقد وجدت أن خدماتي كانت تستدعي تزوير الأعمال باستمرار، وخداع إنسان يكفي أن أسميه بالسيد واو. ومع ذلك، ظل هيب الشرير يصرح بامتنانه اللا متناهي طوال الوقت، والصداقة التي لا حدود لها التي تجمعه بهذا الرجل المحترم. كم كان هذا الأمر سيئًا بغيضًا، وكما قال الفيلسوف دين، بأسلوبه التطبيقي الشامل الذي ميز الزخرفة اللامعة لعصر إليزابيث: «يبقى الأسوأ متواريًا في الخلف»».

لقد تأثر السيد ميكوبر بهذا الختام وسعد بالاقتباس الدقيق، حتى إنه غمر نفسه وغمرنا معه بقراءة ثانية للجملة، بحجة أنه تاه عن الموضع الذي انتهى إليه.

تابع القراءة فقال: «إنني لا أنتوي الاستغراق في قائمة مفصلة أدرجتها في الرسالة الحالية (على الرغم من أنها جاهزة في موضع آخر)، تحوي عمليات الخداع البسيطة المختلفة التي قمت بها ضد الشخص الذي أطلقت عليه السيد «واو»، وكنت طرفًا فيها وموافقًا عليها ضمنيًّا. وكان هدفي أن أتخلى عنها حين يتوقف الصراع بين حاجتي والراتب، وبين لقمة العيش وعدم وجودها، وبين الحياة والهلاك. كنت أخطط بأن أستفيد من فرصي لاكتشاف وكشف عمليات الخداع التي ارتكبت في حق هذا السيد وإصابته بضرر جسيم لصالح هيب. حفزني ضميري الصامت المضمر داخلي، وحفزني محرك آخر خارجي لا يقل تأثيرًا وجاذبية عن ضميري -وسأشير إليه باختصار باسم الآنسة واو- فدفعني إلى الانخراط في مهمة شاقة تطلب جهدًا للتحقيق السري. وهكذا

استمر الأمر حتى هذه اللحظة، لفترة تتجاوز على حد علمي ومعلوماتي وظني اثني عشر شهرًا».

راح يقرأ هذا المقطع كما لو أنه قانون برلماني، وبدا منتعشًا مهيبًا متأثرًا بوقع هذه الكلمات.

راح يقرأ وينظر إلى يورايا، حاملًا المسطرة في وضع مريح تحت إبطه الأيسر، تأهبًا لوقوع شيء ما. قال: «هذه هي التهم الموجهة إلى هيب».

أظن أننا حبسنا أنفاسنا. وإني واثق من أن يورايا قام بالشيء نفسه.

قال السيد ميكوبر: «أولًا: عندما صارت إدارة السيد واو لأعماله واهنة، وضعفت ذاكرته لأسباب ليس من الضروري أو الملائم الاستغراق في تفاصيلها، راح هيب يعقد له الأمور برمتها، خاصة المعاملات الرسمية منها. كان السيد واو غير مستعد للدخول في أي أعمال، بينما صار هيب قريبًا منه دائمًا لإجباره على خوضها، إلى أن حصل في ظل هذه الظروف على توقيع السيد واو، بعد أن أقنعه بأنها أوراق غير مهمة. حمله بعد ذلك على منحه تفويضًا يمكنه من سحب مبلغ معين من ودائع الأمانات، يبلغ اثني عشر ألفًا وستمائة وأربعة عشر جنيهًا وشلنين وتسعة بنسات، ثم أنفقها على رسوم عمل مزعومة، ولسداد عجز ربما كان موجودًا، أو ليس له وجود مطلقًا. لقد منح هذه العملية مظهرًا يوحي بسوء نية واحتيال السيد واو، وراح طوال الوقت يصف عمل السيد واو بغير النزيه، ثم استخدمه منذ ذلك الحين لتعذيبه وتقييد حريته».

قال يورايا بنبرة تهديد وإيماءة إرهاب من رأسه: «عليك إثبات هذا يا كوبرفيلد، لكل شيء وقته».

أبعد السيد ميكوبر رسالته جانبًا، وقال: «يا سيد ترادلز، فلتسأل هيب لأنك أقمت في منزله من بعده، هل ستسأله من فضلك؟».

قال يورايا بازدراء: «إن الأحمق نفسه لم يزل يعيش هناك إلى الآن».

قال السيد ميكوبر: «فلتسأل هيب عما إذا احتفظ يومًا بدفتر جيب في ذلك المنزل. هل ستسأله؟».

رأيت يد يورايا النحيلة تتوقف لا إراديًّا عن حك ذقنه.

قال السيد ميكوبر: «أو فلتسأله عما إذا كان قد أحرق دفترًا. إذا قال نعم، وسألك عن مكان الرماد، فحوِّله إلى ويلكنز ميكوبر، وسوف يُسمعه شيئًا لا يبرِّئه على الإطلاق».

كان زهو الانتصار الذي بدا على السيد ميكوبر بقوله لهذه الكلمات، قد أحدث تأثيرًا قويًّا، مما أثار قلق الأم، فراحت تصرخ في هياج شديد:

«يوري، يوري، كن متضعًا، واقبل التصالح يا عزيزي».

أجاب يورايا: «يا أمي، هلا تصمتين؟ إنكِ خائفة ولا تعرفين ماذا تقولين أو تقصدين». ثم نظر إليَّ مزمجرًا ومكررًا كلامه: «لقد كان أحدهم وضيعًا للغاية منذ عهد طويل جدًّا، بما يفوق ما كنتُ عليه من ذل».

كان السيد ميكوبر يُعدِّل من وضعية ذقنه بلطف فوق ربطة عنقه، حين شرع في القراءة:

«ثانيًا: زوَّر هيب في عدة مناسبات، على حد علمي، ومعلوماتي، وظني...».

تمتم يورايا بعد أن اطمأن: «لكن هذا لن يجدي، وأنتِ يا أمي فلتلتزمي الصمت».

مضى السيد ميكوبر يقول: «سنسعى إلى تقديم شيء مُجدٍ، ونجلبه لك في النهاية يا سيدي، وإنه لقريب جدًّا».

ثم استأنف: «زوَّر هيب في عدة مناسبات، على حد علمي، ومعلوماتي، وظني، مختلف الحسابات والمستندات والوثائق تزويرًا منهجيًّا. كما زوَّر توقيع السيد واو، وقد فعل ذلك صراحة في موضع بعينه، أستطيع إثباته بنفسي. وقد أوضح أن الأمر قد مضى على النحو التالي».

شعر السيد ميكوبر مرة أخرى بمتعة من أثر وقع هذا التركيب الرسمي للكلمات، وعلى الرغم من طريقته السخيفة، يجدر بي أن أقول إنه لم يكن شيئًا غريبًا عليه على الإطلاق. لقد لاحظت هذا المسلك في عدد من الرجال على مدار حياتي، بل يبدو لي أنها قاعدة عامة. رأيت وكلاء على سبيل المثال، يرددون القسم القانوني، فيتلذذون بترديد عدة كلمات فخمة ورنانة؛ تعبيرًا عن فكرة بعينها على التوالي، كأن يقولون إنهم يبغضون أشد البغضاء وينكرون أغلظ النكران، أو ما إلى ذلك من عبارات. إنها اللذة ذاتها التي يجدها الناس في السباب والشتائم، وألفاظ التحريم القديمة. إننا نتحدث عن استبداد الكلمات، ولكننا نحب هذا الاستبداد الطاغي عليها أيضًا، بل إننا مغرمون باشتقاق مجموعة هائلة

من الكلمات واستخدام فيض من الألفاظ في عدد من المناسبات الحيوية. إننا نتصور أن استخدامها مهم، وأنها تؤيد مواقفنا؛ نظرًا لأننا لا نعبأ بالمعنى الذي نورده في المناسبات الرسمية، ما دامت الألفاظ كانت رنانة ومتنوعة، بل تضع المعنى أو مغزى ألفاظنا في مرتبة ثانوية، في سبيل الحفاظ على استعراض مهيب لها. يواجه الناس مشكلاتهم بعرض قديم رائع وفخم لمزيد من الكلمات، كما ينتفض العبيد على كثرتهم ضد أسيادهم، لذلك فإنني أظن أنني أستطيع أن أذكر أمة ما كانت قد واجهت مشكلات عديدة وكبيرة، وسوف تدخل في عديد من المشكلات الكبرى، لأنها لم تزل تحافظ على حاشية كبيرة جدًّا من الكلمات.

قرأ السيد ميكوبر، وهو يلعق شفتيه:

«الطريف في الأمر أنه وقع على النحو التالي: لما كان السيد واو عاجزًا، صارت احتمالية وفاته قد تؤدي إلى بعض الاكتشافات، وإلى سقوط سلطة هيب عن عائلة السيد واو -هذا ما أقره أنا ويلكنز ميكوبر الموقع أدناه- ما لم يكن قد حاول التأثير على المحبة الأبوية لابنته سرًّا، فلا تسمح بإجراء أي تحقيق في شؤون الشراكة على الإطلاق. وقد فكر هيب في ضرورة أن يحصل على وثيقة جاهزة من السيد واو، تُخلي مسؤوليته عن المبلغ سالف الذكر؛ وهو اثنا عشر ألفًا وستمائة وأربعة عشر جنيهًا وشلنان وتسعة بنسات، مع الفوائد. نصت الوثيقة على أن هيب قد دفع هذا المبلغ إلى السيد واو لإنقاذه من العار، على الرغم من أن المبلغ لم يسدد قَطُّ، بل بدده منذ فترة طويلة. أما التوقيع المرفق

على هذه الوثيقة، والمنسوب إلى السيد واو، فإنه مزور من هيب، وفي حوزتي الكثير من الوثائق التي قلد بها توقيع السيد واو بخط يده، وكذلك في دفتر جيبه. تظهر أثر النيران في هذه الوثائق، ولكن يمكن لأي إنسان قراءتها وتمييزها. إنني لم أوقع على أي وثيقة من هذا القبيل، ولم تزل الوثيقة نفسها في حوزتي». أخرج يورايا هيب مفاتيح من جيبه فجأة وفتح أحد الأدراج، ثم أدرك الموقف، فاستدار نحونا مرة أخرى، من دون أن ينظر إليه.

عاد السيد ميكوبر يقرأ مرة أخرى، ناظرًا إلى رسالته كما لو أنه يقرأ نصًّا خطابيًّا: «إن الوثيقة نفسها في حوزتي؛ أقصد أنها كانت معي حتى الساعات الأولى من هذا الصباح، وإلى أن كتبت هذه الرسالة، لكنني أعطيتها بعد ذلك إلى السيد ترادلز».

أكد ترادلز كلامه قائلًا: «هذا صحيح تمامًا».

صرخت الأم: «يوري، يا يوري، اتضع وفاوض. أعلم أيها السادة أن ابني سيحفظ مكانته الذليلة، إذا منحتموه وقتًا للتفكير. إنني على يقين من أنك تعلم يا سيد كوبرفيلد أنه كان دائمًا وضيعًا جدًّا يا سيدي».

كم كان من المدهش أن نرى إصرار الأم على التمسك بالحيلة القديمة، بينما تخلى الابن عنها بعد أن صارت عديمة الفائدة.

نفد صبر يورايا فعض على المنديل الذي لف به يده، وقال: «يا أمي، لو أنكِ أمسكتِ سلاحًا وأطلقتِ النار عليَّ، لكان أفضل مما تقولين».

صرخت السيدة هيب: «لكنني أحبك يا يوري».

لم أشك في أنها تحبه، أو أنه يحبها، مهما بدا ذلك غريبًا، وإن كانا بلا شك يمثلان زوجين متجانسين. أكملت: «ولا يمكنني أن أتحمل ما أسمعه منك حين تستفز السادة، فتُعرِّض نفسك لمزيد من الأخطار. لقد قلت للسيد المحترم في البداية، بعد أن أخبرني في الطابق العلوي أن كل شيء قد انكشف، إنني سأدفعك إلى أن تعود إلى وضاعتك، وأن تتفاوض لطلب العفو. آه، انظروا أيها السادة كم أذل، فلا تكترثوا به».

رد يورايا بغضب، مشيرًا بإصبعه النحيلة نحوي، كما لو أنه يُوجِّه كل عداوته إليَّ، بصفتي المحرك الرئيس في هذا الاكتشاف. أما أنا، فلم أقابل ما قاله بشيء، حين قال: «حسنًا، هل هو كوبرفيلد؟ ها، هو كوبرفيلد يا أمي الذي يود لو يمنحكِ مائة جنيه لتقولي شيئًا ولو أقل مما تفوهتِ به؟».

صرخت والدته: «لا أستطيع مساعدتك بغير ما قلته يا يوري. لا أتحمل أن أراك على حافة الخطر نتيجة لتكبرك ورفع رأسك عاليًا. من الأفضل أن تعود وضيعًا كما كنت دائمًا».

أخذ يعض منديله لبعض الوقت ثم تحدث إليَّ بعبوس، فقال:

«ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ إذا كنت ترغب في أي شيء، فاستمر فيما تفعل. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟».

استأنف السيد ميكوبر رسالته على الفور، مسرورًا بالعودة إلى الأداء الذي يرتضيه ويحبه، فقال:

«ثالثًا، وأخيرًا: إنني الآن في وضع يسمح لي بعرض أوراق هيب

المزيفة، وإظهار مذكراته الحقيقية؛ بدءًا من دفتر الجيب المُدمَّر جزئيًّا (الذي لم أستطع فهمه، بعد أن اكتشفته السيدة ميكوبر بالصدفة حين انتقلنا إلى مسكننا الحالي. وجدته في خزانة ما أو صندوق القمامة المخصص للرماد وبقايا المحروقات عند موقد المنزل). استطاع هيب أن يستغل نقاط ضعف، وعيوب السيد واو المسكين، بل واستغل فضائله ذاتها، ومشاعره الأبوية، واتصافه بالشرف، فاستغل كل ذاك لسنوات لتحقيق مطامعه. ظل السيد واو مخدوعًا لسنوات طوال تعرض فيها للنهب بكل السبل التي يمكن تصورها، حتى يشبع الجشع والشره المالي وحب امتلاك السلطة لـ - هيب. كان هدف هيب النهائي هو أن يُخضِع السيد والسيدة واو خضوعًا كاملًا (لن أقول شيئًا عن أغراضه الأخرى التي تتعلق بالسيدة واو). استطاع بعد بضعة أشهر أن يدفع السيد واو إلى التخلي عن شركته، وإلى بيع أثاث بيته أيضًا مقابل قدر من المال يدفعه هيب بانتظام على أقساط ربع سنوية في كل عام. بدأت حسابات ممتلكات السيد واو منذ هذه اللحظة تبدو مزيفة ومقلقة، في حين أقبل السيد واو على تداول مالي، واستمر في الاقتراض المزعوم بفائدة هائلة، كان مصدرها في الحقيقة هيب، وتؤول إليه، وقد حصل عليها عن طريق الاحتيال أو حجبها عن السيد واو نفسه، بحجة أنه سيدفعها في المضاربات المالية أو غير ذلك، وهكذا استخدم عدة حجج متنوعة من الخداع وقلة الضمير. تكالبت الخدع تدريجيًّا، حتى لم يستطع السيد واو التعس التطلع إلى طريق للخلاص في هذه الحياة. حسب أنه قد أفلس، وساءت ظروفه، ولم يبقَ له أمل في إصلاح

أموره أو الحفاظ على سمعته، إلا بالاعتماد على هذا الوحش المتخفي في ثياب رجل». استخدم السيد ميكوبر تعبيرات كثيرة على مثل هذا المنوال - «الذي، جعل نفسه ضروريًّا له، حتى استطاع تدميره. وإنني لأتعهد بإظهار دلائل كل هذه الأمور، وربما أستطيع قول أكثر من ذلك بكثير».

همست ببضع كلمات لأجنيس التي كانت تجلس بجانبي وهي تبكي بكاء ممزوجًا بالفرح والحزن. تحركنا جميعًا كما لو أن السيد ميكوبر قد أنهى خطابه. إلا أنه قال بجرأة وجد: «أستميحكم عذرًا»، ثم مضى يتلو رسالته بمزيج من الانقباض الخافت والمتعة الفائقة.

«ها قد انتهيت الآن. لم يتبقَّ لي سوى إثبات هذه الاتهامات. وبعد ذلك سأرحل مع عائلتي تعيسة الحظ، فأختفي من المشهد، لأننا نشكل عبئًا عليه، وهذا ما سنفعله في القريب العاجل. يدفعنا ذلك إلى استنتاج عقلي مفاده أن رضيعنا ستخلو معدته أولًا باعتباره العضو الأضعف في دائرتنا، ثم سيتبعه توأمنا على التوالي. ليكن ما يكون. أما أنا، فقد أنجزت مسيرتي في كانتربري وفعلت بي الكثير، أما السجن نتيجة الدين، والعوز، فسيفعلان بي المزيد قريبًا. إنني على ثقة من أن متاعب العمل ومخاطرة التحقيق - حيث جمعت أدق النتائج وضمَّنتها معًا بتروٍّ، في ظل ضغط العمل الشاق، وتحت وطأة مخاوف بائسة منذ مطلع الصباح مع رقرقات الندى، وحتى ظلام الليل، تحت رقابة عين يقظة لإنسان لا داعي لأن نسميه الآن بالشيطان - إلى جانب مكابدة الحاجة الأبوية لمقاومة الفقر وتحويل وطأته إلى الدرب الصحيح، قد

يصير فعليًّا كله مثل رش بضع قطرات من الماء العذب على مقبرتي طلبًا للرحمة، وأنا لا أرغب في أي شيء سوى ذلك. قد لا يكون من الإنصاف أن أشبه نفسي بجندي بطل شجاع وبارز، وأقول إنني فعلت ما فعلت من دون أطماع ولا أغراض شخصية أو ذاتية بل من أجل

إنجلترا، والوطن، والجمال.

المخلص دائمًا وأبدًا، ويلكنز ميكوبر».

لاح التأثر الشديد على السيد ميكوبر، لكنه ظل متلذذًا بما فعله، فطوى رسالته وسلمها بانحناءة إلى عمتي، كما لو أنها شيء قد ترغب في الاحتفاظ به.

لاحظت في زيارتي الأولى منذ فترة طويلة أن الغرفة تحوي خزانة حديدية، والمفتاح فيها. بدا أن يورايا قد أصابه شك مفاجئ، فما إن التفت إلى السيد ميكوبر بنظرة واحدة حتى هرع إليها وفتح أبوابها التي تصدر قعقعة، فإذا بها فارغة.

صرخ بوجه مخيف: «أين الأوراق؟ لقد سرق اللص الأوراق».

راح السيد ميكوبر ينقر بالمسطرة مشيرًا إلى نفسه قائلًا: «أنا من أخذها، بعد أن حصلت على المفتاح منك كالمعتاد -في وقت مبكر- وفتحتها في هذا الصباح».

قال ترادلز: «لا تقلق. إن الأوراق في حوزتي. سأحافظ عليها، استنادًا إلى التفويض الذي ذكرته».

صاح يورايا: «إنك تتلقى بضائع مسروقة، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز: «لو تقصد في ظل هذه الظروف، فبلى».

وكم دهشت حين رأيت عمتي، التي كانت هادئة للغاية ويقظة لكل ما يُقال، تلقي سهامها على يورايا هيب، فإذا بها تقبض على ياقة قميصه البيضاء بكلتا يديها.

قالت عمتي: «هل تعرف ماذا أريد؟».

قال: «صدرية ضيقة كالتي للمجاذيب».

أجابت عمتي: «كلا، أريد ممتلكاتي. يا أجنيس، يا عزيزتي، حين ظننت أن والدك قد أضاع مالي، فإنني لم أطالب به - لم أنبس ببنت شفة، ولم أقل شيئًا حتى لعزيزي تروت عن هذا المال. أما الآن وقد عرفت أن هذا الرجل هو المسؤول عما جرى، فإنني سأسترد مالي. هيا يا تروت أسرع، واسترد منه مالي».

يبدو أن عمتي كانت تظن أنه يحتفظ بممتلكاتها في هذه اللحظة حول ياقة قميصه، فأنا لم أستطع التأكد من ظنها هذا، لكنها راحت تجذبه من ياقته كما لو أنها على يقين من أمره. سارعت بالوقوف بينهما، ورحت أؤكد لها أننا سنحرص جميعًا على إجباره على إعادة كل ما استولى عليه زورًا. فكرت في كلامي ثم هدأت بعد لحظات، لكنها لم تنزعج مما فعلته على الإطلاق -على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول الكثير عن وصف اضطراب قبعتها- ثم عادت إلى مقعدها بهدوء.

ظلت السيدة هيب طوال الدقائق القليلة الماضية تطالب ابنها بأن يصير «متضعًا»، وراحت تجثو على ركبتيها أمامنا جميعًا، واحدًا

تلو الآخر، وتتعهد لنا بعهود صارمة. أجلسها ابنها على كرسيه، وقد عبس وجهه ثم أمسك بذراعي، ولكن من دون حدة، وقال لي بنظرة شرسة:

«ماذا تريد مني أن أفعل؟».

قال ترادلز: «سأخبرك بما يجب عمله».

تمتم يورايا قائلًا: «أليس لكوبرفيلد لسان؟ سأبرم معك اتفاقًا جيدًا لو أنك أخبرتني من دون كذب أن أحدًا قد قطعه وانتزعه».

صرخت والدته: «إن يورايا يقصد أن يكون متضعًا، فلا تكترثوا لما يقول أيها السادة المحترمون».

قال ترادلز: «إن ما يجب عمله، هو ما يلي؛ أولًا: يجب أن تسلم لي الآن صك التنازل الذي سمعنا عنه في هذه اللحظة...».

قاطعه يورايا قائلًا: «لنفترض أنه ليس معي».

قال ترادلز: «بل معك، وكما تعرف، لا مجال لطرح مثل هذه الفرضيات». لا يسعني إلا أن أعترف بأنها كانت المرة الأولى التي أنصف فيها حقًّا زميلي القديم بما أبداه من عقل صافٍ، وحس سليم، وصبر في محله. استطرد ترادلز: «ثانيًا: يجب أن تستعد لرد كل ما استوليت عليه نتيجة جشعك، حتى آخر بنس. ويجب أن تظل جميع وثائق وأوراق الشركة في حوزتنا، وكذلك جميع وثائقك وأوراقك، وجميع الحسابات المالية والسندات بكل فروعها. باختصار، سيصير كل شيء هنا بحوزتنا».

قال يورايا: «لا أدري، هل هذا ما يجب فعله حقًّا؟ يجب أن أحظى بوقت للتفكير في الأمر».

أجاب ترادلز: «بالتأكيد، ولكن في غضون ذلك الوقت، وإلى أن يتم كل شيء على نحو يرضينا، فإننا سنحتفظ بهذه الأشياء كافة. وأرجو منك - أو باختصار نحن نلزمك - بالبقاء في غرفتك، وعدم الاتصال بأي إنسان».

قال يورايا بعد سيل من الشتائم: «لن أفعل ذلك».

أردف ترادلز قائلًا: «إن سجن ميدستون[1] أكثر مواضع الاحتجاز أمانًا. وقد يستغرق القانون وقتًا طويلًا حتى يعيد إلينا حقوقنا، بل من الممكن ألا يعيد إلينا حقوقنا كاملة على عكس ما قد تفعله أنت، لكنه بلا شك سيعاقبك. يا للعجب! إنك تعرف ما سيحدث تمامًا مثلما أعرفه. يا كوبرفيلد، هلا توجهت إلى مبنى جيلدهول[2] لتحضر ضابطين؟».

هنا، انفجرت السيدة هيب مرة أخرى، باكية جاثية على ركبتيها أمام أجنيس، راجية أن تتدخل لتصلح بينهم، مُعلنة أنه وضيع للغاية، وأن كل ما حدث صحيح. بدت كالمحمومة وقد ظهر عليها الارتعاب على ابنها، فقالت إنه إذا لم يفعل ما نريده، فستقوم هي نفسها بتنفيذ الأمر على أي حال. أما السؤال عن ردة فعله لو أنه أوتي نصيبًا من الجرأة، يشبه السؤال عما قد يفعله حيوان هجين إذا تمتع بروح نمر. لقد كان

(١) سجن إنجليزي عرف باكتظاظه وسوء تهويته.

(٢) المركز الرسمي والإداري للندن.

جبانًا يغرقه الجبن من رأسه حتى أخمصي قدميه. راح يُظهر طبيعته الدنيئة في ذله وارتعابه، كما فعل طوال حياته الخبيثة.

مسح عن جبينه الملتهب ما تصبب من عرقه، وهو يقول: «كفى، تمالكي نفسكِ يا أمي، فليحصلوا على ما أرادوه. هيا اذهبي وأحضري الأوراق».

قال ترادلز: «يا سيد دك، هلا ساعدتها من فضلك».

لاح السيد دك فخورًا بتكليفه بالمهمة ومدركًا لها. رافق السيدة هيب كما يرافق الكلب راعي الخراف، لم تسبب له أي متاعب، لأنها لم تعد بالمطلوب فحسب بل عادت بصندوق مليء بالأوراق، فوجدنا وثائق البنك وبعض المستندات الأخرى التي قد نستخدمها فيما بعد.

قال ترادلز بعدما أحضرت الأوراق: «حسنًا، يمكنك أن تنصرف الآن يا سيد هيب حتى تفكر. وسأدلي بملاحظة إذا سمحت، أمام الحاضرين جميعًا، إذ لم يتبقَّ سوى شيء واحد يجب القيام به، وهو ما شرحته لك سابقًا، ويجب أن يتم من دون تأخير».

لم يرفع يورايا عينيه عن الأرض، لكنه اجتاز الغرفة وقد ثبت يده إلى ذقنه، ثم توقف عند الباب، وقال:

«يا كوبرفيلد، لطالما كرهتك. لقد كنت دائمًا مغرورًا، وكنت دائمًا ضدي».

قلت: «أظن أنني أخبرتك ذات مرة من قبل، أنك أنت من كنت ضد العالم بأسره بجشعك ومكرك. قد يكون خيرًا لك وأجدى أن تفكر في

المستقبل، وتفكر في أن الجشع والمكر لم يقضيا على العالم بعد، ولم يتحلَّ بهما إنسان إلا وانقلبا عليه. إن نهايتهما فناء محتوم».

أجاب باستهزاء: «أو محتوم مؤكد كما اعتادوا على تدريسه في المدرسة – تلك المدرسة نفسها التي عانيت فيها صنوفًا من المذلة. تعلمت فيها من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة أن العمل لعنة، ومن الساعة الحادية عشرة إلى الواحدة أن العمل ذاته نعمة وبهجة وكرامة، وأشياء أخرى لا أدركها. آه! إنك تعظ بشكل يتسق تمامًا مع ما علموه لنا. ألا تريد أن تتنازل فتتضع؟ أظن أنني لولا الضعة لما استطعت أن أخدع شريكي النبيل. يا ميكوبر، أيها المتنمر العجوز، سأجازيك على أفعالك».

قابل السيد ميكوبر إصبع يورايا الممدودة نحوه باستهانة، نافشًا صدره إلى حد كبير حتى ترنح عند الباب، ثم وجه إليَّ كلامه معبرًا عن ارتياحه «لرؤية إعادة تشييد بناء متبادلة بينه والسيدة ميكوبر». ثم دعا الجميع بعد ذلك إلى التأمل في هذا المشهد المؤثر.

قال السيد ميكوبر: «ها قد انقشعت السحب التي حجبت بيني والسيدة ميكوبر. أما أولادي فليتولاهم خالقهم بعدله الدائم».

كنا جميعًا ممتنين له أشد الامتنان، وأحببنا أن نُعبِّر له عن هذا الشعور فنذهب معه، على الرغم من ضيق الوقت وما نمر به من توتر واضطراب. أما أجنيس، فكان عليها أن تعود إلى والدها، كما أنها لم تستطِع أن تتحمل مزيدًا من الأحداث، وقد اكتفت بأمل بزغ فجره أمامها. كما كان من الضروري أن يمكث أحد مع يورايا حتى لا يهرب. وقد بقي ترادلز معه لهذا الغرض، حتى لا يتورط السيد دك معه. أما أنا

وعمتي والسيد دك، فقد عدنا إلى المنزل مع السيد ميكوبر. ما إن رحلت سريعًا عن هذه الفتاة العزيزة التي أدين لها بأفضال كثيرة، حتى رحت أفكر في الخطر الذي أُنقذت منه هذا الصباح. كانتِ ذات عزيمة صادقة، وقد شعرت بالامتنان الشديد لما مررت به في صباي من مآسٍ دفعت بي إلى التعرف على السيد ميكوبر.

لم يكن منزله بعيدًا. كان الباب المطل على الشارع يقودنا مباشرة إلى غرفة الجلوس. تقدمنا مهرولًا كعادته، وإذا بنا نجد أنفسنا بين أحضان أسرته على الفور. صاح السيد ميكوبر: «إيما، يا حياتي»، ثم اندفع إلى أحضان السيدة ميكوبر. صرخت السيدة ميكوبر، وتلقت السيد ميكوبر بين ذراعيها. بدا على السيدة ميكوبر التأثر الشديد، وقد كانت ترعى مخلوقًا غريبًا لم يعِ شيئًا عن الحياة بعد، وكانت قد ذكرته في رسالتها الأخيرة إليَّ. راح هذا المخلوق الغريب يقفز ويتلوى، بينما أظهر التوأم فرحتهما في عدة مظاهر مربكة لكنها بريئة ساذجة. أما السيد ميكوبر الصغير فلم تسعفه تصرفاته، وسرعان ما لاح عليه الاستياء المبكر، فتجهم وجهه واستسلم لمشاعره الفياضة، فبكى.

قال السيد ميكوبر: «يا إيما، لقد انقشعت السحب عن خاطري. واستعدت الثقة المتبادلة بيننا التي حرصنا عليها لفترة طويلة، ولن تتبدل أو تنقطع أبدًا». صرخ السيد ميكوبر، وهو يذرف الدموع: «أما الآن، فمرحبًا بالفقر، أهلًا بالبؤس، أهلًا بالتشرد. ها أنا أرحب بالجوع، والأسمال، والعواصف، والتسول، لأن الثقة المتبادلة ستدعمنا حتى النهاية».

راح السيد ميكوبر يردد هذه التعبيرات، وهو يجلس السيدة ميكوبر إلى الكرسي، ثم عانق أفراد أسرته جميعًا، مُرحبًا بسُبل اليأس القاتمة، وقد بدت - في تقديري - شيئًا غير مرحب به، ومن ثَم راح يدعو الجميع إلى الخروج إلى كانتربري والغناء مع المنشدين، حيث لم يبقَ لهم شيء آخر يدعمهم.

انتابت السيدة ميكوبر حالة إغماء إثر انفعالها الشديد، فكان أول شيء يجب القيام به هو أن نعيدها إلى وعيها، قبل الغناء مع جوقة المنشدين، وهذا ما فعلته عمتي والسيد ميكوبر. ما إن أفاقت السيدة ميكوبر حتى تعرفت على عمتي وانتبهت إلى وجودي وتعرفت عليَّ كذلك.

قالت هذه السيدة المسكينة، بينما تمد يدها إليَّ: «عذرًا يا عزيزي السيد كوبرفيلد، إنني لست امرأة قوية، فلم أتحمل وطأة خبر انقشاع سوء التفاهم الأخير الذي وقع بيني والسيد ميكوبر».

قالت عمتي: «أهؤلاء هم أفراد أسرتكِ كلها يا سيدتي؟».

أجابت السيدة ميكوبر: «لا زيادة في الوقت الحاضر».

قالت عمتي: «يا إلهي، لم أقصد ذلك يا سيدتي. قصدت أن أقول هل هؤلاء أولادكِ؟».

أجاب السيد ميكوبر: «إن توقعكِ صحيح يا سيدتي».

قالت عمتي متأملة: «حسنًا، وهذا الصبي الصغير الذي هو أكبر أولادك، ما الذي أعددتموه له في المستقبل؟».

قال السيد ميكوبر: «كنت أرجو عندما أتيت إلى هنا أن أدخل ويلكنز إلى الكنيسة، أو ربما أعبر عما أردته بمزيد من الوضوح فأقول إنني أردت أن ألحقه بجوقة المرتلين. إلا أنني لم أجد مكانًا شاغرًا ساعتها في تلك الجوقة الجليلة التي اشتهرت بها هذه المدينة. باختصار، لقد تعاقد على الغناء في الحانات العامة، بدلًا من الغناء في الصروح المقدسة».

قالت السيدة ميكوبر بنبرة حانية: «لكنه طيب النيات».

أردف السيد ميكوبر قائلًا: «لن أتردد في القول إنه طيب النيات يا حبيبتي، لكنني لم أرَ أنه يُوجه موهبته إلى اتجاه بعينه على الإطلاق».

عاد السيد ميكوبر الصغير إلى عبوسه مرة أخرى، وسأله بشيء من الغضب، ماذا يفعل؟ وهل تراه قد وُلِد ليصير نجارًا أو نقاشًا، بدلًا من أن يكون طائرًا؟ وهل بإمكانه الذهاب إلى الشارع المجاور وفتح متجر للأدوية؟ أم هل بإمكانه الإسراع إلى محكمة الجنايات وإعلان نفسه محاميًا؟ هل يمكن أن يصعد بالقوة إلى مسرح الأوبرا فينجح بالعنف؟ هل يستطيع فعل أي شيء من دون أن يتدرب على شيء؟

فكرت عمتي قليلًا ثم قالت: «إني أتساءل يا سيد ميكوبر، كيف لم تفكر قَطُّ في الهجرة».

عاد السيد ميكوبر: «يا سيدتي، لقد كانت الهجرة حلم شبابي، والطموح الخادع في سنوات نضجي». إلا أنني كنت مقتنعًا تمامًا، أنه لم يفكر قَطُّ في الهجرة طوال حياته.

قالت عمتي وهي تنظر إلى وجهي: «حقًّا! يا لها من فكرة تناسبك وتناسب أسرتكما يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر، فلم لا تهاجرون الآن؟!».

أجاب السيد ميكوبر عابسًا: «إنه رأس المال يا سيدتي. إنه رأس المال».

وافقت زوجته على كلامه قائلة: «هذه هي العراقيل، قد أقول إنها الصعوبة الوحيدة يا عزيزي السيد كوبرفيلد».

صرخت عمتي: «أتقول رأس المال؟ لكنك تقدم لنا خدمة جليلة - بل قد أقول إنك قد قدمتها لنا بالفعل، وسنحصل منها بالتأكيد على خير كثير - فكيف لنا ألا نقدم لك شيئًا يساهم في توفير رأس المال؟».

قال السيد ميكوبر بحماس متقد: «لا أستطيع أن أقبله كهدية، ولكن إذا كان ممكنًا وبوسعكم أن تمنحوني مبلغًا كافيًا، فلنقل على سبيل الاقتراض، بفائدة نسبتها خمسة بالمائة سنويًّا، وعلى مسؤوليتي الشخصية، مع وثائق بخط يدي، على أن يسدد المبلغ خلال اثني عشر شهرًا، أو ثمانية عشر، أو أربعة وعشرين شهرًا، على التوالي، لإتاحة الوقت تحسبًا لشيء قد يطرأ علينا».

قالت عمتي: «هل تسأل إن كان ذلك ممكنًا أم لا؟ بالطبع إنه ممكن، وستجري الأمور بشروطك الخاصة إذا أبديت الموافقة. فلتفكرا كلاكما في هذا الأمر الآن. إن ديفيد يعرف أناسًا سيهاجرون إلى أستراليا قريبًا. إذا قررتما السفر، فلماذا لا تذهبان على متن السفينة نفسها؟ يمكن لكل

منكما مساعدة الآخر. فكر في هذا الآن يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر. خذا وقتكما في التفكير وتدبرا الأمر جيدًا».

قالت السيدة ميكوبر: «لست أريد سوى أن أطرح استفسارًا واحدًا يا سيدتي العزيزة. هل تظنين أن المناخ هناك صحي؟».

قالت عمتي: «إنه أروع مناخ في العالم».

قالت السيدة ميكوبر: «إن كان الأمر كذلك، فإنني سأطرح سؤالي التالي. والآن، هل تتمتع البلاد بظروف مواتية بحيث يستطيع رجل لديه قدرات مثل قدرات السيد ميكوبر أن يحصل على فرصة عادلة للترقي في الحياة الاجتماعية؟ وهل من الممكن مستقبلًا - لا أقول في الوقت الراهن - أن يتطلع إلى أن يصير مديرًا، أو أي شيء من هذا القبيل؟ هل من الممكن أن تتوفر أمامه فرصة معقولة تظهر مواهبه ليطور من نفسه - وهذا سيكفيه تمامًا - ومن ثَم يعثر على سبيل خاص للترقي؟».

قالت عمتي: «لا مجال أفضل من هذه البلدة المنفتحة، أمام رجل يحسن التصرف ويجتهد في عمله».

كررت السيدة ميكوبر هذه العبارة بنبرة عملية فقالت: «أمام رجل يحسن التصرف ويجتهد في عمله. حسنًا، من الواضح لي أن أستراليا هي مجال العمل المستحق للسيد ميكوبر».

قال السيد ميكوبر: «إنني مقتنع تمامًا يا سيدتي العزيزة. إنها الأرض الوحيدة الملائمة لي ولعائلتي في ظل الظروف الحالية. وأود لو أن معجزة تلوح لي على ضفاف تلك البلاد. إنها ليست بعيدة مقارنة

بغيرها من البلاد النائية. ومع إبداء كل الاحترام لاقتراحكِ الكريم، إلا أنني أؤكد لكِ أن الأمر مجرد مسألة شكلية».

هل أنسى يومًا كيف تحول في لحظة إلى أكثر الرجال تفاؤلًا، متطلعًا إلى الثروة؟ هل أنسى كيف تحدثت السيدة ميكوبر حينها عن عادات الكنغر؟ هل أتذكر ذلك الشارع في كانتربري في يوم من أيام السوق، من دون أن أتذكره عائدًا معنا، يشرح لنا العادات غير المستقرة لنزيل مؤقت في تلك البلاد، بينما ينظر نحو الثيران المتجهة نحونا بعين مزارع أسترالي.





الفصل الثالث والخمسون

رجوع آخر

يجب أن أتوقف هنا مرة أخرى. آه يا زوجتي الطفلة. يلوح لي شبح يبرز من بين حشد متحرك أمام ذاكرتي، هادئًا وساكنًا، يقول بحبه البريء وجماله الطفولي: توقف حتى تفكر فيَّ، انظر إلى الزهرة الصغيرة ترفرف فوق الأرض.

أنصاع للهاتف. ويصير كل شيء سواه معتمًا ثم يتلاشى. أكون مع دورا مرة أخرى في بيتنا، فلا أعرف كم لبثت مريضة. إنني اعتدت على هذا الشعور، حتى إنني لم أستطع إدراك الوقت. إن المدة لم تطل حقًّا، استمرت لأسابيع أو شهور، إلا أنها على مستوى مشاعري وتجربتي قد امتدت وامتد ألمها وعذابها.

لقد توقف الجميع عن قول: «انتظر بضعة أيام أخر». بدأ الخوف يتسرب إليَّ من أن يوم الشفاء قد لا يشرق أبدًا، فلن أرى زوجتي الطفلة تجري في ضوء الشمس مع صديقها القديم جيب.

لقد كبر وشاخ فجأة، ولعل ذلك لأنه افتقد عشيقته التي كانت تستثير نشاطه وتنعش روحه الصبية. لقد بات يترنح، وضعف بصره، ووهنت أوصاله. وكم حزنت عمتي لأنه لم يعد يعترض طريقها، بل صار يزحف بالقرب منها، فيستلقي على سرير دورا ليلعق كفيها برفق، بينما يهمل عمتي الجالسة بجانب السرير.

كانت دورا الراقدة تبتسم لنا. لم تزل تبدو جميلة وإن لم تتفوه بكلمة واحدة متسرعة. تقول إننا طيبون معها للغاية، وإنها تعلم أن غلامها العزيز الحذق يتعب نفسه من أجلها، وإن عمتي لا تنام بل تسهر دائمًا منتبهة لها ومتعطفة عليها. تأتي السيدتان اللتان تشبهان الطيور في بعض الأحيان لرؤيتها، فتتحدثان عن يوم زفافنا وكل هذا الوقت السعيد.

يا لها من فترة رقاد غريبة، توقفت فيها حياتي! سكنت مظاهر الحياة بأسرها، داخل أبواب بيتي وخارجها. كنت أجلس في غرفة هادئة وظليلة ومنظمة، وعينا زوجتي الزرقاوان الطفوليتان تتجهان نحوي، وتلتف أصابعها الصغيرة حول يدي. أجلس على هذه الهيئة لساعات طوال، وإن كان من بين تلك الأوقات كلها ثلاثة مواقف هي الأكثر بزوغًا في ذهني.

كان الصباح، فزينت عمتي دورا التي راحت توضح لي كيف أن شعرها الجميل سوف يُبسط على الوسادة الآن، وكم هو طويل ولامع، وكيف أنها تحب أن تجمعه في غير إحكام في تلك الشبكة التي ترتديها.

تقول لي عندما أبتسم: «إنني لا أتفاخر بجدائلي الآن أيها الغلام الساخر، بل لأنك كنت تقول إنك تحسب أنها جميلة جدًّا، ولأنني عندما بدأت أفكر فيك لأول مرة، كنت أختلس النظر في المرآة، وأتساءل عما إذا كنت ترغب في الحصول على خصلة منها. يا لك من غلام أحمق يا دودي حين منحتك خصلة من جدائلي!».

قلت: «كان ذلك في يوم كنتِ ترسمين فيه الزهور التي قدمتها لكِ يا دورا. أخبرتكِ يومها كم أنا غارق في الحب».

تقول دورا: «آه، لكنني لم أود أن أخبرك حينها كم بكيت عليها، لأنني تصورت أنك أحببتني حقًّا. دعنا حين أستطيع الركض مرة أخرى كما اعتدت يا دودي، نذهب لزيارة تلك الأماكن التي كنا فيها حبيبين سخيفين، أليس كذلك؟ هل سنزور بعض الطرقات القديمة؟ ولن تنسى زيارة قبر أبي المسكين، أليس كذلك؟».

«بلى، سنحظى بأيام سعيدة. لذلك يجب أن تسرعي بالتعافي يا حبيبتي».

«آه، سأفعل ذلك قريبًا، إنني قد تحسنت كثيرًا، ألا تدرك ذلك؟!».

حل المساء، بينما أجلس على الكرسي نفسه، بجوار السرير ذاته. يتجه الوجه نفسه نحوي. لبثنا صامتين، بينما تلوح الابتسامة على وجهها. لقد توقفت عن حمل وزنها الخفيف صعودًا أو هبوطًا الآن، فها هي ترقد هنا طوال اليوم.

«يا دودي».

«نعم يا عزيزتي دورا».

«لن تظن أن ما سأقوله لك شيء غير معقول، خاصة بعدما أخبرتني منذ فترة قصيرة عن مرض السيد ويكفيلد، أليس كذلك؟ إنني أريد أن أرى أجنيس. أتشوق للغاية إلى رؤيتها».

«سأكتب لها يا عزيزتي».

«هل ستفعل ذلك؟».

«في الحال».

«يا لك من فتى طيب كريم! طوقني يا دودي بذراعيك. إنني متلهفة لرؤيتها يا عزيزي، وهذه ليست نزوة، أو خيالًا أحمق. أريد حقًّا أن أراها».

«إنني على يقين من ذلك. لا بد أن أخبرها بالأمر، وستأتي حتمًا».

تهمس دورا بينما تلف ذراعها حول عنقي: «إنك تلبث وحيدًا تمامًا حين تنزل إلى الطابق السفلي هذه الأيام، أليس كذلك؟».

«كيف يمكنني ألا أكون وحيدًا يا حبيبتي حين أرى مقعدك فارغًا؟».

تمسكت بي لبعض الوقت، في صمت: «مقعدي فارغ! وأنت، هل تفتقدني حقًّا يا دودي؟». راحت تنظر إلى أعلى وتبتسم في إشراق قائلة: «أتفتقد المسكينة، التائهة الغبية؟».

«يا قلبي، هل من الممكن أن أفتقد مخلوقًا على هذه الأرض سواكِ؟».

«آه يا زوجي، إنني في غاية السعادة، لكنني آسفة جدًّا».

راحت تزحف مقتربة مني، وتحتضنني بين ذراعيها. تضحك وتبكي، ثم تهدأ بعد ذلك وتبدو عليها السعادة.

قالت: «حسنًا، ما عليك إلا أن تُبلغ أجنيس بمدى حبي، وأنني أتشوق إلى رؤيتها للغاية، ولم يبقَ لديَّ شيء آخر لأتمناه».

«لم يتبقَّ إلا أن تتحسني مرة أخرى يا دورا».

«آه يا دودي، إنني أظن أحيانًا - تعرف أنني كنت دائمًا شيئًا صغيرًا سخيفًا - أن ذلك لن يحدث أبدًا».

«لا تقولي ذلك يا دورا يا أعز الأحباب، لا تفكري بهذه الطريقة».

«سأفعل. أما إذا كان بإمكاني مساعدتك يا دودي فإنني سأسعد للغاية. حتى لو مكث غلامي الحبيب شاعرًا بالوحدة الشديدة، أمام كرسي طفلته وزوجته التافهة».

حلَّ الليل، ولم أزل معها. وصلت أجنيس وقضينا يومًا كاملًا حتى المساء. لقد جلست أنا وعمتي معًا مع دورا منذ الصباح. لم نتحدث كثيرًا، لكن دورا كانت راضية تمامًا ومبتهجة. وها قد صرنا وحدنا الآن.

هل أعرف الآن أن زوجتي الطفلة ستتركني قريبًا؟ لقد أخبروني بذلك، لكنه لم يكن شيئًا جديدًا لأفكر به. أحسب أنني لم أستطع التعامل مع هذه الحقيقة على محمل الجد، بل ولم أستطع إنكارها. لقد خلوت إلى نفسي عدة مرات اليوم، لأبكي. تذكرت مشهد كل إنسان رأيته باكيًا على الفراق، سواء كان حيًّا أم ميتًا. تعرفت منذ ذلك اليوم

على التاريخ الكريم والرحيم. حاولت أن أتمالك نفسي وأعزيها، وإن كنت قد عجزت عن مواساتها بما يكفي. لم أستطع أن أجبر عقلي على تقبل فكرة أن النهاية قادمة لا محالة. أمسك يدها بيدي، وأشعر بقلبها في قلبي، فأرى حبها لي لم يزل يحيا بكل قوته، فلا أستطيع أن أمحو ظلًّا شاحبًا يحيا على رمق معتقدًا أنها ستنجو.

قالت بنظرة وديعة: «أود أن أقول لك شيئًا طالما فكرت في قوله مؤخرًا يا دودي. إنك لن تمانع ذلك، أليس كذلك؟».

«أتقولين إنني سأمانع يا حبيبتي؟».

«لأنني لا أعرف ما الذي ستفكر فيه، أو ما إذا كنت قد فكرت في الأمر نفسه يومًا. لعلك فكرت في الشيء نفسه وراودك في كثير من الأحيان. يا دودي، يا حبيبي، إنني أخشى من أنني كنت صغيرة للغاية».

أضع وجهي على الوسادة بجانبها، فتنظر إلى عيني وتتحدث بهدوء شديد. تمضي في كلامها بينما أشعر بقلبي المروَّع، أنها تتحدث عن نفسها بصيغة الماضي.

«أخشى يا عزيزي أنني كنت صغيرة للغاية. لا أقصد صغيرة العمر وحسب، بل والخبرة والأفكار وكل شيء. كنت مخلوقة صغيرة سخيفة. وأخشى أنه كان من الأفضل لو أننا اكتفينا بتبادل مشاعر الحب فقط، كما يحب الشاب فتاةً، ثم نسينا ذلك. لقد بدأت أتصور أنني لم أكن لائقة لأن أصير زوجة».

أحاول أن أتمالك دموعي، وأرد قائلًا: «آه يا دورا، يا حبيبتي، ألم أكن أصلح للزواج؟!».

تقول وهي تهز جدائل شعرها كعادتها: «لا أعرف. ربما! لكن لو أنني كنت صالحة للزواج، لجعلتك صالحًا له أيضًا. علاوة على كونك رجلًا ذكيًّا جدًّا، أما أنا فلم أكن كذلك قَطُّ».

«لقد كنا سعيدين للغاية يا دورا».

«كنتُ في غاية السعادة. ولكن مع مرور السنين، كان غلامي الحبيب ليسأم من زوجته الطفلة. كانت لتصير شيئًا فشيئًا أقل إمتاعًا له. كان من الممكن أن يصير أكثر عقلانية ويتدبر ما يريده في منزله. أما هي فلم تكن لتتحسن، أو تحرز أفضل مما أحرزته».

«آه يا دورا، يا أعز الناس، لا تتحدثي معي بهذه الطريقة. إن كل كلمة تبدو عتابًا!».

تجيبني بينما تقبلني: «لا، لا أنبس بكلمة عتاب. آه، يا عزيزي، إنك لم تستحق هذا قَطُّ. لقد أحببتك أيما محبة، وهي أكبر من أن أقول لك كلمة عتاب بلهجة جادة. لقد كانت هذه هي كل المزايا التي أمتلكها، باستثناء كوني جميلة، أو كما كنت تظن ذلك. هل يبدو الطابق السفلي موحشًا يا دودي؟».

«جدًّا، جدًّا».

«لا تبكِ، هل مقعدي لم يزل هناك؟».

«في مكانه القديم».

«آه، يا لبكاء غلامي المسكين! اهدأ، لا تبكِ، أما الآن فلتعدني بشيء واحد. أريد أن أتحدث إلى أجنيس. انزل إلى الطابق السفلي، وأخبر أجنيس بذلك، وأرسلها إليَّ. دعني أتحدث إليها من دون أن تحضر معها عمتي أو أي إنسان آخر. أريد التحدث إلى أجنيس نفسها. أريد أن أتحدث إلى أجنيس بمفردها».

وعدتها أنني سأنفذ ذلك على الفور، ولكن لا يمكنني تركها بسبب حزني عليها.

همست إليَّ وهي تحتضنني بين ذراعيها: «قلت لك إن حالتي أفضل. آه يا دودي، إنك لن تحب زوجتك الطفلة بعد سنوات عديدة حبًّا يضاهي حبك الآن أبدًا. وبعد سنوات أكثر، ستحاول أن ترضيك ثم ستخيب ظنك، وربما ساعتها لن تستطيع أن تحب نصف هذا الحب. أعلم أنني كنت صغيرة للغاية وحمقاء، بل أكثر من ذلك».

نزلت إلى الطابق السفلي، ووجدت أجنيس في غرفة الاستقبال، فأبلغتها الرسالة. انصرفت وتركتني وحدي مع جيب.

كان جيب في بيته بجوار المدفأة، يرقد على سريره الوثير، يحاول عبثًا أن ينام. لاح القمر الساطع وهاجًا صافيًا، بينما رحت أنظر إلى الليل، وتنهمر دموعي مسرعة، وأحسب أن قلبي المضطرب كان يتألم بشدة.

أجلس أمام المدفأة، فأفكر بندم أعمى في كل المشاعر الخفية التي أخفيتها منذ زواجي. أفكر في كل التفاهات الصغيرة التي دارت بيني ودورا، فأشعر أنني أعاين حقيقة أن تلك التفاهات ليست سوى الحياة

في مجملها. تقفز صورة الطفلة الحبيبة كما عرفتها أول مرة وتتجلى في بحر ذكرياتي، فتزيد حبي الصغير جمالًا وتزيدني عشقًا، بكل ما في العشق من افتتان وسحر وقوة. هل كان من الأفضل لو أننا أحببنا بعضنا مثل أي شاب وفتاة، ثم نسينا ذلك؟ يا أيها القلب المضطرب، فلتُجِب.

لا أعلم كم طال بي المقام وحيدًا. نبهني ذلك الرفيق القديم لزوجتي الطفلة. لم يهدأ باله وازداد قلقه، فخرج زاحفًا من منزله، وراح ينظر إليَّ متجهًا نحو الباب، ثم صعد إلى الطابق العلوي.

«ليس الليلة يا جيب، ليس الليلة».

يعود إليَّ ببطء شديد ويلعق يدي ثم يرفع عينيه الخافتتين إلى وجهي.

«آه يا جيب، قد لا يكون ذلك أبدًا».

يستلقي عند قدمي، ويتمدد كما لو أنه يريد أن ينام، ثم ينبح بأنين حزين ويموت.

«آه، يا أجنيس، انظري، انظري هنا».

أبصر وجهها مفعمًا بالشفقة والحزن، وأشهد ذلك المطر المنهمر من الدموع، وذلك الصمت المروع، وتلك اليد المهيبة مرفوعة نحو السماء.

«أجنيس».

انتهى كل شيء. حل الظلام أمام عيني، وفي لحظة، مُحي كل شيء عن ذاكرتي.

الفصل الرابع والخمسون

صفقات السيد ميكوبر

لم يسعني الوقت لأعود إلى رشدي تحت وطأة الحزن. رحت أتصور أن المستقبل قد أوصد أبوابه أمامي، وأن طاقة حياتي ومحركها قد آلا إلى زوال، ولن يسعني ملجأ سوى القبر. أقول دومًا إنني خلقت لأفكر، لكنني لم أستطع تجاوز أولى صدمات حزني، لذلك راح حزني ينمو ببطء. ولولا أن الأحداث التي سأسردها راحت تتفاقم حولي، فإذا بها تربكني في البداية، ثم تزيد من معاناتي في النهاية، لكان من الممكن أو على الأرجح أن تؤول بي إلى الانهيار في الحال. كنت في الواقع قد تصورت في فترة من الزمن قبل أن يقع بي ما وقع، أنني أدرك مدى محنتي تمامًا، بل ظننت حينها أن أشد آلامي قد ولى. هدأت ثورة ذهني فإذا بي أدرك أن كل معاني البراءة والجمال في قصتي الرقيقة قد ولَّت إلى الأبد.

لا أعرف حتى هذه اللحظة ولا أميز بوضوح كيف وافقت على السفر إلى الخارج لأول مرة، أو كيف اتفقنا على أنني سأسعى لاستعادة سلامي أو أغير من حالتي بالسفر. سادت روح أجنيس على كل ما فكرنا فيه وقلناه وفعلناه في ذلك الوقت العصيب، حتى إنني قد أحيل الأمر كله إلى تأثيرها وسلطتها على الرغم من أن تأثيرها ظل هادئًا.

بدأت أفكر منذ هذه اللحظة في علاقتي القديمة بها، فتذكرتها عند نافذة الزجاج الملون في الكنيسة، كما لو أنني أمام نبوءة تنذر بالعاقبة التي كانت ستحدث لي في ملء الزمان، وقد ثبت هذا المشهد في ذهني. بات الحزن يلفني منذ تلك اللحظة التي لا تُنسى أبدًا، حين وقفت أمامي رافعة يدها، كما لو أنني ماثل أمام حضور مقدس، وحيدًا في منزلي. لقد نزل ملاك الموت، فنامت زوجتي الطفلة على صدر أجنيس وقد ارتسمت ابتسامة على وجهها. هذا ما قالوه لي حين تحاملت على نفسي لسماع هذا الخبر. فقدت وعيي إثر هذا النبأ، ثم تنبهت متذكرًا دموعها الرحيمة في البداية، وكلماتها المليئة بالأمل والسلام، ووجهها اللطيف الذي يطل عليَّ من أنقى موضع من الجنة، فتتنزَّل في قلبي المضطرب، وتضمد آلامه وجراحه.

اسمحوا لي أن أعود بالحديث إلى قصتنا.

كان عليَّ أن أسافر، ويبدو أن هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية. لاحت لي الآن بقاع الأرض بأسرها بساطًا يكسو رفات زوجتي المتوفاة. لم أنتظر سوى ما أسماه السيد ميكوبر «سحق هيب النهائي»، كما لو أنني أنتظر رحيل المهاجرين.

نفذت ما طلبه ترادلز مني، وهو أكثر الأصدقاء محبة ومواساة لي في فجيعتي، فعدنا إلى كانتربري؛ أعني عدتُ أنا وعمتي وأجنيس. قصدنا منزل السيد ميكوبر مباشرة استجابة لموعد سابق، حيث كان صديقي هذا يعمل في منزل السيد ويكفيلد منذ اجتماعنا الأخير المدوي. ما إن أبصرتني السيدة ميكوبر المسكينة مقبلًا عليها مرتديًا ملابس الحداد السوداء، حتى تأثرت تأثيرًا بالغًا. كان قلب السيدة ميكوبر حانيًا عطوفًا، لم يتبدل طوال السنوات العديدة المنقضية.

أما التحية التي وجهتها عمتي لهم بعد جلوسنا فكانت أن قالت: «حسنًا يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر، هل آمل أن تكونا قد فكرتما في أمر الهجرة الذي اقترحته عليكما؟».

أجابها السيد ميكوبر قائلًا: «يا سيدتي العزيزة، ربما لا يمكنني التعبير عن النتيجة التي وصلت إليها السيدة ميكوبر مع خادمكِ المتواضع، بل ويمكنني أن أضيف أطفالنا، حيث فكرنا معًا ومنفردين، فأستعير تعبيرَ شاعر لامع إذ يقول «قاربي على الشاطئ، ولحائي في البحر»[1]».

قالت عمتي: «بالضبط. إنني متفائلة بالخير من قراركم الحكيم».

فقال: «يا سيدتي، إنكِ تمنحيننا شرفًا بالغًا بحديثكِ ونصحكِ». أشار بعد ذلك إلى مذكرة، واستطرد قائلًا: «وفيما يتعلق بالدعم المالي

---

(١) من أشعار جورج جوردون بايرون، أحد رواد الشعر الرومانسي، حظي بشعبية كبيرة في أرجاء بريطانيا.

الذي سيمكّننا من إطلاق زورقنا الضعيف في خضم هذه الأحداث، فإنني قد أعدت النظر في نقطة مهمة، وأود أن أعرض عليكم بعض ملاحظاتي التي دونتها بيدي - ولا داعي لأن أقول إنني راعيت فيها تدوين المبالغ المستحق سدادها على التوالي، بموجب قوانين البرلمان المطبقة على مثل هذه الوثائق المالية - على أن يُسدد المبلغ في اثني عشر شهرًا، أو ثمانية عشر، أو أربعة وعشرين شهرًا، على التوالي. وكان هذا هو الاقتراح الذي قدمته في الأصل، لكني أخشى أن مثل هذا التعاقب في السداد قد لا يتيح أمامي وقتًا كافيًا لسداد المبلغ المطلوب، خاصة وإن طرأت بعض الأمور».

راح السيد ميكوبر يدير بصره بين أرجاء الغرفة كما لو أنه يحصي مئات الأفدنة من الأراضي المزروعة على نطاق واسع، ثم استطرد قائلًا: «قد لا نحتمل سداد أول مبلغ مستحق، لأننا قد نجني حصادنا، وربما لا يثمر لنا شيئًا. أظن أنه من الصعب أحيانًا الحصول على فرصة عمل في ذلك الجزء من مستعمراتنا من دون أن نتخبط في القتال على هذه الأرض القاسية».

قالت عمتي: «رتِّب الأمر بأي طريقة تفضلها يا سيدي».

أجاب: «يا سيدتي، أنا والسيدة ميكوبر على دراية كبيرة بمدى طيبة أصدقائنا ورفاقنا. إن ما أرجوه هو أن أتمم هذا الأمر على وجه دقيق تمامًا. إننا نطوي صفحاتنا لنبدأ صفحة جديدة تمامًا، كما نوشك جميعًا على قلب صفحات من الماضي، ربما ننكفئ ونتراجع إثر طفرة لم تكن بالحسبان، كما هي الحال مع أسرتي الآن، لكن يبقى الشيء الذي أبقيه

داخلي وهو احترام الذات، بالإضافة إلى أن أصير قدوة لابني، ومن ثَم وجب أن تحفظ مثل هذه الترتيبات بين رجل وآخر».

لست متيقنًا من أن السيد ميكوبر قد أضاف أي معنى بهذه العبارات الأخيرة، ولا أظن أن أحدًا قد فهم مقصده، لكنه بدا مستمتعًا بكلماته بطريقة غير مسبوقة، بل راح يكررها بسعال مثير للدهشة، قائلًا: «بين رجل وآخر».

استرسل السيد ميكوبر قائلًا: «أقترح أن أقدم إليكم فواتير - لقد صارت وسيلة ملائمة لعالم التجارة، وأحسب أن الأصل في استخدامها يعود إلى اليهود، إذ يبدو لي أنهم عقدوا صفقات جهنمية شتى منذ ظهور هذه الفواتير - إنها طريقة تسمح بالتفاوض. أما في حالة أن فضلتم تقديم سند أو أي وثيقة أخرى تؤمِّن لكم حقوقكم المالية، فإنني سأنفذ ما أردتم بكل سرور، كما ينبغي أن يكون بين رجل وآخر».

علقت عمتي قائلة إنه في حالة استعداد الطرفين للموافقة على المسألة - وهذا أمر تظن أنه مسلم به - لن تظهر أي صعوبة في تسوية هذه النقطة. وقد وافق السيد ميكوبر على ما قالته.

قال السيد ميكوبر بلهجة مفتخرة: «أما استعداداتنا المنزلية لمواجهة المصير الذي نفهم الآن أننا مقدمون عليه يا سيدتي، فإنني أستأذنكِ في عرضها عليكم. إن ابنتي الكبرى تذهب في الساعة الخامسة كل صباح إلى مؤسسة مجاورة، لتتعلم عملية حلب الأبقار -إذا كان من الممكن أن أطلق عليها اسم «عملية»- كما طلبنا من الأطفال الصغار أن يلاحظوا، بقدر ما تسمح الظروف، عادات الخنازير والدواجن التي

تربى في الأجزاء الفقيرة في هذه المدينة، إلا أن هذه المراقبة أسفرت عن عودتهم إلى المنزل بعد حادثتين، كانوا على مسافة شبر واحد من عجلات كادت تدهسهم. أما أنا، فقد وجهت اهتمامي خلال الأسبوع الماضي إلى فن الخبز، وكذلك انطلق ابني ويلكنز بعصا ليرعى بعض الماشية المعروضة للبيع في السوق، بعد أن سمح له الرعاة بالأمر مقابل القيام بأعمال وعرة وتقديم خدمات تطوعية من هذا القبيل، ويؤسفني أن تدفعني طبيعتي الصادقة إلى أن أقول إنه لم يلاقِ في كثير من الأحيان غير التهديد بشكل عام، أو اللعن والشتم حتى كف عن عمله».

قالت عمتي مشجعة: «حسنًا. إنني متأكدة من أن السيدة ميكوبر انشغلت أيضًا بعمل ما».

أجابت السيدة ميكوبر بلهجة عملية فقالت: «يا سيدتي العزيزة، إنني أقر بأنني لم أشارك في نشاط أو عمل مرتبط مباشرة بالزراعة أو تربية الماشية، على الرغم من أنني أدرك جيدًا أن كليهما سيثيران اهتمامي فوق أرض أجنبية. لقد انتهزت بعض الفرص بعد إنهاء واجباتي المنزلية، وكرست وقتي للتواصل مع عائلتي بشكل أفضل». كانت السيدة ميكوبر تُوجه كلامها لي دائمًا، وأحسب أنها تتبع بذلك عادتها القديمة، إذ كانت تبدأ دومًا حديثها كما لو أنها تخاطب شخصًا آخر. استطردت قائلة: «لأنني أقر يا عزيزي السيد كوبرفيلد بأنه يبدو لي أن الوقت قد حان كي ندفن الماضي في غياهب النسيان، إذ يجب على عائلتي أن تمد يدها إلى السيد ميكوبر، وعلى السيد ميكوبر أن يمد يده إلى عائلتي، فيسكن الأسد

مع الحمل[1]، ويصير الجميع على وفاق مع السيد ميكوبر».

قلت أظن أن ذلك عين الصواب.

مضت السيدة ميكوبر تقول: «إن هذا على الأقل هو الضوء الذي أتطلع إلى رؤية الأمور من خلاله يا عزيزي السيد كوبرفيلد. كنت أعيش في المنزل مع أبي وأمي، وقد اعتاد والدي أن يسأل كلما ظهر أي أمر قيد المناقشة في دائرتنا المحدودة، فإذا به يقول: «في أي ضوء ترى إيما هذا الموضوع؟». أعلم أن أبي كان متحيزًا للغاية، لكنني كنت مضطرة إلى أن أتخذ موقفًا فيما يخص هذه الجفوة الشديدة التي سادت بين السيد ميكوبر وعائلتي، وإن كان موقفي مضللًا».

قالت عمتي: «لا شك في ذلك، ولديكِ كل الحق يا سيدتي».

وافقت السيدة ميكوبر على كلامها قائلة: «بالضبط. أما الآن فلعلي مخطئة في استنتاجاتي، بل على الأرجح أنني مخطئة، إلا أن انطباعي الفردي مفاده أن الهوة بين عائلتي والسيد ميكوبر كانت بسبب خوفهم من أن يطلب منهم دعمًا ماليًّا». أكملت السيدة ميكوبر حديثها بنبرة من يتسم بالحكمة العميقة، فقالت: «لا يسعني هنا إلا أن أفكر في خوف بعض أفراد عائلتي من أن يطلب السيد ميكوبر منهم الانتفاع بأسمائهم. لا أقصد أن يطلب منهم منح أسمائهم في معمودية أطفالنا، بل خافوا

(١) تعبير مستقى من الكتاب المقدس يصف الأحوال في مملكة الرب: «فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْخَرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمِرُ مَعَ الْجَدْيِ، وَالْعِجْلُ وَالشِّبْلُ وَالْمُسَمَّنُ مَعًا، وَصَبِيٌّ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا. وَالْبَقَرَةُ وَالدُّبَّةُ تَرْعَيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلاَدُهُمَا مَعًا، وَالأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تِبْنًا» (أشعياء ١١: ٦، ٧).

من أن يستخدم أسماءهم كضامنين في وثائق الديون، أو التفاوض في سوق المال».

أعلنت السيدة ميكوبر عن هذا الاكتشاف بنظرة ثاقبة، فبدا كما لو أنه أمر لم يخطر ببال أحد من قبل، بل أحسست أنها أذهلت عمتي التي أجابت فجأة قائلة: «حسنًا يا سيدتي، على العموم لا ينبغي أن أتعجب إذا ما كنتِ على حق فيما تقولين».

قالت السيدة ميكوبر: «لقد صار السيد ميكوبر الآن على وشك التخلص من الأغلال المالية التي طالما فتنته، ليبدأ حياة مهنية جديدة في بلد يتوفر فيه مجال متسع لقدراته، وهذه الميزة في رأيي عامل مهم للغاية، لأن قدرات السيد ميكوبر تتطلب مساحة خاصة. يبدو لي أن على عائلتي أن تلتفت إلى هذه الأمور فتتقدم في خطواتها بالتصالح. كنت أتمنى رؤية لقاء بين السيد ميكوبر وعائلتي في حفل ترفيهي تقدمه عائلتي على نفقاتها. يشرب به بعض الأعضاء البارزين في عائلتي نخب السيد ميكوبر ونخب ازدهاره المأمول، ومن ثَم تتوفر للسيد ميكوبر الفرصة لإيضاح آرائه لهم».

قال السيد ميكوبر بشيء من الحماسة: «يا عزيزتي، قد يكون من الأفضل لي أن أصرح في الحال بوضوح، أنني إذا شرحت آرائي لتلك الجماعة في مجملها، فإنه من المحتمل أن أُواجَه بنوع من الهجوم. إن انطباعي عن عائلتكِ في مجملها، لا يتعدى كونهم جماعة وقحة، بل إنهم أشرار أوغاد على وجه الخصوص».

قالت السيدة ميكوبر وهي تهز رأسها: «لا يا ميكوبر، إنك لم تفهمهم قَطُّ، ولم يحاولوا فهمك مطلقًا».

سعل السيد ميكوبر.

قالت زوجته: «لم يفهموك قَطُّ يا ميكوبر. قد يكونوا غير قادرين على استيعابك. وإذا كان هذا ما في الأمر، فإنه من سوء حظهم. وإنني لأشفق على هذا الحظ السيئ».

قال السيد ميكوبر بلهجة ندم: «إنني آسف يا عزيزتي إيما. إنني قد أسأت التعبير، فتحدثت حديثًا يبدو قاسيًا. إن ما أود قوله هو أنني أستطيع السفر إلى الخارج من دون أن تتقدم عائلتك بخطوة لتشجيعي. باختصار، لا أنتظر رؤية هزة من أكتافهم الباردة. كما أنني أفضل بشكل عام أن أترك إنجلترا بهذا الزخم الذي أملكه وحدي، من دون استثارة أي مشاعر من هذه الجماعة. أما إذا تنازلوا في الوقت نفسه بالرد على مراسلاتكِ يا عزيزتي - وهو أمر تثبت خبراتنا بهم أنه غير محتمل إلى حد بعيد - فإنني لن أكون عقبة أمام رغباتكِ».

سُوي الأمر وديًا. ومد السيد ميكوبر ذراعه إلى السيدة ميكوبر، ثم ألقى نظرة خاطفة على كومة من الوثائق والأوراق المنبسطة على الطاولة أمام ترادلز، وقال إنهما سيتركاننا لنخلو لأنفسنا، وهذا ما فعلاه بكل احترام.

كان ترادلز متكئًا على كرسيه حتى غادرا، فإذا به ينظر إليَّ بمحبة أثارت الاحمرار في عينيه، ونفشت شعره ليتخذ مختلف الأشكال، وإذا

به يقول: «يا عزيزي كوبرفيلد، إنني لا أستطيع أن أعتذر عن الإزعاج الذي أجلبه لك فيما يتعلق بأمور أعلم أنك مهتم بها أشد الاهتمام، مما قد يؤدي إلى انقشاع هواجسك. وأرجو يا صديقي العزيز ألا تصير منهكًا».

قلت بعد صمت قصير: «لقد استعدت نفسي تمامًا. وإننا أمام عدد من الأسباب تدفعنا إلى التفكير في أمر عمتي من دون غيرها. إنك تعرف ما فعلته».

أجاب ترادلز: «بالتأكيد، بالتأكيد. ومَن ينسى أفعالها!».

قلت: «إلا أن هذا ليس كل ما في الأمر. لقد أزعجتها بعض المشكلات الجديدة خلال الأسبوعين الماضيين. كانت تخرج من لندن وتعود إليها كل يوم. خرجت مبكرًا عدة مرات ثم تأخرت في عودتها حتى المساء. أما الليلة الماضية يا ترادلز، فلم تُنهِ هذه الرحلة حتى انتصف الليل تقريبًا قبل عودتها إلى المنزل. إنك تعرف مدى اهتمامها بشؤون الآخرين، كما تعرف أنها لن تخبرني بما يضايقها».

ظلت عمتي شاحبة فوق مقعدها، تلوح على وجهها خطوط عميقة. لم تحرك ساكنًا حتى انتهيت من حديثي هذا، وما إن انتهيت حتى وجدت الدموع الضالة طريقها إلى خديها، كما وضعت يدها فوق يدي.

قالت: «لا شيء يا تروت. لا شيء. لن تحدث هذه الأمور مجددًا. يجب أن تعرف حقيقة الأمور. أما الآن يا أجنيس، يا عزيزتي، دعونا ننتبه إلى تحضير هذه الشؤون».

قال ترادلز: «يجب أن أقول شيئًا في حق السيد ميكوبر، إذ إنه رجل لا يكل عن العمل خاصة إذا تعلق الأمر بشؤون الآخرين، على الرغم من أنه لم يعمل بجد لينفع نفسه. إنني لم أرَ مثل هذا الرجل في حياتي قَطُّ. لو أنه استمر على المنوال ذاته، فإن عمره يجب أن يتجاوز في الوقت الحاضر المائتي عام تقريبًا. إن الحماسة التي أفنى بها نفسه في عمله المتواصل، والانغماس والمثابرة والطريقة التي كان يغطس بها ليلًا ونهارًا بين الأوراق والوثائق، أمر غير مألوف فعلًا، باستثناء شيء أود أن أقوله عن العدد الهائل من الرسائل التي كتبها لي بين جنبات هذا المنزل أو منزل السيد ويكفيلد، وغالبًا ما كتبها فوق الطاولة وهو جالس في الجهة المقابلة مني، وكان من الممكن أن يتكلم مباشرة إليَّ بسهولة أكبر».

صرخت عمتي: «يكتب الرسائل! أظن أنه يحلم بها!».

قال ترادلز: «أما السيد دك فقد صنع هو الآخر معجزات! ما إن أُطلق سراحه بعد التغاضي عن مراقبة يورايا هيب، وقد أدى هذه المسؤولية بيقظة وانتباه لم أرَهما في حياتي، حتى بدأ في تكريس نفسه للسيد ويكفيلد. وكان أفادنا قلقه الدائم أيما إفادة في التحقيقات التي أجريناها، كما أفادنا في استخراج الأدلة ونسخها، وكذلك في جلب الأوراق وحملها، وكان وجوده محفزًا ودافعًا لنا».

صاحت عمتي: «إن دك رجل رائع للغاية. إنك تعرف يا تروت أنني طالما قلت لك إنه رجل عظيم».

أردف ترادلز يقول برقة كبيرة وجدية بالغة في آن: «يسعدني أن أقول يا آنسة ويكفيلد إن السيد ويكفيلد تحسن بصورة كبيرة في غيابكِ.

بعد أن تحرر من الكابوس الذي حاصره لفترة طويلة، وانزاحت عنه المخاوف المروعة التي عاش في ظلها، فصار إنسانًا جديدًا تمامًا. أما قدرته الضعيفة على تركيز وانحصار ذاكرته في بعض الأحيان على نقاط معينة من العمل، فقد تحسنت هي الأخرى أيما تحسن، واستطاع مساعدتنا في استيضاح بعض الأمور التي شق علينا فهمها لصعوبتها البالغة، بل كنا على وشك أن نيأس من فهمها لولا مساعدته لنا. إن ما فعلناه بالنهاية هو التوصل إلى نتائج، وهي قصيرة موجزة تغنينا عن كثير من الكلام عن كل الظروف المفعمة بالأمل التي لاحظتها. وإنني لو ذكرت كل الملابسات فإنني لن أنهي حديثي أبدًا».

أحسست من طريقة ترادلز الطيبة وبساطته المقبولة أنه ما قال كلامه هذا إلا ليُدخل على قلوبنا السرور، ولكي يُسمع أجنيس اسم والدها المذكور فتزداد طمأنينتها عليه، ولم يكن الغرض الأخير أقل متعة وسعادة من الأول.

قال ترادلز وهو ينظر إلى الأوراق المنبسطة على الطاولة: «أما الآن، فلنبحث في الأمر. لقد أحصينا أموالنا، ونظمنا قدرًا كبيرًا مما أحاطنا من ارتباك غير متعمد في المقام الأول، ثم نظمنا الارتباك المتعمد والتزوير في المرتبة الثانية، فتبين أن السيد ويكفيلد قد ينتهي الآن من تصفية عمله وتخليص توكيلاته، من دون عجز أو اختلال في أداء ما عليه».

صرخت أجنيس بحرارة: «آه، الحمد لله».

قال ترادلز: «لكن الفائض الذي سيتبقى لدعمه سيكون مبلغًا ضئيلًا للغاية - وأفترض بقولي هذا أن المنزل سيُباع - لن يتجاوز في

جميع الاحتمالات بضع مئات من الجنيهات، وربما يكون من الأفضل يا آنسة ويكفيلد أن نفكر فيما إذا كان من الممكن أن يحتفظ بوكالته لبعض الممتلكات التي ظل أمينًا عليها منذ فترة طويلة. كما تعلمين أن أصدقاءه قد ينصحونه بالمضي في عمله الآن بعد أن استرد حريته. أنتِ نفسكِ يا آنسة ويكفيلد، وأنت يا كوبرفيلد، وأنا...».

قالت أجنيس وهي تنظر إليَّ: «لقد فكرت في الأمر يا تروتوود، وأميل إلى تجنب هذه الأمور، فلا يجب أن يُبقي على شيء من عمله، بناء على توصية من صديق أشعر بالامتنان الشديد له، وأدين له بالكثير».

لاحظ ترادلز: «لا أقول إنني أوصي بالإبقاء على توكيلاته. إلا أنني ظننت أنه من الصواب أن أعرض عليكم الفكرة وحسب».

أجابت أجنيس، بثبات: «إنني سعيدة لسماع اقتراحك هذا، لأنها فكرة تمنحني أملًا، ونوعًا من الاطمئنان إلى أننا نفكر في الشيء نفسه على حد سواء. يا عزيزي السيد ترادلز ويا عزيزي تروتوود، لقد عاد أبي حرًّا بشرف وكرامة، فما الذي يمكن أن أتمناه أكثر من ذلك؟! لطالما كنت أتمنى لو أنني أستطيع تحريره من الشدائد التي كبلته، لأعيد إليه جزءًا صغيرًا من الحب والرعاية اللذين أدين له بهما، وأن أكرس حياتي له. لقد كانت هذه الأمنيات هي ذروة آمالي لسنوات عديدة، صار حمل مستقبلنا هو كل ما على عاتقي، فلا أفكر إلا في سعادتي العظيمة القادمة؛ أقصد القادمة بعد تحريره من ثقل مسؤولياته وأعبائه كلها».

قلت: «هل فكرتِ كيف ستسير الأمور يا أجنيس؟».

قالت: «فكرت كثيرًا. إنني لست خائفة يا عزيزي تروتوود. إنني متأكدة من نجاح خطواتنا. يعرفني هنا أناس كثر، ويتكرمون عليَّ بلطفهم وعطفهم، وإنني على يقين من هذا الأمر ولا شك فيه. إن احتياجاتنا ليست كثيرة، فإذا استأجرت المنزل القديم الغالي، واحتفظت بمدرسة، فإننا سننتفع ونسعد بما أوتينا».

أعادت نبرة الحماسة الهادرة في صوتها البهيج ذكرى واضحة للمنزل القديم الغالي أولًا، ثم بيتي الموحش ثانيًا، حتى صار قلبي مفعمًا بالمشاعر إلى الحد الذي عجزت فيه عن الكلام. تظاهر ترادلز لبعض الوقت بأنه مشغول بالبحث عن شيء في الأوراق.

قال ترادلز: «ننتقل يا آنسة تروتوود إلى ما يتعلق بممتلكاتكِ».

تنهدت عمتي قائلة: «حسنًا يا سيدي، إن كل ما عليَّ قوله هو أن ممتلكاتي قد تلاشت ويمكنني تحمل خسارتها، وإذا لم تكن قد تلاشت فإنني سأسعد أيما سعادة باستعادتها».

قال ترادلز: «أحسب أنها بلغت في الأصل ما يقرب من ثمانية آلاف جنيه على هيئة سندات مالية، أليس كذلك؟».

أجابت عمتي: «صحيح».

قال ترادلز في نوع من الحيرة: «لا يمكنني حساب أكثر من خمسة».

سألت عمتي في رباطة جأش غير مألوفة: «ماذا تقصد؟».

قال ترادلز: «أقصد خمسة آلاف جنيه».

أجابته عمتي: «سأفند لك كل ما وقع. لقد احتفظت لنفسي بثلاثة

آلاف جنيه. دفعت ألفًا في البداية مقابل تدريبك يا تروت يا عزيزتي، واحتفظت بالألفين الأخريين. ما إن فقدت باقي نقودي، حتى ظننت أنه من الحكمة ألا أذكر شيئًا عن المبلغ المتبقي معي، فأبقيت أمره سرًّا ليوم عصيب. أردت أن أرى كيف ستخرج من المحنة يا تروت، وها أنت قد خرجت بنبل ومثابرة معتمدًا على نفسك، متفانيًا. وكذلك فعل دك. فلا تتحدثوا معي عن الأمر، لأني أجدني متوترة الأعصاب قليلًا».

لم يخطر ببال أحد أن يراها جالسة في وضع مستقيم وقد طوت ذراعيها، متحكمة في مشاعرها بصورة رائعة.

صاح ترادلز مبتهجًا بالفرح: «ثم يسعدني أن أقول إننا قد استعدنا المبلغ كله».

صرخت عمتي: «لا يهنئني أي إنسان قبل أن أفهم! كيف حدث ذلك يا سيدي؟».

قال ترادلز: «هل كنتِ تظنين أن السيد ويكفيلد قد اختلسه؟».

قالت عمتي: «بالطبع ظننت ذلك، ولذلك آثرت الصمت. يا أجنيس، لا تعلقين على قولي ولو بكلمة واحدة!».

قال ترادلز: «وبالفعل، بيعت هذه السندات المالية بحكم التوكيل الذي تسلمه منكِ، ولكن لا أحتاج إلى تحديد الشخص الذي باع هذه السندات أو من وقع فعليًّا على الأوراق. بعد ذلك، تظاهر هذا الوغد أن السيد ويكفيلد اختلس المال، ثم أثبت أيضًا بالأرقام أنه حصل على هذا المال، وقال إنه اتبع في ذلك التعليمات القانونية العامة، وإنه لجأ إلى

البيع لسد أوجه القصور والأزمات الأخرى. كان السيد ويكفيلد ضعيفًا وعاجزًا تحت قبضته إلى الحد الذي عجز معه أن يدفع لكِ مالكِ بعد ذلك. وما كان من السيد ويكفيلد إلا أن جعل من نفسه - للأسف - طرفًا في عملية الاحتيال، وصار متهمًا باختلاس عدة مبالغ من الفوائد على أصل مزعوم كان يعلم أنه لم يعد موجودًا».

أردفت عمتي قائلة: «ثم تحمل في النهاية العاقبة بنفسه. بل أرسل لي خطابًا مجنونًا، يتهم نفسه بالسرقة والخطأ الذي لم يسمع به أحد من قبل. زرته بعد ذلك في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، وطلبت شمعة ثم أحرقت الرسالة، وأخبرته أنني سأنتظر أن يرد لي حقي ويعود إلى نفسه، وإذا لم يستطع فليحافظ على سره هذا مخفيًّا حفاظًا على ابنته. لا أريد أن يتحدث أحد منكم معي حول ما قلته، وإلا غادرت المنزل في الحال».

أبقينا جميعًا على الصمت، بينما أجنيس تغطي وجهها بكفيها.

قالت عمتي بعد صمت قصير: «حسنًا يا صديقي العزيز، وهل استعدت المال منه حقًّا؟».

قال ترادلز: «حسنًا، في الحقيقة لقد طوَّق السيد ميكوبر هذا الوغد تمامًا، وكان مستعدًّا دائمًا بعديد من الأساليب الجديدة في حالة ما إذا فشلت إحدى الوسائل القديمة لتقييده، بحيث لا يستطيع الهروب منا. أما الموقف الأبرز هو أنني لا أظن أن هذا الوغد أراد أن يسيطر على هذا المبلغ لإرضاء جشعه، بل أراد أن يبدده بسبب كراهيته المفرطة التي شعر بها تجاه كوبرفيلد. وقد صرح لي بهذه الكراهية بوضوح. قال إنه ما كان ليبدد هذا المبلغ إلا لعرقلة كوبرفيلد وإذلاله».

قالت عمتي وهي تملس حاجبيها متفكرة وناظرة إلى أجنيس: «ها، وماذا حلَّ به؟».

قال ترادلز: «لا أعرف. لقد غادر مع والدته من هنا، بينما ظلت تصرخ وتتوسل وتكشف الحقائق طوال الوقت. سافرا بعيدًا في إحدى عربات لندن الليلية، ولم أعد أعرف شيئًا عنه، إلا أن حقده عليَّ عند الفراق كان جريئًا. بدا أنه كان يعتبر نفسه مدينًا لي بشيء يسير مقابل ما يدين به للسيد ميكوبر، وهو ما أعتبره -كما أخبرته- مدحًا عظيمًا».

سألته: «هل تظن أنه يملك مالًا يا ترادلز؟».

أجاب وهو يهز رأسه بجدية: «نعم يا عزيزي، أظن ذلك. يجدر بي أن أشير إلى أنه حصل بلا شك على قدر كبير من المال بطريقة ما. إلا أنني أظن يا كوبرفيلد أنه إذا أتيحت لك الفرصة لمراقبة مسار يورايا، فإنك ستجد أن تلك الأموال لن تُغنيه أبدًا عن الأذى. إنه النفاق متجسدًا، ولن يسعى وراء أي شيء من دون عوج. إن هذا الدرب هو تعويضه الوحيد عن القيود الظاهرية التي يكبل بها نفسه. إنه يزحف على الأرض ويسعى دائمًا إلى غرض صغير، ثم ينكب على كل شيء بغيض في هذا الطريق. إنه يكره ويشتبه في كل من يحول بينه وهدفه من دون قصد. ستزداد طرقه الملتوية التواء بين عشية وضحاها، لأتفه سبب، أو من دون سبب واضح. يكفي أن تتمعن في تاريخه هنا فقط لتتيقن من ذلك».

قالت عمتي: «يا له من وحش جشع!».

علق ترادلز بعد لحظات من تفكير قائلًا: «لا أعرف حقًّا كيف وصل إلى هذا الحد! كيف يمكن لكثير من الناس أن يصيروا بهذا الجشع بل ويحرصوا عليه!».

قالت عمتي: «والآن، لنعُد إلى السيد ميكوبر».

قال ترادلز بابتهاج: «حسنًا، لا بد أن أثني مرة أخرى حقًّا على ما فعله السيد ميكوبر. لولا صبره ومثابرته لفترة طويلة، لما تمكنا أبدًا من تحقيق أي شيء يذكر. وأظن أننا يجب أن نعتبر أن ما فعله السيد ميكوبر هو عين الصواب، خاصة لو وضعنا في الاعتبار أن يورايا هيب نفسه كان بإمكانه المقايضة على صمته».

قلت: «إنني أوافقك على ما تقول».

سألت عمتي: «والآن، ماذا ستمنحونه؟».

قال ترادلز في نوع من الارتباك: «آه، قبل أن نتطرق إلى هذا الأمر، أخشى أن أقول إنني ظننت أنه من الأفضل أن أطرح مسألتين، لأنني لم أستطع حل كل الأمور التي طرحت أمامي، حيث إن إجراء هذه التسويات سيكون خارج الحدود القانونية، بل إنه خارج القانون من بدايته إلى نهايته تمامًا. ويا له من أمر بالغ الصعوبة. إن سندات الدين وما يشبهها من أوراق قدمها السيد ميكوبر إلى يورايا في مقابل حصوله على سلفة...».

قالت عمتي: «حسنًا، يجب أن تسدد إليه».

أجاب ترادلز وهو يفتح عينيه على اتساعهما: «نعم، لكنني لا أعرف

متى يمكن المضي قدمًا في سدادها، أو أين هي، وإنني أتوقع أنه خلال هذا الوقت وقبل مغادرة السيد ميكوبر، سيحاول يورايا مرارًا أن يزج به إلى السجن أو الإيقاع به بين يدي القضاء».

فقالت عمتي: «من ثَم يجب إطلاق سراحه مرة أخرى، وتخليصه من السجن. فما هو المبلغ المطلوب منه تمامًا؟».

قال ترادلز مبتسمًا: «حسنًا، لقد دون السيد ميكوبر هذه الصفقات -إنه يسميها الصفقات- بدقة بالغة في دفتره، وهي تبلغ مائة وثلاثة جنيهات وخمسة شلنات».

قالت عمتي: «والآن، ماذا سنعطيه بالإضافة إلى هذا المبلغ؟ إننا نستطيع أن نتحدث أنا وأنتِ يا عزيزتي أجنيس عن تقسيمه بيننا فيما بعد، فكم ندفع؟ هل ندفع خمسمائة جنيه؟».

تدخلت أنا وترادلز بعد طرح هذه النقطة على الفور، فأوصى كلانا بدفع مبلغ صغير للسيد ميكوبر، ودفع مطالبات يورايا عند استحقاق السداد من دون شروط. اقترحنا أن نسدد رسوم سفر العائلة وما يكفيها من مصروفات الرحلة والملابس، بالإضافة إلى مائة جنيه نقدية، على أن نرتب مع السيد ميكوبر الأمور المتعلقة بسداد هذه السلفة بترتيبات جدية، لأنه من الأفضل له أن يضع نفسه أمام هذه المسؤولية. أضفت إلى هذا الاقتراح، أنه ينبغي أن أقدم بعض التفصيلات عن شخصيته وتاريخه إلى السيد بيجوتي، لأنني أعرف أنه يمكن الاعتماد عليه. كما ينبغي أن يعهد إلى السيد بيجوتي بتقديم مائة جنيه أخرى له بهدوء تقديرًا لحكمته. اقترحت كذلك أن أستحث السيد ميكوبر على الاهتمام

بالسيد بيجوتي، من خلال إطلاعه على جانب كبير من قصته بعد إعطاء أي مبرر كي أسردها، أو أقص عليه ما أراه مناسبًا منها، كما سأسعى إلى دفع كل منهما للتقرب من الآخر من أجل تحقيق منفعة عامة. تناقشنا جميعًا بحرارة حول هذه الآراء. ويمكنني أن أذكر على الفور، أن المعنيين بالأمر قد وافقوا بعد وقت قصير على هذه المقترحات بنية طيبة وانسجام تام.

رأيت أن ترادلز راح ينظر بقلق إلى عمتي مرة أخرى، فذكرته بالنقطة الثانية والأخيرة التي أشار إليها حتى يكمل حديثه.

قال ترادلز مترددًا: «اعذرني يا كوبرفيلد، ولتعذرني عمتك أيضًا، خاصة إذا تعرضت لمسألة مؤلمة، لأنني أخشى بشدة أن أثير المواجع. إلا أنني أظن أنه من الضروري تذكيركما بها. لقد وجَّه يورايا هيب في يوم إدانة السيد ميكوبر الذي لا يُنسى تهديدًا إلى زوج عمتك».

وافقت عمتي على كلامه بإيماءة، في حين أبقت على هيئتها الساكنة ورباطة جأشها.

قال ترادلز: «هل كان هذا التهديد مجرد وقاحة أبداها بلا هدف؟».

أجابته عمتي قائلة: «لا».

ألمح ترادلز قائلًا: «أرجو المعذرة، هل هذا الشخص حقيقي، وهل يملك هذه الصفة بالأساس؟».

قالت عمتي: «نعم يا صديقي العزيز».

بدا وجه ترادلز مستطيلًا فاغر الفم، يشي بأنه لم يستطع الإحاطة

بهذا الموضوع، فتركه كما ترك مصير مسؤوليات السيد ميكوبر بعد عدم إدراكه للشروط التي أحاطت به، كما أننا لم نعد نتمتع بأي سلطة على يورايا هيب، ومن ثَم إذا أراد أن يؤذي أحدنا أو أيًّا منا بأي إساءة أو إزعاج، فإنه بلا شك سيقدم على ذلك.

ظلت عمتي هادئة، إلى أن وجدت بعض الدموع الضالة طريقها إلى خديها. قالت: «إنك محق تمامًا. وكان من حسن الرأي أن تذكرنا بذلك».

سأل ترادلز بلطف: «هل يمكنني -أنا أو كوبرفيلد- القيام بأي شيء؟».

قالت عمتي: «لا شيء. أكرر شكري لك مرات. يا تروت يا عزيزي إن تهديده عبثي. دعونا ندعو السيد ميكوبر والسيدة زوجته لينضما إلينا. ولا يتحدث أي منكم معي في الأمر». ثم هذَّبت طرف ثوبها، وجلست بقامتها الشامخة تنظر نحو الباب، وما إن دخلا حتى قالت: «حسنًا، يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر، لقد ناقشنا أمر هجرتك. وإنني أود أن أعتذر منكما لإبقائكما خارج الغرفة لفترة طويلة. ثم إنني سأخبركما بالترتيبات التي نقترحها في هذا الأمر».

راحت عمتي تشرح هذه الأمور وقد قابلتها الأسرة برضا لا حدود له - كان الأطفال وكل أفراد الأسرة حاضرين آنذاك - وقد أيقظت هذه المناقشات عادات السيد ميكوبر الدقيقة، التي تظهر مع بداية أي مرحلة من مراحل المعاملات المالية للدين، بحيث لا يمكن ثنيه عن الإسراع على الفور إلى الخارج بحماس متقد لشراء الطوابع والدمغات بنفسه.

إلا أن فرحته لاقت صدمة في غضون خمس دقائق، إذ عاد بصحبة شرطي ليخبرنا بسيل من الدموع أن كل آماله قد ضاعت وولت. كنا مستعدين تمامًا لمثل هذا الحدث الذي دبره يورايا هيب، فدفعنا المال في الحال. لم تمضِ خمس دقائق أخرى حتى جلس السيد ميكوبر على الطاولة، وراح يلصق الطوابع وتعبير يعلو وجهه يشي بفرحه التام. ولم يكن ليضفي اكتمالًا على هذا الوجه اللامع سوى عمل لائق يتمثل في إعداده لشراب البانش. كانت رؤيته ممتعة إذ راح يلصق الطوابع بلذة فنان، وأخذ يلمسها كما لو أنها صور يمعن بها النظر من جميع النواحي. مضى يدون في دفتر جيبه ملاحظات دقيقة عن التواريخ والمبالغ، ثم تأملها بحساسية عالية بعد انتهاء عملية التوثيق. وكم كان مشهده ثمينًا يستحق المراقبة حقًّا!

قالت عمتي بعد فترة من مراقبته بصمت: «أما الآن -وإذا سمحت لي أن أقدم إليك نصحًا- فإن أفضل شيء تفعله يا سيدي، هو نبذ هذا العمل إلى الأبد».

أجاب السيد ميكوبر: «يا سيدتي، إنني أعتزم تسجيل مثل هذا العهد على صفحة مذكراتي الأولى التي سأكتبها في المستقبل. ستشهد السيدة ميكوبر على هذا العهد». بدأت لهجة السيد ميكوبر تتخذ هيئة رسمية، حين استطرد في حديثه قائلًا: «إنني أثق أن ابني ويلكنز سيضع في اعتباره أبد الدهر، أن من الخير له أن يضع قبضته في النار إلى الأبد، على أن يستخدمها في التعامل مع الثعابين التي سممت حياة والده التعس». تأثر السيد ميكوبر بهذه الكلمات تأثرًا بالغًا، وتغيرت هيئته في لحظة

إلى صورة من اليأس، ثم نظر إلى ثعابينه نظرة بغيضة قاتمة -لم يتلاشَ إعجابه الأخير بها لكنه صار خافتًا تمامًا- ثم طواها ووضعها في جيبه.

هكذا انتهت إجراءات المساء. كان الحزن واليأس قد أتعبانا، وكنت قد اعتزمت أنا وعمتي أن نعود غدًا إلى لندن، فاتفقنا أن نغادر على أن تتبعنا أسرة السيد ميكوبر بعد بيع بضائعها للسمسار. كما يجب تسوية حسابات السيد ويكفيلد بكل سرعة ممكنة تحت إشراف ترادلز. أما أجنيس فعليها أن تأتي إلى لندن هي الأخرى، حتى ننتهي من هذه الإجراءات. قضينا تلك الليلة في المنزل القديم، بعد أن تحرر من وجود هيب داخله، وبدا كما لو أنه خالٍ من المرض. استلقيتُ في غرفتي القديمة، فكنت كالمتجول الغارق الذي يعود إلى شاطئه.

عدنا في اليوم التالي إلى منزل عمتي - لا إلى منزلي - وما إن جلست أنا وهي منفردين، كما اعتدنا منذ زمن بعيد قبل أن يأوي كل منا إلى فراشه، فإذا بها تقول: «يا تروت، هل ترغب حقًّا في معرفة ما يدور في ذهني مؤخرًا؟».

قلت: «إنني أود أن أعرف ذلك حقًّا يا عمتي. فإن لاح لي وقت شعرت فيه برغبة في ألا يزورك الحزن أو القلق، فإنها هذه اللحظة تمامًا».

قالت عمتي بنبرة ودودة: «لقد شعرت بالحزن الكافي يا بني، فلم أشأ أن أضفي مآسي صغيرة. ولا أن أكن أي دافع آخر سوى هذا يا تروت، لإخفاء أي شيء عنك».

قلت: «إنني على يقين من ذلك، لكن أخبريني ما جرى الآن».

سألت عمتي: «هل ستركب معي غدًا لنتحدث قليلًا في الطريق؟».

قلت: «بالطبع».

قالت: «سنتحرك في التاسعة صباحًا، وسأخبرك بكل شيء إذن يا عزيزي».

خرجنا في التاسعة وركبنا عربة صغيرة واتجهنا إلى لندن. قطعنا مسافة طويلة وتجاوزنا عدة شوارع حتى وصلنا إلى أحد المستشفيات الكبرى. رأيت بجوار المبنى عربة لحمل النعوش وقد كان وجودها أمرًا عاديًّا. عرف السائق عمتي، وامتثل لحركة من يدها من النافذة، فانطلق ببطء، وإذا بنا نتبعه.

قالت عمتي: «لقد فهمت الأمر الآن يا تروت. لقد مات».

«هل مات في المستشفى؟».

«نعم».

جلست بجانبي من دون حراك. لكنني لاحظت مرة أخرى تلك الدموع الضالة تشق طريقها على وجهها.

قالت عمتي في هذه اللحظة: «لقد مكث في المستشفى مرة قبل هذه. كان مريضًا لفترة طويلة. بات رجلًا محطمًا كسيرًا طوال هذه السنوات الطويلة. ما إن أدرك حالته في هذا المرض الأخير، حتى طلب منهم أن يرسلوا في طلبي. كان قد أحس حينها بالأسف. أحس بندم شديد».

«أعرف يا عمتي أنكِ ذهبتِ إليه».

«ذهبت إليه. ورحت أزوره بعدها بشكل دوري».

سألتها: «هل مات في الليلة التي سبقت ذهابنا إلى كانتربري؟».

أومأت عمتي برأسها قائلة: «لا أحد يستطيع أن يؤذيه الآن. لقد كان التهديد بلا جدوى».

انطلقنا خارج المدينة، حيث ساحة الكنيسة في هورنسي. قالت عمتي: «هذا مكان أحب إليه من الشوارع. لقد ولد هنا».

نزلنا، ثم تابعنا المسير خلف التابوت البسيط إلى أن وصلنا إلى ركن لم أزل أتذكره جيدًا، حيث تلونا الصلوات حتى دُفن.

قالت عمتي، بينما كنا نسير عائدين إلى العربة: «كان زواجي في مثل هذا اليوم منذ ستة وثلاثين عامًا يا عزيزي. فليغفر الله لنا جميعًا». جلسنا إلى مقاعدنا في صمت، وقد ظلت بجانبي ممسكة بيدي لفترة طويلة. ثم انفجرت في النهاية في البكاء وقالت:

«لقد كان رجلًا حسن المظهر حين تزوجته يا تروت، ولكنه تغير للأسف».

لم يدُم الأمر طويلًا. فما إن أراحتها دموعها، حتى عادت سريعًا إلى سكونها بل واستحالت مبتهجة. قالت إن أعصابها قد اهتزت قليلًا، وإلا لما أفسحت مجالًا للبكاء. فليغفر الله لنا جميعًا.

عدنا بعد ذلك إلى منزلها الصغير في هايجيت، فوجدنا الملاحظة القصيرة التالية، والتي وصلت عبر البريد في ذلك الصباح، وكانت من السيد ميكوبر:

كانتربري - الجمعة.

«سيدتي العزيزة وكوبرفيلد،

إن الأرض الموعودة اللطيفة التي لاحت في الأفق مؤخرًا صارت ملبدة بضباب لا يمكن اختراقه مرة أخرى، وتلاشت إلى الأبد من أعين البائس الذي جرفه التيار إلى بؤسه المقدر.

أُصدر أمر قضائي آخر (في محكمة جلالة الملك العليا بمجلس الملك في وستمنستر)، في قضية أخرى تتعلق بمسألة هيب.

«ها قد حان اليوم الآن، ودقت ساعة المصير،

لنشاهد احتدام المعركة الدائرة،

لنرَ فخر قوة إدوارد تدنو -

سلاسل وعبودية[1]»



استسلمت إلى هذه النهاية السريعة - لأن التعذيب النفسي لا يمكن احتماله بعد مرحلة معينة، وإنني أشعر أنني وصلت إلى هذه النقطة بالفعل - وها قد شققت مسار حياتي. فبارك الله فيكم، بارك الله فيكم. سأنزل بالسجن كما لو أنني مسافر من المسافرين أو زائر يدفعه الفضول، أو لنقل فضولًا ممزوجًا بالرثاء، لرؤية مكان الحبس المخصص للمدينين في هذه المدينة، وأثق أنني سأتأمل هذا الأمر مليًّا وأتتبع جداره ذا النقوش المحفورة عليه بمسمار صدئ،

وأتبع الأحرف الأولى الغامضة،

و. م».

---

(١) أغنية اسكتلندية كتبها روبرت بيرنز، تعد نشيدًا غير رسمي عن سيادة اسكتلندا.

«ملاحظة: لقد أعدت فتح هذه الرسالة لأقول إن صديقنا المشترك، السيد توماس ترادلز -الذي لم يتركنا حتى هذه اللحظة، ويبدو أنه إنسان كريم للغاية- قد دفع الديون والتكاليف باسم الآنسة تروتوود النبيلة، وإنني وأسرتي في أوج النعيم الدنيوي ممتنون لهذا الفضل».



الفصل الخامس والخمسون

عاصفة

أقترب الآن من حادث بشع في حياتي لا ينمحي، وقد ارتبط بروابط عدة ومتنوعة لا حصر لها مع كل ما سبقه من أحداث سردتها هذه الصفحات. راح ينمو منذ بداية قصتي، بل ويزداد في نموه كلما تقدمت أحداثها، كأنه برج عظيم يطل على سهل، وقد ألقى بظلاله المترامية على وقائع شتي منذ طفولتي.

انقضت سنوات بعد وقوع هذا الحادث، مكث خلالها يراودني في أحلامي مرات عديدة، بل بتُّ أتأثر به بشكل لافت حتى استعرت ثورته مبددة هدوء غرفتي في جوف الليل الساكن. لم أزل أحلم به أحيانًا حتى يومنا هذا، على فترات طويلة غير محددة. ترتبط ذكراه عندي بالرياح العاصفة، أو أستعيده مع أي ذكرى هينة لشاطئ البحر. يقتحم عقلي بقوة كذكرى ملحة لا تنقشع. سأحاول تدوين ما حدث بكل بساطة. إنني لا أتذكرها فحسب، بل أراها حاضرة كما لو أنها متمثلة أمامي.

ما إن حان وقت إبحار السفينة بالمهاجرين، حتى جاءت مربيتي العجوز الطيبة من لندن، ممتلئة بحزن عارم، ظهر عليها بمجرد أن التقينا. مكثت معها معظم الوقت، وكذلك بقيت مع شقيقها، ومع أسرة ميكوبر -صاروا معًا أغلب الوقت- لكنني لم أرَ إيميلي قَطُّ.

جلست مع بيجوتي وشقيقها منفردين في إحدى الأمسيات التي تسبق موعد السفر. تطرقنا بحديثنا حول هام، فراحت بيجوتي تصف لنا كيف أنه ودعها بحنان، وكيف تمالك نفسه بذكاء وهدوء، خاصة في الآونة الأخيرة، بعد أن ظن الناس أن الفاجعة قد أودت به. لم تتعب هذه المخلوقة الحنونة قَطُّ من الحديث في هذا الموضوع. كما أننا أولينا اهتمامنا لسماع العديد من الأمثلة التي دللت على شخصيته، حيث تعاملت معه كثيرًا وأحبت مواقفه بما يضاهي حبها للحكايات.

كنت أنا وعمتي في ذلك الوقت نخلي البيتين في هايجيت، بعد أن انتويت السفر إلى الخارج، وقرَّرت هي أن تعود إلى منزلها في دوفر. كنا قد نزلنا في سكن مؤقت في كوفنت جاردن، وكنت عائدًا إلى المنزل بعد محادثة المساء هذه، فإذا بي أفكر فيما مر بيني وهام في آخر مرة كنت فيها في يارموث، مما جعلني أتراجع عن قراري بترك رسالة إلى إيميلي حين أودع عمها على متن السفينة. ظننت أنه من الأفضل لو أنني كتبت إليها الآن، وحسبت أنها قد ترغب بعد تلقي رسالتي، في إرسال كلمة وداع من خلالي إلى حبيبها التعس. هكذا أحسست أنه يجب عليَّ أن أمنحها هذه الفرصة.

جلست في غرفتي وكتبت إليها قبل أن أخلد إلى النوم. أخبرتها

أنني رأيت هام، وأنه طلب مني أن أخبرها بما كتبته لها بين أسطر هذه الأوراق. نقلت إليها ما أراد قوله بصدق. ولم أكن بحاجة إلى المبالغة فيه -إن كان لي الحق في التوسع فيه- حيث لم يكن إخلاصه وطيبته بحاجة إلى أن أزينهما بنفسي بل لم يكن صدقه بحاجة إلى أن يبرهنه أي إنسان. تركت خطابي يُرسل إليها في الصباح، ودونت عليه كلمة للسيد بيجوتي أطلب منه فيها أن يسلمه لها، ثم أويت إلى فراشي مع حلول الفجر.

كنت حينذاك أضعف مما تصورت، فلم أستطع النوم حتى شروق الشمس، فمكثت على هيئتي حتى وقت متأخر من اليوم التالي ولم ألبث مترنحًا. انتبهت لوجود عمتي بجانب سريري، حيث ظلت واقفة في صمت، شعرت بها في أثناء نومي، وأفترض أننا جميعًا نشعر بمثل هذه الأشياء.

ما إن فتحت عيني، حتى قالت: «يا تروت يا عزيزي، لم أرغب في إزعاجك. إلا أن السيد بيجوتي قد حضر إلى هنا. فهل أطلب منه أن يصعد؟».

أجبتها بنعم، فامتثل أمامي مسرعًا.

قال بعدما تصافحنا: «يا سيد ديفي. لقد سلمت رسالتك إلى إيميلي يا سيدي، وقد كتبتْ إليك هذا الرد، وطلبت مني أن أدعوك إلى قراءته، فإذا لم ترَ منه أي ضرر، فإنها ترجوك أن تبعثه إلى هام».

قلت له: «وهل قرأته بنفسك؟».

أومأ برأسه في حزن. فتحت الرسالة وقرأت ما يلي:

«لقد تلقيت رسالتك. آه، ماذا أكتب من كلمات حتى أشكرك على لطفك وطيبتك معي؟!

لقد لامست كلماتك قلبي. سأحفظها بين جوانحي حتى أموت. إنها أشواك حادة، لكنها تواسيني وتريحني. لقد صليت، ودعوت بهذه الكلمات كثيرًا. إنني أشهد ما أنت عليه من رأفة، وأعاين حنان عمي، فأفكر في رحمة الله، وأتضرع إليه باكية.

أما الآن، فوداعًا إلى الأبد. يا صديقي العزيز، وداعًا إلى الأبد في هذا العالم. أما إذا غفر الله لي في عالم آخر، فقد أعود طفلة وآتي إليك. كل شكري وامتناني. وداعًا إلى الأبد».

كانت هذه هي الرسالة الممتلئة بالدموع.

قال السيد بيجوتي بعدما انتهيت من قراءتها: «هل لي أن أبلغها أنك لا ترى فيها أي أذى، وأنك ستتكرم وتتولى مسؤولية إيصالها يا سيد ديفي؟». قلت: «بلا شك، ولكنني أفكر...».

«نعم يا سيد ديفي؟».

قلت: «إنني أفكر في الرجوع مرة أخرى إلى يارموث. لم يزل أمامي متسع من الوقت، إذ عليَّ أن أذهب ثم أعود قبل أن تبحر السفينة. إن ذهني لم يزل منشغلًا بهام باستمرار، حيث أتصوره في وحدته. إذا وضعت هذه الرسالة بين يديه في هذا الوقت، وتمكنت من إخبارها أنه قد حصل عليها في لحظة الفراق هذه، فكم سيكون لطفًا مني بكليهما!

لقد قبلت تكليف ذاك الرجل الصالح لأقوم بالمهمة التي كلفني بها، ولا يمكنني أن أتخاذل. إن الرحلة لن تتسبب لي في أي مشقة. إنني لم أزل مضطربًا، وسيكون خيرًا لي أن أتحرك لأنشغل عن توتري، ومن ثَم سأنطلق الليلة إلى يارموث».

سعى السيد بيجوتي جاهدًا لأن يثنيني عن عزمي، إلا أنني أحسست أنه يوافقني الفكرة؛ وهكذا تأكدت نيتي واستقرت مشاعري. ما كان منه إلا أن استجاب لرغبتي، فانطلق إلى مكتب الحافلات، وحجز لي مقعدًا أماميًّا على متن العربة المسافرة. ما إن حل المساء حتى وجدتني على الطريق ذاته الذي اجتزته عدة مرات في عدد لا بأس به من المحن.

سألت الحوذي بينما نحن في خطواتنا الأولى خارج لندن، فقلت: «ألا تظن أن السماء بديعة جدًّا؟ لا أتذكر أنني رأيت مثيلًا لها قَطُّ».

فأجاب: «ولا أنا. إنني لم أرَ لها مثيلًا. إنها تشي بهبوب الرياح يا سيدي. أتوقع أن يهتاج البحر لوقت طويل».

لاحت لي السماء قاحلة مظلمة، لطختها أدخنة منبعثة من الوقود الرطب، قد تطايرت ثم تكاثفت في أكوام هائلة، تشير إلى أن ارتفاعها يفوق ما تبدو عليه، بل إنها تتجاوز أعمق تجاويف الأرض. لاح القمر من بينها موحشًا، كما الغارق المتذبذب الذي ضل طريقه، خوفًا من أثر مروع من اختلال قوانين الطبيعة. باتت الرياح عاصفة طوال الوقت، وراح عواؤها يعلو بصوت مهيب غير مألوف، وما إن انقضت ساعة أخرى حتى تضاعفت غيوم السماء، وازدادت وطأة الرياح.

ما إن اشتد جنح الليل، حتى تناثرت الغيوم وامتدت على أديم السماء بأكملها، فباتت حالكة، تعصف بها الرياح وتزداد وتخور، وبالكاد تقاومها خيول العربة. توقفنا في كثير من الأحيان في جوف هذا الليل الدامس -كنا في أواخر شهر سبتمبر، حيث لم يكن الليل قصيرًا ولا هينًا- وقد أشاحت الخيل برأسها أو توقفت تمامًا، بل وشعرنا في كثير من الأحيان بخوف شديد من انقلاب العربة. هبت شذرات ثقيلة من المطر قبل العاصفة. كانت مثل زخات من الفولاذ، فحاولنا حينها أن نلوذ بمأوى من الأشجار أو الجدران حتى نحتمي بها، إلا أننا لم نقوَ على التوقف في مهب الريح، بل وصار من المستحيل مواصلة النضال.

اندلع النهار فانفجرت الرياح بقوة أكبر من ذي قبل. كنت في يارموث حين قال البحارة إن السماء قد فجرت رصاصًا من بنادق عتيدة، لكنني لم أعرف قَطُّ طوال حياتي يومًا كهذا اليوم. وصلنا في وقت متأخر جدًّا إلى إيبسويتش، بعد أن اضطررنا إلى خوض المعارك مع كل شبر من الأرض بعد أن تجاوزنا عشرة أميال من لندن. أبصرت جماعة من الناس في السوق، كانوا قد استيقظوا من أسِرتهم ليلًا، خوفًا من سقوط المداخن. تجمع بعضهم حول ساحة الفندق حين وقفنا لنغير الخيول، فأخبرونا عن صفائح كبيرة من الرصاص قد اقتلعتها الرياح من برج الكنيسة المرتفع، وقذفت بها في شارع جانبي، ومن ثَم عرقلت الطريق. أخبرنا آخرون أن سكان الريف القادمين من القرى المجاورة، قد رأوا أشجارًا كبيرة انتزعتها الرياح وأودت بها أرضًا، وباتت الأغصان

متناثرة حول الطرق والحقول، ومع ذلك، لم تهدأ العاصفة، بل راحت تخور بقوة أكبر.

كنا نواجه العاصفة بالقرب من البحر، حيث ظلت الرياح العاتية تهب نحو الشاطئ، وتزداد شدتها ويتضاعف بأسها. كان رذاذ البحر ينبسط فوق شفاهنا قبل أن نستطيع أن نراه بوقت طويل، حتى أمطرنا الملح بوابله. كانت المياه قد انتشرت على بعد أميال مترامية حول الأرض المنبسطة المجاورة ليارموث. تلاطمت الأمواج وراحت تنخر في الحواجز الصغيرة للجسور وتتجه نحونا. وما إن اقتربنا من البحر، حتى أبصرنا الأمواج في الأفق، تعلو على فترات مثل سيل متدحرج إلى الهاوية، فصارت أشبه بلمحات من شاطئ آخر تعلوه الأبراج والمباني. وصلنا إلى البلدة أخيرًا، وخرج الناس من بيوتهم وقد اعوجت ظهورهم واسترسل شعرهم، مندهشين من وصول عربة المسافرين في تلك الليلة.

نزلت في الفندق القديم ثم ذهبت لألقي نظرة على البحر. رحت أخطو على طول الشارع في مشقة، بعد أن تناثرت فيه الرمال والأعشاب البحرية، وطمسته بقع متطايرة من زبد البحر، وكم كنت خائفًا من سقوط الألواح الخشبية لأسقف المنازل فوق رأسي! بل رحت أمسك بأناس التقيت بهم في زوايا عاصفة، لأتشبث بهم في طريقي إلى أن اقتربت من الشاطئ. أبصرت هناك جماعة من الناس ليسوا من البحارة وحسب، بل ومن أهل البلدة، مختبئين خلف المباني، كما أبصرت بعضهم قد تحدى غضب العاصفة بين الحين والآخر ليلقي بنظرة إلى

البحر، فيخرج تمامًا عن مساره، ثم يعيد محاولة العودة إلى مكانه على الرغم من قسوة المسارات المتعرجة.

انضممت إلى هذه الجماعة، فوجدت النساء يندبن على أزواجهن ممن خرجوا في قوارب لصيد الأسماك أو المحار، ظنًّا منهن أن القوارب قد انقلبت من دون أن يتمكنوا من الوصول إلى مكان آمن. وكان من بين هذه الجماعة عدد من البحارة القدامى يهزون رؤوسهم زائغي الأبصار بين الماء والسماء، يتمتمون إلى بعضهم. أما أصحاب السفن فقد لاحوا منفعلين قلقين، كما تجمع الأطفال معًا ناظرين إلى الوجوه الأكبر سنًّا. لم يبعد القلق عن البحارة الأقوياء، فأخذوا يراقبون البحر عبر مناظيرهم وقد احتموا بملاذ يعصمهم، كما لو أنهم يعاينون عدوًّا.

استطعت أن أجد لنفسي مكانًا لأنظر إلى البحر الهائل، فراعني هياج الريح العاتية، والحجارة المتطايرة، والرمال المتناثرة، كما أربكتني ضوضاؤه المفزعة. كانت أمواجه الشاهقة التي تتدحرج من أعلى ارتفاع لها منزلقة على الشاطئ، تبدو كما لو أنها ستبتلع البلدة. تراجعت الأمواج إلى الوراء بصوت أجش، فبدا أنها تجرف كهوفًا عميقة على الشاطئ، أو كما أنها ودت لو قوضت الأرض وابتلعتها. رعدت عواصف ذات رؤوس بيضاء، ثم تحطمت متكسرة إلى أشلاء قبل وصولها إلى الأرض، بدا أن كل جزء من أشلائها يمتلك القوة الكاملة لغضب العاصفة كلها، إذ اندفعت متناثرة ثم تجمعت لتكوين وحش عاصف آخر. انمحت التلال المتموجة وتحولت إلى وديان، كما طمست الوديان المتموجة وتراكمت فوقها التلال، وإن ظهر أمامي طائر

وحيد فلكي يمر عبر التلال متجاوزًا العاصفة. ارتجفت حشود من المياه وهزت الشاطئ بصوتها العالي. ما إن تدحرجت الأمواج متخذة هيئتها الصاخبة حتى تغير شكلها ومكانها، وتغلبت عليها دفقة مياه أخرى وتسربت إلى مكان آخر بعيد. بدا الشاطئ المنتصب في الأفق يرتفع ثم يهبط بأبراجه ومبانيه، بينما تكاثفت فوقه الغيوم سريعًا، وقد خيل إليَّ أنني أرى الطبيعة بأسرها تتمزق وتثور.

لم أجد هام بين الناس الذين جمعتهم هذه الريح التي لا تُنسى - لأنها لم تزل تُذكر بينهم باعتبارها أعظم عاصفة شهدتها البلدة على سواحلها على الإطلاق - ومن ثَم شققت طريقي إلى منزله. كان باب المنزل مغلقًا، ولم أتلقَّ ردًّا من أحد بعد أن طرقته مرات، فذهبت ملتمسًا بعض الطرق والممرات الجانبية المؤدية إلى الفناء الذي كان يعمل فيه. قيل لي هناك إنه ذهب إلى لوستوفت، لتلبية عمل مفاجئ لإصلاح عدة سفن تتطلب براعته، إلا أنه سيعود في الصباح الباكر غدًا.

عدت إلى الفندق. اغتسلت وارتديت ملابسي وحاولت النوم دون جدوى، وكانت الساعة لم تزل الخامسة بعد الظهر. لم أكد أجلس لخمس دقائق بجوار نار المدفأة، حتى أقبل النادل يقلبها، وكانت هذه الحركة ذريعة للتحدث إليَّ. أخبرني أن ناقلتين للفحم قد غرقتا بكل ما عليهما من حمولة على بُعد أميال قليلة منا، وأن الناس قد شاهدوا بعض السفن الأخرى تصارع الأمواج وتحاول الاقتراب من الشاطئ في مشقة وعناء. قال : فليرحمهم الله ويرأف بالبحارة المساكين جميعًا لو أننا سنمضي ليلة أخرى مثل الليلة الماضية!

انقبضت روحي واشتد كربي، وأحسست خوفًا على هام لانشغاله بالعمل في هذه الظروف الاستثنائية. لقد تأثرت بالأحداث الأخيرة تأثرًا بالغًا لا أدرك مداه. كما أربكني تعرضي الطويل للرياح العاتية، مما أضفى نوعًا من التشويش على أفكاري ومخيلتي، بل فقدت التعاقب الواضح والمنطقي للوقت والمسافات. لم يجدر بي أن أتفاجأ لو أنني خرجت إلى المدينة متصورًا أنني سأقابل شخصًا ما أدرك أنه قاطن في لندن. أقول - إن جاز التعبير - إنني لم أنتبه إلى هذه الأمور، ومع ذلك كنت مشغولًا بذكريات جمة استثارها وجودي في هذا المكان بشكل طبيعي، فصارت تحضر أمام خاطري حية مؤثرة.

وفقًا لحالتي تلك، فقد ربطت مخيلتي البائسة -على الفور ورغمًا عني- بين كلام النادل عن السفن وقلقي على هام. راحت مخاوفي تهيئ لي أنه قد غرق في البحر في أثناء عودته من لوستوفت. نما هذا الشعور داخلي، حتى قررت العودة إلى فناء عمل هام قبل تناول العشاء، حتى أستطيع أن أسأل صانع القوارب هل يظن أن محاولة هام للعودة عن طريق البحر ستبوء بالنجاح أم الفشل؟ فإذا هو منحني أقل سبب يؤيد مخاوفي، فإنني سوف أذهب إلى لوستوفت وأمنعه من خوض البحر، بل سأحضره معي.

طلبت إحضار العشاء على عجل، ثم عدت إلى فناء العمل. لم أصل إلى رب العمل مبكرًا لأنه كان يحمل في يده فانوسًا وقد أوشك على إغلاق باب الفناء. ضحك بشدة عندما طرحت سؤالي عليه، وقال إنه لا داعي للخوف، وإن أي رجل ذي عقل أو من دونه، لن يؤذي نفسه أمام

هذه العاصفة المهلكة، ولا سيما هام بيجوتي الذي وُلِد ليكون ملاحًا.

كان حديثه منطقيًّا للغاية، لذا جعلني أشعرت بالخجل مما كنت مضطرًّا لفعله استجابة لانفعالي، ومن ثَم عدت إلى الفندق. ظلت أصوات الرياح تشتد، وأظن أنها راحت تتصاعد، حتى باتت كالعواء والزئير، فخلخلت الأبواب والنوافذ، وباتت تخور في جوف المداخن، وتهز أرجاء المسكن الذي يأويني، وثار البحر الهائج، فصار أكثر رعبًا مما كان عليه في الصباح، بالإضافة إلى ما حل عليه من ظلمة حالكة في هذه اللحظة، مما أضفى على العاصفة مظهرًا من الفزع الجديد يفوق بحقيقته الخيال.

لم أستطع تناول الطعام، ولم أقدر أن أجلس ساكنًا، كما لم أتمكن من مواصلة الصمود على هيئة بعينها. أحسست شيئًا بداخلي، كان على وشك أن يستجيب للعاصفة في الخارج. غاصت مخاوفي في ذاكرتي وخلخلت أعماقها. تواترت ذكرياتي مسرعة مع جريان البحر الجامح، ولم يزل قلقي من العاصفة وخوفي على هام يتصدران تفكيري دون سواهما.

رفعت عني مائدة العشاء من دون أن أتذوقه، لكني حاولت أن أنعش نفسي بكأس أو اثنتين من النبيذ، لكن دون جدوى. سقطت في سبات ثقيل أمام نيران المدفأة، من دون أن أفقد وعيي، سواء بسبب الضوضاء خارج الأبواب، أو بسبب الضجيج الذي يعتريني في الداخل. لقد طغيا كلاهما عليَّ، وتملكني رعب جديد لا يمكن تحديده كنهه. وما إن استيقظت -أو بالأحرى عندما تخلصت من الخمول الذي كان يقيدني

في مقعدي- حتى شعرت بجسدي بالكامل يهتز خوفًا من شيء غير مبرر وغير مفهوم.

رحت أتجول ذهابًا وإيابًا، ثم حاولت قراءة جريدة قديمة، بينما أنصت إلى أصوات الفزع حولي. نظرت إلى الوجوه والصور التي ترسمها أدخنة نيران المدفأة. أزعجتني دقات الساعة المتواترة على الحائط، إلى أن قررت في النهاية أن آوي إلى الفراش.

كان من بواعث الاطمئنان في ليلة مثل هذه، أن يخبرونا أن بعض خدم الفندق قد اتفقوا معًا على السهر حتى الصباح. أويت إلى الفراش، مرهقًا ومتثاقلًا للغاية، بل ما إن استلقيت حتى تلاشت كل مشاعري، كما لو أنني قد سحرت، ثم استيقظت منتعشًا تمامًا.

استلقيت على السرير لساعات طوال، أستمع إلى الريح والماء. ورحت أتخيل في هذه اللحظة، أنني قد سمعت صرخات منبعثة من البحر، ثم أتخيل بعدها بلحظات أنني سمعت صوت طلقات نارية بوضوح، ثم بعد ذلك بلحظات أتخيل أني سمعت صوت انهيار منازل البلدة. نهضت عدة مرات ونظرت إلى الخارج، إلا أنني لم أتمكن من رؤية أي شيء، باستثناء انعكاس ضوء الشمعة على زجاج النوافذ الزجاجية الباهتة، وكذلك صورة وجهي المتهالك الذي ينظر إليَّ من فراغ أسود.

تفاقم قلقي في النهاية إلى الحد الذي دفعني للإسراع في ارتداء ملابسي والنزول إلى الطابق السفلي. رأيت في المطبخ الكبير لحم الخنزير المقدد وحبال البصل متدلية من العوارض، بينما كان حراس الفندق مجتمعين في أوضاع مختلفة حول طاولة، بعد أن أبعدوها

عمدًا عن المدخنة الكبيرة، وقربوها من الباب. ما إن رأتني فتاة جميلة، حتى صرخت وقد انتصبت أذناها وتحجرت عيناها عند الباب، لأنها ظنت أنني عفريت. أما الآخرون فكانوا أكثر انتباهًا، بل صاروا سعداء لانضمام رفيق إليهم. سألني أحد الرجال، مشيرًا إلى موضوع ما كانوا يناقشونه، عما إذا كنت أظن أن أرواح البحارة الذين غرقوا قد خرجت هائمة في العاصفة أم لا.

أجرؤ على القول إنني بقيت في ذلك المكان لمدة ساعتين، فتحت بوابة الفناء ذات مرة ثم نظرت إلى الشارع الفارغ، فإذا بالرمال، والطحالب البحرية، ورقائق الزبد، يمرون بالقرب من المكان. اضطررت إلى طلب المساعدة حتى أتمكن من إغلاق البوابة مرة أخرى، حتى أصد بها الريح القاسية.

أحاطت غرفتي المعزولة كآبة قاتمة بعدما عدت إليها من جديد، لكنني صرت متعبًا فاستلقيت على السرير مرة أخرى. سقطت من برج اليقظة هاويًا إلى أعماق النوم السحيقة. يبدو أن العاصفة مكثت عالقة فترة طويلة في ذاكرتي، وعلى الرغم من أنني حلمت أنني في مكان آخر وسط مجموعة متنوعة من المشاهد، فإنها باتت تنفجر في حلمي دومًا. فقدت في النهاية قبضتي الواهنة على الواقع، فحلمت أنني مع صديقين عزيزين -لكنني لم أعرف تحديدًا من كانا- وقد حوصرنا في بلدة ما وسط هدير المدافع والقذائف.

كان صوت المدفع عاليًا ومتواصلًا، حتى إنني لم أستطع سماع شيء كنت أرغب في سماعه، ومن ثَم بذلت مجهودًا كبيرًا حتى

استيقظت. وجدتني في وضح النهار- حيث الساعة الثامنة أو التاسعة صباحًا - ولم تزل العاصفة مستعرة بدلًا من المدافع التي راودتني في أحلامي، وأدركت أن شخصًا يطرق بابي وينادي.

صرخت: «ما الأمر؟».

«إنه مشهد لحطام، قريب منا».

نزلت من السرير وسألت: «أي حطام تقصد؟».

«إنها سفينة شراعية كانت قادمة من إسبانيا أو البرتغال، محمَّلة بالفاكهة والنبيذ. أسرع يا سيدي، إذا كنت تريد رؤيتها. من المحتمل أنها ستدنو من الشاطئ، وتتحطم في أي لحظة».

انطلق الصوت المتحمس يصرخ فوق درجات السلم. فتلحفت بملابسي بأقصى سرعة ممكنة، ثم ركضت إلى الشارع.

رأيت عدة أشخاص قد سبقوني، وإذا بهم يركضون جميعًا في اتجاه واحد نحو الشاطئ. ركضت بالطريقة نفسها، متجاوزًا عددًا لا بأس به من هذه الجماعة، وسرعان ما صرت في مواجهة البحر الهائج.

كانت الرياح قد هدأت قليلًا في هذا الوقت، وإن لم تكن أكثر صخبًا من المدافع التي راودتني في حلمي، فقد تضاءلت أصوات ستة مدافع من بين المئات بعد هزيمتها. أما البحر، فقد بدا أكثر فزعًا مما كان عليه طوال الليل، بل أشد رهبة عما رأيته آخر مرة. كان مشهد ارتفاع الأمواج وانتفاخها، وتراكبها فوق بعضها ثم تتابعها في اصطفاف لا نهاية له، يلوح أكثر رعبًا وإثارة للفزع. كان من الصعب سماع أي شيء سوى

دوي الرياح والأمواج. مكثت وسط الزحام، والفوضى التي لا توصف، بينما أحاول جاهدًا أن أتماسك للصمود في وجه هذا الطقس. كنت في حالة من الاضطراب والتزعزع، حتى إنني نظرت إلى البحر بحثًا عن الحطام، فلم أرَ شيئًا سوى رؤوس الأمواج العظيمة تزيد من زبدها. كان يقف بجواري رجل ملاح يرتدي نصف ملابسه، وقد أشار بذراعه العارية -يعلوها وشم على هيئة سهم، أشار في اتجاه يده نفسها- منبهًا لي نحو اليسار. ويا الله! لقد أبصرت السفينة تدنو منا للغاية.

تحطم صاري السفينة الذي كان يعلوها بنحو ستة أو ثمانية أقدام من سطحها، وظل منحنيًا ومثبتًا على جانبها، مشتبكًا في عدد من الأشرعة والحبال المتناثرة. حل هذا الخراب كله، بينما راحت السفينة تهتز وتضرب من دون توقف ولو للحظة واحدة، وبعنف لا يمكن تصوره تمامًا، بل كاد صاريها المهشم أن يغرقها. حاول البحارة قطع هذا الجزء من الحطام ورميه بعيدًا، بعد أن مالت السفينة. أبصرت البحارة بوضوح وهم يعملون بالفؤوس، وانتبهت لواحد منهم ذي شعر طويل مجعد، كان نشيط الحركة مميزًا من بين البقية. في هذه اللحظة انبعثت صرخة عظيمة مدوية من الشاطئ رن صداها فوق الريح والماء، إذ ثار البحر وراح يكتسح الحطام المتدحرج عابثًا وملقيًا بالرجال، والشراع، والبراميل، والألواح الخشبية، والحواجز في موجه الغاضب، كما لو أنها أكوام من الألعاب تنهار في موجة من الغليان.

ظل الصاري الثاني قائمًا يحمل شراعًا ممزقًا، وبجانبه ثلة من الحبال المتشابكة والمقطوعة يرفرف فوقها جيئة وذهابًا. قال البحار نفسه ذو

الوشم بصوته الأجش، وقد اخترق أذني، إن السفينة قد ارتطمت مرة واحدة، ثم ارتفعت وارتطمت مرة أخرى. فهمت مما قاله أن السفينة قد انشقت. استطعت إدراك الأمر بسهولة لأن التدحرج والتلاطم كانا هائلين للغاية، بحيث يتعذر على أي عمل بشري أن يواجهه لفترة طويلة. ظل البحار يتكلم، حتى سمعنا صرخة أخرى مروعة قادمة من الشاطئ، إذ ظهر أربعة رجال متشبثين بحطام الصاري المتبقي، وكان يتقدمهم ذاك الرجل النشيط ذو الشعر المجعد.

اعتلى متن السفينة جرسًا. كانت السفينة تتمايل وتتحطم كما لو أنها مخلوق يائس مدفوع بالجنون، فيبدو لنا سطحها بالكامل في هذه اللحظات، ثم تدور مترنحة نحو الشاطئ، فلا يبدو منها سوى باطنها، وإذا بها تثور بعنف بين أمواج البحر، فيدق الجرس فوقها كما لو أن صوته يعلن عن نهاية هؤلاء الرجال التعساء ممن حملتهم الريح نحونا. فقدنا السفينة مرة أخرى، ثم لاحت لنا مجددًا. اختفى عن أبصارنا رجلان، فاشتد الفزع بين الواقفين على الشاطئ. تأوه الرجال واعتصروا أيديهم، بينما صرخت النساء وأشحن بوجوههن. راح عدد من الواقفين يركضون ذهابًا وإيابًا على طول الشاطئ، ويصرخون طلبًا للمساعدة حيث لا مُعين. وجدت نفسي مندفعًا كواحد من هؤلاء الصارخين، بينما تتنازعني الحمى، طالبًا من البحارة الذين أعرفهم ألا يتركوا هذين المخلوقين الضائعين للهلاك أمام أعيننا.

تحدث إليَّ البحارة بنبرات مضطربة، ولا أعرف كيف استطعت مع هذه الكلمات القلائل أن أفهم أن قارب النجاة مأهول بكثير من

الشجعان منذ ساعة، ولكنهم لم يتمكنوا من فعل أي شيء، لأنه ما من إنسان يائس يجرؤ على محاولة خوض الموج الثائر حاملًا حبلًا لإقامة اتصال بين السفينة والشاطئ. ظننت أنه لم تتبقَّ أي فرصة للمحاولة، فإذا بي أرى حراكًا جديدًا بين الناس على الشاطئ، وإذا هم يتفرقون وقد ظهر هام يخترق صفوفهم متجهًا إلى الأمام.

أذكر أنني ركضت إليه، لأكرر مناشدتي واستغاثتي، وعلى الرغم من أنني كنت مشتتًا بسبب هذا المشهد الجديد المروع، فإنني انتبهت لنوع من التصميم في وجهه ونظرته إلى البحر -كان يبدو عليه المظهر نفسه الذي أتذكره له في الصباح الذي أعقب رحيل إيميلي- وأدركت مدى الخطر الذي ينوي الإقدام عليه. حملته إلى الابتعاد بكلتا ذراعي، وناشدت الرجال الذين كنت أتحدث إليهم ألا يستمعوا إليه، ولا يقدمون على هلاكه، فلا يدعوه يتحرك من فوق تلك الرمال.

ارتفعت صرخة أخرى على الشاطئ، فنظرنا إلى الحطام، فرأينا الشراع والصاري يوجهان ضربة عاتية إلى الرجل الذي مكث متمسكًا بالسفينة.

تصدر أمامنا هذا المشهد، ولاحت لنا مثابرة هذا الرجل اليائس الهادئ الذي اعتاد قيادة نصف الحاضرين قبل ذلك، فصارت مناشدتي كمن يأمل أن تكف الريح استجابة لطلبه. راح هام يقول لي بنبرة مرحة وهو يمسكني بكلتا يديه: «يا سيد ديفي، إذا حانت ساعتي، فإن قدري آتٍ لا محالة. وإذا لم تحِن بعد، فسوف أتجاوز هذه المحنة. فليحفظك الله ويبارككم جميعًا. يا رفاق، جهزوا عدتي، إنني منطلق».

أبعدوني من دون قسوة، بل بنوع من اللين، بحيث أحاط بي الناس حتى لا أتحرك عن مكاني. كما أدركت -على الرغم من شرودي- أنهم أقنعوني أنه عازم على الذهاب بمساعدة أو من دون مساعدة، وأنني يجب ألا أعترض سبل احتياطات السلامة الذي سيتخذها، فلا أزعج القائمين على معاونته. لا أعرف ماذا قلت أو كيف كانت إجابتهم لي. رأيت حركة سريعة على الشاطئ، وقد أخذ الرجال يجرون الحبال من سفينة أخرى، ويخترقون دائرة من الناس تخفي هام عن ناظري. رأيته بعد ذلك واقفًا بمفرده، مرتديًا رداء وسروال بحار، يحمل حبلًا في يده، أو كان متدليًا من معصمه، وآخر ملفوفًا حول خصره، وعدد من أفضل الرجال قد أمسكوا بطرف من الحبل قد ألقاه على مسافة قصيرة منهم فصار متراخيًا على الشاطئ عند قدميه.

لاح الحطام في عيني التي لم تعتد على رؤية هذه الأشياء، تفككت السفينة، فرأيتها مشطورة إلى نصفين، وقد لاحت لي حياة الرجل المعزول فوق الصاري كما لو أنها معلقة بخيط، إلا أنه مكث متمسكًا به. كان هذا الرجل يرتدي قبعة حمراء فريدة، لا تشبه قبعة البحارة، وكان لونها زاهيًا واضحًا بينما راحت الألواح القليلة الباقية تتناثر فتحول بينه والموت. دق جرس الموت معلنًا قدومه. رأينا جميعًا الرجل يلوح فوق السفينة، وإذا به يدق الجرس، تأكدت من أنه يفعل ذلك، وأحسب أنني شردت حينها بعد أن أعاد هذا المشهد إلى خاطري ذكرى قديمة لصديق عزيز.

وقف هام بمفرده يراقب البحر. حبس الرجال أنفسهم من خلفه، بينما تصاعدت أنفاس العاصفة أمامه. تجددت موجة كبيرة بعد

تراجعها، فنظر إلى الوراء إلى أولئك الذين يمسكون بالحبل الذي يُطوِّق جسده، ثم اندفع إثر الموجة بسرعة، وبعد لحظة واحدة كان يلوح مصارعًا للأمواج. أخذ يرتفع مع تلال الموج، ويهبط مع وديانها، ويضيع تحت الزبد، ثم يطفو مرة أخرى مع استواء الأرض. راح الرجال بعدها يشدون الحبال على عجل.

أبصرت هام جريحًا، إذ رأيت من موضعي دماءه تسيل، لكنه لم ينشغل بجرحه. أظهر نفسه على عجل ليأمرهم بأن يرخوا الحبل ليعطوه مساحة من الحرية -أو هذا ما فهمته من حركة ذراعه- ثم انطلق يخوض ما خاضه من قبل.

انطلق في هذه اللحظة قاصدًا الوصول إلى الحطام، حيث أخذ يرتفع مع تلال الموج، ويهبط مع وديانها، ويضيع تحت مشهد الزبد، ثم يطفو مرة أخرى مع استواء الأرض، ومحمولًا نحو السفينة، مجاهدًا بشجاعة وبسالة. لم تكن المسافة طويلة، إلا أن ثورة البحر وقوة الرياح جعلت النزاع مميتًا. اقترب في النهاية من الحطام، بل صار قريبًا للغاية، حتى إن ضربة قوية أخرى كانت كافية حتى يستطيع الوصول إليه ويتشبث به. تعاقبت موجة أخرى خضراء شاهقة كالجبال، واثبة من وراء السفينة، متجهة نحو الشاطئ، فإذا به يقفز في جوفها بقوة ثم اختفى مع السفينة.

أبصرت بعض الشظايا المتعرجة مع موج البحر، كما لو كانت شيئًا قد تحطم، حيث المكان الذي سحب البحارة منه هام. لاح الذعر على جميع الوجوه. لقد جذبوا هام حتى اقترب من موضع قدمي، فاقدًا للوعي هالكًا، ومن ثَم نقلوه إلى أقرب منزل. لم يمنعني أحد في هذه

اللحظات من الاقتراب منه، فمكثت بجواره. حاول القوم بكل الوسائل إعادته إلى الحياة، لكن الأمواج الهائلة كانت قد لطمته حتى الموت، وسكن قلبه الكريم إلى الأبد.

كنت جالسًا بجانب السرير، بعد أن تخلى عني الأمل وانقضى كل شيء، فإذا بصياد كان يعرفني منذ كنت أنا وإيميلي صغارًا يهمس باسمي عند الباب.

قال وقد بدأت الدموع تنهمر على وجهه المتهالك بسبب الطقس، وقد بدا شاحبًا بشفتيه المرتعشتين: «يا سيدي، هلا تفضلت إليَّ هنا؟».

كانت الذكريات القديمة التي أعيدت إلى ذهني قد انطبعت على نظراته. فسألته مذعورًا، متكئًا على ذراعه التي مدها نحوي:

«هل وصل جسده إلى الشاطئ؟».

قال: «نعم».

سألته بعد ذلك: «هل أعرفه؟».

لم يُجب، لكنه قادني إلى الشاطئ، في ذاك الجزء الذي بحثت فيه أنا وإيميلي صغيرين عن قذائف، وفي ذاك الجزء تحديدًا تناثرت بعض الشظايا الخفيفة من القارب القديم الذي تحطم في الليلة الماضية بفعل الرياح. رأيته ممددًا ورأسه على ذراعه -بين أنقاض المنزل الذي ظلمه- كما كنت أراه مرارًا في المدرسة.



الفصل السادس والخمسون

جرح جديد وآخر قديم

آه يا ستيرفورث. لقد تحدثنا في آخر مرة التقيتك فيها، في ساعة لم أكن أحسبها ساعة فراق. لم يكن من داعٍ لأن تقول: «تذكرني بأفضل صفاتي»، لقد فعلت ذلك دائمًا، فهل يمكنني أن أغير ذكرياتي الآن بعد هذا المشهد؟!

أحضر الناس نعشًا ووضعوه عليه وغطوه بعلم، ثم رفعوه وحملوه نحو البيوت. لقد عرفه كل الرجال الذين حملوه، ممن سافروا من قبل معه ورأوه مرحًا وجريئًا. حملوه وسط الزئير الوحشي، صامتين وسط جلبة تحيط بهم. حملوه إلى الكوخ حيث موضع الموت الذي سبقه بالفعل.

ما إن وضعوا النعش على أعتاب الباب، حتى نظر كل منهم إلى الآخر ثم نظروا إليَّ وتهامسوا. أدركت سبب ما فعلوه، حيث شعروا أنه ليس من الصواب أن يرقدوه في الغرفة الهادئة نفسها.

انطلقنا إلى البلدة ونقلنا الجثمان إلى الفندق. وما إن تمكنت من جمع شتات أفكاري، حتى أرسلت إلى جورام فطلبت منه أن يجهز لي وسيلة تنقل الجثمان إلى لندن في الليل. كنت أعلم أن العناية به والواجب الصعب المتمثل في التمهيد لوالدته لتعرف الأمر، شيئان لا يمكن أن أرتاح إلا بتنفيذهما بنفسي، كما كنت حريصًا على أداء هذا الواجب بإخلاص قدر استطاعتي.

اخترت أن أبدأ الرحلة في الليل، حتى لا يزعجني فضول الناس حين أغادر البلدة. خرجت من فناء الفندق تتبعني عربة تحمل الجثمان الذي صرت مسؤولًا عنه. كان الوقت قد اقترب من منتصف الليل، إلا أنني أبصرت عددًا لا بأس به من الناس في انتظارنا، وقد تناثروا على مسافات متقطعة على طول البلدة بل ورأيت المزيد على مسافة غير بعيدة من الطريق العام. شققت طريقي حتى لم يعد حولي سوى الليل الكئيب والفضاء المنفتح من حولي، ورماد صداقتي وصباي.

وصلت إلى هايجيت وقد لفني ظهر يوم خريفي رقيق. تعطرت الأرض فيه من أثر الأوراق المتساقطة، وتلك التي لم تسقط بعد، ذات الألوان البديعة من الأصفر والأحمر والبني، وقد علقت على الأشجار، وتخللتها أشعة الشمس المشرقة. تجاوزت الميل الأخير بينما أفكر فيما عليَّ فعله، وقد تركت العربة التي تبعتني طوال الليل في انتظار أوامري بمواصلة المسير.

وصلت إلى المنزل، وقد بدا لي كما أعرفه. لم تتزحزح ستائره. لم

يظهر أي أثر للحياة في فنائه الممهد الهادئ المؤدي إلى الباب المهجور. كانت الريح قد هدأت فلم يتحرك شيء من حولي.

لم أتشجع في البداية لأدق جرس الباب، لكنني ما إن دققته حتى بدا لي أن صوت رنينه قد عبَّر عن مهمتي. خرجت الخادمة الصغيرة تحمل في يدها المفتاح، وقالت وهي تنظر إليَّ بجدية بينما تفتح البوابة:

«أستميحك عذرًا يا سيدي. هل أنت مريض؟».

قلت: «لقد كنت مضطربًا للغاية، وأشعر بالتعب».

قالت: «هل وقع شيء يا سيدي؟ هل السيد جيمس...؟».

قلت: «صه، نعم، وقع شيء ما، وينبغي أن أقابل السيدة ستيرفورث. هل هي في المنزل؟».

ردت الفتاة بقلق قائلة إن سيدتها نادرًا ما تخرج في هذه الأوقات، بل لا تخرج أبدًا وإن انتظرتها عربة للتحرك. إنها قابعة في غرفتها، لا تقابل أحدًا، إلا أنها ستقابلني. قالت إن سيدتها في الطابق العلوي مع الآنسة دارتل. وسألتني ما الرسالة التي أود إبلاغها لها.

حذرتها بلهجة صارمة حتى تتوخى الحذر في سلوكها، وطلبت منها ألا تفعل شيئًا سوى إعطاء بطاقتي لها، وتقول إنني منتظر. جلست بعدها في غرفة الاستقبال -كنا قد وصلنا إليها في أثناء الحديث- وانتظرتها حتى تعود. انقشع الهواء اللطيف الذي طغى على الغرفة من قبل، بعد أن صارت النوافذ شبه مغلقة، كما هجرت القيثارة منذ عهد طويل وحتى اليوم. لاحت صورته في الطفولة معلقة أمامي، كما

أبصرت الصندوق الذي احتفظت فيه والدته برسائله. تساءلت عما إذا كانت تقرأها منذ لحظات، وهل ستكثر من الاطلاع عليها فيما بعد.

كان المنزل ساكنًا، حتى إنني سمعت وقع خطوات الفتاة الصاعدة على السلم، وكذلك سمعتها عند عودتها. حملت إليَّ رسالة مفادها أن السيدة ستيرفورث مريضة ولا تستطيع النزول، ولكنها تطلب المعذرة مني كما أنها ستسعد إن قبلت برؤيتها في الغرفة. لم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى كنت واقفًا أمامها.

كانت جالسة في غرفته، لا غرفتها. أحسست بالطبع أنها قد أقامت فيها لتحيي ذكرياته. أحاطت نفسها بكثير من ألعابه القديمة وأعماله، فأبقت عليها كما تركها. إلا أنها تذمرت حين استقبلتني قائلة إنها تركت غرفتها لأنها لم تكن مناسبة لوضعها الصحي، وراحت بنظرتها المتعالية تصد أقل شك قد يراودني عن الحقيقة.

كانت روزا دارتل جالسة كعادتها على كرسيها. أدركت منذ اللحظة الأولى التي استقرت فيها عيناها الداكنتان على وجهي، أنها تعرف أنني أحمل إليهم نبأ سيئًا. ظهرت الندبة في تلك اللحظة، وقد تراجعت متوارية بالكرسي، حتى تنأى بوجهها بعيدًا عن ملاحظة السيدة ستيرفورث، ثم رمقتني بنظرة ثاقبة متفحصة، لم تتوارَ، ولم تتقلص قَطُّ.

قالت السيدة ستيرفورث: «يؤسفني أن ألاحظ أنك في حداد يا سيدي».

قلت: «إنني للأسف أرمل».

قالت: «إنك صغير جدًّا على هذا الفقد الكبير. إنني حزينة لسماع هذا النبأ. حقًّا، يؤسفني معرفة ذلك. أرجو أن يداويك الزمن».

قلت بينما أنظر إليها: «أرجو أن يصير الزمن رؤوفًا بنا جميعًا. يا عزيزتي السيدة ستيرفورث، علينا جميعًا أن نثق في ذلك حتى في أعنف مصائبنا».

أفزعتها نبرة الجد في حديثي وروَّعتها الدموع البادية في عيني. بدا أن مجرى أفكارها كله قد توقف وتبدل.

حاولت السيطرة على صوتي حتى أنطق اسمه بلطف، لكنه ارتجف. كررته هي، لمرتين أو ثلاث مرات بنبرة خافتة. ثم خاطبتني بهدوء مصطنع قائلة: «ابني مريض».

أجبتها: «مريض جدًّا».

«هل رأيته؟».

«نعم».

«هل تصالحتما؟».

لم أستطع أن أقول نعم، ولم أستطع قول لا. أدارت رأسها قليلًا نحو المكان الذي تقف فيه روزا دارتل عند مرفقها، وفي تلك اللحظة قلت لروزا بحركة من شفتي: «مات».

ربما لم تتشجع السيدة ستيرفورث على النظر خلفها، لتقرأ على شفتي ما لم تكن مستعدة بعد لمعرفته، بعد أن صار واضحًا جليًّا. لفت عينيها نحوي بسرعة، لكنني رأيت روزا دارتل ترفع يديها في الهواء بحدة من اليأس والرعب، ثم أقفلتهما على وجهها.

أما السيدة الوسيمة مثله -آه، مثله- نظرت نحوي نظرة ثابتة، ثم وضعت يدها على جبهتها. توسلت إليها وطلبت منها أن تهدأ، وتعد نفسها لتحمل ما سأقوله. وكان ينبغي أن أطلب منها أن تبكي، لأنها جلست كما لو أنها تمثال من الحجر.

تلعثمت قائلًا: «عندما كنت هنا آخر مرة أخبرتني الآنسة دارتل أنه راح يبحر هنا وهناك. كانت الليلة قبل الماضية ليلة مروعة في البحر. لو أنه كان في البحر تلك الليلة، بالقرب من ساحل الخطر؛ يقال إنه كان هناك. ولو أن السفينة التي شوهدت هي السفينة التي...».

قالت السيدة ستيرفورث: «يا روزا، تعالي إليَّ».

أقبلتْ إليها من دون تعاطف أو لين، بل لمعت عيناها كالنار وهي تواجه والدته، وابتدعت ضحكة مخيفة.

قالت: «والآن، هل أرضيتِ كبرياءكِ أيتها المجنونة؟ وقد كفَّر لكِ الآن بحياته! هل تسمعين؟ حياته!».

تراجعت السيدة ستيرفورث إلى كرسيها، ولم تصدر أي صوت سوى الأنين، وقد ألقت نظرتها عليها محملقة.

صرخت روزا، وقد ضربت صدرها في هياج: «انظري إليَّ، أصدري أنينكِ، وتأوَّهي، ثم انظري إليَّ»، راحت تضرب ندبتها قائلة: «انظري هنا، إلى صنيع ابنكِ الميت».

كان أنين الأم الذي تزفره من حين لآخر يزلزل قلبي. ظلت كما هي دومًا مختنقة الأنفاس صامتة. وقد راحت كعهدها تحرك رأسها حركة

يائسة عاجزة، من دون أن يتغير وجهها. انطبق فمها على أسنانها، كما لو كان فكها قد تصلب، وتجمد وجهها من الألم.

راحت روزا تقول: «هل تتذكرين متى فعل هذا بي؟ هل تتذكرين متى فعله، بما ورثه من طبعكِ، وبما ترعرع فيه من كبرياء وزهو، ففعل بي ما فعله وشوهني مدى الحياة؟ انظري إليَّ، وأثره على جبيني حتى أموت بسبب استيائه وحدته، هيا أصدري أنينكِ وتأوهكِ على صنيعكِ به».

ناشدتها قائلًا: «يا آنسة دارتل، أستحلفكِ بحق السماء...».

قالت بينما تلتفت نحوي بعينيها المشتعلتين كالبرق: «سأتحدث، فصه. أنتِ! أقول لكِ انظري إليَّ؛ أيتها الأم المزهوة بابن كاذب فخور! أصدري أنينكِ على تربيتكِ له، فلتئِنِّي على إفسادكِ له، فلتئِنِّي على خسارتكِ له، فلتئِنِّي على حالي».

اعتصرت الآنسة دارتل قبضة يدها، وارتجف بدنها البالي، كما لو أن غضبها أمات شيئًا فيها. ثم صرخت قائلة: «هل تستائين من عناده؟! هل تألمتِ من مشاعره المتغطرسة؟! لقد عارضتِهما بعدما شاب رأسكِ، في حين دسستِ هاتين الصفتين به بعدما أنجبتِه. إنكِ من ربيتِه من المهد ليصير ما شبَّ عليه، ومحوتِ ما كان ينبغي أن يتحلى به. هلا تلقيتِ مكافأتكِ الآن على ما مررتِ به من سنوات التعب؟».

قلتُ: «آه يا آنسة دارتل، عار عليكِ! يا لكِ من قاسية!».

قالت: «انتبه، إنني أقول إنني سأتحدث إليها، ولن تمنعني أي قوة على وجه الأرض ما دمت أقف في مكاني هنا. لقد سكت طوال هذه

السنوات، أفلم يحن دوري لأتكلم الآن؟ لقد أحببته أكثر منها». تحولت هنا بنظراتها إلى السيدة ستيرفورث وراحت تقول: «كنت أستطيع أن أحبه من دون مقابل. ولو أنني كنت زوجته، لصرت عبدة لنزواته في سبيل كلمة حب يهبها لي كل عام. كنت سأتقبل هذه الحياة، فمن يعرف نفسي أفضل مني؟ لكنكِ كنتِ صارمة، ومختالة، ومتحفظة، وأنانية. كان من الممكن أن أكرس له حبي، فيدهس أنانيتكِ التافهة تحت قدميه».

راحت تضرب الأرض وعيناها متوهجتان كما لو أنها تجسد كلامها بالفعل.

قالت وهي تضرب بيدها الندبة مرة أخرى من دون هوادة أو رحمة: «انظري هنا. لقد كبر إلى الحد الذي أدرك فيه أثر ما فعله. لقد فهم وندم وتأسف عنه. رحت أغني له، وأتحدث إليه، وأظهر الحماسة التي أشعر بها في كل ما يفعله. رحت أجتهد وأقبل على المعارف التي تثير اهتمامه، حتى انجذب إليَّ. صار نقيًّا وصادقًا وقد أحبني. نعم، لقد أحبني، أحبني حين أبعدكِ عن خاطره لفترة بعد خصام طفيف، فأخذني إلى قلبه».

قالت ما قالته بفخر ساخر في خضم جنونها -لأنه صار أقل وطأة- ولكنها ظلت تذكره بشغف، فراحت نيران حماساتها المتقدة تخبو بين لحظة وأخرى.

قالت: «صرت في منزلة الدمية -كان عليَّ أن أدرك ذلك، لكنه سحرني بمغازلته الصبيانية- صرت تافهة يتسلى بي في ساعة من ملل، ثم يطيح بي، ثم يعاود التقاطي ليلهو بي مرة أخرى، مثلما يتقلب مزاجه الهزلي تمامًا. سئم مني وكنت قد مللت. انقشع عنه هذا الخيال، ولم أحاول بعد هذه اللحظة تعزيز أي قوة أمتلكها، وإلا لأرغمته على أن

يتزوجني. لقد ابتعد كل منا عن الآخر من دون أن ينبس ببنت شفة. لعلكِ أدركتِ الفراق بيننا، ولم تأسفي له. صرت منذ ذلك الحين مجرد قطعة أثاث مشوهة بينكما؛ بلا أعين أو آذان أو مشاعر أو ذكريات. هل تئِنِّين؟ تئِنِّين على ما فعلتِه. لا تتوجعي على حبكِ له. أقول لكِ إنه قد مر بي وقت أحببته فيه أكثر منكِ».

وقفت وعيناها الغاضبتان اللامعتان تحدقان بوجه جامد، بل لا يلين مع تكرار الأنين كما لو أن وجهها مجرد صورة.

قلت: «يا آنسة دارتل، إذا كنتِ تحملين من القسوة ما لا يجعلكِ ترثين هذه الأم المنكوبة...».

ردت بحدة قائلة: «ومن يرثي لحالي؟ لقد زرعتْ كل هذا. دعها تئن من الحصاد الذي تحصده اليوم».

قلت: «وإذا كانت أخطاؤه...».

صرخت، وقد انفجرت باكية في حرقة وانفعال: «أخطاء! من يجرؤ على الإساءة إليه؟ لقد كانت روحه تعادل أرواح ملايين الأصدقاء ممن تنازل بالتعامل معهم».

أجبتها: «لا يمكن لإنسان أن يحبه أو يحفظ له ذكرى أكثر مني. وإني قصدت أن أقول إنه إذا لم ترثي لحال والدته، أو إذا كانت أخطاؤه التي نغصت عليكِ...».

صرخت وهي تمزق شعرها الأسود قائلة: «يا له من خطأ! لقد أحببته».

قلت: «إذا كانت أخطاؤه لا يمكن أن تُطرد من ذاكرتكِ في مثل هذه الساعة، فانظري إليها كشخص لم ترَه عينكِ من قبل، وقدمي لها بعض المساعدة».

مكثت السيدة ستيرفورث طوال هذا الوقت من دون أن تتغير ملامحها، بل بدا أنها غير قابلة للتغيير. ظلت صامتة وجامدة محملقة. تئن بالطريقة الغريبة نفسها من وقت لآخر، بحركة الرأس نفسها التي لا حول لها ولا قوة، من دون أن تبدي أي علامة أخرى أو أثر على الحياة. ركعت الآنسة دارتل أمامها فجأة، وشرعت ترخي لها ثوبها.

قالت وهي تنظر إليَّ وقد اختلطت ملامحها بمزيج من الغضب والحزن: «اللعنة عليك، لقد أتيت إلى هنا في ساعة نحس، اللعنة عليك، اذهب».

غادرتُ الغرفة، وأسرعت إلى قرع الجرس لتنبيه الخدم وإحضارهم. كانت الآنسة دارتل قد تناولت الجسد المتصلب بين ذراعيها، ولم تزل جاثية على ركبتيها تبكي فوقها، وتقبلها، وتناديها، وتهزها جيئة وذهابًا على صدرها كما تهدهد الطفل، وتحاول إيقاظ حواسها الخاملة بكل وسيلة. أما أنا، فلم أعد خائفًا من تركها، ومن ثَم خرجت مرة أخرى بلا ضوضاء منطلقًا بعد أن أخبرت قاطني المنزل بما جرى.

عدت في وقت لاحق من ذاك اليوم، وأرقدناه في غرفة والدته. قالوا لي إنها ظلت على حالها، ولم تتركها الآنسة دارتل. كان الأطباء حاضرين، وقد جربوا أشياء كثيرة معها، لكنها مكثت راقدة كصنم، باستثناء صوت أنين منخفض راحت تزفره بين حين وآخر.

مررت بأرجاء المنزل الكئيب، وقد أظلمت نوافذه. وأُغلقت نوافذ الغرفة التي كان يرقد فيها أخيرًا. رفعت يدي المتصلبة كالرصاص وقبضتها عند قلبي. وقد بدا لي العالم بأسره موتًا وصمتًا، لم يقطعه سوى أنين والدته.





الفصل السابع والخمسون

المهاجرون

كان عليَّ أن أفعل شيئًا آخر قبل أن أستسلم لصدمة هذه الانفعالات، إذ أخفيت ما حدث عن المقبلين على السفر، فتركتهم ينعمون برحلتهم بجهلهم السعيد. ولم أهدر الوقت في اتخاذ هذا القرار.

انفردت بالسيد ميكوبر في تلك الليلة، وأوليت إليه مهمة أن يحول بين السيد بيجوتي ونبأ الكارثة الأخيرة. وقد تعهد لي بأداء هذه المهمة بحماس قائلًا إنه سيمنع وصول أي صحيفة إلى السيد بيجوتي حتى لا تصل إليه الكارثة من خلالها.

قال السيد ميكوبر، وهو يضرب صدره: «إذا توغلت إليه هذه الكارثة يا سيدي، فإنها ستكون قد تسللت من هذا الجسد أولًا».

يجب أن أعقب هنا فأقول إن السيد ميكوبر راح يتكيف مع المجتمع الجديد، فاكتسب صفات جريئة من سمات القراصنة، لا بخروجه عن القانون تمامًا، بل في دفاعه العادل وإقدامه الشجاع. ولعل سلوكه الجديد قد يدفع المرء إلى الظن بأنه من أبناء البرية، وأنه قد اعتاد منذ

فترة طويلة على العيش خارج حدود الحضارة، وأنه على وشك العودة إلى براري وطنه.

كان مما زود نفسه به؛ بدلة كاملة من الجلد الزيتي، وقبعة من القش ذات تاج منخفض للغاية، مائل أو لنقل ملصق بها من الخارج. ظهر في هذه الملابس الخشنة، وقد تأبط تلسكوبًا مما يحمله البحارة عادة، وقد اتخذ خدعة ذكية تتمثل في رفع عينه إلى السماء راصدًا تقلبات الطقس المخيف، فكان أقرب إلى هيئة البحار بصورة تفوق هيئة السيد بيجوتي. وإن جاز لي التعبير، فإن أفراد أسرته جميعهم صاروا جاهزين للعمل. أبصرت السيدة ميكوبر وقد ارتدت قبعة متحجرة، أبعد من أن تتناسب مع وجهها، وقد ثبتتها بشريط يتدلى تحت ذقنها. تلحفت بشال لفته حولها -كما لفت عمتي نفسها بشال حين استقبلتني أول مرة- فبدت مثل حزمة، مثبتة برباط من الخلف يدور بخصرها وينتهي بعقدة قوية. أما الآنسة ميكوبر فقد واجهت الطقس العاصف، بالطريقة نفسها التي فعلتها والدتها، فأحكمت ملحفتها وربطتها من دون أن يفيض عن حبكتها شيء. أما ميكوبر الابن، فصار بالكاد مرئيًا في قميصه الغرنزي[1]، وبدلته التي هي أسوأ ما رأيته من ملابس على الإطلاق. جهزوا بقية الأطفال كما لو أنهم لحوم محفوظة في علب حصينة. كان كل من السيد ميكوبر وابنه الأكبر يشمران عن أكمامهما حتى الرسغين، بحيث كانا مستعدين

(١) جزيرة إنجليزية، اشتهرت بأعمال الملاحة، لها قميص أزرق مميز للبحارة.

لتقديم يد المساعدة في أي عمل، بل وكانا على استعداد ليتلعثما بغناء أقصر أغاني العمل الحماسية منشدين: «يو... هيف... يو»[١].

هكذا وجدتهم أنا وترادلز عند حلول الظلام، متجمعين على درجات خشبية، كانت تعرف في ذلك الوقت باسم «سلالم هنجرفورد»، يراقبون رحيل سفينة تحمل بعض ممتلكاتهم على متنها. أخبرت ترادلز بالحادث المفزع، وقد صدمه ما وقع بشدة، ولكن لا شك في أنه قد أبقى الأمر سرًّا، وقد جاء لمساعدتي في هذه الخدمة الأخيرة، وهنا انفردت بالسيد ميكوبر جانبًا وطلبت منه أن يبقى على عهده محتفظًا بالسر.

استقرت عائلة ميكوبر في فندق صغير قذر، كان قريبًا من سلالم هنجرفورد في تلك الأيام، وكانت غرفه الخشبية البارزة تطل على النهر. لقد اجتذبت الأسرة المهاجرة اهتمامًا كبيرًا من أهل هنجرفورد ومن حولها، مما جعلنا سعداء بالاحتماء من نظرات الناس في غرفتهم. كانت الغرفة واحدة من الغرف الخشبية في الطابق العلوي، حيث يتدفق المد من تحتها. ظلت عمتي وأجنيس منشغلتين بإعداد بعض وسائل الراحة الإضافية، مثل تجهيز بعض الملابس للأطفال، وراحت بيجوتي تساعدهما في هدوء بالاستعانة بصندوق أدوات الحياكة القديم، والمقياس، وبقايا من الشمع أمامها، وغيرها من أدوات قد انقضى زمنها الآن.

لم يكن من السهل الرد على استفساراتها، بل كان من الصعب كذلك الهمس إلى السيد بيجوتي بعدما أحضره السيد ميكوبر، فأقول

---

(١) دندنة موسيقية كان يغنيها البحارة في رحلة عودتهم إلى الوطن.

له إنني قد سلمت الرسالة، وإن كل شيء على ما يرام. إلا أنني قمت بالأمرين كليهما، لأجعلهم سعداء. أظهرت أثرًا من الحزن الذي شعرت به، إلا أن فراقهم كان سببا كافيًا لتفسير حالتي.

سألت عمتي: «ومتى تبحر السفينة يا سيد ميكوبر؟».

رأى السيد ميكوبر أنه من الضروري تهيئة عمتي وزوجته لما سيحدث تدريجيًّا، فقال إنها ستبحر في وقت أقرب مما كان يتوقع أمس.

قالت عمتي: «أظن أن السفينة قد عادت إليك ببشارة جيدة؟».

أجابها قائلًا: «بالفعل جاءت يا سيدتي».

قالت عمتي: «هل ستبحر إذن في...؟».

أجاب: «يا سيدتي، لقد علمت أنه يجب علينا أن نكون على متن السفينة قبل السابعة من صباح الغد».

قالت عمتي: «عجبًا! يا له من وقت قريب جدًّا! هل التوقيت مناسب من الناحية البحرية يا سيد بيجوتي؟».

«حسنًا يا سيدتي، سوف تنزل إلى النهر مع هذا المد. فإذا جاء السيد ديفي وأختي إلى متن السفينة في جرافيسن بعد ظهر اليوم التالي، فسوف نلتقي بهم مرة أخيرة».

قلت: «وهذا ما سنفعله بكل تأكيد».

قال السيد ميكوبر وهو ينظر في وجهي متفكرًا: «وحتى ذلك الحين وإلى أن نصل إلى البحر، فإننا سنراقب أنا والسيد بيجوتي متاعنا

وأغراضنا». راح السيد ميكوبر يتنحنح لينظف حلقه بطريقته الرائعة حتى استكمل قوله قائلًا: «أما أنتِ يا إيما يا حبيبتي، فإن صديقي السيد توماس ترادلز همس إليَّ في أذني ملتمسًا أن يتمتع بامتياز، فطلب إعداد المكونات اللازمة لتركيب مقدار معقول من هذا المشروب المرتبط في أذهاننا بشكل غريب بلحم البقر المشوي في إنجلترا القديمة. إنني ألمح باختصار إلى شراب البانش. لو أننا في ظروف عادية، لترددت في طلب تساهل الآنسة تروتوود والآنسة ويكفيلد، إلا أننا...».

قالت عمتي: «لا يمكنني إلا أن أقول إنني سأشرب بكل سرور نخب كل السعادة والنجاح لك يا سيد ميكوبر».

قالت أجنيس بابتسامة: «وأنا أيضًا».

نزل السيد ميكوبر على الفور إلى الحانة، حيث تصرف كما لو أنه في منزله تمامًا، فعاد في وقت مناسب حاملًا إبريقًا يتصاعد منه البخار. لم يسعني إلا أن ألاحظ أنه كان يقشر الليمون بسكينه الذي يصل طوله قدمًا، ربما ليتناسب مع وطنه الجديد بشكل عملي. مسح سكينه فوق كم معطفه، في مشهد لا يخلو من التباهي. وجدت في هذه اللحظة السيدة ميكوبر والعضوين الكبيرين في الأسرة قد تزودوا بأدوات رائعة مماثلة، بينما كانت لكل طفل ملعقة خشبية خاصة به متصلة بجسمه بخيط قوي. أخذ السيد ميكوبر يتمثل حياته المقبلة، فراح يصب شراب البانش في شيء بدلًا من كأسين للسيدة ميكوبر وابنهما الأكبر وابنته. كان من الممكن أن يستخدم عددًا من الكؤوس بسهولة، لأن الرف الموجود بالغرفة كان ممتلئًا بالكؤوس. قدم الشراب إليهما في وعاءين قذرين صغيرين من

الصفيح. ولم أرَه قَطُّ يستمتع بأي شيء في حياته مثل استمتاعه بالشرب من وعائه الخاص، ثم أعاده إلى جيبه في نهاية المساء.

قال السيد ميكوبر بنبرة ارتياح بعد تخليه عن وسائل الرفاهية: «لقد تخلينا عن وسائل الرفاهية المتاحة في بلدتنا القديمة، إذ لا يمكن لسكان الغابة بالطبع أن يستخدموها ويشاركوا ترف سكان الأراضي الحرة».

هنا، جاء صبي ليقول إن السيد ميكوبر مطلوب في الطابق السفلي.

قالت السيدة ميكوبر وهي تزيح وعاء الصفيح: «ينتابني شعور أن طالبه هو أحد أفراد عائلتي».

عقب السيد ميكوبر بنبرة حادة معتادة عند حديثه عن هذا الموضوع فقال: «إذا كان الأمر كذلك يا عزيزتي، وكان القادم هو أحد أفراد عائلتكِ - سواء كان رجلًا أم امرأة أم جمادًا - وقد جعلنا ننتظر لفترة طويلة، فلعله سينتظر الآن حتى أستعد لمقابلته على مهل».

قالت زوجته بنبرة خافتة: «يا ميكوبر، إننا في مثل هذه الظروف...».

قال السيد ميكوبر: «يا إيما، كفي عن التوبيخ، فلا يجدر أن نقابل كل إهانة صغيرة بالتعليق[١]».

علقت زوجته قائلة: «إن الخسارة يا ميكوبر كانت من نصيب عائلتي، لا من نصيبك. إذا كانت عائلتي مدركة مبلغ الخسارة التي تعرضوا لها نتيجة لسلوكهم منذ عهد بعيد، ثم أرادوا اليوم مد يد التواصل من جديد فلا ينبغي أن نصدها».

---

(١) اقتباس من مسرحة يوليوس قيصر للكاتب الإنجليزي ويليام شكسبير.

قال: «فليكن ما أردتِ يا عزيزتي».

قالت زوجته: «إن لم تفعل ذلك مراعاة لهم، فليكن دافعك هو إرضائي يا ميكوبر».

أجابها قائلًا: «يا إيما، إن النظر إلى المسألة من ناحية إرضائكِ في مثل هذه اللحظات هو شيء لا يقاوم. إلا أنني لا أستطيع أن أتعهد إليكِ في هذه اللحظة أن أعانق أفراد عائلتكِ. أما هذا الفرد الحاضر الآن من عائلتكِ، فلن يجد قلبي باردًا أمام دفء مشاعره».

انسحب السيد ميكوبر، وغاب عنا فترة من الوقت. لم تكن السيدة ميكوبر مطمئنة تمامًا، بل خائفة من أن ينشأ خلاف بين السيد ميكوبر وقريبها. عاد الغلام نفسه إلى الظهور من جديد، وسلمني ملاحظة مكتوبة بقلم رصاص، كان عنوانها مكتوبًا بصيغة قانونية، وهو «هيب ضد ميكوبر». علمت من هذه الوثيقة أن السيد ميكوبر قد تعرض للاعتقال مرة أخرى. صار في أقصى نوبات اليأس، وقد طلب إليَّ أن أرسل له سكينه ووعاء مع حامل الرسالة، علَّهما يكونان نافعين له خلال الفترة القصيرة المتبقية له من حياته داخل السجن. طلب مني أيضًا أن أؤدي له عملًا أخيرًا كصديق، وهو أن ألحق أفراد أسرته بالعمل في مشغل الأبرشية، وأنسى أن مخلوقًا مثله قد عاش يومًا على الإطلاق.

أجبت بالطبع على هذه الرسالة بالنزول مع الصبي لدفع المبلغ المستحق، حيث وجدت السيد ميكوبر جالسًا في الزاوية، ينظر بحزن إلى الضابط المنفذ لمهمة القبض عليه. عانقني السيد ميكوبر عناقًا حارًّا بعد إطلاق سراحه. وأخرج دفتره ودون المبلغ المدفوع. أتذكر كم كان

دقيقًا في تدوين التفاصيل، فنبهني حين أهملت بلا قصد ذكر نصف بنس من بيان مجموع ما دفعته.

ذكره دفتر الجيب في كثير من المناسبات المهمة بعدد من المعاملات المالية. عدنا إلى الغرفة في الطابق العلوي - حيث أرجع سبب تأخره إلى ظروف خارجة عن إرادته - فأخرج من دفتره ورقة كبيرة مطوية، مما جعلها تبدو صغيرة، وكانت مغطاة تمامًا بأعمدة طويلة من الأرقام المكتوبة بعناية. لا يسعني بعد أن ألقيت عليها لمحة سريعة إلا أن أقول إنني لم أرَ عددًا من العمليات الحسابية لمثل هذه المبالغ طوال حياتي. يبدو أن هذه الحسابات كانت تبعات للفائدة المركبة على ما أسماه «المبلغ الأساسي المحدد بواحد وأربعين جنيهًا، وعشرة شلنات، وأحد عشر بنسًا ونصف»، وهي تراكمات لفترات حسابية مختلفة، وبعد دراسة متأنية لهذه الأرقام، وتقدير مفصل لموارده، توصل إلى استنتاج مفاده أن سداد هذا المبلغ المتمثل في الفائدة المركبة سيتم خلال عامين وخمسة عشر شهرًا وأربعة عشر يومًا، من ذلك التاريخ. كتب مذكرة بدقة كبيرة، سلمها إلى ترادلز على الفور كإبراء ذمة كاملة لديونه - بين الرجل وآخر - مع إقرار بالامتنان والعرفان.

قالت السيدة ميكوبر وهي تهز رأسها: «لا يزال ينتابني شعور بأن عائلتي ستظهر على متن السفينة، قبل أن نغادر في النهاية».

كان من الواضح أن السيد ميكوبر يحمل هذا الهاجس أيضًا، لكنه وضعه في وعاء من الصفيح وابتلعه.

قالت عمتي: «إذا سنحت أمامكِ الفرصة لإرسال رسائل إلى البلدة يا سيدة ميكوبر، فكما تعلمين، يجب أن تطمئنينا بأخباركِ».

أجابت: «يا عزيزتي آنسة تروتوود، سأسعد للغاية بالتفكير في أن إنسانًا ينتظر سماع أخبارنا. لن أتهاون في مراسلتكم. أحسب أن السيد كوبرفيلد نفسه، وهو الصديق القديم الذي يعرفنا، لن يعترض على تلقي أخبار عن إنسان كان يعرفه منذ أن كان التوأم صغيرين لا يفقهان شيئًا عن الحياة، أليس كذلك؟».

قلت إنني أرجو أن أطمئن على أخبارهم كلما سنحت لها فرصة بالكتابة.

قال السيد ميكوبر: «أرجو الله أن تتوفر لنا عديد الفرص. إن المحيط في مثل هذه الأوقات يصير مركزًا مثاليًّا لإبحار السفن، ونواجه كثيرين ممن يرغبون في دهسنا». استطرد السيد ميكوبر عابثًا بنظارته قائلًا: «إنه مجرد عبور، أما المسافة فليست سوى خيال تام».

أتصور في هذه اللحظة أن الأمر بدا غريبًا جدًّا، فكم كان غريبًا أن يتحدث رجل مثل السيد ميكوبر، عندما سافر من لندن إلى كانتربري فيقول إنه كمن يسافر إلى أقصى مجاهل الأرض، أما حين سافر من إنجلترا إلى أستراليا، إذ به يقول إنه ذاهب في رحلة قصيرة عبر القناة.

قال السيد ميكوبر: «سأسعى في هذه الرحلة لأن أغزل لكم حكاية بين حين وآخر، لأنني أثق بأن غناء ابني ويلكنز سيلقى قبولًا ممن يصطفون حول موقد السفينة، وحين ترتدي السيدة ميكوبر أرجلها

البحرية -إنه تعبير أرجو ألا يتضمن أي إحراج- فإنني أجرؤ على القول إنها ستغني لنا «تافلين الصغير». أظن أننا سنصادف في الأغلب سباع البحر ودلافين تلاحقنا أسرابًا. سأصف لكم كل ما سيحيط بنا من أشياء شيقة سواء مر بجانبنا أم أحاط بنا». استعاد السيد ميكوبر لهجته المرحة القديمة مستطردًا حديثه فقال: «باختصار، سيصير كل شيء مثيرًا للغاية، سواء هنا أم هناك، حين ينادي مراقب السفينة من برجه العالي فيقول: «آه، إنه البر»، وسنندهش أيما دهشة».

ما إن أنهى هذه الكلمات حتى تجرع محتويات وعاء القصدير الصغير، كما لو أنه أتم رحلته، واجتاز امتحانًا من الدرجة الأولى أمام السلطات البحرية العليا.

قالت السيدة ميكوبر: «إن ما أرجوه بالأساس يا عزيزي السيد كوبرفيلد، هو أن نعود مرة أخرى فنعيش مع بعض أفراد عائلتنا في بلدتنا القديمة. لا تعبس يا ميكوبر، إنني لا أشير الآن إلى عائلتي، ولكنني أقصد أحفادنا». هزت السيدة ميكوبر رأسها واستأنفت قائلة: «مهما كانت فروع شجرة الأسرة قوية، فلا يمكنني أن أنسى الشجرة الأم. أما حين يصل فرعنا إلى الشهرة والثروة، فإنني أود أن تتدفق هذه الثروة إلى خزائن بريطانيا».

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزتي، يجب أن تغتنم بريطانيا فرصتها. لا بد أن أشير هنا إلى أنها لم تقدم لي الكثير قَطُّ، فلا أكن لها أي شيء خاصة من هذا القبيل».

قالت السيدة ميكوبر: «يا ميكوبر، إنك مخطئ في هذا التقدير. إنك

مسافر يا ميكوبر إلى هذا الأفق البعيد لتقوية العلاقة بينك وألبيون[1] لا لإضعافها».

أجابها السيد ميكوبر قائلًا: «يا حبيبتي، إنني أكرر عليكِ قولي بأن الارتباط الذي أقصده لا يضعني تحت وطأة هذا العبء من الالتزام الشخصي، إنني شديد الحساسية فيما يتعلق بتشكيل ارتباط آخر مع الماضي».

قالت السيدة ميكوبر: «يا ميكوبر، إنني هنا أقول لك مرة أخرى إنك مخطئ، فأنت تجهل مكامن قوتك يا ميكوبر. إن قوتك ستعزز في هذه الخطوة التي توشك على اتخاذها، العلاقة بينك وألبيون».

جلس السيد ميكوبر على كرسي مستندًا إلى مرفقيه وقد رفع حاجبيه، يبدو مترددًا بين رضاه عن نصف آراء السيدة ميكوبر ومعترضًا على نصفها الآخر، خاصة كلما كررت شيئًا منها، إلا أنه بدا مدركًا لحكمة قولها وبُعد نظرها.

قالت السيدة ميكوبر: «يا عزيزي السيد كوبرفيلد، أرجو أن يشعر السيد ميكوبر بمكانته. يبدو لي أنه من المهم والضروري أن يشعر السيد ميكوبر بمكانته منذ صعوده متن السفينة. وإن معرفتك القديمة بي يا عزيزي السيد كوبرفيلد، كفيلة بأن تخبرك بأنني لا أتمتع بالسلوك المتفائل الذي يتميز به السيد ميكوبر. إن شخصيتي - إن جاز لي التعبير - تتصف بالعملية. أعلم أن هذه رحلة طويلة. أعلم أنها ستنطوي على كثير من المضايقات ودروب

(١) استخدم أرسطو كلمة ألبيون كأحد أسماء بريطانيا، تُدُووِل الاسم بين بعض التجار، واستُخدم في كثير من الأعمال الأدبية.

من الحرمان. لا أستطيع أن أغلق عيني، فأغفل عن هذه الحقائق. إلا أنني أعرف أيضًا من يكون السيد ميكوبر، وأدرك القوة الكامنة فيه. ولذلك أرى أنه من الأهمية أن يشعر السيد ميكوبر بمكانته».

قال السيد ميكوبر: «يا حبيبتي، ربما تسمحين لي أن أشير إلى أنني لا أستطيع أن أشعر بمكانتي في الوقت الحاضر».

قالت: «لا أظن ذلك يا ميكوبر، بل لا أحسب ذلك صحيحًا على الإطلاق. يا عزيزي السيد كوبرفيلد، إن السيد ميكوبر ليس رجلًا عاديًا. سيسافر السيد ميكوبر إلى بلد بعيد، حيث يُفهم ويُقدَّر تمامًا ولأول مرة. وإني لأرجو منه أن يتخذ مكانته عند مقدمة هذه السفينة، ويقول بعزم: «لقد جئت إلى هذا البلد لغزوه، هل تتحلون بالشرف؟ هل تقتنون الثروات؟ هل لديكم مناصب برواتب مجزية؟ دعهم يقدمون كل ما لديهم، لأن كل شيء لي»».

بدا لي السيد ميكوبر وهو يلقي نظرة خاطفة علينا جميعًا، أنه يحسب أن هذه الفكرة ممتازة.

قالت السيدة ميكوبر بنبرتها الجدلية: «أرجو أن يكون كلامي مفهومًا أمام السيد ميكوبر، فيصير قيصر ثرواته ومالكها. يبدو لي أن هذه المكانة يا عزيزي السيد كوبرفيلد، هي مكانته الحقيقية. إنني أود أن يقف السيد ميكوبر عند مقدمة هذه السفينة منذ اللحظة الأولى لهذه الرحلة، فيقول: «كفى تأخرًا. كفى خيبة أمل. كفى موارد محدودة. كان ذلك كله في البلد القديم، أما هذا، فبلدي الجديد. قدموا إليَّ تعويضًا. قدموا كل شيء أمامي»».

طوى السيد ميكوبر ذراعيه بطريقة حازمة، كما لو أنه يطوق مغزى الحديث.

قالت السيدة ميكوبر: «إذا فعل ذلك، وأدرك مكانته، ألست محقة إذا قلت إن السيد ميكوبر سيعزز علاقته ببريطانيا ولن يضعفها؟ سيصير شخصية عامة مهمة تنمو في النصف الآخر من الكرة الأرضية، فهل ستقولون لي إن تأثيرها لن يصير محسوسًا في الوطن؟ هل يمكن أن أكون متدنية التفكير حتى أتخيل أن السيد ميكوبر، الذي سيحمل عصا الموهبة والقوة في أستراليا، لن يصير شيئًا في إنجلترا؟ إنني مجرد امرأة، لكنني سأكون غير جديرة باحترام نفسي أو أبي، إذا كنت موسومة بمثل هذا الوهن السخيف».

إن قناعة السيدة ميكوبر بأن حججها لا تقبل الرد، قد دفعتها إلى التحدث بنبرة قوية أحسست أنني لم أسمع بها من قبل.

قالت السيدة ميكوبر: «وبالتالي، فإنني أتمنى ما هو أكثر من ذلك في فترة مقبلة. قد نعود فنعيش مرة أخرى على أرض بلادنا. لا أستطيع أن أخفي عن نفسي أنه من المحتمل أن يصير السيد ميكوبر صفحة من صفحات التاريخ. ومن ثَم يجب أن يكون ممثلًا في الدولة التي نشأ بها ولم تعطه عملًا».

قال السيد ميكوبر: «يا حبيبتي، من المستحيل ألا أتأثر بعاطفتكِ. إنني على استعداد دائم لمراعاة رأيكِ ومشاعركِ. ما قُدِّر سيكون. ومعاذ الله أن أحقد على بلدي في أي جزء من الثروة التي قد يجمعها أحفادنا».

قالت عمتي وهي تشير إلى السيد بيجوتي: «هذا كلام جيد، وإنني أشرب نخب محبتي لكم جميعًا، داعية لكم بوافر النعمة والنجاح».

وضع السيد بيجوتي الطفلين اللذين كان يرعاهما ويلاعبهما فوق ركبتيه، لينضم إلينا مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته فنشرب نخبنا جميعًا. تصافح هو وأفراد أسرة ميكوبر بحرارة كرفاق، وأشرق وجهه البني بابتسامة. شعرت أنه سيشق طريقه، ويؤسس اسمًا جيدًا فيصير محبوبًا، ويذهب إلى حيث يريد.

سمحوا للأطفال أن يغمسوا ملاعقهم الخشبية في قدر السيد ميكوبر، وأن يشربوا نخبنا. ما إن قمنا بذلك حتى نهضت عمتي وأجنيس وودعنا المهاجرين. كم كان وداعًا مؤلمًا! راح الجميع يبكون، وقد تعلق الأطفال بأجنيس حتى اللحظة الأخيرة، بل تركنا السيدة ميكوبر المسكينة في حالة يرثى لها، فراحت تبكي وتنتحب على ضوء شمعة خافتة، لا بد أنها جعلت الغرفة تبدو من جانب النهر كما لو أنها منارة بائسة.

نزلت مرة أخرى صباح اليوم التالي لأراقب رحيلهم. كانوا قد غادروا في قارب في وقت مبكر نحو الساعة الخامسة صباحًا. كان هذا المشهد مثالًا رائعًا على الفارق الذي تحدثه هذه المواقف الفاصلة، فعلى الرغم من معرفتي بهذا الفندق المنهار والسلالم الخشبية، لم تتجاوز تاريخها الليلة الماضية فقط، فإن كليهما قد بدا لي كئيبًا ومهجورًا في هذه اللحظة بعد أن رحلوا بعيدًا.

ذهبت في عصر اليوم التالي مع مربيتي العجوز إلى جريفسيند. وجدنا السفينة في النهر محاطة بحشد من المراكب. تهب رياح مواتية

فتنتظر السفينة إشارة الإبحار من فوق صاريها. أسرعت إلى استئجار قارب، وانطلقنا به مجتازين عددًا من المراكب الصغيرة التي أحاطت بنا في دوائر، ثم صعدنا على متنها.

كان السيد بيجوتي ينتظرنا على سطح السفينة. أخبرني أن السيد ميكوبر قد قُبض عليه للتوِّ مرة أخرى -وكانت المرة الأخيرة- تنفيذًا لدعوى هيب، وأنه سدد المبلغ المطلوب امتثالًا لطلبي، وبالتالي قدمت إليه المبلغ الذي سدده له. انطلق السيد بيجوتي بنا بين طوابق السفينة، وقد انقشعت حينها أي مخاوف باقية لديَّ من سماعه أي شائعات عما حدث، خاصة بعد ظهور السيد ميكوبر مطلًّا من ظلام الحجرة، وقد تأبط ذراعه بجو من الصداقة والحماية، وأخبرني أنهما نادرًا ما افترقا عن بعضهما، منذ الليلة التي سبقت الأمس.

كان مشهدًا غريبًا بالنسبة لي، محاصرًا بظلام دامس، حتى إنني لم أستطع في البداية أن أتبين أي شيء، إلى أن اتضحت الصور أمامي بعد أن اعتادت عيني على الظلام شيئًا فشيئًا. بدا أنني أقف أمام لوحة من لوحات أوستاد[1]. تجلت أمامي العوارض الكبيرة والحواجز الضخمة، وحلقات السفينة الحديدية، وحجرات المهاجرين، والصناديق، والحزم، والبراميل، وأكوام الأمتعة المتنوعة، فكانت مضاءة من زاوية أو أخرى بفوانيس متدلية، أو يسقط عليها ضوء أصفر قد اخترق الأشرعة من أشعة النهار في مواضع أخرى. لاحت لي جماعات شتى تحاول أن

---

(١) الرسام إسحاق فان أوستاد وأخته الرسامة أدريان فان أوستاد، هولنديان الأصل، اشتهرا برسم لوحات يتخللها الظلام.

تقيم صداقات جديدة، فيتحدث كل منهم مع الآخر فيختلط الكلام والضحك، بالبكاء والأكل والشراب. استقر بعض الناس مع أمتعتهم من دون أن تتجاوز مساحتهم مواقع أقدامهم، وقد رتبوا مواضع أسرهم الصغيرة، فأجلسوا الأطفال الصغار على مقاعد أو كراسٍ قصيرة ذات مساند قزمية. أما الآخرون فراحوا يتجولون يائسين من أن ينعموا بمكان للراحة. أبصرت أطفالًا ممن لم يمضِ على أعمارهم سوى أسبوع أو أسبوعين، وعجائز من الرجال والنساء بظهور محنية، وقد لاح لي أن أعمارهم لن يبقى منها سوى أسبوع أو أسبوعين. رأيت فلاحين وحرَّاثًا أشداء يجرون تربة إنجلترا بأحذيتهم، وحدادين اصطحبوا فوق جلودهم عينات من السخام والدخان. يبدو أن كل سن وكل مهنة قد حُشرت من أناسها زمرة في هذه المساحة الضيقة بين الطوابق الصغيرة.

أدرت عيني في هذا المكان، فظننت أنني قد رأيت شخصًا جالسًا بجوار منفذ مفتوح، وقد جلس بالقرب منه أحد أطفال ميكوبر. بدا لي أن الجالس إيميلي، بعد أن لفت انتباهي أولًا، أن شخصية أخرى تودعها بقبلة. راحت تبتعد عنها بهدوء مختفية بين هذه الفوضى، وإذا بي أتذكر حينها أجنيس، ولكنني مع الحركة السريعة والفوضى وارتباك أفكاري، فقدت أثرها مرة أخرى. لم أدرك شيئًا سوى أن الوقت قد حان للانصراف بعدما نودي في جميع الزوار بمغادرة السفينة. رأيت مربيتي تبكي فوق صندوق بجانبي، ووجدت السيدة جامدج منشغلة بترتيب أغراض السيد بيجوتي، وقد عاونتها بعض الشابات اليافعات الملتفحات بأثواب سوداء.

قال السيد بيجوتي: «هل نسيت شيئًا أخيرًا يا سيد ديفي؟ هل تركت شيئًا ونسيناه قبل أن نفترق؟».

قلت: «نسينا شيئًا واحدًا؛ مارثا».

لمس كتف المرأة الشابة التي لمحتها، فإذا بمارثا واقفة أمامي.

صرخت: «فليحفظك الله أيها الرجل الطيب، هل ستصطحبها معك؟».

أجابت مارثا عنه بسيل من الدموع. لم أستطع قول أي شيء في هذه اللحظة، لكنني شددت على يده. وإذا كنت قد أحببت رجلًا وبجَّلته، فقد أحببت هذا الرجل وبجَّلته في أعماق روحي.

راح الغرباء ينقشعون عن السفينة بسرعة، وبقيت أعظم تجربة خضتها في حياتي. أخبرته ما عهد إليَّ به ذاك الفتى الراحل نبيل الروح لأقوله عند الفراق. تحركت مشاعره متأثرًا، ولكنه أثار دهشتي حين وجه إليَّ في المقابل عديدًا من رسائل المودة والندم لأحملها إلى تلك الآذان الصماء.

حان وقت الرحيل، فاحتضنته، وأخذت مربيتي الباكية فأسندتها إلى ذراعي، وانطلقت بعيدًا. ودعت السيدة ميكوبر المسكينة على متن السفينة. كانت حتى هذه اللحظة لم تزل تبحث عن أفراد من عائلتها مشتتة الانتباه، كما كانت آخر كلماتها لي أنها لن تتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا.

تجاوزنا السفينة ونزلنا من جانبها إلى قاربنا، ووقفنا على مسافة قصيرة لنرى السفينة وهي تشق مسارها. كان الغروب هادئًا وساطعًا،

يشتعل بضوئه الأحمر. لاحت أمامنا الصواري المدببة منثورة أمام هذا الوهج. يا له من مشهد فاتن ومؤلم، ومفعم بالأمل! لم أرَ طوال حياتي قَطُّ مشهدًا يشبه السفينة المجيدة الشامخة حين لاحت منبسطة على صفحة المياه المتدفقة، تدب فوق متنها الحياة، بحشود مزدحمة، كأن على رؤوسهم الطير، ساكنين للحظة قبل أن تبحر.

لم يدُم هذا السكون سوى لحظة، فما إن ارتفعت الأشرعة مع الريح، وبدأت السفينة في التحرك، حتى تعالت من القوارب ثلاثة هتافات مدوية، أجاب عليها ركاب السفينة بأن رددوا هذه الهتافات، ثم تردد صداها وأعاد الصدى كرته. انفجرت دقات قلبي متسارعة بعد سماعي أصواتهم، ورأيت التلويح بالقبعات والمناديل، ثم رأيتها!

رأيتها واقفة بجانب عمها ترتجف على كتفه. أشار إلينا بيد شغوفة، فرأتنا هي كذلك، ولوَّحت لي بوداعها الأخير. آه يا إيميلي، أيتها الفاتنة المطرقة، فلتتشبثي به بكل ما أوتيتِ من ثقة في قلبكِ المجروح، لأنه تعلق بكِ بكل قوة حبه العظيم.

رأيتهما محاطين بالضوء الوردي، واقفين عاليًا على سطح السفينة. ظل كل منهما متشبثًا بالآخر حتى اختفيا معًا. حل ظلام الليل على تلال كنت، وقد عاد بنا القارب إلى الشاطئ، فإذا بنا نهبط البر وسط ظلام دامس.



الفصل الثامن والخمسون

غياب

كانت ليلة طويلة ومظلمة. اجتمعت عليَّ فيها أشباح آمال كثيرة، فراحت تطاردني كما تداعت عليَّ ذكريات غالية، وعديد من الأخطاء، وسيل من الأحزان والندم والإخفاقات.

سافرت مبتعدًا عن إنجلترا. لم أدرك في هذا الوقت مدى قوة الصدمة التي سأتحملها. هجرت كل عزيز ومضيت بعيدًا، وظننت أنني سأتحمل الفراق، وأن كل شيء قد ولَّى. كنت مثل رجل في ميدان المعركة يتلقى جرحًا مميتًا، ولا يدرك إصابته، هكذا تُركت وحدي مع قلبي المصاب، من دون أن أعي أي شيء عن الجرح الذي أناضله.

أدركت مصابي على مهل، شيئًا فشيئًا، حبة تلو الأخرى، إلى أن تعمَّق شعوري الكئيب الذي سافرت به إلى الخارج وأخذ يتسع في كل ساعة. شعرت في البداية بالخسارة والحزن، ولم أستطع تمييز شيء سواهما. تفاقمت مشاعري بدرجات غير محسوسة، إلى أن صارت وعيًا يائسًا بكل ما فقدته، من الحب والصداقة والاهتمام، وكل

ما تحطم. فقدت إيماني الأول، وحبي الأول، وتهدمت قلعة حياتي بأسرها. لم يتبقَّ سوى فراغ من هلاك وحطام، يحيط بي من كل جانب من دون استثناء حتى لتدركه في الأفق المظلم.

لم أكن أعلم ما إذا كان حزني أنانيًا أم لا. لقد حزنت على زوجتي الطفلة، بعد أن اقتُطفت زهرة شبابها وهي لم تزل غضة صغيرة للغاية. لقد حزنت على إنسان كان له أن ينال حب وإعجاب آلاف من البشر، كما فاز بحبي منذ عهد طويل. حزنت على القلب الكسير الذي وجد راحته في أعماق البحر الهائج، وعلى بقايا مبعثرة لمنزل بسيط سمعت بين أرجائه صوت هبوب رياح الليل في طفولتي.

لم يعد يراودني أي أمل في النجاة مرة أخرى من هذا الحزن المتراكم الذي وقعت فيه. رحت أتجول من مكان إلى آخر، حاملًا عبئي معي في كل موضع، إلى أن شعرت بثقله في هذه اللحظات، وقد انزلقت تحت وطأته، فأخبرت قلبي بأن وطأة هذا الحمل لا يمكن أن تخف أبدًا.

أحاط بي اليأس واشتد للأسوأ حتى ظننت أنني لن أنجو إلا بالموت. تصورت في بعض الأحيان أنني أرغب في الموت في وطني. مضيت بالفعل في طريقي، حتى أتمكن من العودة إليه قريبًا. كنت في أوقات أخرى أفكر في الانتقال إلى بلدة بعيدة، ساعيًا وراء شيء لا أدرك كنهه، محاولًا ترك ما أجهله ورائي.

ليس في إمكاني أن أتتبع مراحل يأسي التي توالت عليَّ مرحلة تلو الأخرى. أما أحلامي فلا يمكن وصفها إلا بصورة ناقصة وغامضة، وحين ألزم نفسي بالنظر إلى الوراء لتذكر هذه الفترة من حياتي، يبدو

لي أنني أتذكر حلمًا. أرى نفسي أتجول بين المدن الأجنبية والقصور والكاتدرائيات والمعابد والمتاحف والقلاع والمقابر والشوارع الرائعة - تلك الأماكن القديمة المرتبطة بالتاريخ والخيال والفن - فأشعر أنني حالم. أحمل عبئي المؤلم متجولًا، من دون أن أدرك شيئًا مما حولي لأنه يتلاشى أمامي. جعلتني الظلمة التي اكتنفت قلبي الهش أشعر بالفتور تجاه كل شيء، باستثناء حزني الثقيل. اسمحوا لي أن أنظر إلى مصابي -كما فعلت أخيرًا، أحمد الله- فأصحو من حلمه الطويل الحزين البائس إلى الفجر.

سافرت لأشهر عديدة حاملًا هذه السحابة القاتمة في وجداني. منعتني بعض الأسباب العمياء من العودة إلى وطني، وقد ظلت تعتمل في داخلي عبثًا حتى تجد لنفسها تعبيرًا أوضح، ومن ثَم رحت أطوف البلدان. كنت أسافر في بعض الأحيان من مكان إلى آخر، في توتر لم يسمح لي بالنزول في أي موضع، وكنت أحيانًا أخرى أمكث طويلًا في مكان واحد. كنت بلا هدف، ولم أشعر بروح في داخلي ترشدني أينما حللت.

كنت في سويسرا، بعد أن تركت إيطاليا، مجتازًا أحد الممرات العظيمة لجبال الألب، وانطلقت منذ ذلك الحين مع أحد المرشدين بين طرق الجبال الفرعية. لست أعرف هل كانت تلك العزلة المفزعة قد أسرت بشيء إلى قلبي أم لا. شعرت بالسمو والإجلال لهذه المرتفعات والمنحدرات الرهيبة، والسيول الهادرة، والأرض المفروشة بالجليد والثلج، لكنني لم أدرك منها شيئًا في تلك اللحظة سوى مظهرها.

وصلت إلى وادٍ في إحدى الليالي قبيل الأصيل، فنزلت به لأستريح. نزلت إليه سالكًا إحدى الطرق المتعرجة بجانب الجبل، بعد أن رأيته يتلألأ أسفلها. أظن أنني أحسست بنوع من الجمال والهدوء، كنت قد فقدتهما منذ عهد طويل. انتابني شعور لطيف أيقظ طمأنينة قلبي فراحت تحركه على مهل بين جوانحي. أتذكر أنني اجتزت المكان مرة واحدة، بمسحة من حزن لم تكن قد فارقتني بعد، لكنني لم أكن يائسًا بالكامل. أتذكر أنني رجوت أن يسري تغيير طيب بداخلي.

وصلت إلى الوادي، حيث شمس المغيب ساطعة فوق قمم بعيدة تعلوها الثلوج التي أحاطت بالوادي كما الغيوم الأبدية بلا نهاية. كانت سفوح الجبال ووديانًا تقع فيها قرى صغيرة خضراء غنية، وقد نمت غابات من أشجار التنوب الداكنة فوق هذا الغطاء النباتي اللطيف، وقد شقت بطولها الجليد البارد فحالت بينها والانهيار الجليدي. لاحت مجموعة من المنحدرات الصخرية فوق الوادي، وتناثرت صخور رمادية مع جليد لامع ومراعٍ خضراء نضرة، امتزجت كلها تدريجيًّا مع الثلج فتوَّجها تتويجًا. لاحت بقعة هنا وأخرى هناك على جانب الجبل، فكانت كل نقطة صغيرة منها منزلًا. كانت عبارة عن أكواخ خشبية منعزلة، تتضاءل أمام الارتفاعات الشاهقة بحيث بدت صغيرة للغاية مثل الدمى، بل لاحت القرية بأسرها مثل لعب متناثرة، وكذلك القرية المتمركزة في الوادي. كان جسرها الخشبي يعلو الجدول الذي يتدفق فوق الصخور المكسورة، ويهدر بعيدًا بين الأشجار. ينبعث من الفضاء الهادئ صوت غناء بعيد، حيث يغني الرعاة، إلا أنني أبصرت ذات مساء

سحابة ساطعة تسبح في منتصف الفضاء بامتداد جانب الجبل، فظننت أن غناءً ينبعث منها، ولم تكن موسيقاه أرضية. أحسست فجأة في هذا الصفاء أن الطبيعة المبجلة تتحدث إليَّ، فتهدهدني لأضع رأسي المتعب على العشب، وإذا بي أبكي بكاء لم أعهده قَطُّ منذ أن ماتت دورا.

وجدت حزمة من الرسائل تنتظرني قبل بضع دقائق، فخرجت من القرية لقراءتها إلى أن يُعد العشاء. كان عدد من رسائل أخرى قد فاتني كذلك، من دون أن أتلقى أيًّا منها منذ عهد طويل. كنت أخط سطرًا أو سطرين، لأقول إنني بصحة جيدة، أو إنني قد وصلت إلى مكان ما، ثم لم أعد أجد عزمًا أو مثابرة لكتابة الرسائل منذ أن غادرت وطني.

كانت حزمة الرسائل بين يدي. فتحتها وقرأت رسالة أجنيس. علمت أنها صارت سعيدة وموفقة فيما كانت ترجوه. كان هذا كل ما أخبرتني به عن نفسها، أما بقية الرسالة فعني.

لم تسدِ إليَّ أي نصيحة، ولم تحثني على أداء أي واجب. أخبرتني بطريقتها الخاصة عن مقدار ثقتها بي. قالت إن رجلًا بطبع مثل طبعي يعرف كيف يُحوِّل البلاء إلى خير، وإنها تعرف كيف ستعمل الأزمات والشجون على تعزيزه وتقويته. كانت متأكدة من أنني على الرغم من الحزن الذي مررت به وعلى الرغم من مصابي، فإنني سأكتسب عاطفة أقوى وأسمى. لقد عظمت من شهرتي التي حققتها وتطلعت إلى زيادتها، وقد عرفت يقينًا أنني سأنميها. كانت تعلم أن الحزن في داخلي لا يمكن أن يكون ضعفًا، بل قوة متقدة. وكما أدت قوة احتمالي أيام طفولتي دورها وقد صرت ما أنا عليه، فإن المصائب الأعظم ستعذبني

وتصقلني حتى أكون أفضل مما كنت. وهكذا، كما علموني يجب أن أعلم الآخرين. أودعتني في يد الله الذي قبض حبيبتي البريئة إلى جوار راحته، وأكدت محبتها الأخوية لي، والتي لم تزل متقدة، وأنها بجانبي دومًا حيثما أريد الذهاب، فخورة بما قمت به، بل أشد فخرًا بما قدر لي فعله.

ألصقت الرسالة بصدري وفكرت في حالي التي كنت عليها منذ ساعةٍ سمعت الأصوات تتلاشى، وأبصرت سحابة الليل الهادئة تتضاءل، وقد تلاشت في عيني كل ألوان الوادي، وانقشع الثلج الذهبي على قمم الجبال حتى صار جزءًا بعيدًا من سماء الليل الباهتة. أحسست أن ظلمة الليل توارت عن خاطري، وأن ظلاله كلها قد صفت، وأنه لم يخلق اسم للحب الذي حملته لها، وقد صارت أعزَّ عليَّ وأحب منذ ذلك الحين من أي وقت مضى.

قرأت رسالتها عدة مرات، وكتبت إليها قبل أن أنام. أخبرتها بأنني كنت في حاجة ماسة إلى مساعدتها، وأنني لولاها لم أكن، بل لولاها لما كنت قَطُّ هذا الإنسان الذي تصفه. لقد ألهمتني أن أكون هذا الرجل وسأحاول أن أكونه.

لقد حاولت. لم يتبقَّ سوى ثلاثة أشهر أخرى حتى أكمل عامًا منذ بداية حزني. عقدت العزم على ألا أتخذ قرارًا حتى تنقضي الأشهر الثلاثة، على أن أستمر في المحاولة. كنت أعيش في هذا الوادي أو أتنقل بجواره طوال الوقت.

قررت بعد مرور ثلاثة أشهر البقاء بعيدًا عن وطني لبعض الوقت،

وأن أستقر في الوقت الراهن في سويسرا، التي صارت عزيزة على نفسي بعد ذكرى تلك الأمسية، فأستأنف الكتابة وأتقدم في العمل.

لجأت إلى نصيحة أجنيس وما أثنت به عليَّ. فتشت عن فطرتي، ولم يكن بحثي عبثًا. اعترفت لقلبي بحق البشرية عليَّ، فاستعدت الإحساس بالواجب بعد أن كنت قد تملصت منه مؤخرًا. لم يمضِ وقت طويل حتى كوَّنت عددًا من الأصدقاء في الوادي، يقارب عدد أصدقائي في يارموث. كنت قد غادرت الوادي قبل حلول الشتاء وذهبت إلى جنيف، ثم عدت إليه في الربيع، فكان لاستقبال الأصدقاء وتحيتهم الودية صوت مألوف على مسامعي، على الرغم من أن كلماتهم لم تكن إنجليزية.

داومت على العمل منذ الصباح وحتى وقت متأخر من اليوم في صبر وجد. كتبت قصة هادفة نابعة من خبرتي، لا من محض الخيال، ثم أرسلتها إلى ترادلز، فقام بترتيب نشرها مقابل مبلغ مجزٍ للغاية بالنسبة لي. بدأت الأخبار المتزايدة عن شهرتي تصل إليَّ من المسافرين الذين أصادفهم. استأنفت العمل بعد قسط من الراحة والتغير بحماستي القديمة، فشرعت في كتابة قصة جديدة، كانت قد استحوذت عليَّ بقوة. رحت أشعر بحماستي تتقد وتزداد مع تقدمي في العمل، وقد استجمعت طاقاتي القصوى لإتمامه بصورة لائقة. كان هذا العمل هو ثالث أعمالي الأدبية. لم أكن قد أتممت كتابة نصفه، حتى فكرت في فترة راحة في أمر العودة إلى الوطن.

عكفت على الدراسة والعمل الدؤوب لفترات طويلة، وعودت نفسي على ممارسة التمارين الرياضية القوية. استعدت صحتي تمامًا

بعد أن عانيت من ضعف شديد حين غادرت إنجلترا. رأيت الكثير، وتجولت بين بلدان شتى، وأرجو أن تكون دائرة معارفي قد اتسعت.

لقد ذكرت هنا كل ما ظننت أنني أرغب في ذكره الآن، عن غيابي ذاك - مع تحفظ واحد، فقد نجحت في البوح بأمري حتى هذه اللحظة، من دون أي قصد إلى قمع أفكاري، لأنني وكما قلت في موضع آخر، قد جعلت من هذا الحكي مدونة لذاكرتي. أردت الاحتفاظ بأكثر أسراري المكنونة وأخطرها، فأسردها حتى النهاية، وها أنا الآن أحفظها. ولا يمكنني اختراق لغز قلبي تمامًا، حتى أعرف متى بدأت التفكير في توجيه آماله وأحلامه البكر إلى أجنيس. لا أستطيع أن أقول، في أي مرحلة من مراحل حزني، بدأت بالتفكير في هذا الأمر، بعد أن بددت في طفولتي المتشردة كنز حبها. لعلني أتصور أنني أضمرت في نفسي شيئًا عن تلك الفكرة البعيدة، فأدركت موقفي وراودتني أفكار بعيدة عن هذه الخسارة التعيسة أو الحاجة إلى شيء لم يتحقق قَطُّ. أما الآن، فقد لاح لذهني عتاب وندم جديدان، حين تركت نفسي حزينًا ووحيدًا في العالم.

ولو أنني قبلتها في ذلك الوقت كثيرًا، لانكشفت خواطري وبحت بضعفي ووحدتي. كان هذا هو مكمن مخاوفي التي دفعتني في أول الأمر إلى الابتعاد عن إنجلترا. إذ لم أكن لأستطيع أن أتحمل فقدان جزء ولو صغير من محبتها الأخوية، ولذلك كان يجب أن أبني قيدًا بيننا يحول دون إحساسي المضمر إلى أجل غير مسمى.

لم أستطع أن أنسى أن المشاعر التي تعاملني بها الآن قد نشأت باختياري ومحض إرادتي الحرة. فإذا كانت قد أحبتني يومًا بطريقة

أخرى - وكنت أتصور أحيانًا أن الوقت قد حان لتفعل ذلك - فإنني من ألقى بهذا الحب بعيدًا، كأنه لم يكن، فلم يعد منه شيء الآن. لقد اعتدت على التفكير فيها حين كنا مجرد أطفال، كما لو أنها فتاة بعيدة عن خيالاتي الجامحة. منحت مشاعري لفتاة أخرى، فلم أقدم على ما كان من الممكن أن أفعله. أما مكانة أجنيس عندي، فكانت من صنيعي وصنيع رأفة قلبها النبيل أيضًا.

في بداية التغيير الذي دب في داخلي تدريجيًّا حاولت أن أفهم نفسي بشكل أفضل وأن أكون رجلًا أفضل مما كنته. تأملت نفسي بنوع من الرصد العام، فعدت بمخيلتي إلى الماضي ورحت أتمنى لو أنني أستطيع إلغاء أخطائي، فأنعم بالزواج منها. إلا أنه مع مرور الوقت، كان هذا الاحتمال الغامض قد تلاشى وابتعد عني. وإذا كانت قد أحبتني في يوم من الأيام، فما عليَّ إلا أن أبجلها، خاصة إذا ما تذكرت ثقتي التي وضعتها فيها، ومعرفتها بضلال قلبي ومكنونه، والتضحية التي قدمتها لتظل صديقتي وأختي، والنصر الذي حققته بالإبقاء على علاقتنا. أما إذا لم تكن قد أحبتني قَطُّ، فهل من الممكن أن أصدق أنها ستحبني الآن؟

لطالما شعرت بضعفي أمام قوتها وثباتها، أما الآن فقد شعرت بضآلتي أكثر من ذي قبل. كنت الأجدر بها، وكانت جديرة بي منذ عهد طويل، أما الآن فلم أعد كذلك. لقد مر الوقت ومضى، فتركته ينقضي وفقدتها واستحققت خسارتها.

لقد عانيت كثيرًا في هذه النزاعات، وامتلأت بالتعاسة والندم، وقد سيطر عليَّ إحساس دائم بأنه من الحكمة والشرف أن أبعد نفسي عن

اللجوء إلى هذه الفتاة العزيزة، وألا أكشف لها عن آمالي الذابلة، بعد أن تحولت عنها بتفاهتي بينما كانت مشرقة وفاتنة - كانت هذه هي فكرتي عنها في الأصل - وهذا كله ما أقررته بصدق. لم أبذل أي جهد لأخفي عن نفسي الآن أنني أحببتها، وأنني كرست روحي لعشقها، لكنني رحت أؤكد لنفسي بأن الأوان قد فات الآن، وأنه لا داعي لأن تتوتر علاقتنا الوثيقة القائمة منذ عهد طويل.

لقد فكرت كثيرًا بين حين وآخر فيما تصورت دورا حدوثه في سنوات لاحقة لنا، لم يشأ القدر أن نجربها معًا. فكرت في أن الأشياء التي لم تحدث قَطُّ، غالبًا ما تصير كالحقائق بالنسبة لنا من حيث آثارها، فتتشابه مع ما عشناه. إن السنوات التي تحدثت دورا عنها تحولت إلى حقائق الآن، فقوَّمتني. كان من المحتمل أن أحيا أيامي هذه مع دورا يومًا ما، ثم نفترق بعد ذلك بقليل مع أولى حماقاتنا. لقد حاولت تحويل علاقتي بأجنيس إلى دافع يستحثني أكثر إلى التفاني، وأن أصير أكثر اجتهادًا، وأكثر وعيًا بنفسي وبعيوبي وأخطائي. وهكذا، من خلال تفكيري في الأمر على هذا النحو، فقد توصلت إلى قناعة تامة بأن الزواج من أجنيس لن يكون أبدًا.

كانت هذه الأفكار، بكل ما حوته من حيرة وتناقضات، هي الرمال المتحركة التي تشغل خاطري، من وقت مغادرتي إلى عودتي إلى الوطن بعد ثلاث سنوات. انقضت ثلاث سنوات على إبحار سفينة بالمهاجرين، عندما وقفت في الساعة نفسها من غروب الشمس، وفي المكان نفسه،

على سطح السفينة التي أعادتني إلى موطني، ناظرًا إلى المياه الوردية حيث رأيت صورة تلك السفينة منعكسة على صفحتها.

إنها ثلاث سنوات طوال في مجملها، وإن كانت قصيرة في حسابات الزمن. كان الوطن عزيزًا جدًّا، وكذلك أجنيس -لكنها لم تكن لي- لم تكن لي قَطُّ، أو لعلها كانت لي في عهد مضى.



مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل التاسع والخمسون

العودة

ذهبت إلى لندن ذات مساء في ليلة خريفية باردة. كان الجو مظلمًا وممطرًا، ورأيت فيما لا يتجاوز الدقيقة الواحدة ثلة من الضباب والطين تفوق ما رأيته على مدار عام كامل. مشيت من مبنى الجمارك حتى وصلت إلى النصب التذكاري من دون أن أعثر على عربة، وعلى الرغم من أن واجهات المنازل لاحت لي بمزاريبها المنتفخة كالأصدقاء القدامى، فإنني لم أستطع تصورها إلا كأصدقاء شديدي القذارة.

لاحظت في كثير من الأحيان -أفترض أن الجميع قد لاحظ الأمر نفسه- أن ابتعاد المرء عن مكان مألوف، يعد إشارة لوقوع تغير فيه، فما إن نظرت من نافذة الحافلة، حتى لاحظت أن منزلًا قديمًا في شارع فيش ستريت هيل الذي لم يمسه نقاش أو نجار أو بناء لقرن من الزمان قد هُدم في غيابي، وأن الشارع المجاور الذي اكتظ بالأوساخ والفوضى قد مُهدت طرقه وتوسعت، ومن ثَم توقعت أن تلوح لي كاتدرائية القديس بولس أقدم وأبلى.

هكذا صرت على استعداد لتقبل بعض التغييرات التي طرأت على مصائر أصدقائي. كانت عمتي قد عادت إلى حياتها في دوفر منذ فترة طويلة، وبدأ ترادلز في التدرب على بعض المرافعات القضائية، في الدورة القضائية الأولى التي أعقبت رحيلي، كما أنه استقر بمكتبه الآن في جرايزان، وأخبرني في رسائله الأخيرة أنه يأمل أن يقترن قريبًا بأعز فتاة في العالم.

كانوا يتوقعون عودتي إلى المنزل قبل عيد الميلاد، ولم يخطر ببالهم أنني سأعود مبكرًا في مثل هذا الوقت، بل إنني قمت بتضليلهم عمدًا، حتى أسعد بمفاجأتهم. كنت على الرغم من ذلك أشعر بنوع من الاستياء وخيبة الأمل لأنني لم أتلقَّ ترحيبًا بوصولي، بل رحت أواصل المسير وحيدًا صامتًا وسط الشوارع الضبابية.

أدخلت المحلات التجارية الشهيرة بأضوائها المبهجة شيئًا من البهجة على قلبي، وكنت قد نزلت عند باب مقهى جرايزان فاستعدت معنوياتي، كما أنني تذكرت بداياتي الأولى - في تلك الفترة التي تختلف فيها حالتي عن حالي الآن - حيث كنت أقيم في فندق الصليب الذهبي، وتذكرت التغييرات التي طرأت منذ ذلك الحين، لكن كان ذلك كله طبيعيًا.

سألت النادل بينما ألتمس الدفء عند الموقد: «هل تعرف أين أجد السيد ترادلز هنا؟».

قال: «إنه في هولبورن كورت يا سيدي. رقم اثنين».

قلت: «أتصور أن السيد ترادلز بات يتمتع بشهرة عالية بين المحامين. أليس كذلك؟».

أجاب النادل: «حسنًا يا سيدي، لعله يتمتع بشهرة يا سيدي، إلا أنني لا أعرف مداها».

كان النادل رجلًا هزيلًا في منتصف العمر، وقد استعان بنادل يتمتع بسلطة أكبر منه، فجاء إليَّ رجل قوي البنية أكبر عمرًا من النادل الأول، يتدلى من وجهه ذقن مزدوج، يرتدي بنطالًا وجوارب سوداء، وقد خرج من مكان أشبه بالمقعد المخصص لرجال الكنيسة من نهاية قاعة القهوة، حيث كان يجلس عند صندوق نقود، وفي يديه دليل وقائمة بأسماء المحامين ووثائق وأوراق أخرى.

قال النادل الهزيل: «إنه يسأل عن السيد ترادلز، رقم اثنين في المحكمة».

لوح النادل الضخم إلى الهزيل بالانصراف، ثم استدار نحوي في وقار.

قلت: «كنت أتساءل عما إذا كان السيد ترادلز الموجود في رقم اثنين في المحكمة، يتمتع بشهرة نامية بين المحامين أم لا؟».

قال النادل بصوت أجش: «لم أسمع اسمه من قبل».

شعرت بالأسف الشديد على ترادلز.

راح النادل العجيب يحملق فيَّ قائلًا: «لا بد أنه شاب، أليس كذلك؟ متى جاء إلى هنا؟».

قلت: «منذ مدة لا تزيد على ثلاث سنوات».

لم يستطع النادل - الذي أتصور أنه عاش في كوخ كنيسته لمدة أربعين عامًا - متابعة مثل هذا الموضوع التافه. فسألني ماذا أحب على العشاء.

أحسست بعد هذا الموقف أنني عدت إلى إنجلترا مرة أخرى، وقد صرت محبطًا مشفقًا على حال ترادلز، وأحسست أنه لا أمل له هنا. طلبت قطعة من السمك وشريحة من لحم مشوي، ثم وقفت أمام النار أفكر في سبب جهل الناس بترادلز.

رحت أتابع النادل بأم عيني، ولم أستطع التوقف عن التفكير في أن الحديقة التي تفتَّح بها تدريجيًّا حتى يصير الزهرة التي هو عليها اليوم، لم تكن سوى أرض بور من الصعب أن ينمو فيها ويترعرع، لقد بدا عليها الكبر، وصارت العروق متيبسة جامدة وموحشة مسنة. ألقيت نظرة خاطفة على القاعة التي اكتست أرضها بالرمال، بالطريقة ذاتها التي افترشت بلا شك بها عندما كان هذا النادل العجوز صبيًّا - إن كان صبيًّا يومًا، وهو ما بدا غير محتمل - ثم نظرت إلى الطاولات اللامعة فرأيت صورتي منعكسة على قلب خشب الماهوجني القديم المصقول، كما عاينت المصابيح التي تخلو من أي شائبة تغبر زجاجها أو تطفئ فتيلها، وأبصرت الستائر الخضراء التي تسر العين، بقضبانها النحاسية النقية، وقد أحيطت بحلقاتها بإحكام، ثم نظرت إلى موقدين كبيرين يتحرق في جوفهما الفحم متوهجًا، ورمقت صفوفًا من الأواني الزاهية كما لو

أنها تعي قيمة أنابيب النبيذ المعتق باهظ الثمن الموجود أسفلها. بدا لي أن إنجلترا والقانون كانا من الصعوبة البالغة بحيث لا يمكن أن تغزوهما العاصفة.

صعدت إلى غرفة نومي لتغيير ملابسي المبتلة، وقد لاحت لي هذه الغرفة الواسعة العتيقة ذات الجدران الخشبية، والقائمة فوق الممر المؤدي إلى الفندق -على ما أذكر- وضخامة الفراش بأعمدته الأربعة المهيبة، والجاذبية التي لا تقاوم للأدراج، وقد بدت أنها تتحد جميعًا عابسة مكفهرة على حظ ترادلز، أو على أي شاب جريء على شاكلته. نزلت مرة أخرى لتناول العشاء، وكان السكون الذي أحاط وقت الطعام يشي بالسمت الغالب على المكان -الذي كان خاليًا من النزلاء، لأن العطلة الرسمية لم تكن قد انتهت بعد- كان كل شيء يبوح بجرأة ترادلز، وآماله المتواضعة في كسب رزقه لمدة عشرين عامًا قادمة.

لم أرَ شيئًا كهذا طوال سفري، لذا فقد تحطمت كل آمالي التي كنت أرجوها لصديقي وتبددت تمامًا. لقد سئم النادل الكبير مني، فلم يعد يقترب مني، بل كرس نفسه لخدمة رجل عجوز يرتدي حذاء طويلًا، بل خيل إليَّ لتر من النبيذ الفاخر قد سعى إليه من تلقاء نفسه من القبو من دون أن يطلب أي شيء. همس إليَّ النادل الآخر فأخبرني بأن هذا الرجل العجوز كان موظفًا متقاعدًا يعيش في الميدان، وأنه يملك قدرًا من المال كان من المتوقع أن يتركه إرثًا لابنة الغسالة، وكذلك ترددت عنه شائعات بأن لديه طاقمًا من الصيني يحتفظ به في صوان مغبر، لم تمسسه يد، كما يمتلك عددًا من الملاعق والشوك الفضية، لم يشهد

منها إنسان في يوم من الأيام سوى شوكة واحدة. أدركت تمامًا في هذه اللحظة أن ترادلز قد ضاع، وتلاشى من خاطري أي أمل له.

كنت متلهفًا لرؤية هذا الصديق القديم العزيز، فأسرعت في تناول العشاء غير مبالٍ على الإطلاق بانطباع النادل الكبير عني، ثم أسرعت خارجًا من الباب الخلفي، فوصلت بعد وقت قصير إلى المبنى رقم اثنين من المحكمة، فأبصرت لافتة على عمود الباب تُعلِمني بأن السيد ترادلز يشغل مجموعة من الغرف في الطابق الأول، ومن ثَم صعدت السلم، فإذا به عتيق مهدم، به ضوء خافت يشع من فتيل قنديل صغير برأس مخلخل، يكاد ضوءه ينعدم داخل زجاجته الصغيرة القذرة.

صعدت إلى الطابق العلوي متعثر الخطى، وقد خيل إليَّ أنني سمعت صوتًا لطيفًا ضاحكًا، ولم يكن هذا الضحك ليصدر من محامٍ أو وكيل أو كاتب محامٍ أو كاتب وكيل، ولكنه ضحك فتاتين أو ثلاث فتيات مرحات. توقفت لسماع هذا الصوت في حين وضعت قدمي في حفرة حيث قام أحد أفراد الجمعية الشرفاء في جرايزان بسد ثغرة من دون وضع لوح خشبي، فسقطت محدثًا جلبة، لكنني ما إن نهضت منتصبًا على قدمَي حتى عاد الصمت.

تلمست طريقي بعناية أكبر في خطواتي التالية فوق السلم، خفق قلبي عاليًا عندما وجدت الباب الخارجي الذي كتب عليه اسم السيد ترادلز، مفتوحًا. طرقت الباب لكن لم أسمع إلا صوت مشاجرة كبيرة في الداخل، فطرقت الباب مرة أخرى وإذا بفتى صغير حاد النظرات

يبدو في هيئة بين الخادم والكاتب يلهث بشدة متقطع الأنفاس، لكنه نظر إليَّ كما لو أنه يتحداني، حتى أثبت بشكل قانوني أنني الطارق نفسه.

قلت: «هل السيد ترادلز موجود في الداخل؟».

«نعم سيدي، لكنه مشغول».

«أريد أن أقابله».

تفحصني الفتى ذو النظرات الحادة للحظة ثم قرر أن يسمح لي بالدخول، وقد فتح الباب على مصراعيه لهذا الغرض. رافقني أولًا إلى ممر صغير يبدو كالحجرة، ثم قادني إلى غرفة جلوس صغيرة، حيث أدركت أنني صرت في حضرة صديقي القديم - الذي كان يلهث أيضًا - وقد جلس إلى طاولة منكبًّا فوق بعض الأوراق.

رفع ترادلز بصره إليَّ ثم صاح قائلًا: «يا إلهي، إنه كوبرفيلد»، واندفع بين ذراعي، فاحتضنته بقوة.

«هل أنت بخير يا عزيزي ترادلز؟».

«إنني بخير يا غالٍ، يا عزيزي كوبرفيلد، ولا شيء سوى الأخبار الجيدة».

بكى كل منا من فرط السعادة.

قال ترادلز بينما يعبث بتجاعيد شعره في حماسته المعهودة، ولم يكن بحاجة إلى هذه الحركة على الإطلاق: «آه يا صديقي الأعز يا كوبرفيلد، يا صديقي الذي أفتقده منذ فترة طويلة وأرحب به أشد الترحاب، كم أنا سعيد برؤيتك! ما أشد اسمرار بشرتك! كم أنا سعيد!

أقسم لك بحياتي وشرفي إنني لم أكن سعيدًا قَطُّ يا حبيبي يا كوبرفيلد كما أنا سعيد الآن».

كنت في حيرة من أمري ولم أستطع التعبير عن مشاعري، أو التحدث بأي صورة من الصور في أول الأمر.

قال ترادلز: «يا صديقي العزيز، لقد صرت ذا شهرة كبيرة، أيها العظيم كوبرفيلد، يا الله! متى أتيت، ومن أين، وماذا كنت تفعل؟».

لم يتوقف ترادلز قَطُّ عن الكلام حتى يحصل على إجابة عن أي شيء قاله، بل أقعدني على كرسي مريح بجوار النار، ومكث طوال هذا الوقت يقلب الجمرات بإحدى يديه، وقد سحب منديل رقبتي باليد الأخرى بشدة متوهمًا أنه معطف رائع، ثم راح يعانقني مرة أخرى من دون أن تترك يده عصا تقليب الجمرات، فعانقته كذلك. جلسنا نضحك ونمسح أعيننا التي اغرورقت بالدموع، ونتصافح بأيدينا فوق نيران الموقد.

قال ترادلز: «تخيل أنك كنت على وشك العودة إلى الوطن كما هي الحال الآن يا غلامي العزيز، ولا تحضر الحفل».

«أي حفل يا عزيزي ترادلز؟».

صاح ترادلز وقد نظر بعينيه على اتساعهما متعجبًا كعادته قائلًا: «رحماك يا ربي! ألم تصلك رسالتي الأخيرة؟».

«بالتأكيد لا، ما دمت تشير إلى حفل لا أعلمه».

نفش ترادلز شعره بكلتا يديه فانتصب فوق رأسه، ثم وضع يديه على ركبتي قائلًا: «يا للعجب يا عزيزي كوبرفيلد، لقد تزوجت».

صرخت في فرح قائلًا: «تزوجت!».

قال ترادلز: «ليبارك لي الله، نعم، لقد تزوجت صوفي في ديفونشير بمباركة القسيس المبجل هوراس، وإنها تقف الآن خلف ستارة النافذة، انظر هناك».

يا لدهشتي! لقد أقبلت أعز فتاة في العالم في تلك اللحظة من مكان اختبائها، ضاحكة وخجلى، وأحسب أنها العروس الأكثر بهجة، وودًا، وصدقًا، ومرحًا، وإشراقًا -إلا أنني لم أستطع المجاهرة بهذا القول حينها- بل لم يشهد العالم فتاة في مثل جمالها قَطُّ. قبَّلتها كما لو أنها أحد معارفي القدامى، وتمنيت لهما الفرح والسعادة من كل قلبي.

قال ترادلز: «يا إلهي، يا لها من صحبة مبهجة! وكم صرت شديد الاسمرار يا عزيزي كوبرفيلد! بارك الله فيك، كم أنا سعيد!».

قلت: «وأنا كذلك».

قالت صوفي ضاحكة وقد احمر وجهها خجلًا: «وإنني بلا شك في غاية السعادة أيضًا».

قال ترادلز: «نحن جميعًا سعداء أقصى سعادة ممكنة، بل إن الفتيات سعيدات أيضًا. يا إلهي لقد نسيتهن».

قلت: «هل تقول نسيتهن؟».

قال ترادلز: «نعم، أقصد الفتيات أخوات صوفي. إنهن يقمن معنا، فقد جئن للتنزه في لندن. والحقيقة أنهن... هل كنت أنت من سقطت عند السلم يا كوبرفيلد؟».

قلت ضاحكًا: «نعم، إنه أنا».

قال ترادلز: «حسنًا، عندما تعثرتَ بالسلم، كنت ألاعب الفتيات، وكنا في الحقيقة، نلعب لعبة «قطة في الزاوية»، ولكن هذه اللعبة غير لائقة تمامًا بمهنتي في وستمنستر هول، فقد توقفن عن اللعب إذ ظننت الفتيات أنك أحد العملاء».

نظر ترادلز إلى باب إحدى الغرف ثم قال: «إنهن بلا شك يصغين إليك الآن».

قلت ضاحكًا من جديد: «إنني آسف، فأنا من جلب هذا الاضطراب».

أجاب ترادلز في سرور بالغ: «أقسم إنك إن رأيتهن يركضن مسرعات ذاهبات ثم عائدات مرة أخرى، بعد أن طرقت الباب، ليلتقطن الأمشاط التي سقطت من شعورهن، ثم مسرعات بدرب من الجنون، لم تكن لتقول شيئًا يا كوبرفيلد. أما أنتِ يا حبيبتي فهلا جئتِ بالفتيات؟».

تسللت صوفي بعيدًا، وسمعناها تستقبلهن في الغرفة المجاورة بضحكات عالية.

قال ترادلز: «إنها أصوات كالألحان حقًّا، أليس كذلك يا عزيزي كوبرفيلد؟ إنها لأصوات مستساغة مستحبة، تضيء هذه الغرف القديمة فيتلاشى ظلامها، ويا لها من بهجة تحيط بذاك العازب البائس الذي عاش -كما تعلم- طوال حياته وحيدًا! يا لها من أصوات ساحرة! ويا للمسكينات! لقد خسرن الكثير بعد زواج صوفي - التي أؤكد لك يا

كوبرفيلد، أنها لم تزل أعز فتاة في العالم - ويسعدني أن أجدهن في مثل هذه السعادة التي تفوق الحدود. إن اجتماع الفتيات شيء ممتع للغاية يا كوبرفيلد. إنه ليس منظمًا مثل اجتماع المهنيين، لكنه ممتع أشد الإمتاع».

لاحظت أنه تلعثم قليلًا، وأدركت أنه، لطيبة قلبه، قد خشي أن يتسبب في إيلامي بما قاله، فما كان مني إلا أن أعربت له عن موافقتي على كلامه بحماسة، فعادت إليه سكينته وسروره البالغ.

قال ترادلز: «لكن لأتحرى الصدق، إن تدابير أمورنا المعيشية غير مرتبة يا عزيزي كوبرفيلد، بل إن وجود صوفي هنا أمر غير مهني، إلا أننا لا نملك مكانًا آخر لنقيم فيه، فعلينا أن نبحر في زورق صغير مضطرب، ولكننا مستعدون لكل الصعوبة التي سنواجهها، كما أن صوفي مدبرة حقًّا بما يفوق الوصف. سوف تتفاجأ من تدبيرها لشؤون هؤلاء الفتيات. إنني بلا شك لا أعرف كيف تقوم بتدابيرها حقًّا».

سألته: «هل يبيت عندكما كثيرات منهن؟».

قال ترادلز بصوت خفيض ليحفظ سره: «إن الكبرى تدعى كارولين، لكنني أناديها بالجميلة، وكذلك سارة هنا، وهي الفتاة التي ذكرت لك أنها تعاني من مرض ما في عمودها الفقري كما تعرف، وقد تحسنت بدرجة هائلة. وهنا الصغرى أيضًا، وهي التي تعلِّمها صوفي. ومعنا أيضًا لويزا».

صحت قائلًا: «أحقًّا ما تقول؟».

قال ترادلز: «نعم. إن مجموع الغرف ثلاث فقط، إلا أن صوفي ترتب الأمر للفتيات بأروع طريقة ممكنة، فينعمن بنومة مريحة قدر الإمكان». وهنا أشار ترادلز بإصبعه فقال: «إن ثلاثة منهن ينمن في هذه الغرفة، واثنتين في تلك الغرفة».

لم أستطع تمالك نفسي من النظر إلى المكان من حولي، بحثًا عن المكان المتبقي لإقامة السيد ترادلز والسيدة زوجته. فهم ترادلز مقصدي، فقال: «حسنًا، إننا معتادان على مثل هذه المصاعب، كما قلت لك للتوِّ، وقد نجحنا في ابتكار فراش في الأسبوع الماضي ننام عليه هنا على الأرض. إلا أن ثمة غرفة صغيرة فوق سطح البناية، وستجد أنها غرفة لطيفة جدًّا عندما تصعد لرؤيتها، وقد أعدَّتها صوفي بنفسها وثبتت ورق الجدران لتفاجئني، فصارت غرفتنا في الوقت الراهن. إنها غرفة صغيرة على الطراز الغجري، كما أنها تطل على منظر جميل إلى حد ما».

قلت: «ها قد نعمت بزواج سعيد بالنهاية يا عزيزي ترادلز، كم أشعر بالسعادة من أجل ما حققته!».

قال ترادلز ونحن نتصافح مجددًا: «شكرًا لك يا عزيزي كوبرفيلد. نعم، إنني أسعد في حياتي بقدر المستطاع». أشار ترادلز بانتصار إلى مزهرية وحامل لمزهرية، ثم قال: «ها هما صاحباك، وها هي طاولة ذات سطح رخامي، أما بقية الأثاث كله فبسيط وعملي كما ترى، وبالنسبة لأدوات المائدة، فالحمد لله، ليست لدينا أدوات كثيرة من قبيل ملاعق الشاي وما شابه».

قلت بسرور: «سوف تجلب كل شيء لاحقًا، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز: «بالضبط، سوف أجلب كل ذلك بمرور الوقت. إن لدينا بالطبع شيئًا ما يشبه ملاعق الشاي، لأننا في حاجة إلى تقليبه، لكنه من معدن بريطانيا[١]».

قلت: «ستصير الملاعق الفضية ألمع بريقًا حين يأتي أوانها».

قال: «هذا بالضبط ما نقوله».

عاد يتحدث بنبرة خافتة سرية مرة أخرى، فاستطرد قائلًا: «كما تعرف يا عزيزي كوبرفيلد أنني ما إن أنهيت مرافعتي في قضية «دودم جايبس وويجزل»، حتى حققت نفعًا كبيرًا في مسيرتي المهنية، فذهبت إلى ديفونشير، وأجريت حديثًا مهمًّا على انفراد مع القس المبجل هوراس. لقد ركزت على حقيقة أن صوفي... - التي أؤكد لك يا كوبرفيلد، أنها أعز فتاة».

قلت: «إنني على يقين من أنها عزيزة غالية».

ابتهج ترادلز قائلًا: «إنها كذلك حقًّا. لكني أخشى أن أكون قد غيرت الموضوع. هل ذكرت لك أمر القس المبجل هوراس؟».

«قلت إنك ركزت على حقيقة أن...».

استطرد ترادلز قائلًا: «هذا صحيح. لقد قلت إنني ركزت على حقيقة أنني وصوفي مخطوبان منذ فترة طويلة، وأن صوفي ارتضت بكل سرور بي بعد موافقة والديها؛ ومجمل القول...». وهنا أضاف ترادلز ابتسامته

---

(١) نوع خاص ورخيص من المعادن يتكون في معظمه من القصدير.

الصريحة المعهودة ثم قال: «إننا مع وضعنا الحالي وملاعقنا المعدنية الرخيصة. حسنًا... لقد عرضت وفقًا لذلك على القس المحترم هوراس - إنه واحد من أفضل الكهنة يا كوبرفيلد، ويجب أن يرقُّونه إلى مرتبة الأسقف، أو على الأقل لا بد من أن ينال ما يكفي معيشته من دون أن يكون في حاجة إلى العيش تحت وطأة الضغوط - أنني إذا استطعت تخطي الأزمة، ولنقُل بتدبر مائتي وخمسين جنيهًا مثلًا في السنة الواحدة، وإذا استطعت أن أشق طريقي إليها بعزيمة جادة، أو إذا استطعت أن أتحصل على مبلغ أفضل في العام القادم، وتمكنت من تجهيز مكان صغير كهذا بأثاث بسيط كذلك، فإنني سأكون جديرًا حينها بالزواج من صوفي. لقد حرصت على أن أخبره بأننا صبرنا لسنوات عديدة، وأن وجود صوفي وخدمتها لأهلها وبيتها لا يجب أن يجعلا والديها الحنونين يقفان في طريق استقرارها في الحياة، ألا توافقني الرأي؟».

أجبت قائلًا: «لا يجب أن يحدث ذلك بالطبع».

ابتهج ترادلز قائلًا: «يسعدني أنك توافقني الرأي يا كوبرفيلد، لأنني أظن أنه بخلاف الدور الذي لعبه القس المبجل هوراس، فإن والديها وإخوتها راحوا يتصرفون بنوع من الأنانية في مثل هذه الظروف. حسنًا، لقد أوضحت للمبجل هوراس أيضًا أن أصدق أمنياتي أن أكون نافعًا للأسرة، وأنني إذا ما تقدمت في مسيرة الحياة، ووقع أي شيء له... إنني أقصد هنا الإشارة إلى القس المبجل هوراس...».

قلت: «نعم إنني أفهمك».

استطرد قائلًا: «قلت إنه إذا وقع أي شيء له أو للسيدة كرولر،

فستكون أقصى أمنياتي أن أصير والدًا للفتيات. وقد أجابني بأكثر الطرق إثارة للإعجاب، إذ أطرى على مشاعري، وتعهد بأن يحصل على موافقة السيدة كرولر على هذا التدبير. لقد قضوا معًا أوقاتًا عصيبة، إذ صعدت من قدميها حتى صدرها ثم صعدت أخيرًا إلى رأسها».

سألته: «ما الذي صعد؟».

أجابني ترادلز بنظرة جادة: «حزنها. لقد أخبرتك قبل ذلك أنها امرأة سامية جدًّا من حيث المشاعر، لكنها فقدت قدرتها على تحريك ساقيها. إن كل ما كان يضايقها قد استقر في قدميها، إلا أن حزنها صعد في هذه الظروف إلى صدرها ثم إلى رأسها، باختصار تغلغل كيانها كله بطريقة تنذر بالخطر. مع ذلك فإنهم استطاعوا أن يساعدوها على استعادة صحتها هذه المرة حيث أولوها عناية حنونة ومستمرة، وها قد مر على زواجنا بالأمس ستة أسابيع. لا يمكنك أن تتصور يا كوبرفيلد كيف أحسست أنني وحش، حين رأيت أفراد الأسرة كلها باكين منهارين بل مغشيًّا عليهم في كل مكان. لم تستطع السيدة كرولر أن تراني قبل أن نرحل عنهم، ولم تستطع أن تسامحني على حرماني لها من ابنتها العزيزة، لكنها إنسانة طيبة، وقد فعلت ما فعلته في الماضي بسبب تأثرها وحسب. وها قد وصلني منها هذا الصباح خطابًا مبهجًا».

«باختصار يا صديقي، إنك تشعر أخيرًا بالسعادة التي تستحقها».

ضحك ترادلز قائلًا: «إنها لمجاملة منك، ولكني فعلًا في حالة أُحسَد عليها. إنني أعمل بكد وأقرأ القانون بنهم. أنهض في الخامسة،

من دون أن أشكو من ذلك على الإطلاق. أخفي الفتيات في النهار، وألعب معهن في المساء. أؤكد لك أنني أشعر بالحزن حقًّا لعودتهن إلى منزلهن يوم الثلاثاء، وهو اليوم الذي يسبق أول يوم في الفصل الدراسي الأول». تغيرت لهجة ترادلز الواثقة فإذا به يتحدث بصوت عالٍ قائلًا: «ها هم الفتيات. هذا هو السيد كوبرفيلد. هذه هي الآنسة كرولر، وهذه الآنسة سارة والآنسة لويزا وماجريت ولوسي».

كن أشبه بصحبة رائعة من الزهور، فبدون يانعات ونضرات وجميلات، وكانت الآنسة كارولين فاتنة للغاية، وإن اتسمت نظرة صوفي بسمات محببة ومرحة وودودة ولطيفة المعشر، مما أكد لي أن صديقي قد أحسن الاختيار. جلسنا جميعًا حول المدفأة، بينما رأيت الفتى حاد النظرات - فهمت أنه كان يلهث حين دخولي لأنه أسرع بإخفاء الأوراق - وقد أحضر لنا الأغراض الخاصة بإعداد الشاي، ثم انصرف ليخلد إلى النوم، بعد أن أغلق الباب الخارجي علينا بعنف. أعدت السيدة ترادلز الشاي لنا بسرور بالغ وهدوء يشع من عينيها، ثم أعدت الخبز في سكينة وهي جالسة في زاوية بالقرب من نار المدفأة.

أخبرتني وهي تعد الخبز أنها قد رأت أجنيس، وأن توم قد اصطحبها إلى كينت في رحلة زفاف، وهناك رأت عمتي أيضًا، وكانتا كلتاهما بخير - أعني أجنيس وعمتي. لم نتحدث عن أي شيء سواي، فقد قالت إنها تظن أن توم لم يبعدني قَطُّ عن تفكيره طوال وقت غيابي عنه. كان توم هو رأس السلطة في كل شيء، فأحسست أنه تشكَّل بوضوح ليصير صنمًا في حياتها، ولم يكن بالإمكان زحزحة قاعدة هذا الصنم

بأي ضجة، فقد كانت تصدقه دائمًا وتوقره بإيمان خالص من كل قلبها، أيًا ما كانت العاقبة.

لقد تأثرت وسعدت لعنايتهما؛ هي وترادلز للأخت الكبرى التي تدعى الجميلة، ولا أحسب أن احترامهما لها أكسبها تبجيلًا، بل أضفى نوعًا من البهجة والسرور، وهما مُكوِّن أساسي من مكونات شخصيتيهما. فإذا ما نسي ترادلز أمر ملاعق الشاي التي لم يحرز ثمنها بعد، فلا شك عندي أنه نسيها لأنه يقدم الشاي إلى الجميلة. وإذا ناهضت زوجته ذات المزاج الرائق أي إنسان، فإنني على قناعة بأنها فعلت ما فعلته لأنها شقيقة الجميلة. لقد لاحظت بعض المؤشرات البسيطة التي توحي بأنها ذات دلال كما أنها متقلبة المزاج بعض الشيء، لكن ترادلز وزوجته اعتبرا سلوك الجميلة حقًّا من حقوقها وهبة طبيعية لها. ولو أنني ولدت لأن أكون ملكة النحل، وكانا هما النحلات العاملات، لما كان بوسعهما أن يشعرا بقدر أكبر من الرضا والسعادة.

لقد فتنت بميلهما إلى إنكار الذات، واعتزازهما بهؤلاء الفتيات، وخضوعهما عن طيب خاطر لرغباتهن؛ تعد أجمل شهادة صغيرة على مكارم أخلاقهما الجلية أمامي. وإذا نودي على ترادلز بكلمة «حبيبي» مرة واحدة في هذا المساء، وطُلِب منه إحضار شيء ما هنا، أو حمل شيء ما إلى هناك، أو رفع شيء ما، أو إنزال شيء آخر، أو حتى إيجاد شيء، أو إصلاح شيء آخر، فقد طُلب منه كل ما سبق بهذا النداء على الأقل اثنتي عشرة مرة في ساعة واحدة.

لم يكن الفتيات يصنعن شيئًا من دون مساعدة صوفي. إذا انسدلت جدائل إحداهن، فليس لأحد أن يصلحها سوى صوفي، وإذا نسيت إحداهن لحنًا من أغنية، فلا يمكن لأحد سوى صوفي أن تدندنها صحيحة. إذا أرادت واحدة منهن أن تتذكر اسم مكان ما في ديفونشير، فإن صوفي وحدها القادرة على تذكره. إذا توجب كتابة رسالة ما إلى العائلة، فإن صوفي وحدها الموثوق فيما ستكتبه قبل إعداد الإفطار في الصباح. إذا أفلتت إحداهن خيطًا في حياكتها، فلا يمكن لأحد سوى صوفي أن يعيد الخيط إلى اتجاهه السليم. لقد كانت الفتيات سيدات المكان بحق، وكان صوفي وترادلز في خدمتهن. لا أستطيع أن أتخيل عدد الأطفال الذين تمكنت صوفي من شملهم برعايتها في وقت واحد! لقد بدت مشهورة بمعرفة مختلف الأغاني التي يمكن أن تغنى لطفل باللغة الإنجليزية، وقد غنَّت عشرات منها صحيحة بأرق الأصوات وأعذبها. غنت واحدة تلو أخرى - كانت كل أخت تطلب من صوفي أغنية مختلفة، بينما كانت الأخت الجميلة آخر من يطلب منهن - الأمر الذي فتنني تمامًا. أما أفضل شيء فكان أنه في وسط كل نزاعاتهن كانت الأخوات يحملن في صدورهن رقة واحترامًا عظيمين لصوفي وترادلز، وإنني على يقين من أنني حين استأذنت في الانصراف، وصحبني ترادلز ليسير معي حتى المقهى، لم أرَ قَطُّ رأسًا عنيدًا مليئًا بالشعر، أو أي رأس مليء بالشعر عمومًا، ينهال عليه مثل هذا السيل من القبلات.

لقد كان مشهدًا لم يسعني إلا أن أستعيده في ذاكرتي بكل سرور لفترة طويلة بعد أن عدت وتمنيت لترادلز ليلة سعيدة. ولو رأيت آلاف الزهور تتفتح على أعوادها في هذه الغرف الماثلة في المبنى

القديم المهترئ المدعو جرايزان، لما أمكن لها أن تضفي عليَّ إشراقًا يضاهي نصف بهجة هؤلاء الفتيات. أما فكرة وجود هؤلاء الفتيات من ديفونشير وسط هذه المؤسسات القانونية الجافة ومكاتب المحامين، والشاي والخبز المحمص، وأغاني الأطفال في هذا الجو الكئيب من الوثائق والبيروقراطية والرقائق المتربة، والمحابر والأوراق المختصرة والمسودات والتقارير القانونية والأوامر القضائية والبيانات والفواتير والتكاليف، بدا الأمر لمخيلتي إجمالًا دربًا من البهجة، كما لو أني حلمت أن عائلة السلطان الشهيرة قد قبلت إدراج أفرادها في قوائم المحامين، وقد جلبت إلى جرايزان الببغاء الناطق والشجرة القادرة على الغناء والمياه الذهبية. أدركت أنني قد ودَّعت ترادلز ليلًا على أي حال، ثم عدت إلى المقهى وقد اعتراني تغيير كبير فيما يتعلق بشعوري بالأسف على ترادلز. فبدأت أفكر في أنه سوف يخطو في هذه الحياة رغمًا عن كبار الخدم في كل فنادق إنجلترا.

قربت مقعدي من المدفأة الموجودة في المقهى ورحت أفكر في حال ترادلز، ولكني تراجعت تدريجيًّا عن التفكير في سعادته، وبدأت أحدق في الفحم المشتعل وأتصور كيف تكسر وكيف تبدلت هيئته، ثم فكرت في التقلبات الجذرية ومواقف الفراق التي تركت أثرًا حقيقيًّا على حياتي. لم أرَ نارًا موقدة بالفحم منذ أن تركت إنجلترا من ثلاثة أعوام، على الرغم من أني تأملت نيرانًا كثيرة موقدة بالأخشاب، فراقبتها حتى صارت رمادًا يختلط بكومة من الريش. أحسست أن هذه الأفكار لا تلائم ما بي من قنوط، ولا توائم آمالي الهالكة.

أستطيع أن أفكر الآن في الماضي بشجاعة ومن دون مرارة الألم، كما يمكنني أن أتطلع إلى المستقبل بروح جسورة. لم يعد لديَّ تصور عن إقامة حياة أسرية في أفضل معانيها، فقد تعلمت أن أعامل الفتاة التي كان يجب أن تكون نبع حب عظيم لي كما الأخت. ستتزوج، وستجد مطالبين جددًا يتلقون حنانها، وبتأدية واجبها تجاههم لن تعرف أبدًا الحب الذي تنامى في صدري لها. كان من الصحيح أن أدفع ثمن عاطفتي المتهورة، وأن أحصد ثمار ما زرعته.

كنت مستغرقًا في التفكير، أقول لنفسي هلا ضبطت قلبي فعلًا لتقبُّل هذا الوضع، فأستطيع برباطة جأش أن أشغل في بيتها الجديد مكانة مطمئنة مثل المكانة التي شغلتها هي في بيتي، وحينها وجدت عينَي تحدقان في وجه ربما قد خرج من النار لارتباطه بذكريات طفولتي المبكرة.

لقد رأيت الطبيب تشيليب الذي أدين له بفضل كبير في الفصل الأول من حكايتي، فإذا به جالسًا يقرأ في صحيفة في ظل زاوية مقابلة لي. كان أثر مرور الأعوام عليه لم يزل مقبولًا في هذا الوقت، ولكن لكونه رجلًا ضئيل البنية لطيفًا ووديعًا وهادئًا، لاح عليه الإنهاك بسهولة. نما في خاطري في تلك اللحظة أنه يجلس على هيئته ذاتها التي جلس بها في حجرة الاستقبال في منزلنا في انتظار أن أولد.

لقد ترك السيد تشيليب بلندرستون منذ ستة أو سبعة أعوام، ولم أرَه قَطُّ منذ ذلك الوقت. جلس بوداعة يقرأ الصحيفة وقد أمال رأسه الصغير جانبًا، يلوح عند مرفقه كأس من النجاشي[١] الدافئ، وقد بدت

(١) مشروب مصنوع من النبيذ يمزج بالماء الساخن والبرتقال، أو الليمون والتوابل والسكر.

عليه ملامح من الرضا، بل بدا كما أنه سيعتذر للصحيفة على جرأته وانخراطه في قراءتها.

ذهبت إليه وقلت: «كيف حالك يا سيد تشيليب؟».

ارتبك بشدة من هذا الحديث المفاجئ الموجَّه إليه من شخص غريب، وأجاب ببطئه المعهود: «شكرًا لك يا سيدي. إنني بخير. أشكرك على لطفك، وأرجو أن تكون بخير».

قلت: «ألا تتذكرني؟».

ابتسم السيد تشيليب بوداعة شديدة، وهز رأسه وهو يلقي عليَّ نظرة متفحصة قائلًا: «أحسب أن شيئًا ما في مظهرك مألوف يا سيدي، لكني لا أستطيع أن أتذكر اسمك تحديدًا».

قلت: «لقد كنت تعرفني قبل أن أعرف نفسي بوقت طويل».

قال: «أحقًّا يا سيدي؟ هل يكون لي الشرف أن أكون قد تلقيتك عندما...؟».

قلت: «نعم يا سيدي».

صاح السيد تشيليب قائلًا: «آه، يا للعجب! ولكن لا شك أنك تغيرت كثيرًا من وقتها، أليس كذلك؟».

قلت: «غالبًا».

«حسنًا يا سيدي. أرجو أن تعذرني لو أنني اضطررت إلى أن أسألك عن اسمك».

لقد تأثر أيما تأثر حين أخبرته باسمي، فصافحني بحرارة، وكانت مصافحة كهذه بمثابة فعل عنيف له، فقد اعتاد على أن يمد يده الصغيرة فيبسطها متجاوزًا عظم فخذه بقليل، كما لو أنها قطعة من سمك ناضج، ومن ثَم يتذبذب مضطربًا حين يتناولها إنسان بين كفيه. أسرع بعد ذلك إلى وضع يده في جيب معطفه فور أن أنهى مصافحته لي، وبدا أنه ارتاح حينما استعادها آمنة.

قال السيد تشيليب بينما يتأملني برأسه المائل: «آه يا سيدي، إن اسمك كوبرفيلد، أليس كذلك؟ حسنًا يا سيدي، أعتقد أنني كنت سأعرفك لو سنحت لي الفرصة لأتمعن وأدقق النظر إليك عن كثب، لأنك تشبه الفقيد والدك إلى حد كبير يا سيدي».

عقَّبت قائلًا: «لم أحظَ بسعادة أن أرى والدي».

قال السيد تشيليب بلهجة ملطِّفة: «صحيح يا سيدي. وإنه لأمر مؤسف للغاية في كل الأحوال». ثم راح يهز رأسه الصغير ببطء مجددًا ليقول: «إن شهرتك لا تخفى عنا في المكان الذي نعيش فيه يا سيدي». نقر بإصبعه على جبهته ثم قال: «إنني أشعر بإثارة كبيرة هنا، ولا بد أنك تجد مهنتك شاقة ومجهدة يا سيدي».

سألته وأنا أجلس بالقرب منه: «أين تستقر الآن؟».

قال: «إنني أعيش الآن على بعد بضعة أميال من بلدة بوري سانت إدموندز. لقد ورثت السيدة تشيليب عن أبيها بيتًا صغيرًا في هذا المكان، فاشتريت عيادة هناك سوف تسعد إن سمعت أنني موفق فيها. كبرت

ابنتي وصارت الآن شابة رائعة طويلة». هز رأسه مجددًا هزة خفيفة، ثم قال: «لقد أرخت والدتها طيتين من ثيابها في الأسبوع الماضي فقط. هكذا يمر الزمن كما ترى يا سيدي».

رفع الرجل الضئيل كأسه الفارغة إلى شفتيه، بينما يحدثني عن هذه الملاحظة الأخيرة، عرضت عليه أن نعيد ملء كأسه مجددًا وأن أبقى معه لمزيد من الوقت، فقال بطريقته البطيئة ذاتها: «حسنًا يا سيدي، هذا كرم يفوق ما اعتدت عليه، لكني لا أستطيع أن أحرم نفسي من متعة الحديث معك. يبدو لي كأنني بالأمس قد تشرفت بعلاجك من الحصبة. لقد تعافيت منها بطريقة ساحرة يا سيدي».

شكرته على هذه المجاملة وطلبت له مشروبه النجاشي وقد أحضره النادل سريعًا. قال السيد تشيليب، وقد استثاره الشرب مجددًا: «يا له من إسراف لم أعتَده مطلقًا! لكني لا أستطيع مقاومة مناسبة استثنائية تمامًا كهذه المناسبة. هل لك أسرة يا سيدي؟».

هززت رأسي نافيًا.

قال السيد تشيليب: «لقد علمت يا سيدي أنك تعرضت لمصاب منذ مدة، وقد عرفت ذلك من شقيقة زوج والدتك. إنها شخصية حازمة للغاية، أليس كذلك يا سيدي؟».

قلت: «نعم، إنها صريحة بما فيه الكفاية، لكن أين رأيتها يا سيد تشيليب؟».

قال السيد تشيليب بابتسامته الهادئة: «ألا تعلم يا سيد أن زوج والدتك قد صار جاري مرة أخرى؟».

قلت: «لا».

استطرد قائلًا: «إنه جاري حقًّا. لقد تزوج شابة من فتيات هذه الناحية تملك بيتًا صغيرًا رائعًا. يا لها من مسكينة! وماذا عن عملك الفكري الآن يا سيد؟ ألا تجده مرهقًا لك؟».

أخذ السيد تشيليب ينظر إليَّ بإعجاب كما لو أنه طائر الحنَّاء[1].

لم أُجب عن هذا السؤال، وعدت إلى الحديث عن عائلة مردستون فقلت: «لقد عرفت أنه تزوج مجددًا. هل ترعى الأسرة صحيًّا؟».

قال: «ليس بانتظام. لقد استدعوني لأمر صحي مرة. لقد تطورت الأمور المتعلقة بمسألة الفراسة والصرامة عند السيد مردستون وأخته يا سيدي».

أجبت بنظرة معبِّرة للغاية حتى إنها شجَّعت السيد تشيليب بصحبة مشروبه النجاشي على أن يهز رأسه عدة هزات مجددًا، وقال مستغرقًا في التفكير: «آه، يا للعجب! إننا نتذكر الأيام الخوالي يا سيد كوبرفيلد».

سألته: «ألا يزال الأخ والأخت يتبعان مسارهما القديم؟».

أجاب السيد تشيليب: «حسنًا يا سيد، حري بطبيب مثلي ينخرط طوال الوقت داخل الأُسر أن يتحلى بالعمى والصمم تجاه أي شيء لا

---

(١) طائر أوروبي يكسو صدره لون برتقالي، معروف بوقفته الجريئة المتصلبة على الأرض، وهو من الطيور التي شاع ذكرها في الأعمال الإبداعية الإنجليزية.

يتعلق بالعلاج، مع ذلك عليَّ أن أقول إنهما شديدا القسوة؛ سواء تجاه ما يتعلق بهذه الحياة أو الحياة الأخرى».

قلت: «أجرؤ على القول إن الحياة الأخرى سوف تنظم من دون الرجوع إليهما، لكن السؤال يكمن في ماذا سيفعلان في هذه الحياة الحاضرة».

هز السيد تشيليب رأسه، وقد استثاره الشراب النجاشي، فرشف منه رشفة، ثم قال بنبرة حزينة: «لقد كانت امرأة فاتنة يا سيدي».

«أتقصد السيدة مردستون الحالية؟».

قال السيد تشيليب: «امرأة فاتنة حقًّا. إنني متيقن من أنها لطيفة بأقصى قدر ممكن من اللطف. ورأي السيدة تشيليب زوجتي هو أنها قد تحطمت تمامًا منذ زواجها، وأنها اليوم مختلة التفكير من شدة الكآبة»، واستطرد السيد تشيليب كلامه بنوع من الفزع فقال: «والسيدات يتمتعن بقدرة عظيمة على المراقبة يا سيدي».

قلت: «أظن أنه توجب إخضاعها وكسرها لتلائم قالب خلقها المقيت. كان الله في عونها. وهذا ما حدث بالفعل».

قال السيد تشيليب: «حسنًا، أؤكد لك أنه في الواقع نشبت مشاجرات عنيفة في البداية، لكنها الآن لم تعد سوى خيالات. فهل أستطيع أن أكتمك سرًّا بأن أقول لك يا سيدي إنه منذ أن جاءت الأخت لتقديم يد العون، كادا معًا أن يتحولا إلى دروب الجنون؟».

قلت له إن بوسعي تصديق الأمر بسهولة.

قال السيد تشيليب مؤازرًا نفسه برشفة أخرى من الشراب النجاشي: «لا أتردد في أن أبوح لك بسر مفاده أن أمها ماتت للسبب نفسه، لأن الطغيان والكآبة والقلق قد جعلوا السيدة مردستون أقرب ما تكون إلى الجنون. كانت شابة تفيض بالحيوية قبل الزواج يا سيدي، إلى أن حطمتها كآبتهما وقسوتهما وعبوسهما، وإنهما يخرجان الآن في مشهد أقرب إلى مراقبة الحارس للسجين. كانت هذه هي ملاحظة زوجتي لي في الأسبوع الماضي. أؤكد لك يا سيدي أن السيدات يتمتعن بقدرة عظيمة على الملاحظة، أما زوجتي نفسها فلها قدرة عظيمة على المراقبة».

قلت: «هل تراه لم يزل يعلن بعبوس - أشعر بالخزي من استخدام هذه الكلمة في مثل هذه المناسبة - أنه متدين؟».

قال السيد تشيليب وقد احمر جفناه سريعًا في علامة على عدم اعتياده الإسراف في الشراب: «إنك تتسرع في توقع الأمور يا سيدي»، ثم أكمل بأهدأ وأبطأ وتيرة ممكنة فقال: «إن واحدة من أكثر ملاحظات زوجتي إثارة للإعجاب، وقد صعقتني حقًّا، هي الإشارة إلى أن السيد مردستون يعلق صورة لنفسه ويطلق عليها: «الطبيعة المقدسة». أؤكد لك يا سيدي أنني قد ذُهلت تمامًا عندما قالت لي زوجتي هذه الجملة. إن السيدات يتمتعن بقدرة عظيمة على الملاحظة، أليس كذلك يا سيدي؟».

قلت: «لا شك في ذلك»، فابتهج لكلامي بشدة.

قال: «كم يسرني أن ألقى موافقة منك على رأيي يا سيدي! أؤكد لك أنه لا يحدث كثيرًا أن أغامر بالتصريح عن رأي خارج مجال الطب. إن السيد مردستون يطلق أحيانًا خطبًا عامة، ويُقال -أو باختصار زوجتي

هي التي قالت ذلك يا سيدي- إنه كلما ازداد الطاغية شرًّا ازدادت عقيدته ضراوة».

«أعتقد أن السيدة زوجتك على حق تمامًا».

أما أقصر الرجال طولًا وأودعهم خلقًا فقد واصل حديثه بشجاعة أكبر قائلًا: «بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول إن ما يطلق عليه الناس بالباطل أنه الدين، ما هو في الحقيقة سوى هوة يمررون من خلالها زهوهم وغطرستهم. أتعلم يا سيدي أنني مضطر إى أن أقول لك...» - وهنا أمال رأسه جانبًا قائلًا: «إنني لا أجد أي تبرير في الكتاب المقدس لما يعتقده السيد مردستون والسيدة أخته؟».

قلت: «ولم أجد تبريرًا له أيضًا».

قال: «إنهما في الوقت نفسه مكروهان للغاية، ونظرًا لأنهما يشعران بقدر كبير من الحرية في إرسال كل من يكرههما إلى جهنم، بل صار لدينا قدر كبير من أبناء حينا في جهنم! مع ذلك يا سيدي، وكما تقول زوجتي، فإنهما يتلقيان عقابًا مستمرًّا، فقد نُفيا داخل أنفسهما ولم يجدا في النهاية إلا أن يلتهما قلبيهما التهامًا، وهما مصدر السوء والشرور نفسه. أما الآن يا سيدي، وفيما يتعلق بعملك الفكري، أرجو أن تسمح لي بالعودة إلى التحدث عنه. ألا يُعرِّضك هذا العمل إلى قدر كبير من الإجهاد؟».

لم أجد صعوبة تُذكر في تحويل انتباه السيد تشيليب عن هذا الموضوع في ظل جرعاته المتتالية من الشراب النجاشي، فحدثته عن

شؤونه الخاصة وقد استمر في ثرثرته حولها لنصف ساعة أخرى تقريبًا. وفهمت من بعض عباراته المبتورة أنه جاء إلى مقهى جرايزان ليقدم شهادته المهنية أمام لجنة متخصصة فيما يتعلق بالحالة العقلية لمريض صار مخبولًا تمامًا من فرط الشرب. قال السيد تشيليب: «إنني أؤكد لك يا سيدي أنني أنفعل وأضطرب للغاية في مثل هذه المواقف. لا أتحمل ما يقولون يا سيدي، كما أن مثل هذه الأمور تفقدني رباطة جأشي تمامًا. أتعلم أني لم أتعافَ إلا من فترة بسيطة بسبب السلوك المخيف لتلك السيدة في ليلة ميلادك يا سيد كوبرفيلد؟».

أخبرته أني كنت في طريقي إلى عمتي «تنين تلك الليلة»[1] في الصباح الباكر، وأنه لو سنحت له الفرصة ليعرفها، لأدرك أنها واحدة من أرق النساء وأفضلهن. لكن يبدو أن فكرة أن يراها مجددًا قد أخافته، فأجاب بابتسامة بسيطة شاحبة ثم قال: «أهي أرق النساء حقًّا يا سيدي، حقًّا؟»، وسرعان ما طلب شمعة، وذهب إلى غرفته كما لو أنه لم يعد يشعر بالأمان في أي مكان آخر، وفي الواقع لم ألحظ أنه يترنح من أثر الشراب النجاشي، ولكنني أظن أن نبضه الهادئ قد زادت دقاته دقتين أو ثلاث دقات في الدقيقة بما يفوق طبيعته منذ تلك الليلة العظيمة التي غضبت فيها عمتي فضربته بقبعتها.

أويت بدوري إلى فراشي بعد أن انتصف الليل وقد أنهكني التعب تمامًا، ثم قضيت نهار اليوم التالي في الحافلة المتجهة إلى دوفر، وما

---

(١) يقصد الإشارة إلى الليلة التي وُلد فيها كوبرفيلد، وقد لاحت العمة للسيد تشيليب كما التنين المخيف.

إن وصلت سالمًا حتى ذهبت إلى عمتي في غرفتها القديمة، وكانت جالسة تحتسي الشاي -صارت ترتدي نظارات الآن- استقبلتني مع السيد دك، والعجوز بيجوتي العزيزة على قلبي -التي صارت مدبرة للمنزل- استقبلتني بذراعين مفتوحتين ودموع من الفرحة. شعرت عمتي باستمتاع كبير حينما بدأنا في الحديث بصفاء عن لقائي بالسيد تشيليب وذكراها المفزعة الباقية في ذاكرته حتى الآن، ثم حكت لي عمتي وبيجوتي الكثير عن الزوج الثاني لأمي المسكينة، وعن تلك المرأة القاتلة أخته، وأحسب أن عمتي لن ترضى بأي ألم أو عقوبة ولن ترضى بأن تطلق عليها اسمًا مسيحيًّا أو دنيويًّا أو أي تسمية أخرى.



الفصل الستون

أجنيس

صرت أنا وعمتي بمفردنا، فتحدثنا طوال الليل، وحكت لي كيف أن المهاجرين لا يكتبون إلى ذويهم في الوطن إلا بفيض من أمل وغبطة، وكيف أن السيد ميكوبر سدد الكثير من المبالغ الصغيرة بالفعل لما أسماه «الالتزامات المالية الرسمية» التي تعامل معها بطريقة منظمة ومرتبة، وكما ينبغي أن تكون التعاملات بين رجل وآخر. تحدثنا أيضًا عن جانيت التي عادت إلى خدمة عمتي في دوفر، وقد نفَّذت أخيرًا وعدها بالابتعاد عن الرجال بالدخول إلى عش الزوجية وزواجها من صاحب حانة ميسور الحال، وكيف تراجعت عمتي في النهاية عن مبدأ نبذ المقبلين على الزواج، فساعدت العروس، وتوجت حفل الزفاف بحضورها. تحدثنا في كثير من الموضوعات التي كنت أعرف أغلبها من الرسائل التي وصلتني، كما أن عمتي لم تنسَ بالطبع السيد دك، فأخبرتني أنه ظل مشغولًا باستمرار في نسخ كل شيء وقعت عليه يده، وكيف أنه أبقى الملك تشارلز الأول على مسافة محترمة بسبب هذا الانشغال، ثم قالت لي كيف أن عمله هذا صار من مسراتها وخير جزاء حياته، إذ صار حرًّا وسعيدًا، بدلًا من رتابة عزلته المستمرة. توصلنا في

نهاية الحديث إلى استنتاج عام مفاده أنه ما من إنسان سواها استطاع كشف جوهره النقي.

قالت عمتي وهي تربت على ظهر يدي بينما كنا جالسين جلستنا القديمة أمام المدفأة: «ومتى تنوي يا تروت أن تعود إلى كانتربري؟».

قلت: «سأحضر حصانًا وأذهب به في صباح الغد يا عمتي، إلا إذا قررتِ أن تأتي معي».

قالت عمتي بطريقتها المختزلة المفاجئة: «كلا، إنني أرغب في الاستقرار هنا».

قلت إنني سأمضي إذن على ظهر الحصان، ولولا رغبتي في زيارتها لما توقفت في كانتربري اليوم.

أسعدها قولي لكنها قالت: «يا تروت، كان بوسع عظامي العجوز أن تبقى إلى الغد»، ثم ربتت برقة على ظهر يدي مجددًا وأنا جالس شاردًا في النار أمامي.

أقول إنني كنت شاردًا، لأنني لم أستطع أن آتي إلى هنا مرة أخرى فأصير بالقرب من أجنيس من دون أن أستعيد هذه الأمور الباعثة على الندم التي شغلتني منذ فترة طويلة. قد تكون حدة الندم قد خفَّت، بعد أن تعلمت ما فشلت في تعلمه حينما كانت حياتي وأنا شاب أمامي بكاملها، لكن بواعث الندم ذاتها لم تَقِل. تخيلت أنني أسمع صوت عمتي تقول لي مرة أخرى: «آه يا تروت، إن الحب أعمى، أعمى، أعمى»، فأحسست أنني قد فهمت الآن معناها وأدركت مغزاها.

ظللنا صامتين لبضع دقائق، ثم رفعت عيني بعدها فإذا بي أجد أن عمتي ظلت تراقبني طوال سكوتي، ولعلها كانت تتابع تيار أفكاري، فقد بدا لي الآن أن متابعته صارت سهلة بعد أن كان عنيدًا عصيًّا من قبل.

قالت عمتي: «ستجد أباها أشيب الرأس على الرغم من صلاح أحواله من بقية النواحي. لقد انصلح حاله، وعادت سمعته الطيبة، وستجده قد كف عن قياس جميع مصالح البشر والأفراح والأحزان بمسطرته الوحيدة البائسة. ثق يا بني أن مثل هذه الأشياء لا بد أن تتقلص كثيرًا قبل أن تقاس بتلك الطريقة».

قلت: «معكِ حق».

استطردت عمتي قائلة: «وستجدها جميلة وطيبة ومتزنة ونزيهة وبريئة كما كانت دائمًا، ولو أنني أعرف مديحًا أكبر يا تروت لوصفتها به».

لم يكن ثمة مديح أكبر لها، ولا توبيخ أشد من هذا التوبيخ لي. آه، كيف ضللت بعيدًا؟!

قالت عمتي بنبرة جادة كادت عيناها تفيضان فيها بالدموع: «لو أنها درَّبت الفتيات اللاتي يتطلعن إلى أن يصرن مثلها، فإنها بتوفيق من الله سوف توظف حياتها على أحسن وجه، بل ستصير نافعة وسعيدة كما قالت لي ذات يوم. وكيف لها أن تصير أي شيء سوى نافعة وسعيدة؟!».

كنت أفكر بصوت عالٍ خلال حديثي فقلت: «هل لأجنيس أي...».

قالت عمتي بحدة: «حسنًا، أي ماذا؟».

قلت: «أي حبيب؟».

صاحت عمتي بكبرياء حادة: «لعل لها عشاقًا كثرًا، وكان من الجائز أن تكون قد تزوجت عشرين مرة خلال سفرك يا عزيزي».

قلت: «لا شك... لا شك في ذلك. ولكن هل لديها أي حبيب جدير بها فعلًا؟ أقصد هل لأجنيس حبيب لا يجعلها تلتفت لأي إنسان سواه؟».

جلست عمتي مستغرقة في التفكير لبرهة، وقد أسندت ذقنها إلى يدها، ثم قالت وهي ترفع عينيها صوبي ببطء: «أظن أنها على علاقة بأحد يا تروت».

قلت: «هل هي علاقة موفقة؟».

عاودت عمتي التحدث بلهجة جادة فقالت: «لا يمكنني أن أبوح بالأمر يا تروت، فليس لديَّ الحق في أن أخبرك بالمزيد، لأنها لم تكشف لي أمرها، لكني أظن أن لها حبيبًا وحسب».

نظرت إليَّ في انتباه وقلق شديدين، بل لقد رأيتها ترعش أيضًا، حتى شعرت في هذا الوقت دون سواه أنها كانت تتابع أفكاري الأخيرة، فاستدعيت كل القرارات التي اتخذتها، وكل ما اعتزمت فعله طوال الأيام والليالي الماضية، واستجمعت كل الصراعات التي اعتملت في قلبي، فقلت: «إذا كان الأمر كذلك، فإنني آمل أن...».

قالت عمتي بحدة: «لست متأكدة مما قلته لك، فلا يجب أن تقيم نتائجك على شكوكي، بل عليك أن تُبقي الأمر سرًّا، فلعل ظنوني واهية،

كما أنني لا أملك الحق في الحديث عن أمر أجهله».

استطردت: «وإذا كانت ظنوني صحيحة، فسوف تخبرني أجنيس في الوقت الذي تراه مناسبًا، لأن إنسانة مثلها وضعتها في منزلة الأخت وأخبرتها بالكثير، لن تتردد في إخباري بمسألة ارتباطها».

أزاحت عمتي نظرها عني بالبطء ذاته الذي نظرت به إلى وجهي من قبل، ثم غطت عينيها بيديها واستغرقت في التفكير. وضعت يدها بعدها بقليل فوق كتفي، وجلسنا معًا ننظر إلى الماضي من دون أن نتفوه بكلمة أخرى حتى افترقنا ليلًا.

انطلقت على ظهر الحصان في الصباح الباكر، متذكرًا مشهد أيام المدرسة القديمة. لا يمكنني أن أقول إني مكثت سعيدًا بالأمل الذي راودني بأن أنتصر على نفسي، وإن كنت أفكر في احتمالية رؤية أجنيس قريبًا جدًّا.

وصلت سريعًا إلى الأرض التي سيطرت على ذهني، فتجولت في الشوارع الهادئة حيث بدا كل حجر أمامي كأنه كتاب صبي. تمشيت إلى المنزل القديم ثم تجاوزته بقلب يخشى الدخول، عدت أدراجي ومررت بالشرفة المنخفضة للغرفة التي اعتاد يورايا هيب الجلوس بها في البداية ثم السيد ميكوبر من بعده، ورأيت كيف صارت حجرة صغيرة الآن، كما اختفى منها المكتب، وفيما عدا ذلك، فقد ظل المنزل الرصين القديم نظيفًا ومنظمًا كما كان حين رأيته أول مرة. طلبت من الخادمة الجديدة التي استقبلتني أن تخبر السيدة ويكفيلد أن سيدًا في انتظارها من طرف صديق في الخارج. قادتني الخادمة إلى السلم القديم الفخم ذاته -تنبهت

إلى خطواتي عند المواضع التي كنت أعرفها جيدًا- وصلت إلى غرفة الاستقبال التي ظلت هي الأخرى على حالها. كانت الكتب التي قرأتها بصحبة أجنيس على رفوفها، والمكتب الذي ذاكرت عليه دروسي لليالٍ عديدة لم يزل في الزاوية القديمة المجاورة للطاولة ذاتها، كما أزيلت كل التغييرات البسيطة التي طرأت على المكان حين سكنه يورايا هيب وأمه، وقد عاد كل شيء إلى سابق عهده كما كان في الأيام الخوالي المبهجة.

وقفت عند النافذة ونظرت إلى الشارع القديم وإلى المنازل المقابلة، متذكرًا كيف كنت أراقب هذه المنازل بعد الظهيرة في أيام مطيرة، حينما أتيت إلى هنا لأول مرة، وكيف اعتدت على تأمل الناس ممن يظهرون أمامي من الشرفات، وكيف تتبعتهم بعيني وهم يصعدون ويهبطون درجات السلم بينما تسير النسء فوق الرصيف مصدرات دقات بأحذيتهن، كما تذكرت الأمطار التي انهمرت في خطوط مائلة، والماء الذي تدفق على طول الطريق. عاودني بقوة الشعور الذي اعتدته حين كنت أراقب الرحل والمتشردين ممن يدخلون إلى المدينة في هذه الأمسيات الرطبة، متعرجين في مشيتهم تحت وطأة الحزم المتدلية على نهايات العصي المحمولة على أكتافهم. تذكرت المكان حين يعبأ برائحة الأرض الرطبة والأوراق والغصون المبللة، وقد عاودني إحساسي بالهواء الذي يهب على وجهي في رحلتي الشاقة.

انفتح الباب الصغير نحو الجدار المزخرف فانتبهت والتفت. التقيت بعينيها الصافيتين الجميلتين بينما تدنو مني، ثم وقفت ومدت يدها، فأمسكت بها بين ذراعي قائلًا:

«يا أجنيس، يا فتاتي العزيزة، لقد فاجأتكِ بمجيئي من دون سابق إنذار».

قالت: «لا، كلا، إنني سعيدة أيما سعادة برؤيتك يا تروتوود».

فقربتها من قلبي، ثم مكثنا صامتين لبعض الوقت. جلسنا بعد ذلك متقاربين وقد أدارت وجهها الملائكي نحوي وقد ارتسمت عليه ملامح الترحاب التي طالما حلمت بها في نومي وصحوي لأعوام طوال.

كم كانت صادقة عذبة وكم لاحت أمامي فائقة الجمال. كنت أكن لها امتنانًا بالغًا، وقد كانت عزيزة على قلبي إلى حد لم أستطع معه التعبير عن مكنونه. حاولت أن أباركها وأدعو لها... حاولت أن أشكرها... ثم حاولت أن أخبرها -كما فعلت كثيرًا في رسائلي إليها- بمدى تأثيرها عليَّ وقوة سلطانها على قلبي، لكن ضاعت كل جهودي سدى، فقد كان حبي وفرحي أبكمين.

هدَّأت أجنيس من اضطرابي بصفائها الرائع، وأعادتني إلى وقت افتراقنا، وتحدثت عن إيميلي التي زارتها سرًّا مرات عديدة، وحدثتني برقة عن شجاعة دورا، وبحس غريزي لا يخطئ لقلبها النبيل لمست أوتار ذاكرتي بأقصى ما يكون من نعومة وتناغم، حتى خيل إليَّ أنني أستمع إلى موسيقى حزينة بعيدة، فأيقظت مشاعري من دون أن أرغب في أن أهرب من ذكرى أثارتها، وكيف أنزوي عنها، وقد امتزجت هذه الأنغام بروحها الغالية، وهي الملاك الذي أرشدني في هذه الحياة؟!

قلت لها بعد فترة قصيرة: «وأنتِ يا أجنيس... حدثيني عن نفسكِ. إنكِ لم تخبريني بأي شيء تقريبًا عن حياتكِ طوال الفترة الماضية».

أجابت بابتسامتها الفاتنة: «وماذا يمكنني أن أقول؟ إن أبي بخير، وإنك لترانا هنا ننعم بالهدوء في منزلنا، بعد أن زالت مخاوفنا واستعدنا منزلنا، وبمعرفة حالنا يا تروت العزيز تكون قد عرفت كل شيء».

قلت: «أهذا كل شيء يا أجنيس؟».

نظرت إليَّ وقد ارتسمت الدهشة على ملامحها.

قلت: «هل ثمة شيء آخر يا أختي العزيزة؟».

بدا وجهها شاحبًا وقد ذبل مجددًا في هذه اللحظة، وابتسمت فلاحت ابتسامتها لي وقد خالطتها لمحة من حزن، وهزت رأسها.

كنت أسعى إلى الحديث معها بما ألمحت به إلى عمتي، فقد كنت متألمًا بشدة من السر الذي أخبرتني به عمتي، فأردت أن أتشجع ومن ثَم كان عليَّ أن أُروِّض قلبي وأنفذ واجبي تجاهها. لكنني أحسست أنها قد شعرت بالضيق، فلم أعاود ذكر هذا الأمر مرة ثانية.

سألتها: «هل أنتِ منشغلة بأمور كثيرة يا عزيزتي أجنيس؟».

أجابتني وهي تنظر إليَّ مجددًا بكل هدوئها المشرق: «أتقصد عملي بالمدرسة؟».

قلت: «نعم. إنه عمل مجهد، أليس كذلك؟».

ردت قائلة: «إن عملي ممتع للغاية حتى إنني لا أستطيع أن أصفه بأنه مجهد».

قلت: «لا يصعب عليكِ أي شيء فيه خير ومنفعة للناس».

أشرق وجهها بالدماء ثم تلاشى لونه مرة ثانية، ثم أبصرت ابتسامتها الحزينة ذاتها بينما تطأطئ رأسها.

قالت أجنيس بوجه باش: «سوف تنتظر حتى ترى أبي وتقضي اليوم معنا، أليس كذلك؟ وربما تنام أيضًا في غرفتك، ما رأيك؟ إننا ندعوها دائمًا غرفتك».

لم أستطع إجابة هذه الدعوة، لأنني وعدت عمتي بأن أعود على ظهر حصاني إليها هذا المساء، لكنني قلت لها إنني سأقضي النهار معهما بكل سرور.

قالت أجنيس: «إنني مضطرة إلى أن أظل سجينة لبعض الوقت، إلا أن الكتب القديمة يا تروتوود، وكذلك الموسيقى القديمة؛ تؤنسني».

تلفت حولي قائلًا: «لم تزل الزهور القديمة هنا، أقصد الأنواع القديمة نفسها».

عاودت أجنيس حديثها مبتسمة: «لقد سرني أن أُبقي على كل شيء في غيابك كما كان حينما كنا طفلين، لأنني أحسب أننا كنا حينها سعيدين للغاية».

قلت: «يعلم الله كم كنا سعيدين!».

قالت أجنيس وهي تنظر بعينيها الحائرتين إليَّ: «كان كل شيء صغير هنا يذكرني بأخي، فكم كان رفيقًا عزيزًا، حتى هذه...»، وهنا أشارت لي إلى سلة صغيرة مليئة بالمفاتيح لا تزال معلقة من أحد جوانبها، ثم قالت: «لا تزال تدندن حين تهتز بأنغام قديمة».

ابتسمتْ مجددًا ثم خرجت من الباب الذي أقبلت منه في البداية.

لم يكن بوسعي سوى الحفاظ على هذه العاطفة الأخوية التي كانت عندي بمثابة الواجب الديني، لأنها كل ما تبقى لي، بل هي كنزي الحقيقي، فلا أستطيع أن أخلخل يومًا أساسات هذه الثقة والعاطفة المقدستين اللتين منحتهما لي، ولا أتخيل ضياعهما، ولن يمكنني استعادتهما مجددًا. وضعت هذا القرار نصب عيني دومًا، وكلما ازددت حبًّا لها، ألزمت نفسي بألا أنساه أبدًا.

سرت في الشوارع، وقد رأيت ذات مرة الجزار؛ عدوي القديم، وقد صار شرطيًّا يعلق شارته في المتجر، وإذا بي أذهب لألقي نظرة على المكان الذي عاركته فيه، وهناك تذكرت الآنسة شيبرد والآنسة لاركنز الكبيرة وكل مشاعر الحب والإعجاب والكره في تلك الأيام، فأدركت أن شيئًا منها لم يستمر على طول هذا الزمن سوى أجنيس، وبدت لي نجمًا ساطعًا يضوي فوق سمائي، ويزداد بهاءً وعلوًّا. عدت مرة أخرى فوجدت أن السيد ويكفيلد قد عاد إلى المنزل من حديقته التي تبعد ميلين تقريبًا عن البلدة، حيث صار يذهب إليها كل يوم تقريبًا ليشغل نفسه، كما أنني وجدته كما وصفته عمتي لي. جلسنا لتناول العشاء وبصحبتنا نصف دستة من الفتيات الصغيرات، ولم يبدُ لي سوى ظل لصورته الوسيمة المعلقة على الحائط.

استعدت مجددًا السكينة والصفاء المرتبطين بهذا المكان القديم في ذاكرتي، وغمرني وانتشت حواسي، أنهينا العشاء، من دون أن يحتسي السيد ويكفيلد شرابه، ولم أرغب في شيء منه كذلك، فصعدنا

إلى أعلى حيث انخرطت أجنيس ورفاقها الصغار في الغناء واللعب والعمل. ما إن شربنا الشاي حتى انصرفت الفتيات وجلسنا معًا نتحدث عن الأيام الخوالي.

قال السيد ويكفيلد بينما يهز رأسه الأشيب: «إن دوري في تلك الأيام الخوالي -كما تعرف يا تروتوود- يبعث على الأسف، بل يدعو للندم الشديد والأسى، ولكنني لن ألغيه وإن كنت مستطيعًا ذلك».

صدقت كلامه، بينما رحت أتلفت ناظرًا إلى الوجه الذي بجانبه.

استطرد قائلًا: «إن كنت قد أوقفت كل ذلك، فإنني كنت سأفقد ذاك الصبر والإخلاص والمثابرة والحب الطفولي. آه، لم أكن لأنساه ولو نسيت نفسي».

قلت بنبرة من لين: «إنني أفهمك يا سيدي، بل وأحترم موقفك وأبجله».

استأنف حديثه قائلًا: «إلا أنه ليس بوسع إنسان - ولا حتى أنت أيضًا - أن يدرك كم قاست وكم عانت. آه يا عزيزتي أجنيس».

وضعت يدها على ذراعه تتوسله أن يتوقف عن الحديث، وقد شحب وجهها للغاية.

تنهد، فأدركت أنه منع نفسه من الحديث عن بعض التجارب التي قاستها، أو التي كانت تقاسيها كما أخبرتني عمتي، ثم قال: «حسنًا، إنني لم أخبرك قَطُّ يا تروتوود شيئًا عن أمها. فهل حدثك أحد عنها؟».

قلت: «أبدًا يا سيدي».

قال: «إنها حكاية قصيرة، وإن صارت المعاناة التي تبعتها شديدة. لقد تزوجتني بعد أن عارضت رغبة أبيها بعدم الزواج مني، فتبرأ منها، ولقد توسلتُ إليه أن يسامحها قبل أن تولد أجنيس وتوجد في هذا العالم، إلا أنه كان رجلًا قاسيًا للغاية، وكانت أمها قد ماتت منذ فترة طويلة. لقد صدها والدها فباتت كسيرة الفؤاد».

أسندت أجنيس رأسها فوق كتفه وأحاطت عنقه بذراعها.

قال: «كان قلبها عطوفًا ورقيقًا، فكسر. لقد عرفتُ طبيعتها الرقيقة العذبة، ولم يتفهمها إنسان مثلي. أحبتني حبًّا جمًّا لكنها لم تسعد يومًا، فقد كانت تعاني دائمًا في الخفاء تحت وطأة هذا الضغط، كما كانت ضعيفة الجسد مكتئبة كذلك في هذه الفترة، خاصة بعد أن تلقت صده الأخير لها، فلم يكن صده هو الأول من طرفه، بل لقد صدها مرات عدة، فذبلت إثر معاناتها ثم ماتت. تركت لي أجنيس وعمرها لم يتجاوز الأسبوعين فقط، كما تركت لي هذا المشيب الذي تتذكرني به حينما أتيت إلى هنا لأول مرة».

قبَّل أجنيس على وجنتها، ثم مضى يقول:

«كان حبي لطفلتي العزيزة حبًّا فائقًا، إلا أنني كنت لم أزل عليل الوجدان. لن أزيد في القول، فأنا لا أتحدث هنا عن نفسي يا تروتوود، بل عن أمها وعنها، وإنني على يقين من أنك ستفهم حقيقة الأمر برمته، إذا أعطيتك أي لمحة عما أنا عليه الآن أو على من كنته في الماضي. ولست في حاجة بالطبع لأن أخبرك شيئًا عن شخصية أجنيس، فقد كنت أقرأ في شخصيتها دائمًا شيئًا من قصة والدتها المسكينة، ولذلك أقول

ما قلته لكما الليلة ونحن الثلاثة مجتمعين مجددًا بعد كل هذه التغيرات التي حدثت، وها قد قلت كل شيء».

أضفى رأسه المحني ووجهها الملائكي وحبها له معاني أكثر تأثيرًا وأعمق مما أدركته عنهما يومًا. أما إن رغبت في شيء أميز به هذه الليلة التي ائتلف فيها الشمل من جديد، لكان هو وحده أفضل ما يميزها.

نهضت أجنيس من جلستها الطويلة إلى جانب والدها، وذهبت بهدوء إلى البيانو وعزفت بعض المقطوعات القديمة التي اعتدنا سماعها كثيرًا في هذا المكان.

سألتني أجنيس وأنا واقف بالقرب منها: «هل تنتوي السفر مجددًا؟».

قلت: «وما رأي أختي العزيزة في ذلك؟».

«أرجو ألا تسافر».

«إذن لا أنتوي السفر يا أجنيس».

قالت بلطف: «أظن أنك لا تنوي ذلك حقًّا يا تروتوود، ما دمت قد سألتني عن رأيي في سفرك. إن شهرتك ونجاحك المتزايدين يدعمان قدرتك على أن تسلك المسار الأصلح، ولو بوسعي أن أستغني عن أخي العزيز...»، وجهت عينيها نحوي بينما أكملت قائلة: «لعل الزمن لا يقدر على الاستغناء عنه».

قلت: «يجدر بكِ أن تعرفي أنكِ صنعتِ ما أنا عليه اليوم يا أجنيس».

«أأنا من صنعك يا تروتوود؟».

قلت بعد أن انحنيت صوبها: «نعم يا أجنيس، يا فتاتي العزيزة، لقد حاولت أن أخبركِ عندما التقينا اليوم شيئًا ظل يراود عقلي منذ أن ماتت دورا. أتذكرين يا أجنيس عندما نزلتِ إليَّ في غرفتنا الصغيرة وأشرتِ لي إلى أعلى؟».

عاودت الحديث وقد امتلأت عيناها بالدموع: «آه يا تروتوود، لقد كانت محبة للغاية، وحسنة الظن بشدة، وفي ريعان الشباب، فهل بوسعي أن أنسى ذلك؟».

قلت: «لم أزل أفكر فيكِ بالصورة ذاتها، فأنتِ بالنسبة لي كما كنتِ بالأمس يا أختي العزيزة، فأراكِ دائمًا تشيرين إلى أعلى يا أجنيس، فترشدينني دومًا إلى الأفضل والأسمى».

اكتفت أجنيس بالإيماءة برأسها، وقد أبصرت خلف دموعها ابتسامتها الهادئة الحزينة ذاتها.

قلت: «إنني شديد الامتنان لكِ يا أجنيس ومدين لكِ إلى درجة لا يمكنني معها التعبير عما يشعر به قلبي تجاهكِ. أريدكِ أن تعرفي، ولا أعرف كيف أخبركِ بهذه المحبة حتى الآن، أني سأظل أعتني بكِ طوال حياتي وأسترشد بكِ كما استرشدت بكِ في أحلك الأيام التي مررت بها، ومهما حدث بعد ذلك، أو أيًا ما كانت علاقاتكِ الجديدة، أو مهما حدث من تغيرات بيننا، فإنني سأظل على استرشادي بكِ وسأبقي على حبي لكِ كما هو حبي لكِ الآن، وكما أحببتكِ دومًا طوال الوقت. ستظلين طوال العمر مصدر قوتي وسلواني كما كنتِ دائمًا، وسأظل دائمًا أراكِ أمام وجهي تشيرين إلى أعلى حتى آخر العمر يا أعز أخت».

وضعت يدها في يدي، وأخبرتني كم هي فخورة بي وبكل ما قلته لها على الرغم من أنها ترى أني تجاوزت في مديحها بما يفوق ما تستحقه، ثم بدأت تعزف برقة، ولكن من دون أن تنحِّي عينيها عني.

قلت لها: «أتعرفين يا أجنيس أن ما سمعته الليلة يبدو لي بصورة غريبة جزءًا من شعوري الذي أحسسته حين رأيتكِ لأول مرة، ويشبه الشعور الذي راودني عندما جلست بجانبكِ في أيام دراستي القاسية؟».

أجابت بابتسامة: «لقد عرفتَ أنني يتيمة الأم، فشعرت بالعطف تجاهي».

قلت: «كان الأمر أكبر من ذلك يا أجنيس، لقد بدا الأمر حينها كما لو أني عرفت هذه القصة برمتها، ومن ثَم أدركت أن شيئًا ما رقيقًا وناعمًا على نحو يتعذر تفسيره يحيط بكِ؛ شيئًا قد يكون باعثًا على الأسى في أي إنسانة أخرى سواكِ، أما الآن، فإنني أستطيع أن أفهم حقيقة هذا الشعور».

واصلت العزف برقة وهي لا تزال تنظر إليَّ.

قلت: «هل تسخرين من تعلقي بمثل هذه الخيالات يا أجنيس؟».

«كلا».

«وهل ستسخرين من قولي بأنني أصدق فعلًا أني شعرت حينها أنكِ ستبقين على المحبة بإخلاص لي وسط كل ما واجهته من إحباط، وأنكِ لن تتوقفي أبدًا عن محبتي كذلك طوال حياتكِ؟ هل ستسخرين من حلم كهذا؟».

«كلا أبدًا... مطلقًا».

ارتسم على وجهها للحظة ظل حزين، لكنه سرعان ما تلاشى، ثم واصلت العزف وهي تنظر إليَّ بابتسامتها الهادئة.

كنت في طريق عودتي في ليل موحش، بينما تهب الريح عليَّ كما الذكرى المضطربة، فرحت أفكر فيما وقع وخشيت ألا تكون أجنيس سعيدة، لأنني لم أكن سعيدًا كذلك، ولكني كنت بحديثي قد وضعت ختمًا على الماضي، فتمثلتها أمامي مشيرة إلى أعلى، وتخيلت أنها تشير إلى أقدار السماء المنبسطة أعلى رأسي، فلعلي أحبها حبًّا لا تدرك الأرض سره، ولعلي مخبرها يومًا بهذا الصراع الذي اعتمل داخلي عندما أحببتها.





الفصل الواحد والستون

نادمان يستحقان الشفقة

استقررت في منزل عمتي في دوفر لفترة من الزمن، حتى أنتهي من كتابي الذي سيستغرق عدة أشهر، فتابعت هناك مهمتي بهدوء، جالسًا عند النافذة التي نظرت منها إلى القمر المنطبع على صفحة المياه، فتذكرت صورته نفسها التي رأيتها حين آواني سقف هذا المنزل أول مرة.

لقد التزمت بما قررته فلم أُشر إلى أعمالي الأدبية إلا حين ارتبطت عرضًا بمسار أحداث حكايتي، ولن أتطرق هنا إلى طموحاتي وأفراحي ومخاوفي وانتصاراتي في مجال الفن، فقد قلت قبل ذلك إني كرست نفسي بحق لهذا العمل وبأقصى ما يكون من جدية، فوهبته طاقة روحي كلها، وإذا كانت ثمة قيمة للكتب التي ألفتها فيما مضى، فسأجد قيمة فيما سأكتبه في المستقبل، وإن انعدمت القيمة فإن ما أكتبه مهدرًا، ولن يلتفت إليه إنسان.

كنت أذهب إلى لندن من حين لآخر، لأترك نفسي هائمًا في دوامة الحياة فيها، أو لأستشير ترادلز في أمر يتعلق بالعمل، وكان في غيابي يُدبر أموري على أفضل وجه، كما صارت أعمالي في ازدهار. كان من مساوئ شهرتي أنها جلبت لي كمية هائلة من الخطابات من أناس لا تربطني بهم أي علاقة، بل كان محتوى الخطابات في الأغلب فارغًا، وتصعب الإجابة عنه، ومن ثَم اتفقت مع ترادلز على أن يعلق اسمي على بابه، مما جعله يستلم من ساعي بريد المنطقة أكوامًا من الخطابات باسمي، ورحت على فترات متقطعة أنكب على فحصها كما لو أنني مدين لأعمال بالوزارة، ولكن من دون أي أجر.

كانت تصلني بين الحين والآخر وسط هذه المراسلات مقترحات من كثير من الدخلاء ممن يتربصون بي في مجلس العموم، فيعرضون عليَّ أن يتدربوا في سلك المحاماة تحت غطاء مستعار مستغلين اسمي، مع الوضع في الاعتبار أن آخذ الخطوات اللازمة المتعلقة بتقييد الأسماء في سجلات الوكلاء، في مقابل حصولي على نسبة من الأرباح، فما كان مني إلا أن رفضت هذه العروض، لأنني كنت واعيًا بوجود كثيرين من هؤلاء المتدربين المنتحلين، وأن حال مجلس العموم صار مزريًا فلا حاجة لاقتراف مزيد من السوء.

عادت الفتيات إلى منزل والدهن بعد أن اشتهر اسمي على باب ترادلز، وظل الفتى حاد الملامح متواريًا طوال اليوم، كما لو أنه لم يسمع قَطُّ عن صوفي، فانزوى في غرفة خلفية، خافضًا عينيه عن عمله، ناظرًا إلى شريط قاتم صغير من الحديقة يحوي مضخة. كنت أجد صوفي

في صورة ربة المنزل المشرقة دومًا، وإذا بها تدندن طوال الوقت أغاني ديفونشير حينما لا تتناهى إلى أذنيها أصوات أقدام غريبة تصعد السلم، فتُهدِّئ بعذوبةِ صوتِها هذا الفتى حاد الملامح المنزوي في غرفته.

تعجبت في بداية الأمر حين كنت أرى صوفي تكتب في أحد الدفاتر أحيانًا، واندهشت حين لاحظت أنها تغلق الدفتر دائمًا حين تشعر بوجودي ثم تسرع إلى مواراته في الدرج، لكن سرعان ما عرفت السر، فقد عاد ترادلز ذات يوم من المحكمة إلى المنزل وسط قطرات المطر المنهمرة الباردة، ثم أخرج من مكتبه ورقة، وسألني عن رأيي في هذا الخط. صاحت صوفي، وقد كانت تجفف نعلي ترادلز أمام المدفأة: «آه، لا تفعل ذلك يا توم».

قال توم مبتهجًا: «ولمَ لا يا عزيزتي؟»، ثم التفت إليَّ مستطردًا: «ما رأيك في هذا الخط يا كوبرفيلد؟».

قلت: «إنه خط منمق وبديع وغير تقليدي، ولا أحسب أني رأيت خطًّا بهذه الدقة من قبل».

قال ترادلز: «وهل يبدو الخط لامرأة؟».

كررت: «أتقصد أنه خط امرأة؟ إن خطوط النساء لا تكون إلا أشبه بالطوب والقذائف».

انخرط ترادلز في نوبة ضحك مجلجلة، وأخبرني أنه خط صوفي، وأنها أقسمت وأعلنت أنه سيحتاج إلى ناسخ قريبًا وأنها ستصير هذا الموظف، وأنها أتقنت هذا الخط بعد تقليد إحدى العينات، وأنها سوف

تنتهي بسرعة من نسخ... لقد نسيت عدد الأوراق التي قالت إنها سوف تنجزها في الساعة. كانت صوفي مرتبكة جدًّا بعد أن أخبرني ترادلز بالأمر كله، وقالت إنها لم تكن مستعدة للإعلان عن هذا الأمر لولا أن توم قد عين نفسه قاضيًا، إلا أن توم عارضها مؤكدًا أنه سيفخر دائمًا بها في مختلف الظروف والمناسبات.

قلت ضاحكًا بعدما انصرفت صوفي: «يا لها من زوجة صالحة وفاتنة بكل معنى الكلمة يا عزيزي ترادلز!».

قال ترادلز: «يا عزيزي كوبرفيلد، إنها أعز فتاة بلا استثناء. ويا لطريقتها البارعة التي تدير بها هذا المكان، ودقتها ومعرفتها بوسائل إدارة المعيشة واقتصادها وترتيبها ومرحها... آه يا كوبرفيلد».

قلت: «معك كل الحق في كل ما مدحتها به. ويا لك من رجل سعيد محظوظ به، وإنني على يقين من أنكما ستسعدان معًا، وسيحرص كل منكما على أن يصير الآخر أسعد إنسان في هذا العالم».

أردف ترادلز قائلًا: «إنني على يقين من أننا اثنان من أسعد الناس، وإنني لأعترف بذلك في كل الظروف. كم أشعر بالغبطة كلما رأيتها تنهض حاملة الشمعة في تلك الصباحات الغائمة، منشغلة بتلبية احتياجات اليوم، فتذهب إلى السوق قبل حضور الموظفين إلى مكاتبهم، غير مبالية بسوء الطقس، كما أنها تبتكر وجبات العشاء الصغيرة من أبسط المكونات، فتصنع الحلوى وتعد الفطائر، وتضع كل شيء في مكانه الصحيح، كما تحافظ على أناقتها وزينتها دائمًا، وتنهض ليلًا معي مهما كان الوقت متأخرًا، فإذا بها مبتهجة ومشجعة دومًا! فلا

أستطيع أحيانًا أن أصدق أنها تفعل كل هذا لأجلي أنا يا كوبرفيلد».

لاح مسرورًا بينما ارتدى نعليه اللذين كانت تُدفِّئهما أمام المدفأة، وقد مد ساقه ليسندهما إلى سياج المدفأة باستمتاع بالغ.

قال ترادلز: «لا أستطيع أحيانًا أن أصدق ما حدث فعلًا، فيا لها من ملذات أسعدتنا! إن سعادتنا لا تكلفنا ثمنًا باهظًا يا عزيزي، لكنها مدهشة ورائعة، فحين نكون هنا في المنزل في المساء فنغلق الباب الخارجي ونسدل هذه الستائر التي خاطتها بنفسها، فأي مكان آخر سوى منزلنا ننعم فيه براحتنا وسكينتنا؟ أما حين يصفو الجو فإننا نخرج للمشي معًا في المساء، فنجد الشوارع تفيض بالمتعة والبهجة لوجودنا. ننظر عبر واجهات المتاجر الزجاجية الراقية التي تبيع المجوهرات، فأسأل صوفي أيًا من الحيَّات ذات الأعين الماسية الملتفة حول نفسها، وقد ثبتت فوق حامل من حرير أبيض، تحب اقتناءها إذا كنت سأشتريها لها؟! تريني صوفي الساعات الذهبية ذات الغطاء المرصع بالجواهر، ذات العقارب التي تدور آليًا، فتسألني أيًا منها أحب أن تشتريها لي إذا ما استطاعت شراءها؟! نختار مختلف الأغراض من ملاعق وشوك وأدوات السمك وسكاكين الزبدة وملاقط السكر التي نفضلها معًا، فنتصرف كما لو أن بوسعنا تحمل كلفتها، ونتخيل أننا اشترينا كل ما اخترناه فعلًا! نمشي في الميادين والشوارع الرئيسة فنرى منزلًا معروضًا للبيع فنلقي عليه نظرة أحيانًا، ونتساءل كيف سنُقسِّم ذاك المنزل لو أنني صرت قاضيًا، ثم نشرع في تقسيمه بالفعل، فهذه الغرف ستكون للبنات وتلك لفلان وهكذا، إلخ، حتى نتوصل إلى ما إن كان منزلًا كهذا

سيرضينا أم لا. نشتري تذاكر مخفضة أحيانًا فنجلس في صحن المسرح الذي تنبعث منه الروائح، إلا أننا نستمتع حقًّا بمشاهدة المسرحية، حتى تتأثر صوفي بالمسرحية مصدقة كل كلمة فيها، كما أصدقها تمامًا. أما في طريق عودتنا إلى المنزل فإننا قد نشتري شيئًا قليلًا من أحد المطاعم أو بعض المحار من بائع السمك فنعد هنا عشاءً شهيًّا رائعًا، ونتحدث عما شاهدناه في رحلتنا. يمكنك الآن أن ترى يا كوبرفيلد أنني لو كنت رئيسًا للوزراء لما استطعت فعل ذلك كله».

قلت في نفسي: «بل كنت ستفعل ما تريد أينما كنت يا عزيزي ترادلز». ثم قلت له في صوت مرتفع: «يا للطفك كم أنت ممتع، هل ترسم الهياكل العظمية حتى الآن يا ترادلز؟».

قال ترادلز ضاحكًا وقد احمر وجهه: «لا يمكنني أن أنكر أني لم أزل أرسمها إلى الآن يا عزيزي كوبرفيلد. فقد جلست في أحد المقاعد الخلفية منذ بضعة أيام في محكمة الملك، ممسكًا بقلم في يدي، فوددت أن أجرب إذا ما كنت محتفظًا بهذه المقدرة أم لا، وأخشى أن يكون قد خيل إليَّ أنني أبصر هيكلًا عظميًّا ذا شعر مستعار على حافة منصة القضاء».

ضحكنا بصدق من قلوبنا، ثم نظر ترادلز نحو نار المدفأة مبتسمًا وقد لاح عليه التأثر، بينما يردد بتسامحه المعتاد: «آه يا كريكل العجوز».

لم أستطع قَطُّ مسامحة هذا الرجل على الطريقة التي كان يضرب بها ترادلز وإن رأيت ترادلز مستعدًّا لمسامحته، فقلت: «لقد وصلني خطاب من هذا النذل العجوز».

تساءل ترادلز: «أتقصد رسالة من الناظر كريكل؟ أحقًّا ما تقول؟».

قلت له بينما أقلِّب في رسائلي: «إنه واحد من الناس الذين انجذبوا إليَّ بعدما ارتفع شأني وزادت شهرتي وذاع صيتي، واكتشفوا أنهم كانوا دائمًا منجذبين لي بشدة. إنه لم يعد الآن ناظرًا يا ترادلز، بل تقاعد، وإنه الآن قاضٍ في مقاطعة ميدلسكس».

كنت أحسب أن ترادلز سيتفاجأ من سماع هذه الأنباء، لكنه لم يُبدِ أي اندهاش مطلقًا.

قلت: «كيف تظن أنه وصل إلى هذا المركز؟».

أجاب ترادلز: «يا للعجب! كم من الصعب أن أجيب عن هذا السؤال، إذ لعله انتخب واحدًا من أعضاء البرلمان هناك، أو أقرض شخصًا ما مالًا، أو اشترى شيئًا من أحد، أو لعله قدم خدمة إلى شخص ممن له قرابة بالمحافظ في هذه المقاطعة، فرشحه لهذا المنصب».

قلت: «في كل الأحوال لقد صار في هذا المنصب، وقد كتب إليَّ هنا أنه سيسعد لو أراني على أرض الواقع نظامه الفعال الوحيد للانضباط داخل السجن، وطريقته الفريدة غير القابلة للتحدي للإصلاح والتهذيب، وهي كما تعرف طريقة الحبس الانفرادي. فما رأيك؟».

قال ترادلز وقد بدت عليه الشجاعة: «أتقصد رأيي في هذا النظام؟».

«كلا، بل أقصد رأيك في قبول العرض. هل ترغب في الذهاب معي؟».

قال ترادلز: «لا مانع عندي».

«سأعلمه بالموافقة على دعوته إذن، لكنني لا أريد أن يشوب اتفاقنا شيء، فأود أن أتأكد من أنك لم تزل تذكر أنه كريكل ذاته الذي طرد ابنه من بيته، وتصور أنه قد اعتاد فعل الأمر نفسه مع زوجته وابنته».

قال ترادلز: «نعم أتذكره تمامًا».

قلت: «إنك إن قرأت خطابه، فستجده أرق الناس في معاملته للسجناء ممن أدينوا بمختلف أنواع الجرائم، لكنني لا أستطيع أن أتلمس رقته على أي صنف آخر من المخلوقات».

هز ترادلز كتفيه، ولم يبدُ متفاجئًا على الإطلاق، لم أكن أتوقع منه أن يندهش، بل إنني لم أتفاجأ مطلقًا، وإلا كانت ملاحظتي لأمور أخرى ساخرة في الحياة أمرًا هزيلًا وغير كافٍ. رتبنا موعد الزيارة، ثم كتبت إلى السيد كريكل في تلك الليلة لأعلمه بالموعد.

انطلقنا في اليوم المحدد -وأظن أنه كان اليوم التالي مباشرة، وهذه تفصيلة غير مهمة- فذهبت أنا وترادلز إلى السجن الذي كانت للسيد كريكل فيه مكانة وسلطة. كان السجن عبارة عن بناية هائلة وصلبة تكلف بناؤها مبلغًا كبيرًا. ما إن اقتربنا من البوابة، حتى لم أستطع منع نفسي من التفكير في الضجة الهائلة التي قد تحدث في البلدة إذا اقترح إنسان إنفاق نصف المبلغ الذي أنفق على تشييد هذا البناء، في تشييد مدرسة صناعية للشباب أو ملجأ للعجزة المحتاجين.

التقينا بمعلمنا القديم في مكتب تم تصميمه على نطاق واسع، يصلح لأن يكون أحد مكاتب الدور الأرضي ببرج بابل. وقد لاح

معلمنا القديم وسط مجموعة مؤلَّفة من رجلين أو ثلاثة رجال من أنشط المأمورين بالسجن، بالإضافة إلى بعض الزوار الذين أحضروهم أمامه. استقبلني السيد كريكل استقبال من له الفضل في تشكُّل عقلي في السنين الماضية، كما لو أنه طالما أحبني أو عاملني بلطف دائم. قدمت له ترادلز، فتصرف السيد كريكل معه بطريقة مشابهة ولكن بدرجة أقل، فتعامل كما لو أنه المعلم الأبدي، والفيلسوف المرشد. كان معلمنا الموقر قد شاخ وتقدم به العمر فلم يتحسن مظهره، بل كان وجهه متقدًا كما عهدناه دائمًا، وعيناه صغيرتين ضيقتين، بل قد صارتا غائرتين أكثر من أي وقت مضى، أما رأسه الأشيب الندي الهزيل فظل كما أتذكره تقريبًا، إلا أن الأوردة الدموية السميكة في رأسه الأصلع قد لاحت أشد قبحًا من ذي قبل.

بدأنا جولتنا الاستكشافية بعد أن تبادل هؤلاء السادة بعض الأحاديث، والتي قد تشي بأنه لا يوجد في هذا العالم ما يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار سوى توفير الراحة القصوى للسجناء بأي ثمن، وأنه ما من شيء على هذه الأرض الواسعة يمكن فعله خارج أبواب هذا السجن.

بدأت جولتنا مع موعد تناول العشاء، فاتجهنا أولًا إلى المطبخ الكبير حيث يحصل كل سجين على طعامه في زنزانته الانفرادية، بكل دقة وانضباط كما عقارب الساعة. تنحيت بترادلز جانبًا وقلت له إنني لأعجب! هل شعر أي إنسان هنا بالتناقض الصارخ بين هذه الوجبات الوفيرة المختارة بعناية وبين وجبات العشاء التي تُقدَّم، لن أقول للمحتاجين، بل للجنود والبحارة والعمال وأغلب أطياف المجتمع من

العمال الأمناء، ممن لا نجد فيهم واحدًا من وسط خمسمائة يستطيع أن ينال مثل هذا العشاء الطيب. أدركت باختصار أن هذا النظام قد ترسخ في عقلية الناس، بعد أن بدد جميع الشكوك حوله وسد ذرائع أغلب العيوب، كما لم يتصور أي إنسان إمكانية تحقيق أي نظام سواه.

رحنا نتجول في بعض الممرات الفخمة، فسألت السيد كريكل وأصدقاءه عن الميزات الرئيسة المرجوة من هذا النظام الشامل والمحكم. عرفت منهم أن الميزة الرئيسة هي العزل الكامل للسجناء، بحيث لا يعرف أحد منهم هنا شيئًا عن الآخر، وتحويل السجناء إلى حالة عقلية سليمة تفضي بهم إلى الندم والتوبة الخالصة.

صُعِقت حين بدأنا زيارة بعض الأفراد في محبسهم. رحنا نجتاز الممرات التي تفضي إلى هذه الزنازين، وقد أوضحوا لنا أن الذهاب إلى الكنيسة أو ما إلى ذلك قد يوفر احتمالية قوية لأن يتعرف كل سجين على الآخر، وأن يؤدي الأمر إلى قدر كبير من التواصل بينهم. وإلى الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات الآن، فقد ثبت أن الأمر على هذا النحو، ولكن بما أن التلميح بأمور تتعلق بذهاب السجناء إلى الكنيسة قد يكون بمثابة تجديف على قداسة النظام، فإنني منعت نفسي عن خوض الحديث في الأمر، وأقررت إذن بإمكانية التوبة بجدية.

راودتني هنا مجددًا شكوك عظيمة، فقد وجدت أشكالًا سائدة من التوبة تبدو كأزياء على آخر صيحة يتركها المرء بالخارج سواء كانت معطفًا أو صدرية كالمعروضة في واجهات متاجر الأزياء، كما وجدت هنا قدرًا هائلًا من الاعترافات بلا اختلاف حقيقي بين أشكالها إلا بنزر

يسير، بل ليس ثمة فوارق بينها إلا في مسمياتها -وهو أمر مريب للغاية- كما عاينت كثيرًا من الثعالب التي تفسد الكروم، خاصة إن تعذر الوصول إلى ثمارها[1]، لكني وجدت عددًا قليلاً من الثعالب يجدر بالمرء أن يثق بها ضمن هذه المجموعة. وعلاوة على ذلك وجدت أن أكثر السجناء اعترافًا بخطاياهم، هم أكثرهم إثارة للاهتمام، إذ كان خداعهم وخيلاؤهم وحاجتهم إلى الإثارة وحبهم للخداع -وهي صفات شائعة في أغلبهم بما يفوق الخيال- صفات مكتسبة تلقنوها إثر الاعتراف، وصاروا جميعًا سعداء بالتحلي بها.

سمعت أقوالًا شتى في أثناء جولتنا في المكان عن السجين رقم سبعة وعشرين، فقد كان أفضل السجناء، وقد بدا فعلًا أنه يمثل السجين النموذجي، إلا أنني قررت أن أرجئ حكمي عليه حتى أراه. وعلمت أيضًا أن السجين رقم ثمانية وعشرين نجم ساطع هو الآخر، ولكن من سوء حظه أن خفتت أمجاده بعض الشيء بعد حضور السجين رقم سبعة وعشرين، صاحب الوهج غير الاعتيادي. هكذا سمعت حكايات كثيرة للغاية عن السجين رقم سبعة وعشرين وعن مدى ورعه ونصائحه التي يسديها إلى كل من حوله، وعن خطاباته البديعة التي يكتبها باستمرار لوالدته، والتي بدا أنه ينظر إليها بعين السوء، حتى إني لم أعد أطيق صبرًا على رؤيته.

كان عليَّ أن ألجم نفسي فأتحلى بالصبر لبعض الوقت، لأنهم

---

(١) صورة مستقاة من سفر نشيد الأنشاد: «خُذُوا لَنَا الثَّعَالِبَ، الثَّعَالِبَ الصِّغَارَ الْمُفْسِدَةَ الْكُرُوم، لأَنَّ كُرُومَنَا قَدْ أَقْعَلَتْ» (٢:١٥). وهي إشارة إلى إفساد التوبة بالشر.

ادخروا مقابلتي للسجين رقم سبعة وعشرين إلى ختام جولتي، ومن ثَم وصلنا في نهاية المطاف إلى باب زنزانته، راقبه السيد كريكل عبر ثقب صغير في الباب، ثم قال لنا بنبرة إعجاب شديد إن السجين يرنم من كتاب التراتيل.

تدافعت الرؤوس على الفور لترى السجين رقم سبعة وعشرين بينما يرنم من كتاب التراتيل، حتى انسد الثقب الصغير تمامًا بتدافع ستة رؤوس أو سبعة. تطلب علاج هذه المشكلة، بإعطاء الفرصة لنا للتحدث مع السجين رقم سبعة وعشرين وهو في كامل خشوعه، ومن ثَم أمر السيد كريكل بفتح الباب ودعوة السجين رقم سبعة وعشرين إلى الخروج إلى هنا حيث هذه الردهة. نفذت الأوامر، وكم كانت دهشتنا الشديدة أنا وترادلز إذ لم يكن السجين رقم سبعة وعشرين سوى يورايا هيب!

عرفناه على الفور، وإذا به يقول بينما يقترب منا ملتويًا بطريقته القديمة ذاتها: «كيف حالك يا سيد كوبرفيلد؟ وكيف حالك يا سيد ترادلز؟».

أثارت معرفته بنا إعجابًا عامًّا وسط الحاضرين، بل إني ظننت أن جميعهم قد دهشوا إذ لم يتحلَّ هذا السجين أمامهم بكبريائه المعتادة بل كان هو من توجه إلينا أولًا.

قال السيد كريكل وهو يغالب دموعه من فرط إعجابه بالسجين: «حسنًا يا سبعة وعشرون، كيف حالك اليوم؟».

أجاب يورايا هيب: «إنني متضع للغاية يا سيدي».

قال السيد كريكل: «إنك لمتواضع دومًا».

وهنا سأل سيد آخر بقلق بالغ: «هل تشعر بالراحة الكافية؟».

قال يورايا هيب ناظرًا تجاهه: «نعم، شكرًا لك يا سيدي، بل إني أشعر هنا براحة تفوق ما شعرت به في الخارج، وبوسعي أن أدرك حماقات ارتكبتها يا سيدي، وهذا ما يُشعرني الآن بالراحة».

تأثر الحاضرون من إجابته، وسرعان ما شق شخص ثالث طريقه إلى الأمام وسأل بانفعال مفرط: «ما رأيك في طعم اللحم هنا؟».

أجاب يورايا هيب ناظرًا إلى الاتجاه الجديد الذي أتاه الصوت منه: «شكرًا لك يا سيدي. كانت قطعة اللحم بالأمس أصلب مما وددت، ولكن من واجبي أن أتحمل». استطرد يورايا هيب كلامه ناظرًا إلى من حوله وقد اعتلت وجهه ابتسامة خانعة: «لقد ارتكبت حماقات أيها السادة، وعليَّ أن أتحمل العواقب من دون تذمر». صدرت همهمة من الحاضرين بسبب شعورهم بالرضا عن حالة الصفاء الملائكية التي وصل إليها السجين رقم سبعة وعشرين، وكذلك بسبب سخطهم على المتعهد الذي تسبب في شكوى السجين، وهي ملاحظة أدلى بها السيد كريكل على الفور لتؤخذ بعين الاعتبار. وقف السجين رقم سبعة وعشرين وسطنا كما لو أنه شعر بأنه هدف له جدارة العرض وسط متحف للمواهب الغالية. ونظرًا لأننا نحن المبتدئين قد نعاني من فرط نور الإيمان الذي يشرق عليهم فجأة، فقد أصدر السيد كريكل أوامره بإحضار السجين رقم ثمانية وعشرين.

انتابتني دهشة عارمة في بداية الأمر، ثم شعرت بنوع من الاستسلام العجيب حينما ظهرت المفاجأة الثانية، حيث تقدم السيد ليتيمر بينما يتلو شيئًا من كتاب الصالحين.

تحدث سيد يرتدي نظارة لم يكن قد شارك في الحديث من قبل، فقال: «يا ثمانية وعشرون، لقد شكوت في الأسبوع الماضي يا صديقي الطيب من مشروب الكاكاو، فكيف صارت الأمور بعد شكواك؟».

قال السيد ليتيمر: «شكرًا لك يا سيدي. لقد تحسن مذاقه للأفضل بالفعل. ولو تسمح لي يا سيدي بأن أقول إنني أظن أن اللبن المغلي به مغشوش، لكني أعلم جيدًا يا سيدي أن عمليات غش اللبن في لندن واسعة النطاق، ومن الصعب توفير لبن سليم تمامًا».

بدا لي أن السيد ذا النظارات يدعم السجين رقم ثمانية وعشرين، وأنه ضد السجين رقم سبعة وعشرين المفضل عند السيد كريكل، فقد راح كل فريق منهما يولي عنايته بسجينه.

قال الرجل ذو النظارات: «كيف حال مزاجك اليوم يا ثمانية وعشرون؟».

أجاب السيد ليتيمر: «شكرًا لك يا سيدي. صرت أدرك الحماقات التي ارتكبتها، وأشعر بانزعاج بالغ حينما أفكر في خطايا رفاقي السابقين، لكني واثق بأنهم قد يهتدون إلى سبيل التوبة والغفران».

قال الرجل بينما يومئ برأسه مشجعًا ومؤيدًا لما قاله ليتيمر: «أرى أنك قد صرت راضيًا عن نفسك سعيدًا بها. أليس كذلك؟».

أجاب السيد ليتيمر قائلًا: «إنني ممتن لك يا سيدي، بل إني في أتم الرضا والسعادة».

قال السائل: «هل تراود ذهنك أي أفكار الآن؟ وإن كان ثمة أفكار فلتصرح بها لنا يا رقم ثمانية وعشرين».

قال السيد ليتيمر من دون أن يرفع بصره نحونا: «يا سيدي، إن لم تكن عيناي تخدعانني، فإن بينكم شخصًا حاضرًا كنت على معرفة به في حياتي الماضية. وقد يكون من المفيد لهذا السيد أن يعرف أنني أعزو حماقاتي السابقة بكاملها إلى أني عشت حياة طائشة في خدمة الشباب، وأني سمحت لنفسي أن أنجرف خلفهم بضعف إلى شهوات لم يكن بمقدوري حينها أن أقاومها. وأرجو أن يتعظ هذا السيد من قصتي، وخير له ألا يستاء من صراحتي. إنني واعٍ بحماقاتي وذنوبي السابقة، وإنني لأرجو له التوبة عن كل الشرور والخطايا التي كان طرفًا فيها».

لاحظت أن كثيرًا من الحاضرين قد ظللوا أعينهم بيد واحدة، كما لو أنهم قد دخلوا لتوِّهم إلى جوف الكنيسة.

راح الرجل ذو النظارة يسأل من جديد: «يا لها من نصيحة جميلة تجلب إليك المديح يا ثمانية وعشرون. وكان عليَّ أن أتوقع هذا منك. فهل تفكر في شيء آخر؟».

عاود السيد ليتيمر حديثه رافعًا حاجبيه لا عينيه، قليلًا: «يا سيدي، لقد عرفت شابة كانت قد انخرطت في دوائر فاجرة، وحاولت أن أنقذها لكنني لم أستطع. وإنني لأتوسل إلى هذا السيد إذا كان الأمر بيده أن

يُبلغ هذه الشابة أنني أسامحها على سلوكها السيئ تجاهي، وأنني أدعوها إلى التوبة. وإنني لأرجو أن يتكرم فيبلغها قولي».

أجابه الرجل ذو النظارة: «ليس لديَّ شك يا ثمانية وعشرون من أن السيد الذي تشير إليه قد تأثر بقوة -كما تأثرنا جميعًا- بما قلته بصدق. لن نؤخرك بيننا الآن».

قال السيد ليتيمر: «شكرًا لك يا سيدي. أتمنى لكم يومًا طيبًا أيها السادة، كما أتمنى لكم ولأسركم أن تعاينوا شروركم وخطاياكم فتصلحوها».

عاد السجين رقم ثمانية وعشرين بعد أن أنهى هذه الكلمات وقد تبادل نظرة خاطفة مع يورايا، كما لو أن كلًّا منهما يجهل من يكون الآخر بطريقة أو بأخرى، وسرت همهمة بين الواقفين بعدما انغلق الباب من خلفه، مفادها أنه رجل محترم وأنه يُمثل حالة جميلة وسط السجناء.

أتيحت الفرصة للسيد كريكل للصعود إلى المسرح مع رجله المفضل، فإذا به يقول: «أما الآن يا رقم سبعة وعشرين، هل يستطيع أي رجل منا تقديم شيء لك؟ ولو أنك تريد شيئًا فاذكره!».

عاود يورايا الحديث بإيماءة من رأسه المليء بالضغينة: «إني أرجو في تواضع شديد يا سيدي أن تسمحوا لي بالكتابة إلى أمي مجددًا».

قال السيد كريكل: «بالتأكيد سأسمح لك بمراسلتها».

«شكرًا لك يا سيدي. إنني أشعر بالقلق عليها، وأخشى ألا تكون آمنة».

اندفع أحد الحاضرين بسؤال فقال: «من أي شيء تخاف عليه؟»، لكن سرعان ما تعالت همهمات غاضبة قائلة: «هششش!».

التفت يورايا إلى مصدر الصوت ثم أجابه قائلًا: «إنني أود لو تصير أمي في أمان إلى الأبد، فتنضم إلى حالتي. لم أكن قَطُّ لأصير في مثل هذه الحالة لو لم آتي إلى هذا المكان، وإنني لأتمنى لو جاءت إليَّ أمي كذلك، بل إنه لصلاح لكل إنسان لو أُخذ من يده فأُحضِر إلى هنا».

أحسب أن هذا التصريح قد أثار مشاعر من الرضا منقطعة النظير، فلا يضاهيه شيء مما سبق حتى هذه اللحظة.

اختلس يورايا النظر إلينا، كما لو أنه يتمنى لو يستطيع أن يحطم العالم الخارجي الذي ننتمي إليه، ثم تحدث إلينا قائلًا: «لقد استسلمت لحماقاتي كاملها قبل أن آتي إلى هنا، إلا أنني صرت الآن واعيًا بما اقترفته من آثام، كما أدركت أن العالم مكتظ بالخطايا، كما أحيطت أمي بها، فلا شيء غير الخطية في كل مكان عدا هنا».

قال السيد كريكل: «هل تغيرت روحك تمامًا؟».

صاح هذا التائب المتأمل: «يا إلهي، بالطبع يا سيدي».

سأل أحد الحاضرين: «ألن ترتد عن توبتك إذا ما خرجت إلى العالم الخارجي؟».

«يا إلهي، كلا يا سيدي».

قال السيد كريكل: «حسنًا، كم يبدو هذا الحديث مُرضيًا ممتعًا!

لقد كنت تتحدث إلى السيد كوبرفيلد يا سبعة وعشرون، فهل تود أن تقول له شيئًا آخر؟».

التفت يورايا هيب إليَّ بنظرة أشد خبثًا، لم أرَ من قبل أبشع منها على وجهه قَطُّ، ثم قال: «لقد عرفتني قبل مجيئي إلى هنا بفترة طويلة، لكني تغيرت يا سيد كوبرفيلد. لقد عرفتني حين كنت واحدًا من هؤلاء الذين يتيهون فخرًا بحماقاتهم على الرغم من ضعتي، ومكثت خانعًا وسط من يتصفون بالبطش، بل لقد كنت عنيفًا أيضًا في معاملتك لي يا سيد كوبرفيلد. وإنك لتذكر أنك صفعتني ذات مرة على وجهي».

توجهت الأنظار الساخطة نحوي وهي تحمل نوعًا من الشفقة والمواساة له بشكل عام.

التفت يورايا وقد جعل من طبيعته المتسامحة موضوعًا لمقارنة هي أفظع وأسوأ مقارنة أترفع عن أن أذكرها هنا، فقال: «إلا أنني أسامحك يا سيد كوبرفيلد، بل أسامح الجميع، لأنني سأشق على نفسي لو أنني تركت للضغينة موضعًا تستقر به في داخلي. إنني أسامحك تمامًا، وأرجو لو تستطيع أن تتحكم في انفعالاتك في المستقبل. أتمنى أن يعلن السيد واو والآنسة ابنته عن توبتهما، وكذلك فلتفعل بقية الجماعة الآثمة. لقد حل عليك بلاء عظيم، فأرجو أن يسدي إليك نصحًا، ولكنني أرى أنه حري بك أن تأتي إلى هنا، ويجدر بالسيد واو والآنسة ابنته أن يأتيا إلى هنا. إنه أفضل ما يمكن أن أتمناه لك يا سيد كوبرفيلد، كما أتمنى الشيء نفسه لكل السادة، فخير لكم أن تساقوا إلى هنا. وإنني حين أفكر في حماقاتي التي ارتكبتها في الماضي وفي حالتي الآن، أتيقن من أن هذا

الموضع هو أفضل موضع لكم، بل إنني لأشفق على كل من لم يأتوا إلى هنا».

تراجع منسلًّا إلى زنزانته مجددًا وسط جوقة صغيرة من الاستحسان، وقد شعرت أنا وترادلز براحة عظيمة حينما أغلقوا عليه الأبواب.

بدت هذه التوبة مميزة للغاية، مما جعلني أتخلى عن سؤالي عما فعلاه هذان الرجلان حتى يساق بهما إلى السجن، فقد بدا لي أن سبب مجيئهما هو آخر شيء يمكن أن يحدثوني عنه. إلا أنني أقدمت على الحديث مع أحد الحارسين بعد أن أحسست من بعض التعبيرات التي لاحت على ملامح وجهه أنه يعرف جيدًا ما سبب هذه الضجة كلها.

قلت بينما أسير على مهل في الممر: «ما الجريمة الأخيرة التي ارتكبها السجين رقم سبعة وعشرين؟».

كانت إجابته أن الجريمة تتعلق بأحد البنوك.

فسألته: «هل هي عملية نصب على بنك إنجلترا؟».

قال: «نعم يا سيدي. إنها جريمة نصب وتزوير وتآمر، وقد ارتكب جريمته بصحبة أناس آخرين، وكان هو العقل المدبر. كانت مؤامرة كبيرة تهدف إلى الاستيلاء على مبلغ ضخم، وقد حُكِم عليه بالسجن مدى الحياة. لقد كان رقم سبعة وعشرين أذكى مجموعته، وكان على وشك أن ينجو بفعلته لكنه لم يستطع، بعد أن قُبض عليه في البنك في اللحظة الأخيرة».

سألته: «وهل تعرف جريمة السجين رقم ثمانية وعشرين؟».

تحدث الحارس إليَّ بصوت منخفض، ناظرًا من فوق كتفه في أثناء سيرنا في الممر ليتأكد من أن كريكل ومن معه لن يسمعوا مثل هذه الأشياء المجرمة التي يقولها عن هؤلاء الأطهار: «لقد حكم على السجين رقم ثمانية وعشرين بالسجن مدى الحياة أيضًا؛ لأنه قد سرق مائتين وخمسين جنيهًا ومقتنيات أخرى ثمينة من شاب كان يخدمه، وقد سرقه في الليلة التي سبقت سفره إلى الخارج، وإنني لأتذكر هذه القضية بالتحديد لأن التي قبضت عليه امرأة قزمة».

«ما اسمها؟».

«إنها امرأة من الأقزام لكني نسيت اسمها».

«هل تدعى ماوتشر؟».

«نعم، إنه اسمها، كان قد أفلت من المطاردة، وصار في طريقه إلى أمريكا متنكرًا بشعر مستعار من الكتان وشارب، وقد أتقن تنكره بالكامل وبهيئة لن تراها طوال حياتك. التقت به هذه السيدة الصغيرة سائرًا في شارع ساوث هامبتون، التقطته نظرتها الحادة فورًا فركضت خلفه وعرقلت ساقيه، ثم ألقت بنفسها عليه كالموت المروع».

صحت قائلًا: «يا لكِ من رائعة يا آنسة ماوتشر!».

قال صديقي: «كنت ستندهش بها لو أنك رأيتها واقفة فوق مقعد الشهود في المحكمة كما رأيتها أنا. كان السجين قد أصابها بجرح في وجهها وسحقها بأبشع الطرق حين أمسكت به، ومع ذلك فإنها لم تفلته من بين يدها حتى جاءت الشرطة وقبضت عليه. وفي الحقيقة لقد

ظلت ممسكة به بقوة، حتى وجد الضباط أنفسهم مضطرين إلى التحفظ عليهما معًا. لقد شهدت بشجاعة وحسن بيان، فأثنت عليها المحكمة أشد الثناء، ثم صحبتها الهتافات حتى وصلت إلى منزلها. كما أنها قالت في المحكمة إنها كانت ستقبض عليه بمفردها لكثرة ما عرفته عنه، حتى لو كانت قوته تعادل قوة شمشون الجبار. وأظن أنها كانت لتفعل ذلك حقًّا!».

وإنني حسبت أنها فاعلة ذلك أيضًا، وقد احترمت السيدة ماوتشر تقديرًا لما فعلته.

لقد رأينا حتى هذه اللحظة كل ما يمكن رؤيته، ولن يجدي الأمر نفعًا لو أننا قلنا لرجل مبجل مثل السيد كريكل إن السجينين سبعة وعشرين وثمانية وعشرين لم يتغيرا في شيء على الإطلاق، فقد ظلا على حالهما كما كانا دومًا، فهذان الوغدان المنافقان ملائمان تمامًا للعب دور التوبة في مثل هذا المكان، لأنهما يدركان القيمة التسويقية لاعترافهما -أو على الأقل بالقدر الذي نفهمه- ومن ثَم يحاولان الاستفادة منه في هذا المكان طوال نفيهما عن العالم. باختصار، إنهما يمارسان عملًا قذرًا خادعًا بدرجة مؤلمة. تركناهما لهذا النظام ولأنفسهما وعدنا إلى المنزل متعجبين.

قلت: «لعل من الخير يا ترادلز أن تكبح موهبة شريرة فتقضي عليها».

قال ترادلز: «أرجو أن يتحقق ذلك».



الفصل الثاني والستون

نور يضيء طريقي

اقترب وقت الاحتفال بعيد الميلاد، وكنت مقيمًا في موطني منذ ما يقرب من شهرين، فاستطعت رؤية أجنيس كثيرًا، ومهما علت أصوات العالم من حولي لتشجيعي، وأيًا ما كانت قوة العواطف والمساعي التي أثارتني، فقد كان أقل مديح من أجنيس يغنيني عن سماع أي كلمة من إنسان سواها.

كنت أذهب إليها ممتطيًا حصانًا مرة في كل أسبوع على الأقل، وأحيانًا أكثر، فأقضي معها المساء ثم أعود إلى منزلي ليلًا. تملكني الإحساس القديم بالتعاسة الذي كان يحوم حولي - إذا به يزداد حين أفارقها. كنت أسعد باستيقاظي ثم خروجي بدلًا من وضعي المتذبذب بين الانغماس في الماضي وأنا في يقظة منهكة أو النوم واستقبال أحلامي البائسة. لقد عانيت الشطر الأكبر من هذه الليالي الموحشة البائسة، وأنا في طريق عودتي إلى منزلي ممتطيًا حصاني، وقد أحيت ذاكرتي أفكارًا طالما شغلتني في غيابي الطويل.

لعل من الأحرى أن أصف حالتي الحقيقية فأقول إني أنصَتُّ إلى أصداء هذه الأفكار، فقد خاطبتني هذه الأفكار من بعيد، إذ أبقيتها على مسافة مني، وقبلت بمكانتي التي لا مفر منها. كنت أقرأ لأجنيس ما كتبته، فإذا بي أبصر ملامحها المنصتة، قد تأثرت فأبدت ابتسامة أو علامات البكاء، كما سمعت صوتها الحاني الوقور معلقًا على المجاز المضمر في عالمي الإبداعي الذي عشت فيه، فإذا بي أفكر في المصير الذي قد أنتهي إليه، لكن الأمر لم يزد عن مجرد تفكير فيما كنت آمله بعد زواجي بدورا، فأتصور صفات المرأة التي حلمت أن تصير زوجتي.

حتم عليَّ واجبي نحو أجنيس التي أحبتني ألا أزعجها وإلا فإنني سأقابل حبها بنوع من الأنانية والسوء، ولعلي لا أستطيع استعادته يومًا. كنت على يقين من أنني سيد قراري، وأنني ربحت ما نشده قلبي فلا يحق لي التذمر، بل عليَّ أن أتحمل بما تعلمته واكتسبته من خبرات. إلا أنني أحببتها، بل وقد وجدت عزائي في تصوري الغامض بأنني سأقوى يومًا على الاعتراف بحبي لها دون لوم أو عتاب، وعندما ينتهي صراعي كله سأقول: «يا أجنيس، ها هي حالتي منذ عودتي إلى الوطن، وحتى هذه اللحظة التي صرت فيها كهلًا فلم أشعر بحب مثل حبي لكِ».

لم ألحظ على أجنيس أي تغيير، بل ظلت كعهدها معي من دون أن تتبدل.

دار بيني وعمتي شيئًا متعلقًا بهذا السياق منذ الليلة التي عدت فيها إلى الوطن، ولا يمكنني أن أدعو ما وقع بيننا تحفظًا، أو تجنبًا للموضوع، بقدر ما أصفه بأنه اتفاق ضمني بأننا نفكر في الأمر معًا، لكن أفكارنا لم

تتشكل بعد في صورة كلمات. كنا نجلس كعادتنا القديمة أمام المدفأة في الليل، مستغرقين في التفكير في الأمر ذاته، وبوعي متبادل؛ كما لو أننا تصارحنا من دون تحفظ. التزم كل منا بصمته، إلا أنني على يقين من أنها قرأت أفكاري في تلك الليلة، أو على الأقل أدركت شطرًا منها، وأنها استوعبت تمامًا السبب الذي جعلني لا أعبِّر عن مكنوني بوضوح.

هكذا حان احتفال عيد الميلاد، ولم تكاشفني أجنيس بسر جديد، مما أثار شكوكي حول ما راودني من تصورات مرات عديدة - من أنها أدركت الحالة المعتملة داخلي ثم قيدها الخوف من أن تجلب لي ألمًا، فلم تصارحني بشيء - وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن تضحيتي أمست هباءً، ولن أكون قد وفيت بأبسط واجباتي تجاهها، بل سأرتد عن كل فعل بائس اقترفته حتى تلك اللحظة. عقدت العزم على وضع الأمر في نصابه الصحيح، فأزيل عن كل الشكوك، ولأحطم ما بيننا من حواجز، ولأضرب بيد العزم والإقدام.

مر بنا يوم قارس عنيف -ويا له من يوم يدفعني دومًا إلى تذكره!- من أيام الشتاء الباردة، وكان الجليد قد تساقط منذ عدة ساعات، فكوَّن طبقة ليست كثيفة ولكنها متجمدة وقد غطت سطح الأرض. أبصرت الرياح من نافذتي، وهي تهب من ناحية الشمال في اهتياج، فرحت أفكر في مسيرها بينما تكتسح أكوامًا من الثلوج في سويسرا في تلك البقعة التي يتعذر على إنسان أن يخطو فوق أرضها، وأتأمل أي الأمرين أشد وحشة، أهي تلك البقاع النائية أم ذاك المحيط المهجور؟

قالت عمتي وقد أطلت برأسها من الباب: «هل ستخرج اليوم ممتطيًا حصانك يا تروت؟».

قلت لها: «نعم، سأذهب إلى كانتربري. إنه يوم ملائم للتنزه على ظهر الجواد».

قالت عمتي: «آمل أن يكون هذا هو رأي الجواد كذلك، لأنني رأيته للتوِّ مطأطئًا رأسه وأذنيه، واقفًا أمام الباب، كما لو أنه يفضل المكوث في الإسطبل».

يمكنني أن ألاحظ أن عمتي سمحت للحصان أن يطأ الأرض المحرمة، لكنها لم تسمح بذلك للحمير.

قلت: «سيكون قد نال ما يكفيه من الراحة».

قالت عمتي وهي تلقي نظرة على الورق الموضوع على طاولتي: «في كل الأحوال سينفع الحصان صاحبه. آه يا بني، إنك تقضي ساعات نافعة هنا. لقد اعتدت على قراءة الكتب، ولم أفكر يومًا في المجهود الذي تتطلبه كتابتها».

قلت: «وأحيانًا تصير القراءة عملية مجهدة في حد ذاتها، أما الكتابة فإنها لفتنة يا عمتي».

قالت عمتي: «آه، أستطيع أن أرى هذه الفتنة في الطموح وحب الثناء والتعاطف وأمور أخرى، أليس كذلك؟ حسنًا، هيا انطلق في طريقك».

وقفت أمامها في هدوء، وقد ربتت على كتفي ثم جلست على

مقعدها، وقلت: «هل عرفتِ أي شيء جديد عن ارتباط أجنيس برجل ما؟».

نظرت إلى وجهي قليلًا قبل أن تجيب قائلة: «أحسب ذلك يا تروت».

سألتها: «هل أنتِ على يقين مما عرفتِه عن الأمر؟».

أجابت: «أحسب ذلك يا تروت».

نظرت إليَّ نظرة شديدة الثبات يشوبها نوع من الشك أو الشفقة أو القلق، حتى استجمعت كل قوتي لأظهر لها وجهًا مرحًا مطمئنًّا.

قالت عمتي: «وإنني متيقنة مما هو أكثر من ذلك يا تروت».

«وما الجديد؟».

«أظن أن أجنيس ستتزوج».

قلت بمرح: «فليباركها الله».

قالت عمتي: «فليباركها الله، وليبارك زوجها أيضًا».

رددت كلمات عمتي ثم ودعتها، وهبطت درجات السلم بخفة وامتطيت الحصان وانطلقت، وقد تعاظمت الأسباب التي تدفعني إلى الإقدام على ما اعتزمت فعله.

وكم أتذكر هذه الرحلة الباردة على ظهر الحصان! أتذكر جيدًا كيف انتزعت الريح كتل الثلج الصغيرة المتجمدة على أوراق النبات، وألقت بها على وجهي. أتذكر صلصلة حوافر الحصان تعزف لحنًا

بدبيب خطاها على الأرض، كما أتذكر جيدًا التربة الصلبة، والثلج الذي ساقته الريح بخفة وشكّل دوامات عند محجر الطباشير، وقد جعدته الرياح باندفاعها المتتالي، وعددًا من الرجال ينفثون الدخان من أنفاسهم محملين عرباتهم القديمة بالتبن، يتوقفون ليلتقطوا أنفاسهم على قمة التل، ويهزون أجراس دوابهم بصورة موسيقية، كما أتذكر المنحدرات البيضاء والأفق الملبد بالغيوم القاتمة، كما لو أنها لوحة مرتسمة على لوح ضخم.

وجدت أجنيس بمفردها، فقد عادت الفتيات الصغيرات إلى منازلهن، فجلست حينها وحدها أمام المدفأة مستغرقة في القراءة. ما إن رأتني مقبلًا إليها حتى تركت الكتاب عن يدها، لتستقبلني وترحب بي كعادتها، ثم تناولت سلة أدوات الحياكة، وجلست بالقرب من إحدى النوافذ قديمة الطراز لتشتغل بأعمال الإبرة.

جلست إلى جانبها على الكرسي القريب من النافذة، وتحدثنا عما أكتبه، ومتى سأنتهي من الكتابة، وعن التقدم الذي أحرزته في زيارتي الأخيرة. كانت أجنيس سعيدة للغاية، حتى إنها ضحكت متنبئة بأنني سأصير من الشهرة بحيث يصعب أن تجد فرصة للتحدث معي في هذه الأمور.

قالت أجنيس: «لذلك فإنني أنتهز الفرصة السانحة أمامي الآن وأتحدث إليك في هذا الوقت المتاح».

نظرت إلى وجهها الجميل متأملًا انهماكها في عملها، فإذا بها ترفع عينيها الصافيتين اللطيفتين نحوي بعد أن لاحظت أنني أحدق بها.

قالت: «تبدو مستغرقًا في التفكير اليوم يا تروتوود».

قلت: «يا أجنيس، هل يمكنني أن أخبركِ بما جئت لأقوله اليوم لكِ؟».

نحَّت أعمال الحياكة جانبًا، كما اعتادت أن تفعل عندما نناقش أي شيء بجدية، وأعارتني كامل انتباهها.

قلت: «يا عزيزتي أجنيس، هل يراودكِ أي شك في إخلاصي لكِ؟».

أجابت والدهشة ترتسم على وجهها: «كلا».

«وهل تشكين في أنني أحفظ لكِ مكانتكِ عندي؟».

كانت إجابتها كما قالت من قبل: «كلا».

قلت: «هل تتذكرين يا عزيزتي أجنيس أني حاولت بعد عودتي إلى الوطن أن أخبركِ بمقدار العرفان الذي أدين به لكِ، وكيف كان شعوري متوهجًا حيالكِ؟».

قالت بلطف: «أتذكر جيدًا».

قلت: «إنكِ تكتمين سرًّا، فدعيني أشاركِ إياه يا أجنيس».

خفضت عينيها وارتعشت.

قلت: «إنني لا أعجز عن معرفة أن إنسانًا قد منحته كنز حبكِ، حتى لو لم أسمع عن الأمر من شفتيكِ بل من شفاه غريبة، وهو ما يبدو لي غريبًا. لا تحجبي عني شيئًا يتعلق بسعادتكِ! إذا كان بوسعكِ أن تثقي بي كما تقولين -وأنا أعرف أنكِ تثقين بي- فدعيني أكن صديقكِ وأخاكِ في هذه المسألة دون سواها».

نهضت من مكانها بالقرب من النافذة، بنظرة فاتنة تكاد تكون مؤنبة، وراحت تهرول بين أرجاء الغرفة كما لو أنها لا تعرف وجهتها، ثم وضعت يدها على وجهها وانفجرت باكية في مشهد اعتصر قلبي وآلمه بشدة.

أيقظت هذه الدموع شيئًا في أعماقي، وقد أعادت إلى قلبي شيئًا فقده، ومن دون أن أدرك سببًا، أبصرت دموعها وقد تحالفت مع ابتسامة هادئة حزينة مثل ابتسامتها المنطبعة تمامًا في ذاكرتي، فبعثت في قلبي الأمل وفاقت مشاعر الخوف أو الأسى.

قلت: «يا أجنيس، يا أختي، يا أعز الناس، ما الذي فعلته؟».

«دعني أنصرف يا تروتوود لأنني لست بخير. إنني لست على طبيعتي، وسأتحدث معك قريبًا في وقت لاحق. سأكتب إليك، فلا تحدثني الآن. لا تكلمني، لا تفعل».

حاولت أن أسترجع ما قلته لها في تلك الليلة؛ عندما تحدثت عن عاطفتها فقلت إن محبتها لا تنتظر أي مقابل، وبدا لي أنني في عالم زاخر، يتوجب عليَّ أن أبحث فيه عن لحظة بعينها، فتحدثت إليها قائلًا: «يا أجنيس، لا يمكنني أن أتحمل أن أراكِ في هذه الحال، وأن أكون أنا السبب فيها. يا أعز الفتيات، يا أغلى من أي شيء في الحياة، إذا كنتِ تعيسة، فدعيني أشاركِ هذه التعاسة، وإذا كنتِ في حاجة إلى العون أو المشورة، فدعيني أحاول أن أقدمهما إليكِ. إن كنتِ تتحملين عبئًا جاثمًا فوق قلبكِ، فدعيني أحاول أن أخفف وطأته. لمن أحيا اليوم يا أجنيس إن لم أكن أحيا من أجلكِ أنتِ؟!».

كان كل ما أستطيع تذكره هي عبارتها: «آه، دعني أنصرف. إنني لست بخير. إنني لست على طبيعتي».

هل هو خطأ أناني كان يقودني بعيدًا؟ هل تبدلت بادرة أملي لتكشف لي شيئًا لم أجرؤ على التفكير فيه؟

قلت: «إنني أود أن أكمل الحديث، فأنا لا أستطيع أن أدعكِ على هذه الحال. فبحق السماء يا أجنيس، دعينا لا نسيء فهم بعضنا بعد كل هذه الأعوام وكل ما جاء فيها وراح. يجب أن أصارحكِ بمكنون صدري، فإن راودكِ شك مفاده أنني قد أحسدكِ على إسعاد رجل اخترته، أو أنني لن أتخلى عنكِ لرجل أعز على قلبكِ مني فيتعهد برعايتكِ لأنه محل اختياركِ، أو أنني قد لا أستطيع أن أصير شاهدًا قانعًا بفرحتكِ من موضعي الذي أزيل من تحت قدمي، فإنني أرجو أن تزيلي هذه الفكرة من ذهنكِ لأنني لا أستحقها! إنني لم أعانِ هباء، ولا يجب أن يضيع تعليمكِ لي عبثًا. وما أشعر به تجاهكِ لا تخالطه أنانية».

هدأت الآن، ثم حولت وجهها بعد فترة قصيرة نحوي، وقالت بصوت منخفض متقطع لكنه واضح: «إنني أدين لصداقتك النقية يا تروتوود، مما يجعلني لا أتردد في أن أقول لك إنك مخطئ، ولا يمكنني البوح بأي شيء آخر. وإذا كنت قد احتجت على مدار السنوات الماضية إلى عون أو مشورة في بعض الأحيان، فإنني قد نلتهما. ولو أنني شعرت بالتعاسة في بعض الأحيان، فقد انقضى عني هذا الشعور. وإن كان قلبي قد احتمل يومًا عبئًا، فقد خفت وطأته. ولو أنني أكن أسرارًا، فإن سري

ليس جديدًا وهو ليس الذي تظنه، ولا يمكنني أن أكشفه أو أشاركك إياه. لقد احتفظت بسري لأعوام طويلة، ويجب أن يظل كذلك».

«يا أجنيس، انتظري لحظة».

كانت على وشك الانصراف، لكني حلت بينها وبين الابتعاد عني، فشبكت ذراعي حول خصرها، وقلت: «أتقولين لأعوام طويلة؟! أتقولين إن سركِ ليس جديدًا؟». راحت الأفكار والظنون الجديدة تدور في خاطري كدوامة، وقد تغيرت أمامي كل ألوان حياتي.

قلت: «يا أجنيس، يا أعز الناس، يا أجنيس، يا من أحترمها وأبجلها وأحبها حبًّا جمًّا، عندما أتيت إلى هنا اليوم ظننت ألا شيء بوسعه أن ينتزع مني هذا الاعتراف، وأنني سأبقي عليه محفوظًا في أعماقي طوال حياتنا حتى نشيخ. ولكن أملًا جديدًا قد وُلِد بداخلي يا أجنيس، أملًا في أن أدعوكِ بشيء آخر غير «الأخت»، بل أدعوكِ باسم مختلف كل الاختلاف عنه».

انهمرت منها دموع عزيزة متسارعة، لكنها لم تشبه الدموع التي ذرفتها قبل ذلك، بل رأيت أملي يزداد مع هذه الدموع.

«أجنيس، يا مرشدتي وعوني وسندي، إذا كنتِ قد أوليتِ نفسكِ اهتمامًا أكبر، وأوليتِني اهتمامًا أقل عندما تربينا هنا معًا، لما شرد خيالي الغافل ولم يكن ليبتعد عنكِ قَطُّ. لقد كنتِ أفضل مني كثيرًا، فأسديتِ نصحكِ ودعمكِ لي في كل أمل من آمالي، وفي كل خيبة صبيانية اقترفتها، حتى أصبحتِ ملجأ سريًّا واعتمدت عليكِ في كل شيء، ومن

ثَم تنامت عندي طبيعة ثانية، وقد حلت محل شعوري الأول والأعظم بكِ، والذي هو حبي لكِ كما أحبكِ الآن».

ظلت تبكي، ولكن هذه المرة لم تكن تبكي بحزن، بل بفرح. تشبثت بذراعي ومكثت بأحضاني كما لم تفعل من قبل، وبصورة لم أتصورها قَطُّ.

قلت: «عندما أحببت دورا وافتتنت بها يا أجنيس، كما تعرفين...».

صاحت بنبرة جادة: «نعم... يسعدني أني أعرف ذلك».

قلت: «عندما أحببتها، لم يكن لحبي أن يكتمل حينها من دون عطفكِ. لقد نعمت بعطفكِ فاكتمل حبي، وعندما فقدتها يا أجنيس، فماذا كان ليصيبني لولا وجودكِ معي».

صارت أقرب إليَّ من ذراعي إلى قلبي، وإذا بيدها المرتعشة فوق كتفي، وعيناها الحلوتان تشعان من خلف دموعها متطلعتان نحوي.

«لقد مضيت بعيدًا يا عزيزتي أجنيس وأنا أحبكِ، وبقيت بعيدًا وأنا أحبكِ أيضًا، وعدت وأنا أحبكِ».

حاولت أن أخبرها بعد ذلك عن الصراع الذي خضته، والاستنتاج الذي توصلت إليه، وحاولت أن أبْسِط أمامها أفكاري بصدق وبصورة كاملة، وكشفت لها كيف أملت أن أتوصل إلى معرفة أفضل بنفسي وبها، وكيف استسلمت لنتائج هذه المعرفة الجديدة. شرحت لها كيف أتيت إلى هنا، في ذلك اليوم من إدراكي لمعارفي الجديدة، مخلصًا لها، فقلت لها إذا كانت تحبني وتقبلني زوجًا لها، فلتفعل، وإني أقر بأنني لست مستحقًّا

لها، لكنني أقر بصدق حبي، وبأن المتاعب قد أنضجتني حتى كشفت في النهاية مقدار حبي لها. آه يا أجنيس، لقد أطلت من عينيك الصادقتين حينها روح زوجتي الطفلة، فقالت إنها راضية بما أراه خيرًا لي، فإذا بي أسترجع عن طريقكِ ألطف ذكريات تلك الزهرة التي ذبلت قبل تفتحها!

قالت أجنيس: «إنني فرحة للغاية يا تروتوود، وقد فاض قلبي بأكثر مما يحتمل، ولكن ثمة شيء آخر لا بد أن أقوله لك».

«ما هو يا أعز الناس؟».

وضعت يديها اللطيفتين على كتفَي ونظرت بهدوء إلى وجهي.

قالت: «ألا تعرف ما هو؟».

قلت: «إنني أخشى تخمينه. فأخبريني يا عزيزتي ما الأمر؟».

«لقد أحببتك طوال حياتي».

كم كنا سعيدين! كم صرنا سعيدين! ولم نبكِ بسبب التجارب التي مررنا بها -مع الوضع في الاعتبار أن دموعها فاقت دموعي- بل رحنا نبكي من النشوة التي لفتنا بعد أن تكاشفنا وأدركنا أن شيئًا لن يُفرِّق بيننا.

تمشينا معًا في هذه الأمسية الشتوية بين الحقول، وبدا لنا أن الهواء البارد قد شارك الهدوء المبارك الذي أحاط بنا. وراحت النجوم والكواكب تتلألأ بينما نسير على مهل ناظرين إليها، وشاكرين الله الذي أفضى بنا إلى هذا الصفاء.

وقفنا معًا عند النافذة ذاتها قديمة الطراز، بينما حل علينا الليل وتألق القمر مضويًا. رفعت أجنيس عينيها الهادئتين صوبه وأنا أتبع نظرتها،

فانكشفت أميال طويلة من الطرقات أمام خاطري، فتمثلت صورتي صبيًّا كالحًا يرتدي أسمالًا، منبوذًا ومهملًا، فإذا به الآن يلبي نداء قلبه، ويخفق له قلب ملتصق به.

كان الوقت في اليوم التالي قد شارف موعد تناول العشاء تقريبًا، حين مثلت أنا وأجنيس أمام عمتي، بعد أن قالت لنا بيجوتي إنها تنتظرنا في المكتب، حيث كانت تفخر بكونها مستعدة ومتأهبة لفعل أي شيء لي. وجدنا عمتي ترتدي نظارتها جالسة بجانب المدفأة. وقد قالت وهي تحدق نحونا عبر الغسق: «يا إلهي، من الذي جلبته معك إلى المنزل؟».

قلت: «إنها أجنيس».

كنا قد اتفقنا على ألا نقول شيئًا في البداية، لذا شعرت عمتي بنوع من الارتباك، ورمقتني بنظرة آملة حين قلت لها «إنها أجنيس»، ولكن عندما رأت أني أبدو على حالتي المعتادة، خلعت نظارتها في يأس وحكت بها أنفها.

إلا أنها حيَّت أجنيس بحرارة، وسرعان ما جلسنا في غرفة الطعام بالدور الأرضي لتناول العشاء. ارتدت عمتي نظارتها مرتين أو ثلاث لتلقي عليَّ نظرة أخرى، لكنها خلعتها مرة أخرى شاعرة بالإحباط، وحكت بها أنفها، مما أربك السيد دك لأنه يعرف أن هذه الحركة تعبر عن استياء.

قلتُ بعد العشاء: «بالمناسبة يا عمتي، كنت أتحدث مع أجنيس عما أخبرتني إياه».

قالت عمتي وقد احمر وجهها: «حسنًا يا تروت. لقد ارتكبتَ خطأ وحنثت بوعدك».

قلت: «أرجو ألا تكوني غضبى يا عمتي، إنني على يقين من أنكِ لن تثوري إذا ما عرفتِ أن أجنيس لم تتعس نفسها بالارتباط بأي إنسان».

قالت عمتي: «هراء».

لاح الغضب على عمتي، ومن ثَم أحسست أنه من الأفضل أن أختصر هذا الضيق، فتناولت يد أجنيس ووقفنا خلف مقعد عمتي ثم انحنينا عليها في وقت واحد. بصفقة واحدة بيديها ونظرة واحدة من خلف نظارتها صارت عمتي فورًا في حالة فرح هستيري للمرة الأولى والوحيدة طوال مدة معرفتي بها.

أقبلت بيجوتي عليها وهي في هذه الحالة الهستيرية، وفي اللحظة التي هدأت فيها عمتي اندفعت صوب بيجوتي وقد أطلقت عليها «المخلوقة العجوز السخيفة»، وعانقتها بكل قوتها. عانقت بعد ذلك السيد دك الذي تشرف كثيرًا بهذا العناق لكنه بدا في دهشة عارمة، فأخبرتهما عمتي بعد ذلك عن السبب، فطوقتنا جميعًا سعادة عارمة.

لم أستطع أن أكتشف ما إذا كانت عمتي في حديثها الأخير القصير معي قد خدعتني بحسن نية منها، أم أنها أخطأت فعلًا فهم حالتي. لكن حسبي أنها قالت لي إن أجنيس سوف تتزوج، وإني بت الآن أعرف دون سواي مدى صحة ما أخبرتني به.

تزوجنا في غضون أسبوعين. اقتصر الضيوف في حفل زفافنا

الهادئ على ترادلز وصوفي والطبيب والسيدة سترونج. تركناهم في قمة الفرح، وسافرنا معًا. ظلت أجنيس متشبثة بذراعي، فأحسست أني أحمل مصدر كل شيء طمحت إليه، وشعرت أنها مركز وجودي ودائرة حياتي وكياني وزوجتي وحبي الذي تأسس على الصخر.

قالت أجنيس: «يا زوجي العزيز، أما الآن وقد دعوتك بهذا الاسم، فإني أريد أن أخبرك بشيء».

قلت: «أسمعيني إياه يا حبيبتي».

«لقد لاح لي هذا الاسم في الليلة التي ماتت فيها دورا، لأنها أرسلتك إليَّ».

«فعلت ذلك حقًّا».

«لقد أخبرتني أنها قد تركت لي شيئًا. هل يمكنك أن تتوقع ما هو؟».

ظننت أنني أستطيع توقع الأمر، فأدنيت مني زوجتي التي أحبتني حبًّا جمًّا منذ عهد طويل وقربتها إليَّ أكثر.

قالت أجنيس: «لقد أخبرتني أنها تريد أن تطلب مني طلبًا أخيرًا، وأنها تركت لي مهمة أخيرة».

«وماذا كانت...؟».

«أن أشغل هذا المكان الخالي».

أراحت أجنيس رأسها على صدري وبكت. بكيت معها وإن كنا في غاية السعادة.

الفصل الثالث والستون

زائر

ما فكرت في تسجيله قد أوشك على الانتهاء، ولكن لا تزال هناك حادثة واحدة تستدعيها ذاكرتي ببهجة، وفي غياب هذا الخيط عن الشبكة التي نسجتها، يمكن للنسيج كله أن ينحل.

لقد تقدمت في الشهرة وحققت سعة من المال، واكتملت سعادتي الأسرية، وقضيت عشرة أعوام هانئة من الزواج، وذات ليلة ربيعية جلست أنا وأجنيس أمام النار نستدفئ في منزلنا في لندن، يلعب حولنا ثلاثة من أطفالنا؛ حين أخبروني أن زائرًا غريبًا يود لقائي.

سألوه عما إذا كان يريدني في أمر يتعلق بالعمل، إلا أنه أجاب بالنفي. قال إنه أراد أن يحظى بمتعة رؤيتي، وأنه قطع طريقًا طويلًا إليَّ. قال الخادم إنه رجل عجوز أقرب شبهًا بالمزارعين.

بدا هذا الأمر غريبًا على الأطفال، وبدا كما لو أنه بداية القصة المفضلة التي اعتادت أجنيس قصها عليهم، حيث تستهل القصة أحداثها

بوصول جنية عجوز شريرة ترتدي عباءة، وتكره الجميع، ولهذا فقد أثار هذا النبأ شعورهم بالإثارة. خبأ أحد أطفالنا رأسه في حجر أمه ليحمي نفسه من الأذى، أما أجنيس الصغيرة -وهي أكبر أطفالنا- فقد تركت دميتها على مقعد لتنوب عنها، كما دست رأسها وضفائرها الذهبية الصغيرة وسط الستائر لتتابع ما سيحدث. قلت: «دعوه يأتي إلى هنا».

سرعان ما ظهر عند المدخل المعتم رجل عجوز أشيب الشعر. جذبت نظراته أجنيس الصغيرة، فركضت صوبه لتُدخله، ولم أكن قد تبينت الوجه بعد بوضوح حين وجدت زوجتي تقفز من جلستها وتسرع نحوه صائحة في حماسة من فرط البهجة، قائلة إنه السيد بيجوتي.

لقد كان هو السيد بيجوتي نفسه، وقد صار الآن شيخًا عجوزًا، لكنه ظل متورد الوجه، حسن المنظر، قوي البنية. ما إن زال انفعالنا الأول برؤيته، وجلس أمام النار والأطفال على ركبتيه، ولهيب النار ينعكس على وجهه، بدا لي عجوزًا نشيطًا وقويًا، وعلاوة على ذلك قد بدا وسيمًا أكثر من أي وقت مضى.

قال: «يا سيد ديفي»، وقع الاسم القديم باللهجة القديمة طيبًا محببًا على مسامعي. قال: «يا سيد ديفي، إنه وقت رائع لأني أراك فيه مجددًا. وأتمنى لك عمرًا مديدًا بصحبة زوجتك المخلصة».

صحت قائلًا: «إنه وقت رائع بالفعل يا صديقي القديم».

قال السيد بيجوتي: «ما أجمل هؤلاء الصغار! انظر إلى هذه الزهور الجميلة، يا للعجب! لقد رأيتك يا سيد ديفي لأول مرة وأنت في طول

أصغر هؤلاء الأطفال، ولم تكن إيميلي حينها أكبر منك، ولم يكن ابننا الفقيد أكثر من مجرد صبي صغير».

قلت: «لقد غيرني الزمن أكثر مما غيرك خلال هذه الفترة. فلتدع هؤلاء المحتالين الأعزاء يذهبون إلى فراشهم. ولن يكون في إنجلترا منزل يجب أن تبقى فيه غير هذا المنزل، قُل لي أين أمتعتك لأرسل في طلبها، وإني أتساءل ما إذا كانت حقيبتك السوداء القديمة وسط هذه الأمتعة أم لا، ثم دعنا نشرب كأسًا من النبيذ اليارموثي ونعرف ماذا حدث طوال عشرة أعوام».

قالت أجنيس: «هل أنت وحدك؟».

قال مُقبِّلًا يدها: «نعم يا سيدتي، إنني وحدي تمامًا».

أجلسناه بيننا، ولم نعرف كيف يمكننا أن نرحب به بما يكفي، وما إن أصغيت إلى صوته القديم المألوف، حتى استطعت أن أتخيله وهو لا يزال يتابع رحلته الطويلة بحثًا عن ابنة أخيه العزيزة.

قال السيد بيجوتي: «يا لنداء البحر الهائج! لقد عبرته لأبقى فترة لا تتجاوز أربعة أسابيع. إلا أن الماء -خاصة المالح- قد صار شيئًا طبيعيًّا بالنسبة لي، ولمن مثلي من الأصدقاء الأعزاء، وها أنا هنا بعد عناء. يا لها من قافية، على الرغم من أنني لم أتعمد هذه الكلمات».

سألته أجنيس: «هل ستعود كل هذه المسافة من آلاف الأميال بعد وقت قصير جدًّا؟».

عاود حديثه قائلًا: «نعم يا سيدتي. لقد وعدت إيميلي قبل سفري أن أعود سريعًا. إن الأعوام تمر ولم أعد شابًّا، ولو لم أكن من المبحرين منذ زمن مضى، ما استطعت أن أقدم على الإبحار فيه للتوِّ، ومنذ فترة طويلة وأنا أفكر في أن عليَّ أن آتي لزيارة السيد ديفي، كما وددت أن أراكِ أنتِ أيضًا أيتها الزهرة المتفتحة، فأطمئن أنكما تنعمان في حياتكما الزوجية قبل أن أشيخ».

نظر إلينا كما لو أنه لا يستطيع أن يُملِّي عينيه منا بدرجة كافية. أزاحت أجنيس ضاحكة بعض خصلات شعره المتناثرة إلى الخلف حتى يتمكن من رؤيتنا بشكل أفضل.

قلتُ: «والآن أخبرنا بكل شيء عن أعمالكم».

وسرعان ما قال لنا: «إن قصة أعمالنا ليست بالطويلة يا سيد ديفي. لم نحقق إنجازًا باهرًا، لكننا نجحنا في تحسين معيشتنا. لقد عملنا بدأب وجهد، وتكبدنا العناء في البداية، لكننا نجحنا. عملنا على رعي الأغنام، وتربية الماشية، وقمنا بشيء هنا وآخر هناك، وأتقنا أيضًا أعمالنا، وهكذا انصلحت حالنا».

أمال السيد بيجوتي رأسه بوقار ثم استطرد قائلًا: «إننا لم نفعل شيئًا سوى أن نجحنا في أعمالنا، هذا إن نظرنا إلى الأمر على مدار فترة زمنية طويلة، فلولا عمل الأمس لم يكن اليوم، ولولا عمل اليوم، فلن يأتي الغد».

قلت أنا وأجنيس في صوت واحد: «وماذا عن إيميلي؟».

قال: «أما إيميلي يا سيدتي -إنني قد سمعت صلاتها في جوف الليل، تدعو خلف حائل جانبي صنعناه من الخيش بعد أن استقر المقام بنا في الغابة، وقد انتبهت لاسمكِ تذكره في صلاتها- ما إن افتقدنا أنا وهي رؤية السيد ديفي، في ذاك الغروب المشتعل، حتى صارت بائسة في البداية، ولو أنها عرفت حينها ما حجبه عنها السيد ديفي، لكان هذا في رأيي كفيلًا بأن ينهي حياتها. ظهر على متن السفينة بعض الفقراء ممن يعانون من الأمراض، فاعتنت بهم، وكذلك قامت على رعاية الأطفال الموجودين معنا. هكذا ظلت إيميلي مشغولة، تقوم بأعمال الخير وقد ساعدها هذا الانشغال في تجاوز حالتها».

سألته: «ومتى علمت بالأمر أول مرة؟».

قال السيد بيجوتي: «لقد أخفيت الخبر عنها بعدما سمعته طوال عام تقريبًا، وكنا نعيش آنذاك في مكان منعزل، بين أجمل الأشجار، وكانت الورود تغطي بيتنا حتى السطح. وكنت ذات يوم أعمل في الأرض، وما إن عدت حتى علمت أن رجلًا مسافرًا من نورفولك أو سوفولك في إنجلترا (لا أهتم بالاسم) جاء إلينا، وبالطبع استقبلناه وقدمنا له الطعام والشراب ورحبنا به -جميع من في هذه المستعمرة يفعل الشيء نفسه- كانت معه صحيفة قديمة، وبعض التقارير الأخرى المطبوعة عن العاصفة. وهكذا عرفت بالأمر. ما إن عدت إلى المنزل ليلًا، حتى وجدت أنها عرفته».

أخفض صوته وهو يقول هذه الكلمات، وأتذكر جيدًا الوقار الذي ارتسم على وجهه حينها. سألناه: «وهل غيَّرها هذا الخبر كثيرًا؟».

أومأ برأسه ثم أجاب قائلًا: «نعم، غيرها للأفضل على مدار فترة طويلة، إذا لم يكن الأمر قد امتد حتى الآن. أعتقد أن العزلة أسدت إليها خيرًا. لقد شغلت ذهنها بتربية الدواجن ورعايتها».

استغرق في التفكير ساهمًا ثم قال: «أتساءل الآن ما إذا كنت تستطيع التعرف على إيميلي يا سيد ديفي إذا تسنى لك أن تراها الآن».

سألته: «هل تغيرت كثيرًا؟».

قال السيد بيجوتي، وهو ينظر إلى النار ساهمًا: «لا أعرف. إنني أراها كل يوم فلا أعرف. لكنها بدت غريبة في بعض الأوقات الغريبة، هزيلة الهيئة، ذات عينين زرقاوين حزينتين وناعستين. صار وجهها نحيفًا ورأسها منحنيًا يميل قليلًا إلى أسفل، أما صوتها فهادئ في غاية الخجل. وهذه هي إيميلي».

راقبناه في صمت وهو جالس مستغرق النظر إلى النار.

قال: «يحسب بعض الناس أن حبها كان لرجل شرير، ويقول آخرون إن الموت هو ما حال دون زواجها، ولا أحد يعرف الحقيقة. لعلها كانت تستطيع أن تتزوج وقد أتيحت لها فرصًا للزواج عدة مرات، لكنها كانت تقول لي: «يا عمي، لقد انقضى هذا الأمر إلى الأبد». إنها مرحة معي، منزوية أمام الآخرين، وهي مغرمة بقطع أي مسافة في سبيل تعليم طفل، أو رعاية إنسان مريض، أو تقديم أي مساعدة قبل زفاف أي فتاة - وقد فعلت الكثير، لكنها لم تحضر حفل زفاف من قبل - إنها لمحبة لعمها باعتزاز، وصبورة يحبها الصغار والكبار، يهرع إليها كل من يواجه أي مشكلة. هذه هي إيميلي».

وضع يده على وجهه، ونظر إلى النار وهو يحاول منع نفسه من التنهد.

سألته: «هل لم تزل مارثا معكم؟».

أجاب: «إن مارثا قد تزوجت يا سيد ديفي في السنة الثانية من مقابلتها. تزوجت من شاب عامل في مزرعة، كان يمر علينا في طريقه إلى السوق حاملًا محصوله، في رحلة تزيد على خمسمائة ميل ذهابًا وإيابًا، وقد أراد أن يتزوجها، والزوجات قليلات في تلك المناطق، ومن ثَم يقيمان في الغابة. طلبت مني أن أخبره بقصتها المثيرة، وقد فعلت. لقد تزوجا، وإنهما يعيشان على بعد مئات الأميال، بعيدًا عن أي أصوات عدا صوتيهما وزقزقة الطيور المغردة».

قلت: «وكيف حال السيدة جامدج؟».

كان سؤالي مثل ملامسة وتر ممتع، فقد انفجر السيد بيجوتي فجأة في هدير من الضحك، وأخذ يرفع يديه لأعلى ثم يضرب بهما على ساقيه، كما اعتاد أن يفعل حين يستمتع بشيء في ذاك القارب الغارق منذ فترة طويلة.

قال: «هل ستصدق ما أقول؟! لقد عرض رجل الزواج منها، إذ إن طاهيًا على إحدى السفن جاء يا سيد ديفي ليستوطن هناك، وقد عرض الزواج من السيدة جامدج، ولا أستطيع أن أقول ما هو أكثر صدقًا من ذلك».

لم أرَ أجنيس تضحك يومًا مثلما ضحكت ساعتها، لقد كانت هذه النشوة المفاجئة من السيد بيجوتي مبهجة أشد ما يكون من بهجة لها، حتى إنها لم تستطع الامتناع عن الضحك المتواصل، بل حثتني ضحكاتها على مواصلة الضحك أيضًا، وزادت نشوة السيد بيجوتي، وزادت ضرباته لساقيه.

سألته حين تمالكت نفسي: «وماذا قالت السيدة جامدج؟».

رد السيد بيجوتي: «هلا تصدقني لو أنني قلت لك إن السيدة جامدج، بدلًا من أن تقول له «شكرًا لك، إنني ممتنة لك للغاية، لكنني لن أغير معيشتي في مثل هذا العمر». لقد رفعت دلوًا مليئًا بالماء كان قريبًا منها، وكبته فوق رأس طاهي السفينة حتى استغاث، فأتيت إليه وساعدته».

انفجر السيد بيجوتي في ضجيج من الضحك، واشتركت أنا وأجنيس معه.

مسح السيد بيجوتي وجهه بعد أن أنهكنا الضحك تمامًا، ثم قال: «لكن يجب أن أقول شيئًا من أجل هذه المرأة الطيبة الصالحة، لقد أوفت بكل ما قالته وأكثر. إنها المرأة الأكثر حرصًا على راحتنا، والأصدق في المساعدة يا سيد ديفي، كما أنني لم أشهدها يائسة من وحدتها ولو لدقيقة واحدة، حتى حين نزلنا إلى المستعمرة في البداية. أما التفكير في «الراحل» فإنه شيء وأؤكد لك حقًّا أنها لم تفعله منذ أن غادرت إنجلترا».

قلت: «أما الآن، أخيرًا وليس آخرًا، كيف حال السيد ميكوبر؟ لقد سدد كل ما تكبده هنا -وسدد دينه لترادلز، كما تتذكرين يا عزيزتي أجنيس- وبالتالي نحسبه في حال طيبة. ولكن ما هي آخر أخباره؟».

وضع السيد بيجوتي يده في جيب صدره، وابتسم ثم أخرج رزمة مطوية من الورق، فأخرج منها بعناية شديدة، ورقة صغيرة ذات مظهر غريب.

قال: «اعلم يا سيد ديفي أننا تركنا الغابة الآن، بعد أن تيسرت لنا السبل للقيام بذلك، وذهبنا على الفور إلى ميناء ميدلباي، حيث ما نسميه المدينة».

قلت: «وهل كان السيد ميكوبر يعيش في الغابة بالقرب منك؟».

قال السيد بيجوتي: «بارك الله فيك، نعم، وقد عمل بقوة إرادة منه، ولا أحسب أنني سأقابل من هو أشد منه إرادة. لقد رأيت رأسه الأصلع يتصبب عرقًا تحت أشعة الشمس يا سيد ديفي، حتى ظننت أنه سيذوب. لقد صار الآن قاضيًا صالحًا».

قلت: «ماذا؟ أتقول قاضيًا؟!».

أشار السيد بيجوتي إلى فقرة معينة في الصحيفة، حيث قرأت بصوت عالٍ ما يلي، من صحيفة «بورت مدلباي تايمز»:

«أقيمت أمس مأدبة العشاء العامة على شرف زميلنا في المستعمرة ورجل المدينة الموقر السيد «ويلكنز ميكوبر» قاضي مقاطعة بورت ميدلباي، حيث حضر أمس في القاعة الكبيرة بالفندق، والتي ازدحمت

بالمدعوين. تشير التقديرات إلى أن ما لا يقل عن سبعة وأربعين شخصًا أقدموا على تناول العشاء في وقت واحد، هذا بالإضافة إلى عدد من الواقفين في الممر أو على درجات السلم. جمع الحفل بين الجمال والأزياء الخاصة بميناء ميدلباي. أقيم الاحتفال لتكريم رحل محترم موهوب عن جدارة، يتمتع بشعبية واسعة النطاق. ترأس الدكتور ميل (من مدرسة سالم هاوس الابتدائية في بورت ميدلباي) وجلس عن يمينه الضيف المميز. وبعد إزالة الستار، أنشد المغنون «لَيْسَ لَنَا»[١] (بألحان مميزة ونغمات رنانة وصوت رخيم من المغني الموهوب السيد ويلكنز ميكوبر الصغير وفرقته). قدم المشروب الوطني التقليدي وسط استقبال بهيج، ثم اقترح الدكتور ميل في خطاب مفعم بالمشاعر شرب نخب «ضيفنا المميز زخر مدينتنا، الذي آمل ألا يتركنا إلا لما هو خير له، ولعل نجاحه بيننا يجعل تولي مثل هذه المناصب لغيره أمرًا مستحيلًا»، كان الهتاف الذي سبق هذا النخب عصيًّا على الوصف، وقد راحت الكؤوس تعلو وتهبط مرات مثل أمواج المحيط. ساد الصمت أخيرًا، وتقدم السيد المحترم ويلكنز ميكوبر ليشكر القائمين على الاحتفال. وإننا نعجز هنا عن سرد ما قاله مواطننا المبجل في خطابه المتدفق والسلس مصقول العبارات. ويكفي أن نشير إلى أن خطابه كان تحفة بلاغية، وأن تلك المقاطع التي تتبع فيها مسيرته المهنية الناجحة قد حدد فيها أسباب تقدمه، وحذر الشباب من

---

(١) عنوان افتتاحي وتقليدي لترنيمة لاتينية قصيرة تُستخدم كصلاة شكر وتعبير عن التواضع، مستمدة من المزمور (١١٥ : ١).

الانغماس في مياه ضحلة وتكبد التزامات مالية لا يقدرون على الوفاء بها. وقد جلب هذا الخطاب دموعًا في عين أكثر الحاضرين رجولة وصلابة، كما طلب شرب نخب الدكتور ميل، ونخب السيدة ميكوبر (التي انحنى رأسها برشاقة امتنانًا، بينما هي واقفة عند الباب الجانبي، فنهضت الفتيات الجميلات من مقاعدهن في الحال للنظر إلى هذا المشهد البديع وقد تزين بالجمال) كما شرب نخب السيدة ريدجر بجز (الآنسة ميكوبر سابقًا)، ونخب السيدة ميل والسيد ويلكنز ميكوبر الصغير (الذي اهتزت له الجمعية تصفيقًا بعد إدلائه بملاحظة فكاهية وقد وجد نفسه غير قادر على رد الشكر في خطاب، لكنه سيقدم شكره في أغنية)، كذلك شرب نخب عائلة السيدة ميكوبر (العائلة معروفة، وغني عن التعريف بها في بلدنا الأم)... وفي ختام الجلسات، رفعت الموائد كما لو أن الأمر سحر يمهد لفن الرقص، ومن بين متقني الرقص، ممن اندمجت أرواحهم حتى النهاية، كان السيد المحترم ويلكنز ميكوبر الصغير، والآنسة الجميلة هيلينا، الابنة الرابعة للدكتور ميل، وقد كانا رائعين مميزين».

كنت أنظر إلى اسم دكتور ميل، فأسعد بتذكره في هذه الظروف المرحة، إنه السيد ميل، المعلم الفقير سابقًا، الذي صار قاضيًا في مدلسكس، وقد أشار السيد بيجوتي إلى جزء آخر من الصحيفة، فاستقرت عيناي على اسمي، وقرأت التالي:

«إلى السيد المبجل ديفيد كوبرفيلد،

المؤلف المرموق،

سيدي العزيز،

مرت سنوات منذ أن أتيحت لي الفرصة لإلقاء نظرة متأملة على اللمحات المعروفة الآن لجزء كبير من مثقفي العالم المتحضر.

لكني يا سيدي العزيز، وعلى الرغم من اغترابي -بسبب ظروف قاهرة خارجة عن إرادتي- وابتعادي عن مقابلة صديقي ورفيق شبابي، فإنني حرصت كل الحرص على متابعة رحلته المحلقة في سماء الشهرة. «وعلى الرغم من أن البحار بيننا تجديف هكتار»[١] (برنز) وقد حالت بيننا والمشاركة في الاحتفاء الفكري بما نشرها أمامنا.

لذلك فإنني لا أسمح لنفسي يا سيدي العزيز بترك هذا الموضع حيث الحديث عن رجل نحترمه ونبجله من دون أن أغتنم الفرصة لشكرك بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن سكان بورت ميدلباي بكامله، والذي قدمت له كل ما يرضيه.

هيا تقدم يا سيدي العزيز، فإنك لست مجهولًا هنا، بل محل تقدير وتبجيل. وعلى الرغم من أننا «بعيدون»، فإننا لسنا «بكارهين» أو «تعساء» أو (قد أضيف) «متخاذلين». هيا سيدي العزيز، فلتحلق في مسارك كالنسر، فإن سكان بورت ميدلباي على الأقل يتطلعون إلى رؤيتك محلقًا فرحًا.

---

(١) من نشيد الوداع للشاعر الاسكتلندي روبرت برنز.

ومن بين الأعين المتطلعة نحوك في هذا الجزء من الكرة الأرضية، ستجد عينًا بما بها من نور وحياة تتطلع نحوك؛

إنها عين

ويلكنز ميكوبر

القاضي».

ألقيت نظرة خاطفة على ما تبقى من محتويات الصحيفة، فاكتشفت أن السيد ميكوبر كان مراسلًا مجتهدًا وله مكانة عالية في هذه المجلة، حيث وجدت رسالة أخرى منه في الورقة نفسها حول إنشاء جسر، وإعلان عن مجموعة من الرسائل المماثلة، مما سيتم إعادة نشرها قريبًا في مجلد أنيق، «مع إضافات كثيرة»، وما لم أكن مخطئًا، فإن المادة الرئيسية لرسائله، كانت خاصة به أيضًا.

تحدثنا كثيرًا عن السيد ميكوبر في أمسيات عديدة أخرى طوال فترة بقاء السيد بيجوتي معنا. لقد عاش معنا طوال فترة وجوده هنا -والتي أعتقد أنها كانت أقل من شهر- ثم جاءت أخته وعمتي إلى لندن لرؤيته. ودعناه أنا وأجنيس على متن السفينة عندما أبحر؛ ولن نودعه على الأرض مرة أخرى.

لكنه قبل أن يغادر، ذهب معي إلى يارموث، ليرى لوحًا صغيرًا كنت قد وضعته في باحة الكنيسة تخليدًا لذكرى هام، وبينما كنت أنسخ له ما كتب على النقش البسيط بناءً على طلبه، رأيته ينحني ويجمع فتيلًا من العشب وقليلًا من تراب هذا القبر.

قال وهو يضع ما جمعه في جيب صدريته: «إنه من أجل إيميلي، لقد وعدتها بذلك يا سيد ديفي».





الفصل الرابع والستون

مراجعة أخيرة

تنتهي الآن قصتي المكتوبة. أنظر إلى الماضي مجددًا -للمرة الأخيرة- قبل أن أطوي هذه الصفحات. أنظر إلى نفسي، وأرى أجنيس إلى جانبي، نمضي قدمًا في طريق الحياة، وأرى أبناءنا وأصدقاءنا يحيطون بنا، وأسمع صخب أصوات عديدة لا يمكنني تجاهلها في رحلتي وطريقي. أي وجوه وسط هذا الحشد العابر تلوح أكثر جلاء لعيني؟ عجبًا! لقد التفتت الأوجه جميعها نحوي بينما أطرح هذا السؤال على نفسي.

ها هي عمتي ترتدي نظارتها الغليظة، تبدو عجوزًا في الثمانين من عمرها أو أكثر، لكنها لا تزال منتصبة القامة، قادرة على قطع ستة أميال بخطوات ثابتة في برد الشتاء.

يرافقها دومًا وجه بيجوتي؛ مربيتي العجوز الطيبة، ترتدي هي الأخرى نظارتها، وقد اعتادت على الحياكة في المساء، فتجلس بالقرب من المصباح، لكنها لا تجلس للعمل أبدًا من دون قطعة من

الشمع ومازورة قياس في حافظتها الصغيرة وصندوق أدوات الحياكة الذي تغطي غطاءه صورة كنيسة القديس بولس. تبدو وجنتا وذراعا بيجوتي، بارزة العظام مجعدة البشرة، بينما كانت تلوح لي مشدودة حمراء في أيام طفولتي، وكنت أعجب حينها كيف لا تنقرها الطيور وتفضلها عن التفاح، أما الآن فقد صارت ذابلة. أما العينان اللتان اعتادتا أن تلقيا بظلالهما على ملامح وجهها، فقد صارتا الآن أضعف بصرًا، وإن ظلتا تتألقان بريقًا. أبقت سبابتها الخشنة التي تشبه مبشرة جوزة الطيب على حالها، وعندما أرى طفلتي الصغيرة تلتقطها وهي تسير مترنحة من عمتي إليها، أتذكر غرفة جلوسنا الصغيرة في بيتنا القديم حينما كنت أحاول السير بخطواتي الأولى. ها قد انقشع استياء عمتي القديم، فقد صارت جدة حقيقية لبيتسي تروتوود، وتقول دورا -الابنة الثانية بين أطفالي- إنها تفسدها بتدليلها لها.

يظهر شيء ضخم في جيب بيجوتي، وهو لا يبدو أقل حجمًا من كتاب التماسيح، وقد صارت حالته الآن متداعية، وتمزق الكثير من أوراقه وبلت خيوطه، لكن بيجوتي لا تزال تعرضه على الأطفال كما لو أنه من الآثار الثمينة. ويا للعجب إذ أجد وجه طفولتي مطلًّا متطلعًا إليَّ من بين قصص التماسيح، يُذكرني بصديقي القديم بروكس أوف شيفيلد.

أرى في العطلة الصيفة رجلًا عجوزًا وسط أطفالي يصنع طائرات ورقية عملاقة، ويحدق فيها محلقة في الهواء، بفرحة تعجز الكلمات عن وصفها. يحييني بحماسة بالغة، ويهمس لي بعد إيماءات وغمزات

عديدة فيقول: «يا تروتوود، ستسعد عندما تعرف أني سأنهي كتابة المذكرات حين لا أجد شيئًا آخر لأفعله، وأن عمتك هي أكثر النساء روعة في العالم يا سيدي».

مَن هذه السيدة مقوسة الظهر التي تستند إلى عصا، وتُظهر لي وجهًا لا يزال يحتفظ ببقايا كبرياء وجمال قديمين، يحاولان بضعف أن يواجها شرود ذهن وشيئًا من النكد والغضب؟ إني أراها في الحديقة، تقف بالقرب منها امرأة حادة الملامح سمراء هزيلة الجيد بندبة بيضاء. اسمحوا لي أن أنصت إلى حديثهما:

«روزا، لقد نسيت اسم هذا السيد».

تنحني روزا نحوها وتقول لها: «السيد كوبرفيلد».

«إنني سعيدة برؤيتك يا سيدي. يؤسفني أن أراك في ثوب الحداد. أرجو أن تصير بحال أفضل بمرور الوقت».

وبَّختها مرافقتها بضجر، قائلة لها إنني لست في ثوب حداد، وحثتها على النظر لي مجددًا، محاولة تنبيهها.

تقول السيدة العجوز: «لقد رأيتَ ابني يا سيدي، هل تصالحت معه؟».

نظرت إليَّ بثبات، ثم وضعت يدها على جبهتها، وتأوهت. أجدها تبكي فجأة بصوت مريع صائحة: «يا روزا، تعالي إليَّ، لقد مات». تنحني روزا عند قدميها، فتلاطفها ثم تتشاجر معها، ثم تصيح بحدة قائلة: «لقد أحببته أكثر مما أحببته أنتِ». ثم تلاطفها من جديد حتى

تنام على صدرها كطفل مريض. هكذا أتركهما، وهكذا أجدهما دائمًا، وهكذا تقضيان وقتهما بعيدًا عامًا بعد عام.

أي سفينة تبحر قادمة من الهند، وأي سيدة إنجليزية قادمة على متنها وقد تزوجت من اسكتلندي عجوز ترفرف أذناه المتدليتان؟ أيمكن أن تكون هذه السيدة هي جوليا ميلز؟

إنها جوليا ميلز بالفعل، بشموخها وروعتها، بصحبة رجل أسمر يحمل إليها بطاقات ورسائل على صينية من الذهب، وامرأة ببشرة نحاسية ترتدي ثوبًا كتانيًّا ووشاحًا مشرق اللون حول رأسها؛ تقدم إليها الغداء في حجرة ارتداء الثياب. إلا أن جوليا لا تدون يومياتها في هذه الآونة، ولا تغني للغرام أبدًا، وتتشاجر دائمًا مع الاسكتلندي العجوز كرويسيوس الذي يبدو كدب أصفر ذي فراء مصبوغ. صارت جوليا غارقة في المال حتى أذنيها، فلا تفكر في شيء سواه. أما أنا فكنت أحبها أكثر في أيام الصحراء الكبرى.

لعل هذه هي الصحراء الكبرى! إن جوليا تملك منزلًا فخمًا ومعارف من علية القوم وتحظى بمآدب عشاء فاخرة كل يوم، إلا أنني لا أرى نباتًا يانعًا ينمو بالقرب منها، ولا أرى شيئًا قد يثمر أو يزهر. أما ما تصفه جوليا بأنه «مجتمع» ومن بينهم السيد جاك مولدن قادمًا من مقر براءة الاختراعات، ساخرًا من اليد التي منحته إياها، متحدثًا عن الدكتور باعتباره «تحفة ساحرة من الزمن الغابر». ولكن عندما يكون المجتمع هو الاسم الذي يُطلق على مثل هذه الصحبة التافهة من السادة والسيدات يا جوليا، وعندما يعلن عن لا مبالاته المزعومة تجاه كل

شيء من شأنه أن يفضي بالبشرية إلى التقدم أو يؤخرها عن التخلف، فإنني أتصور أننا نكون قد أضعنا أنفسنا في الصحراء الكبرى، ويجدر بنا حينها أن نجد سبيلًا للخروج.

ها هو الدكتور، لم يزل صديقنا الطيب دائمًا، ولا يزال يعمل في قاموسه -اقترب فيه من حرف الدال- وهو سعيد في منزله مع زوجته. كما أرى أيضًا الجندي العجوز قد قل شأنها إلى حد كبير، ولم تعد مؤثرة بأي حال من الأحوال على عكس ما كانته في الأيام الخوالي.

ألتقي في وقت لاحق بصديقي العجوز ترادلز، وهو منهمك في العمل في منزله، وشعره -أو ما تبقى من شعره في أرجاء صلعته- قد لاح أكثر هوجائية من قبل نتيجة احتكاكه الدائم بضفائر الشعر المستعار للمحامين. أما طاولته فمغطاة بأكوام مكدسة من الورق، فأقول عندما أنظر حولي: «لو كانت صوفي موظفة تنسخ لك الآن يا ترادلز، لوجدت الكثير من العمل لتقوم به».

يجيب قائلًا: «عندك حق فيما تقول يا عزيزي كوبرفيلد. لكن ألم تكن تلك الأيام التي عشناها في هلبورن كورت عظيمة؟».

«حين قالت لك إنك ستصير قاضيًا؟ ولكن لم يكن ذلك هو حديث البلدة حينها».

يقول ترادلز: «على أي حال، إذا كتب لي أن أكون يومًا قاضيًا...».

«عجبًا، إنك تعرف أنك ستصير يومًا واحدًا منهم».

«حسنًا يا عزيزي كوبرفيلد، عندما أصير واحدًا منهم سأخبرهم بالقصص التي وعدتك بأن أحكيها».

نمضي بعيدًا، متشابكي الأذرع. أمضي لتناول عشاءً أسريًّا مع ترادلز، احتفالًا بعيد ميلاد صوفي، وفي طريقنا يحدثني ترادلز عن الحظ الجيد الذي تمتع به.

يقول ترادلز: «لقد استطعت فعلًا يا عزيزي كوبرفيلد أن أحقق كل ما أردته من كل قلبي. ها قد ترقَّى القس المبجل هوراس حتى صار يتحصل على أربعمائة وخمسين جنيهًا سنويًّا، وها هما ولدانا الكبيران يتلقيان أفضل تعليم، يمتازان بالإقدام على طلب العلم ويتمتعان بطيب الخلق، كما تزوجت ثلاثة بنات فإذا بهن ينعمن بزواج سعيد، وثمة ثلاث بنات أخريات يعشن معنا، وثلاثة أيضًا يتولين شؤون المنزل من أجل المبجل هوراس منذ قضت السيدة كرولر نحبها، وجميعهن سعيدات».

قلت متوقعًا: «عدا؟».

يقول ترادلز: «عدا الجميلة. كان من سوء حظها الشديد أن تزوجت أفَّاقًا. كان محاطًا بهالة من البريق الزائف الذي تميز به وهو ما جذبها إليه. لكنها تعيش الآن آمنة في منزلنا، وقد تخلصت منه، وعلينا أن نبعث في قلبها البهجة مجددًا».

كان منزل ترادلز أحد المنازل التي اعتاد هو وصوفي المرور بها في نزهاتهما المسائية، وقد تمنيا المقام فيه. إنه منزل كبير، لكن ترادلز

يُبقي أوراقه في حجرة الثياب، ويُبقي حذاءه بصحبة أوراقه، بينما يحشر نفسه هو وصوفي في الغرف العلوية، ويحفظ الغرف الأفضل للجميلة والبنات. ليس في المنزل غرف يمكن الاستغناء عنها، لأن البنات يتوافدن إلى هنا دائمًا بمقتضى صدفة ما أو لأسباب ما لا يمكنني تعدادها. ما إن ندخل هذا المنزل حتى نجد حشدًا منهن يهرعن إلى الباب، ويستأذن ترادلز كي يسمح لهن بأن يُقبلنه، وينخرطن في تقبيله حتى تنقطع أنفاسه. تقيم الجميلة المسكينة هنا في هذا المنزل، وقد صارت أرملة لها ابنة صغيرة. وهنا على مائدة العشاء في عيد ميلاد صوفي توجد الفتيات الثلاث المتزوجات بصحبة أزواجهن، بالإضافة إلى شقيق أحد الأزواج وابن عم آخر وشقيقة ثالث، وهي تبدو لي أنها على وشك أن تتم خطبتها لابن عم الزوج الثاني. لا يزال ترادلز كعادته الرجل البسيط ذاته، صادقًا على فطرته كما كان دائمًا، يجلس على رأس الطاولة الكبيرة كالقائد، تتألق نحوه عينا صوفي من الطرف الآخر للمائدة، فتضفيان عليه بريقًا مبهجًا، لكنه لا يضاهي بالتأكيد بريق معدن بريطانيا.

والآن عندما أنتهي من مهمتي، وقد نجحت في كبح جماح رغبتي في الاستزادة، تتلاشى هذه الوجوه من حولي. لكن وجهًا واحدًا يشرق مطلًّا عليَّ كنور سماوي أرى من خلاله كل شيء آخر، وهو أعلى وأسمى مما سواه، وهو الباقي.

ألتفت إليه فأراه، إنه الصفاء الجميل الموجود بجانبي.

يخفت ضوء مصباحي، وقد استغرقت في الكتابة طوال الليل، ولكن الحضور اللطيف الذي أنا من دونه لا شيء يؤنسني.

آه يا أجنيس، آه يا روحي. عسى أن يظل وجهكِ بجانبي عندما يحين أجلي، وعسى أن تظلي بجانبي حين تنسل مني الحقائق كالظلال التي أصرفها الآن عني، فأجدكِ بالقرب مني، مشيرة إلى أعلى.







تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

يصعب عليّ الابتعاد عن هذا الكتاب أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغًا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم؛ حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طيلة عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافا هو علي هين مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

تشارلز ديكنز


ISBN 978-977-765-332-9

